## مكتبة الذراسات الأدبية

الدكتوريوسفت خليف

# الشعل والصعاليك في العصل العالمي العصل العالمي العصل العالمي ا



### الفهرس

مفحة								
4	_	٧					•	مقدمة الطبعة الثانية
								مقدمة الطبعة الأولى
14	_	,,	•	•	•	•	•	الباب الأول: الصعاليك
								الفصل الأول : التعريف بالصعلكة
11	~	4.1	•		•	•		
*1			,	-	•	•	•	ا أن اللغة
Yź			•	•	•	•	•	٢ في الاستعمال الأدبي
47			•	•	•			٣ - قى الحجتهم الجاهلي
٨٨	~	77	•	-				الفصل الثانى : التفسير الجغرافي لظاه
٦٣								<ul> <li>أهمية العامل المغراق</li> </ul>
34					-	•	•	٣ جزيرة العرب
٧٢						٤.	صعاليا	٣ ~ التضاد الجغرافي وأثره في نشأة حركة اله
VV				•		ليك	ن الصما	٤ - التضاد الجغراق وأثره في توجيه حركات
171	~	٨٩		•	کة	الصعلا	ظاهرة	الفصل الثالث: التفسير الاجتماعي لف
<b>A 5</b>			•			•		۱ - القبيلة
93					•		•	٢ - إيمان العبيله بورحلها
1-4								المعتج طويها بالحيا - 4
113						•	•	<ul> <li>الصماليك والمجتمع القبل.</li> </ul>
101	-	334			كة	الصعا	ظاهرة	الفصل الرابع : التفسير الاقتصادى له
1 7 7							•	<ul> <li>١ العرب والتجارة</li> </ul>
110							•	٣ الطرق التجارية
114				•	•	•	•	٣ الأسواق
176				•				<ul> <li>الصراع الاقتصادي في المدن التجارية</li> </ul>
ነዋል				•				<ul> <li>ه – الصراع الاقتصادي في البادية</li> </ul>
								الباب الثانى : شعر الصعاليك
141	_	105					•	الفصل الأول : ديوان الصعاليك
105				•				۱ مصادره ۲ ۲ مادته
111			•		•			۲ مادته
Yok	_	144				•,	اليك	الفصل الثانى : موضوعات شعر الصعا

/aY	•	•	٠	Litar	مال		الحجموعة الإسلامية في شعرهم بالذيب المثال في مالمن تـ
rs4 - 404			ے	سعاليا	مر الد	فی ش	الفصل الثالث : الظواهر الفنية
Y 0 1					•	-	۱ - شعر مقطوءات
Y74	•	-	•	-	•	-	<ul> <li>٢ الوحدة الموضوعية .</li> </ul>
<b>የ</b> ገለ	-	•	•	-	•	•	٣ ~ التخلص من المقدمات الطللية
TYE	٠		-		•	•	۽ – عدم الحرمن علي التصريع
**1	•		•	•	•		<ul> <li>ه – التحلل عن الشخصية القبلية</li> </ul>
<b>X Y Y</b>	•	•	-	4	-		٢ – القصمبية
7.47	•	-		-	-		٧ – الواقعية
141	•	•	٠	•	•		٨ السرعة الفشية
Y• Y	-		•			-	<ul> <li>٩ — آثار من الصنعة المتأنية</li> </ul>
<b>*1</b> *		•			•		<ul> <li>١٠ - ألحسائص المنوية</li> </ul>
717							١١ ~ ظواهرعروضية
<b>TTA - TT</b>	-					بزتان	الفصل الرابع: شخصيتان متمي
***	-	•	•		-	•	۱ – تشأبه وتميز
***			•		-		٢ مروة بن ألورد
**.							۳ – الشنفري
T11 - TT9			-				الحائمة
To Tto			•		•		المصادر والمراجع
		1544	721	•			رقم الإيداع
	-	ISBN	444	Y1'	V +	1 1	الترقيم الدول ا
	<u>'</u>		<del></del>		=/		

الشعل والصعاليك في العصر الجاهلي

# مكتبة الذراسات الأدبية

# الشعل والصعاليك في العصل المالي في العصل المالي العلى العصل العلى العلى

تأليف المحكوريوسُف خليف الأستاذ المساعد في كلية الآداب بجاسة القاهرة

الطبعة الثالثة



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ( ج.م.ع )

إلى ذكرى والدى ، رحمهما الله ، اللذين تعهدانى بالتنشئة والتوجيه حتى وصلت إلى ما كنت أصبو إليه ، أتقدم بهذه الثمرة الأولى من غرسهما .

## 

#### مقدمة الطبعة الثانية

لا تكاد هذه الطبعة الجديدة تختلف عن الطبعة السابقة في شيء أساسي ، فلم أد خل عليها إلا تعديلات يسيرة لبعض العبارات ، وإضافات قليلة لبعض الشروح . وعلى الرغم من أن صلتي بموضوع والصعاليك ، لم تنقطع طوال هذه السنين التي مضت على ظهور الكتاب ، فإن النتائج التي كنت قد انتهيت اليها في هذا البحث لم تتغير ، بل لقد زادتني هذه السنون إيمانا واقتناعا بها . حتى المصادر التي أتيع في الاطلاع عليها في هذه السنين ، ولم تكن الفرص قد أتاحت في الاطلاع عليها مين قبل ، لم تُقدداً في جديداً يفيد البحث أو يُغير من نتائجه ،

وقد كنت تمنيّت وأنا أعيد هذا البحث - لو إنيحت لى فرصة الاطلاع على ديوان تأبيّط شراً الذي جمعه ابن جني، والذي يذكر بروكلمان أنه مخطوط في الإسكوريال ثم أتبحت لى في الأيام الأخيرة فرصة الاطلاع على هذا المخطوط ، فلم أجده ديوانيا لتأبط شراً ولا شبه ديوان ، وإنما هو مختارات قليلة اختارها ابن جني من ديوان تأبيط شراً الذي كان موجوداً عنده كما يذكر صاحب الخزانة ، وهي مختارات لم أجد فيها جديدا أضيفه لل البحث ي

على أنَّى أريد هنا أن أؤكَّد — بصفة خاصة — فكرة كشُر الجدل حولها في هذه السنين ، وهي فكرة ، اشتراكية الصعالبك ، التي أدرَّتُ حولها بحثى ، وفسَّرتُ في ضوئها هذه الثورة الاجتماعية والاقتصادية التي شهدها المجتمع الجاهلي ، وخاصة عند عُرُوة بن الوَرَّد الذي تَرَاءَى لي داعية من دعاة

الاشتراكية في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الإنسانية . فقد ذهب بعض الباحثين إلى أنني تعسَّفتُ في تفسير الشعر الجاهلي هذا التفسير الاقتصادي ، وأنني حـَمَّلتُ النصوص والأخبار القديمة ما تتنبُوء به من مصطاحات حديثة ترتبط في أذهان الناس بمفاهيم خاصة لم يعرفها العصر الجاهلي ، ولم تدرُر في خلك هؤلاء الشعراء القدماء .

وأنا لم أزْءُمُ أن ثورة الصعاليك في العصر الجاهلي كانت ثورة اشتراكية قائمة على أساس المذهب الاشتراكيّ كما تعرفه مجتمعاتنا المعاصرة، فميذلُ هذا التفسير يُعدَد بدون شك \_ تعسُّفا لا يتفق مع المنهجية الجامعية ، هَا من شك في أن هناك فروقيًا جوهرية بين الاتجاهين سواء في القلسفة النظرية أو في التطبيق العملي . وإنما الذي ذهبتُ إليه هو أنَّ في شعر الصعاليك وأخبارهم ، وخاصة عُروة بن الوَرد ، أفكاراً تتصل بمشكلة الفقر والغنى في المجتمع الجاهلي ، وتنادى بثورة المُستَّةَ صَعْمَهُ من فقراء هذا المجتمع والمضطَّهَ لدين فيه على طبقة الماكلة من الأغنياء المتخمين وخاصةً البخلاء منهم ، وأن هذه الثورة كانت تستهدف تحقيقَ صورة من صور العدالة الاجتماعية والتوازن الاقتصاديّ في هذا المجتمع . وإذا كانت هذه الأفكار لم تأخذ شكل نظرية علمية دقيقة ، أو شكل فلسفة اقتصادية متكاملة ، وإذا كان التطبيقُ العمليّ لهذه الأفكار سلكتاتَ أسلوبنًا فَرَدينًا أقربَ إلى الفوضوية منه إلى أساليبِ التنفيد العملي المنظم في الاشتراكية الحديثة ، فإن هذا كله لا يمنع من القول بأن هذه الأفكار كانت تنطري على إحساس عميق بمشكلات المجتمع الاقتصادية ، ومحاولة جادَّة لحلها ، وأن هذا \_ بدون شك -- كان يمثل صراعاً بين طبقة الفقراء ممثَّلة " في هؤلاء الصعاليك العاملين ، وطبقة المَالَـة ممثَّلة " في هؤلاء الأغنياء البخلاء ، وهو صراع كان يضُمُّ في أعماقه برَرَاعيم َ لم تتفتُّح تماميًا من النظرية الاشتراكية الحديثة .

وما من شك في أن الصعلكة عند عروة بالذات كانت \_ كما قلت في

هذا البحث – و نزعة "إنسانية ذبيلة ، وضريبة يدفعُها القوى للضعيف ، والغنى للفقير ، وفكرة اشتراكية تُشْرِكُ الفقراء في مال الأغنياء ، وتجعل لم فيه نصيباً ، بل حقيًا يغتصبونه إن لم يُرَوداً لهم ه .

وبعد ، فكل ما أطمع فيه أن أكون قد نجحت في إنصاف هؤلاء الصعاليك ، وو ضعيهم في مكانهم الطبيعي في تاريخنا العربي الحالد ، وأن أكون قد لَهَ أَنظار الباحثين إلى أن في تراثينا القديم جوانب تحتاج إلى إعادة النظر فيها في أضواء جديدة .

والله َ نسألُ أَن يجنبنا الحطأ ، ويتعسمينا من الزَّلَـل .

يوسف خليف

القاهرة في مايو ١٩٦٦

#### مقدمة الطبعة الأولى

١

ليست دراسة العصر الجاهلي بالمسألة اليسيرة الةريبة المنال ، وإنما هي مسألة غامضة ومتشعبة وصعبة .

أما غموضها فيرجع إلى طبيعة العصر نفسه ، فهو عصر يمتد القهقري من ظهور الإسلام إلى حيث لاندرى ، أو هو تلك الفترة الغامضة من فترات التاريخ العربي التي يصح أن نطلق عليها «عصر ما قبل التاريخ العربي » ، على أساس أن التاريخ العربي في صورته الدقيقة الثابتة إنما يبدأ منذ ظهور الإسلام الذي جعل من العرب أمة واحدة ذات كيان متميز متماسك ، تسلك سبيلها في التاريخ ، سبيلا واضحة المعالم . فهو عصر أكثر فتراته ضائعة مجهولة ، وأقلها مشكوك فيها ، وحسبنا أن نقول إننا لا نكاد نعرف عنه شيئاً منذ بدايته إلى ما قبل ظهور الإسلام بحوالي قرن ونصف قرن ، وإنما هي طائفة من الأساطير والأقاصيص ، إن تكن ذات قيمة لطائفة من العلماء فإنها عديمة القيمة تقريباً للباحثين في الأدب العربي . وحين تبدأ معلومات هذا العصر تصل إلينا يقف دون وضوحها أو الاطمئنان إليها أمران : فهي ــ من ناحية ــ تتحدث عن مجتمع بدوي بَعُدُ العهد به ، وهي ـ من ناحية أخرى ـ معلومات لم تدوَّن إلا في عصور متأخرة ، وظلت شفاه الرواة تتناقلها حتى دونت ، بعد أن دخلها – بطبيعة الحال – شيء قليل أو كثير من التحريف والضياع والانتحال . ومن هنا نشأت فكرة الشك فيما وصل إلينا من أخبارٍ ونصوص عن هذا العصر . ومن هنا أيضاً وُجدت فكرة الغموض : غموض العصر الذي لا نستطيع تمثله التمثل الدقيق الواضح ، وغموض المعلومات التي لا نستطيع الاطمئنان إليها اطمئناناً تامياً . وهي مسأنة متشعبة، لأنها تتصل بمجتمع رَعَ وي في مجموعه – لم يعرف الاستقرار . ومن هنا لم تَعْرف ظواهره الاجتماعية الاستقرار الذي ييسر على الباحث دراسها دراسة دقيقة كاملة . ثم هو - إلى جانب هذا – مجتمع يدين بالحرية الفردية إلى أبعد حد ، لم يعرف - إلا في بعض أجزائه – النظام السياسي الذي يهي الباحث تحديد جوانب دراسته ، لأنه يقف أمام طائفة من الظواهر الفردية تتعدد بتعدد الأفراد أو الجماعات التي هي في حكم الأفراد ، فلم تكن الخرية المحماعات التي هي في حكم الأفراد ، فلم تكن الخرية المردية ، وإن تكن حرية حاول أصحابها – تحقيقاً لصورة ما من صور الجماعة أن يلونوها بلون جهماعي .

ثم هي مسألة ــ بعد هذا وذاك ــ صعبة ، لأنها غامضة ومتشعبة .

ولكنى مع ذلك ـــولا أدرى لماذا ؟ ــ مفتون بهذا العصر الجاهلى فتنة ترجع إلى عهد بعيد ، وكل ما أتمناه أن تتحول هذه الفتنة إلى إيجابية فعالة تُحَطَّمُ من هذه الصخرة العاتية ، صبخرة هذا العصر .

۲

من هذه الزاوية من زوايا النظر لم أحاول — حين فكرت فى دراسة العصر الجاهلى — أن أقف منه موقفاً عامنًا شاملا، أو أن أنظر إليه من عكل نظرة مشرفة واسعة الأفق ، وإنما حاولت أن أتخبر — خطوة أولى لدراسته — جانباً من جوانبه أقف عنده وقفة عميقة ، وأنظر إليه نظرة ممعنة فاحصة ، حتى لا تضل دراستى بين شعاب الصحراء الفسيحة المترامية الممتدة إلى ما وراء مطارح البصر .

وشغلتنى مهمة الاختيار هذه فترة من الزمن ، كنت فى أثنائها أستعرض الجوانب المتعددة لهذا العصر ، وكلها يستحق الدرس والبحث . ثم قفز إلى ذهنى موضوع ه الصعاليك » ، وأخذت أسهمه فى الصعود . قفز هذا الموضوع إلى ذهنى لأنه موضوع لم يُعنَّنَ به الباحثون من قبل ، ولم يقفوا عنده ، ولم يشغلوا أنفسهم به ، وأخذت أسهمه فى الصعود لما كنت أشعر به من أهيته ، وطرافته ، وتحديده ، وتمثيله ظاهرة متميزة من ظواهر العصر الجاهلي .

ويقف موضوع الصعاليك في تاريخ الأدب العربي كتلك المراقب الشمّم الشاعة التي أطال في الحديث عنها شعراؤهم ، والتي لم يكن أحد غيرهم يستطيع أو حتى يجرؤ على الصعود إليها ، يحوم حوله الباحثون ثم يتجنبون المغامرة باقتحامه ، أو ينظرون إليه نظرة خاطفة دون إقدام على الاقتراب منه ، مع اعترافهم بأنه موضوع في حاجة إلى البحث والدرس ، كأنه منطقة خطرة من تلك المناطق التي كان الصعاليك عارسون فيها نشاطهم الدامي الرهيب ، وكأنما كتب على هؤلاء الصعاليك الذين لم يلقوا من مجتمعهم عناية أو اههاما في حياتهم أن تظل اللعنة تلاحقهم طوال تلك القرون المتعاقبة بعدهم ، وكأنما كتب على هؤلاء المشردين في آفاق الأرض أن يظلوا مشردين في أعماق الكتب والأسفار .

وفى أذهان الناس عن الصعاليك صورة غامضة غير مشرقة ، تكسوها ظلال قاتمة تحجب كثيراً من معالمها وخطوطها ، وتغسّسها سحب د كن تخفى وراءها كثيراً من النور والضياء ، وينقصها كثيراً من الأضواء الكاشفة تجلو عنها ظلالها القاتمة ، وتبعد عنها سحبها الدكن ، حتى يسبين ما يحتجب خلفها من معالم وخطوط وأضواء .

ومهمتى فى هذا البحث أن أحاول تجلية هذه الظلال ، وإزاحة هذه السحب، حتى يستبين ما وراءها ، وتبدو الصورة على حقيقتها واضحة مشرقة . وقد كان أساس المنهج لبحث هذا الموضوع أن أبداً غير متأثر برأى أحد من الباحثين ، فآثرت في أول الأمر أن لا أقرأ شيئًا عنه لأحد من الباحثين ، ومضيت إلى أخبار الصعاليك وأشعارهم في مصادرها الأصيلة الأولى في محاولة جاهدة لتكوين وأى لى ، وانقضت سنوات وأنا سعيد بصحبة هؤلاء و الفتيان ، — كما كان يحلو لهم أن يسموا أنفسهم — أقرأ وأدون ، وأتأمل وأفكر ، وأحدد خطوط الصورة ، وأنقب عن معالمها ، حتى إذا ما كونت لنفسي رأياً في الموضوع ، وأخذت خطوط الصورة ومعالمها تتضع لى ، مضيت أبحث عن دراسات الباحثين فيه ، فراعني أنى لم أجد أحداً قبلي قد عني بدراسته دراسة شاملة متخصصة ، وإنما كل ما عثرت عليه طائفة من المقالات تترجم لجماعة من الشعراء الصعاليك ، أو بعض الأبحاث السريعة في هذا الموضوع ترسم المطوط العامة له ، حتى إن و دائرة المعارف الإسلامية » — على ضخامها وسعتها ، وكثرة موادها ، وتعدد القائمين بها — لم تعرض لهذا الموضوع على الإطلاق ، وإنما كل ما فعلته أنها ترجمت لطائفة قليلة من شعرائه ، هم ورقة والشنفري وتأبط شراً .

ونظرت فإذا على أن أدرس جانبين : حياة هؤلاء الصعالبك كما تتمثل في أخبارهم وأشعارهم لأستخلص منها الجوانب المختلفة لظاهرة الصعلكة ، ثم شعرهم من حيث هو نتاجهم الفني المعبر عن آرائهم وأفكارهم لأستخلص منه هذه الآراء والأفكار ، ولأسجل في ضوئه الظواهر الفنية التي تميز فنهم . وهكذا انقسم البحث إلى قسمين أساسيين : دراسة للظاهرة ، ودراسة للشعر .

ثم نظرت فإذا القسم الأول ممعن فى الغموض ، فما معنى الصعلكة ؟ وما تعريف الصعلوك؟ وما تعريف الصعلوك؟ وهل يتفق المفهوم اللغوى لهما مع ما عرفه المجتمع الجاهلى عنهما ؟ فرأبت أن أفرد فصلا للتعريف بهذه الظاهرة ، عرضت فيه للتعريف

اللغوى للمادة ، ثم عرضت هذا التعريف على النصوص الأدبية التى ورَدَت فيها ، حتى أدرك إلى أى مدى ينطبق عليها ، وأدركت أن هذا التعريف اللغوى لا يكفى لفهم هذه الظاهرة ، فكان لابد من المضى إلى المجتمع الجاهلي أتلمس فى أخبار صعاليكه وأشعارهم جوانبها المختلفة ، ومعالمها المميزة لها .

ثم وقفت أمام هذه الظاهرة وتساءلت: ما السر في نشأتها ؟ وما العوامل التي أدت إلى ظهورها ؟ ورأيت أن أمضى إلى علم النفس الاجتماعي أسأله تفسيراً لها ، فدرست المجتمع ، والتوافق الاجتماعي ، و « اللاتوافق » ، وعُقدَ النقص ، ودرست الفقر ، والمشكلات الاقتصادية ، والمذاهب المختلفة التي حاولت أن تجد لهذه المشكلات حلا ، وانتفعت بكل هذه المدراسات في تكوين فكرة عن هذه الظاهرة ، ، وانتهيت إلى أن هناك ثلاثة عوامل عملت تكوين فكرة عن هذه الظاهرة ، وعامل اجتماعي ، وعامل اقتصادي . في نشأتها وتطورها : عامل جغرافي ، وعامل اجتماعي ، وعامل اقتصادي . فضيت إلى المجتمع الجاهلي أدرس فيه هذه الجوانب الثلاثة على هذا الأساس ، ورأيت أن أفرد فصلا لكل منها ، ولم أفرد للتفسير النفسي فصلا خاصًا لأنه عامل مشترك بين كل هذه العوامل . وهكذا كان الباب الأول في أربعة فصول .

ثم مضيت إلى مجموعة شعر الصعاليك التي بذلت جهداً كبيراً في جمعها من مصادر متعددة ، ورأيت لزاماً على أن أعرض – قبل كل شيء – لتلك المصادر المتعددة التي اعتمدت عليها في جمع ما يصح أن نسميه وديوان الصعاليك» ، وتلك المصادر الأخرى التي لم تصل إلينا إلا أسماؤها ، إما لأنها في قدت ، وإما لأنها ليست بين أيدينا . كما رأيت من الضروري أن أعرض لمدى صحة ما ترويه المجموعة الأولى من المصادر من شعر الصعاليك ، أنهى إلى رأى فيا يثور حوله من شك في بعض نصوصه ، وأفردت لهذه المقدمات الفنية الفصل الأولى من الباب الثاني .

ثم نظرت فی مجموعة شعر الصعالبك ، ورأیت أن أفرد فصلا لموضوعاته ، سواء ما كان منها و داخل دائرة الصعلكة ، ، وما كان منها و خارج هذه الدائرة ، ، فكان الفصل الثاني من هذا الباب ـ

ثم مضيت إلى هذا الشعر أدرس ظواهره الفنية من حيث طبيعة العمل الفنى وخصائصه ، ومن حيث لغته وأوزانه ، وأفردت لهذه الدراسة الفصل الثالث من هذا الباب .

ثم رأيت أن أقدم - أخيراً - دراسة مستقلة لشاعر من الصعاليك يكون نموذجاً لهم ، أطبق عليه ما وصلت إليه في أثناء البحئ من نتائج ، ولكني رأيت أن أمامى شخصيتين متميزتين اجتماعياً وفنياً : شخصية الصعلوك الزعيم التي يمثلها عُرُوة بن الورد ، وشخصية الصعلوك العامل التي اخترت الشنفرى مثلا لها ، وقد اخترت الشنفرى بالذات لأن له ديواناً بين أيدينا عما يجعل التوازن قائماً بينه وبين عروة ، وله هو أيضاً ديوان بين أيدينا . وأفردت لدراسة هذين الشاعرين فصلا مستقلا هو الفصل الأخير من هذا البحث .

ومهما يكن من شأن هذه الدراسة فإنى حريص على أن أسجل أن كل ما وصلت إليه فيها من نتائج لا يمكن أن يكون الكلمة الأخيرة فى الموضوع ، فالكلمة الأخيرة فى العلم مستحيلة ، ولا يمكن أن أدعى أننى وصلت بها إلى درجة الكمال ، فالكمال لله وحده ، وإنما كل ما أستطيع أن أقوله هو أن نتائج هذه الدراسة ليست سوى نتائج لما وصل إلى الوصل إلى المكن أليه المنافع مادة لا أشك فى أن وراءها مادة أخرى لم تصل إلى ، ومن الممكن أن تغير قليلا أو كثيراً من هذه النتائج .

٤

أما الفترة التى اخترتها لدراسة هذا الموضوع ، والتى حددتها بالعصر الجاهلي ، فإنى لا أقصد بها تلك الفترة المحددة التى سبقت ظهور الإسلام فحسب ، وإنما يمتد العصر الجاهلي عندى – وأعنى به العصر الجاهلي الأدبى – حتى يشمل فترة المحضرمين ، فإن هؤلاء المحضرمين لا يمثلون عناصر جديدة في

الحياة الأدبية الإسلامية ، وإنما هم امتداد للحياة الأدبية الجاهلية التي اكتملت ملكاتهم الفنية في ظلها . أما العصر الأدبي الإسلامي فإنما يبدأ بأولئك الشعراء الذين لم يدركوا العصر الجاهلي، وبدأ تتكون ملكاتهم الفنية في ظل الإسلام . ومن هنا كنت أرى أن العصر الجاهلي الأدبي ليس محدداً بفترة زمنية ينهي بانهائها ليبدأ بعدها العصر الأدبي الإسلامي ، ولكنه محدد بحياة أولئك النفر من الشعراء المخضرمين ينهي بالنسبة لكل منهم بانهاء حياته . وليس معني هذا أنني أنني أن هؤلاء المخضرمين قد تأثرت حياتهم الأدبية بالإسلام ، فن المؤكد أيضاً أن هذا التأثر يمثل مرحلة من مراحل أنها تأثرت به ، ولكن من المؤكد أيضاً أن هذا التأثر يمثل مرحلة من مراحل تكوينهم الأدبي .

\* \* \*

وبعد، فهذا هو الموضوع الذي أقدمت على دراسته ، وأنا أعرف أنها مغامرة كتلك المغامرات التي كان يقدم عليها فتيان الصعاليك ، ولكنى أنشد مع الشنفرى «ومن يَغزُ يَغَمْ مرة ويُشَمَّتِ »، فإن تكن الأولى فما توفيقى إلا بالله ، وإلا فحسبى إعذارًا لنفسى أنها مغامرة أقدمت عليها ، ولأنشد مع أبى الصعاليك عروة بن الورد « ومُبلغُ نفسٍ عُذرَها مثل مُنْجِع ِ ». والله يهدينا سواء السبيل .

يوسف خليف

يناير ١٩٥٩

البُابُ الْلاُوَل الصعاليك

	-	

### *الفصلالأول* التعريف بالصعلكة •

#### في اللغة :

فى لسان العرب (١): « الصُّعلوك: الفقير الذى لا مال له ، زاد الأزهرى ولا اعتماد. وقد تصعلك الرجل ُ إذا كان كذلك. قال حاتم الطائى: غَنينا زماناً بالتصعلك والغنى فكلاً سقاناه بكأسيهما الدهر أى عشنا زماناً.

وتَــَصَعَلَكت الإبلُ : خرجت أو بارها ، وانجردت ، وطرحتها .

ورجل مصعلك الرآس : مدوره .

ورجل مصعلك الرأس : صغيره ، وأنشد :

يخيِّل فى المرعى لهن بشخصه مُصَعلكُ أَعلىقُلَّةِ الرأس نِقَنقُ وقال شمر: المصعلك من الأسنمة: الذي كأنما حدر رَجت أعلاه حدرجة، كأنما صعلكت أسفله بيدك، ثم مطلته صُعداً أى رفعته على تلك الدملكة، وتلك الاستدارة (٢).

وقال الأصمعي في قول أبي دؤاد يصف خيلا:

قد تَصَعْلكن فى الربيع وقدة َ رَّعَ جِلْدَ الفرائضِ الأَقدامُ قال: تصعلكن: دققن ، وطار عفاؤها عنها، والفريضة: موضع قدم الفارس . وقال شمر : تصعلكت الإبل إذا دقت قوائمها من السمن ، وصعلكها البقل .

<sup>(</sup>١) مادة (صعلك) .

<sup>(</sup>٢) حدرج : فتل وأحكم . والدملكة : الاستدارة والملاسة والفتل .

وصعلك الثريدة : جعل لها رأساً ، وقيل : رفع رأسها . والتصعلك : الفقر .

وصعاليك العرب : ذؤ بانها . وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك ، لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنم ،

من هذا النص اللغوى الذى سجله ابن منظور فى لسان العرب ، والذى سجل مثله غيرُه من علماء اللغة فى معاجمهم ، نستطيع أن نتبين أصلا عاماً للمادة تشترك فيه معانبها المختلفة ، وتدور حوله ، وهو - عندى - الضمور والانجراد (۱۱) . ونستطيع فى مهولة ويسر أن نرد كل معانى المادة إلى هذا الأصل العام :

فالإبل تتصعلك إذا انجردت أوبارها وطرحتها .

والحيل تتصعلك إذا دقت وطار عفاؤها عنها.

والبقل يصعلك الإبل أى يسمنها ، وهذا السَّمَـن يجعلها تطرح أوبارها وتتجرد منها .

والمصعلك من الأسنمة الذي يبدو كأنما فنلت أعلاه وأضمرته .

وهو يصعلك الثريدة أى بجعل لها رأساً ، أو يرفع رأسها ، كأنما أضمر أعلاها .

وهو مُصَعَلَك الرأس أي صغيره وضامره .

وهو يتصعلك أى يفتقركانما تجرد من ماله ، وبدا ضامراً بين الناس . فالصعلكة إذن ــف مفهومها اللغوى ــ الفقر الذي يجرد الإنسان من

<sup>(</sup>۱) نحن في هذا نخالف ابن دريد فيها يذهب إليه من أن وأصل الصحلكة الفقر ه (انظر جمهرة اللغة : باب ما جاء على وفعلول و ۲۸۳/۳ - وانظر أيضاً الاشتقاق / ١٧٠) ، وترى أن الفقر ليس أصلا المادة ، ولكنه الطور المعنوى في معناها الذي يأتى بعد الطور الحسى . ويؤيدنا فيها نفهب إليه ما يراه ابن فارس من أن والصاد والعين واللام أصيل يدل على صغر وانجراد » (انظر مقاييس اللغة ٢٨٦/٣) ، وهذه الحروف الثلاثة هي أصل مادة وصملك و ، وبين المادتين تشابه في معانيهما ، فالصمل : الصغير الرأس من الرجال والنعام ، وحمار صعل أي ذاهب الوبر .

ماله ، ويظهره ضامراً هزيلا بين أولئك الأغنياء المترفين الذين أتخمهم المال وسمنهم .

ولكن يبلو أن هذا المعنى لا يعبر عن المفهوم اللغوى للكلمة تعبيراً دقيقاً كاملا ، ولهذا نريد أن نقف وقفة أخرى عند تلك الزيادة التى أضافها الأزهرى إلى هذا المعنى اللغوى ، وهي قوله و ولا اعتهاد » ، لغرى ماذا يستفيد المعنى منها ؟ وإلى أى مدى تحدد هذا المعنى وتكمله ؟ والمعنى اللغوى لهذه العبارة واضح ، فاعتمد على الشيء : توكأ أو اتكا عليه ، واعتمد عليه في كذا : اتكل عليه (١) . وعلى هذا نستطيع أن نقول إن الصعلوك في اللغة هو الفقير الذي لا مال له يستعين به على أعباء الحياة ، ولا اعتماد له على شيء أو أحد يتكئ عليه أو يتكل عليه ليشق طريقه فيها ، ويعينه عليها ، حتى يسلك سبيله كما يسلكه سائر البشر الذين يتعاونون على الحياة ، ويواجهون مشكلاتها يداً واحدة . أو هو - بعبارة أخرى - الفقير الذي يواجه الحياة وحيداً ، وقد جردته من وسائل العيش فيها ، وسلبته كل ما يستطيع أن يعتمد عليه في مواجهة مشكلاتها . فالمسألة إذن ليست فقراً فحسب ، ولكنها فقر يغلق أبواب الحياة في وجه ضاحبه ، ويسد مسالكها أمامه .

هذا هو التعريف اللغوى للكلمة كما نراه فى ضوء هذه المحاولة اللغوية لفهم المادة . ونريد بعد هذا بان نتتبع هذه المادة فى الاستعمال الأدبى القديم فى العصر الذى ندرسه لنرى كيف دارت فيه ؟ وإلى أى مدى يطابق هذا الاستعمال معناها اللغوى كما سجله علماء اللغة أو يختلف عنه ؟

<sup>(</sup>١) لسان العرب : مادة (عمد) .

#### في الاستعمال الأدبي :

تتردد هذه المادة فى أخبار العصر الجاهلى وشعره بصورة واسعة ، وتقابلنا كثيراً على ألسنة شعرائه ورواة أخباره ، فنراها أحياناً تدور فى هذه الدائرة اللغوية التى تحدثنا عنها ، على نحو ما نرى فى ببت حاتم الطائى الذى يتخذ منه اللغويون موضوعاً للاستشهاد على المعنى اللغوى للكلمة ، فالمقابلة فى هذا البيت بين التصعلك والغنى تدل فى وضوح لا لبس فيه على أنه يستعمل التصعلك فى معنى الفقر ، وهو استعمال بؤيده ذكر الفقر فى البيت التالى مرادفاً للتصعلك :

فما زادنا بغياً على ذى قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر ونراها أحياناً أخرى ترد فى بعض المواضع ، ولكن مفهومها الذى يتفق مع السياق لا يتفق تماماً مع مفهومها اللغوى .

فهذا عمرو بن بـَرَّاقة الهمـُدانى يغير على إبله وخيله رجل من مراد، فيذهب بها، فيأتى عمرو فيغير على المرادى فيستاق كل شيء له، ويقول:

تقولُ سليمى : لا تَعَرَّضُ لتلْفَة وليلك عن ليل الصعاليك نائم وكيف ينامُ الليل من جُلُّ ماله حسامٌ كلون الملح أبيضُ صارمُ ألمُ تعلمى أن الصعاليك نومهم قليلُ إذا نام الخليُّ المسالمُ (١)

فن الواضح أن جو القصة وسياق الأبيات لا يدلان على أن الصعاليك هنا هم الفقراء ، وإلا فما معنى هذه النصيحة التى توجهها إلى الشاعر صاحبته بألا يعرض نفسه للتلف مع هؤلاء الصعاليك الذين ينام ليله عن ليلهم ؟ وما سر المقابلة بين قلة نومهم ونوم « الحلى المسالم » ؟ وما دخل المسالمة التى يتحدث عنها الشاعر فى حديث عن الفقر والغنى ؟ من الواضح أن الصعاليك

<sup>(</sup>١) القالى : الأمالى ٢/ ١٢١ – ١٢٣ ، وألأغافي ٢١/٥٧١ .

هنا ليسوا هم أولئك الفقواء المعدمين الذين يقنعون بفقرهم ، أو يستجدون الناس ما يسدون به رمقهم ، وإنما هم أولئك المشاغبون المغير ون أبناء الليل الذين يسهرون لياليهم فى النهب والسلب والإغارة بينا ينعم الحليون المترفون المسالمون بالنوم والراحة والهدوء . فالكلمة إذن قد خرجت من الدائرة اللغوية ، دائرة الفقر ، إلى دائرة أخرى أوسع منها هى دائرة الغزو والإغارة النهب والساب .

وفي أخبار امرئ القيس أنه غزا بني أسد ثائراً بأبيه ، لا وقد جمع جموعاً من حيميّر وغيرهم من دؤبان العرب وصعاليكها » (1) . ونهم أنفسنا بالسداجة لو تصورنا امراً القيس وقد خرج لثأر أبيه الملك بجمع جموعاً من فقراء العرب المعدمين ، فما أهمية الفقر في معركة من معارك الثأر ؟ وما الذي يحمل امراً القيس على أن يجمع حوله جموعاً من الفقراء ليغزو بهم بني أسد ؟ من الواضح أن هؤلاء الفقراء الذين استعان بهم امرؤ القيس في إدراك ثأره لابد أن تكون حياتهم الاجتماعية قد تطورت تطوراً خاصًا جعلهم يصلحون للقيام بتلك المهمة الضخمة الني طلبهم إليها ، وهو تطور نحس شيئاً من سماته ومظاهره في هذا الربط بينهم وبين الذؤبان ، فلابد أن هؤلاء الفقراء كان بينهم وبين الذئاب بينهم وبين الذئاب أسلوب الحياة أو أسلوب العيش أو طبيعة الشخصية .

ويشبه هذا ما ورد في أخبار عدى بن زيد من أن النعمان بن المنذر حبسه حتى مات ، فأراد ابنه زيد أن يتأر له من النعمان ، فدبر مكيدة يوغر بها صدر كسرى عليه حتى يقتله ، وترامى خبر المكيدة إلى سمع النعمان ، ففر من كسرى ولحأ إلى قبائل العرب ، ولكن أحداً لم يجرؤ على إجارته ، فقال له سيد من بنى شيبان في حديث طويل معه : « فامض إلى صاحبك ، فإما أن صفح عنك فعدت ملكاً عزيزاً ، وإما أن أصابك فالموت خير اك من أن يتلعب بك صعاليك العرب ، ويتخطفك ذئابها ، وتأكل مالك » (٢). فن الواضح أن الصعاليك هنا ليسوا هم الفقراء ، ولكنهم طوائف من قطاع

<sup>(</sup>١) البغدادى : خزانة الأدب ٣٢/٣٥ .

<sup>(</sup>٢) الأغانى ٢/٢٢ ، والبغدادى : خزانة الأدب ١/٥٨١ - ١٨١ .

الطرق كانوا منتشرين في أرجاء الجزيرة العربية ، ينهبون من يلقونه في صحرائها الموحشة الرهيبة ، ويتلعبون به ، ويتخطفونه ، ويأكلون ماله ، على حد ألفاظ ذلك السيد العربي الذي كان – ولا شك – يعرف جيداً طبيعة الدور الذي يقوم به هؤلاء الصعاليك على مسرح البادية العربية ، وهو دور تعبر عنه تعبيراً دقيقاً هذه الألفاظ .

وإلى جانب هذا نلاحظ أن بعض المصادر العربية تذكر طائفة من الأسماء على أنهم و صعاليك العرب » (١)، أو تقص أخباراً عن صعاليك بعض القبائل (٢)، أو تصف بعض الشعراء بأنهم من و صعاليك العرب » (٣)، بل نلاحظ أن صاحب الأغانى يقول فى تقديمه للسلّيثك بن السلّمكة : و وهو أحد صعاليك العرب . . . وأخبارهم تذكر على تواليها هاهنا ، إن شاء الله تعالى ، فى أشعار لهم يتغنى فيها، لتتصل أحاديثهم » (١) ، مما يشعر بأن هؤلاء الصعاليك كانوا يكونون طبقة متميزة من طبقات المجتمع الجاهلي جعلت أبا الفرج يحرص على أن يذكر أخبارهم على تواليها حتى نتصل أحاديثهم ، على حد تعبيره .

وأظن أننا نستطيع بعد هذه الجولة أن نقف لنسجل أن مادة « صعلك » تدور فى دائرتين : إحداهما « الدائرة اللغوية » التى تدل فيها على معنى الفقر ، وما يتصل به من حرمان فى الحياة ، وضيق فى أسباب العيش ، والأخرى نستطيع أن نطلق عليها « الدائرة الاجتماعية » ، وفيها نرى المادة تتطور لتدل على صفات خاصة تتصل بالوضع الاجتماعي للفرد فى مجتمعه ، وبالأسلوب

<sup>(</sup>۱) انظر على سبيل المثال : رسائل الخوارزي / ۱۶۱ ، ۱۶۲ ، والدبلمي : القلاكة والمفلوكين / ۱۱۹ .

 <sup>(</sup>۲) انظر على سبيل المثال : الأغانى ۱۸/۱۸ ، ۲۰/۲۰ ، والبغدادى : خزانة
 الأدب ۲/۵۰۶ .

<sup>(</sup>٣) انظر على سبيل المثال : الأغانى ٧٣/٣ ، ٢١/١٤ (بولاق) ، ٣٣/١٨ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ .

<sup>(</sup>٤) الأغان ١٣٣/١٨ .

الذي يسلكه في الحياة لتغيير هذا الوضع . وهذه الصفات هي بعض ١٠ نحاول تبينه في هذا البحث .

ونتسامل بعد هذا: ألم يلتقت اللغويون إلى هذا العنى الاجهاعى ؟ ونعود مرة أخرى إلى النصوص اللغوية نستفتها ، وتلفت نظرنا تلك العبارة الغامضة التي يذكرها بعض اللغويين فى ختام تعريفاتهم ، وهى قولهم « وصعاليك العرب ذوبانها » . ونتساءل مرة أخرى : ماذا يعنى اللغويون بذوبان العرب ؟ وتمضى إلى مادة « ذأب » نسأل اللغويين عن معنى « ذؤبان العرب » ، فإذا هم يحيلوننا مرة أخرى على « صعاليك العرب » . في الصحاح « وذؤبان العرب أيضاً صعاليكها الذين يتلصصون » ، وفى القاموس المحيط « وذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم » ، وفى أساس البلاغة « وهم من ذؤبان العرب ونصوصها ذؤبان وصعاليكهم » ، وفى النهاية لابن الأثير « يقال لصعاليك العرب ونصوصها ذؤبان لأنهم كالذئاب » .

وهكذا كادت المسألة أن تكون دوراً - كما يقول المناطقة - لولا هذه الزيادات القليلة التي أضافها هؤلاء اللغويون إلى تعريفاتهم . ومن هذه الزيادات عرفنا أن هؤلاء الصعاليك كانوا « يتلصصون » (1) ، وأنهم كانوا « شطاراً » (7) ، كما عرفنا أنهم سموا هكذا لأنهم كانوا كالذااب . ومع ذلك فحا زلنا نشعر بأن هذه الزيادات لم تتقدم بنا كثيراً في داخل هذه « الدائرة الاجتماعية » ، وأن علماء اللغة يحومون حول هذه الدائرة دون أن ينفذوا إلى داخلها ، مع إحساسهم أن هناك شيئاً آخر غير الفقر في مفهوم المادة ، وهو هذا الذي حاولوا أن

<sup>(</sup>٢) في لسان العرب (مادة شطر) «وشطر عن أهله . . . نزح عنهم ، وتركهم مراغماً أو مخالفاً ، وأعياهم خبثاً ، والشاطر مأخوذ منه » . وفي أساس البلاغة (المادة نفسها) » وفلان شاطر : خليع » . ومن الأشياء التي تلفت النظر أن الجليع من أسماء الذئب أيضاً (انظر لسان العرب : مادة خلع) ، وأن الذئب يشبه في الشعر الجاهلي أحياناً بالجليع ، وفي معلقة امرئ القيس « به الذئب يعوى كالجليع المعيل » ، وهو من شعر تأبط شراً بدون شك عندى .

يفسروه بذلك الربط بين الصعاليك والذؤبان.

ولكننا لا نريد أن ننتهى من هذا البحث اللغوى دون أن نشير إلى أن هناك أبا زيد القرشى ، صاحب جمهرة أشعار العرب ، قد تنبه إلى أن هناك جانبين لهذه المادة ، واستطاع أن يميز بينهما تمييزاً دقيقاً واضحاً حيث يقول (١) : « الصحلوك الفقير ، وهو أيضاً المتجرد للغارات » ، وهذا التعبير عن مفهوم المادة الاجتماعى بالتجرد للغارات يجعلنا نسجل لهذا العالم المتقدم على أصحاب المعاجم التي بين أيدينا أنه كان أدق من عرقف معنى الصعلوك .

وهنا نقف لنتساءل : ماذا فهمنا عن صعاليك العرب ؟

أغلب الظن أننا لم نصل إلى أشياء كثيرة ، وأننا ما زلنا فى بداية الطويق الطويل نتحسس خطواتنا فى الظلام تحت أضواء النجوم الحافتة ، وأن شوطاً بعيداً ما يزال ينتظرنا حتى مطلع الفجر . ويبدو أنه لابد لنا من أن نمضى إلى مصادر الأدب العربى نسألها : ما أخبار هؤلاء الصعاليك ؟ وأين شعر شعرائهم الذى صوروا فيه حياتهم ؟ لعلنا نجد فيها وفيه ما نستطيع به أن نرسم صورة أشد وضوحاً لهذه الطبقة من طبقات المجتمع الجاهلى .

٣

#### فى المجتمع الجحاهلي :

حين نرجع إلى أخبار هؤلاء الصعاليك نجدها حافلة بالحديث عن فقرهم ، فكل الصعاليك فقراء ، لا نستثنى منهم أحداً ، حتى عروة بن الورد سيد الصعاليك الذى كانوا يلجئون إليه كلما قست عليهم الحياة ، ليجدوا عنده مأوى لهم حتى يستغنوا ، فالرواة يذكرون أنه «كان صعلوكاً فقيراً مثلهم » (١٠) وأخوه وابن عمه يقولان له —حين عرض عليه أهل امرأته التى أصابها في بعض

<sup>(</sup>١) جمهرة أشعار العرب / ١١٥ .

<sup>(</sup>۲) التبریزی : شرح حماسة أبی تمام ۲/۹ .

غزواته أن يفتلوها - وواقد لأن قبات ما أعطوك لا تفتقر أبداً ، (١) ، بل أكثر من هذا يذكر الرواة أنه جاء بامرأته إلى بنى النضير وولا شيء معه إلا هي ، فرهنها ، ولم يزل يشرب حتى غلقت ، (٢) . وتكثر في شعره أحاديث فقره ، وما يعانيه من حرمان ، وما يتكبده في سبيل الغني من جهد ومشقة ، وما يشعر به من ثقل التبعة التي يتحملها إزاء أهله ، وإزاء أصحابه الصعاليك أيضاً :

ذَرينى للغنى أسعى ، فإنى رأيت الناس شرهم الفقير (١) فَسِرْ في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعلرا (١) ومن يك مثلى ذا عيال ومُقتِراً من المال بطرح نفسه كل مُطرح (١)

وهذا الفقر الذي استبد بحياة الصعاليك حمل لهم في ركابه الجوع ، نتيجة طبيعية له ، ولعل الجوع أقسى ما يحمله الفقر إلى جسد الفقير ، وقد سئل أعرابي : ما أشد الأشياء ؟ فقال : كبد جائعة تؤدى إلى أمعاء ضيقة (١) وليس من شك في أن هذه العبارة الساذجة التي صور فيها هذا الأعرابي إحساسه إنما تشير إلى قصة الحياة الأساسية ، قصة الصراع بين الحياة والموت . وذلك لأن المسألة نتصل بحاجات الجسم الحيوية الأولى ، فالجوع – كما يقرر علماء الاجتماع – أول اللوافع المسيطرة على حياة الإنسان (١) . وقد كان من العرب من أجل الحصول على الطعام (٨) ، بل إن كثيراً من الصراع الداخلي من يغير من أجل الحصول على الطعام (٨) ، بل إن كثيراً من الصراع الداخلي من يغير من أجل الحصول على الطعام (٨) ، بل إن كثيراً من الصراع الداخلي

<sup>(</sup>١) الأغاني ٢/٧٧ .

 <sup>(</sup>۲) المصدر نفسه / ۳۸ – وغلق الرهن في يد المرتهن: استحله ، وذلك اذا لم يقدر الراهن على افتكاكه في الوقت المشروط .

<sup>(</sup>٣) ديوانه / ١٩٨.

<sup>(</sup>٤) ديوانه / ١٩١.

<sup>(</sup> ه ) ديوانه / ۹۹ .

<sup>(</sup>٦) ألبيهق : المحاسن والمساوئ . ٣٠١ .

Groves; Personality and Secial Adjustment, p. 27. (Y)

<sup>(</sup> ٨ ) أبن دريد : الاشتقاق / ٢٤٦ .

رين القبائل الجاهلية إنما يرجع - من بعض جوانبه - إلى الفقر والجوع (1) ، وما أكل ضباب الصحراء ويرابيعها وأورالها سوى مظهر من مظاهر هذا الجوع القاتل الذي كان يعانيه عرب البادية حين يجدبون وتنتابع عليهم السنين ، وما كان قتل بعض العرب أولادهم خشية إملاق سوى مظهر آخر من مظاهر هذا الجوع القاتل (٢).

ویکر الحدیث عن الجوع فی أخبار الصعالیك وشعرهم ، فی أخبار عروة أن ناساً من بنی عبس أجدبوا «فی سنة أصابتهم ، فأهلكت أموالهم ، وأصابهم جوع شدید وبؤس» ، فأتوا عروة یستنجدون به ، فخرج « لیغزو بهم ویصیب معاشاً » (۲) . وتنتشر فی شعره وأخباره مناقشات بینه وبین صعالیکه حول الجوع الذی کان بجهدهم فی غزواتهم (۱) . ویذکو الرواة أن أبا خیراش الهذلی أقفر من الزاد أیاماً (۵) . و بحدثنا السلیك بن السلکة فی بعض شعره کیف کان بغمی علیه من الجوع فی شهور الصیف حتی لیشرف علی الموت ولفلاك :

وما نلتُها حتى تصعلكت حقبة وكدت الأَسباب المنيَّة أَعرفُ وحتى رأَيت الجوع بالصيف ضَرَّنى إذا قمت تَغْشَانى ظلال فأُسْدِف (٢)

و يتحدث الأعلم الهذلى عن أولاده الشعث الصغار الذين ينظرون إلى من يأتيهم من أقاربهم بشيء يأكلونه :

وذكرتُ أهملي بالعرا ء وحاجة الشُعْثِ التوالبُ

<sup>(</sup>١) انظر حديث الأصبعي في الأغاني ١٤ / ٣٩.

 <sup>(</sup>٣) في القرآن الكريم : وولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن فرزقهم وإياكم ه
 (سورَة الإسراء ~ آية ٣١) – وانظر أيضًا سورة الأنمام ~ آية ١٥١ .

<sup>(</sup>٣) الأغاني ٣/١٨ ، ٢٨ .

<sup>( ؛ )</sup> انظر عل سبيل المثال شرح ديوانه لابن السكيت / ١٠٣ ، ١٠٠ .

<sup>(</sup> ه ) الأغاني ٢١/٢١ .

<sup>(</sup>٢) الأغاني ١٢٥/١٨ - وأسدف الرجل : أظلمت عيناه من الجوع .

المُصْرِمينَ من التَّلا د اللامحين إلى الأَقاربُ(١) بل المُقاربُ(١) بل إِنَّ الجُوعِ ليشتد بعروة فيهتف بأصحابه الصعاليك هتفة من لا يطيق عليه صبراً أن هلموا إلى الغزو ، فللموت خير من حياة الجوع والهزال :

أقيموا بنى لبنى صُدُورَ ركابكم فإن منايا القوم خير من الهزل (١) وفي لامية العرب التى تُعد صورة دقيقة كاملة لحياة الصعاليك في العصر الجاهلي حتى على فرض انتحالها وعدم صحة نسبتها إلى الشنفرى ، يرسم الشاعر صورة رائعة لذلك الجوع النبيل الذي يشعر به الصعلوك ، ولكن نفسه الأبية تألى عليه أن يهينها من أجله ، فلا يجد أمامه سوى الصبر والقناعة :

أَدْيِمُ مِطَالُ الجوع حتى أميته وأضربُ عنه الذكرَ صَفحاً فأَذْهلُ وأستفُ نُرْبُ الأَرض كى لايرى له على من الطُول امرُو متطولُ ولا اجتنابُ الذام لم يبق مشرَبُ يعاشُ به إلا لَدي ومَأْكلُ ولكنَ نفساً حرة لا تُقيمُ بى على الضيم إلا ريثما أتحولُ وأطوى على الخُمْصِ الحوايا كما انطوت خُيوطة مارى تُغارُ ونفتلُ وأغدو على القوت الزهيد كما غدا أزَلُ تهاداهُ التنائفُ أطحلُ (٣)

وإذا كان الجوع أقسى ما يصبه الفقر من سياط على جسد الفقير فإن هناك سياطاً أخرى لا تقل قسوة عن سياط الجوع ، ولكنها سياط نفسية يصبها الفقر على نفس الفقير .

والحديث عن هذه السياط النفسية حديث يطول ، لأنها تختلف باختلاف

<sup>(</sup>١) شرح أشعار الهذليين ١/٨٥ – والتوالب : الجمعاش ، ويريد بهم أبناءه الصغار . والمصرم : الفقير .

<sup>(</sup>۲) ديوانه / ۲۰۹.

<sup>(</sup>٣) القالى : النوادر / ٢٠٤ - والمطال : الماطلة . العلول : المن . الذام : العيب . الخمص : ضمور البعلن أو الجوع . الحوايا : الأمعاء . مارى : اسم ربجل أو اسم للفائل . تفار : تحكم . الأؤل : خفيف الوركين ، صفة للذئب . التقائف : جمع تنوقة ، وهي المفاؤة . الأطعل : الذي لونه بين النبرة والبياض .

النفسيات ووقع الفقر عليها . وقد حاول صاحب والفلاكة والمفلوكين و (١) أن يحصرها ، فعقد في كتابه فصلا طويلا و في الآفات التي تنشأ من الفلاكة ، وحسرها القلاكة الفلاكة وتفتضيها و (٢) ، وعد منها الآلام العقلية ، وهو تعبير يرادف ما نعبر عنه بالآثار النفسية ، وحصرها في ثلاثة أنواع ، وحاول أن يدلل على هذا التقسيم الثلاثي تدليلا عقلبًا منطقيًا تكثر فيه الحدود والأقسام والمقدمات والنتائج . ولكن هذه المحاولة — من وجهة النظر العلمية الحديثة سد غير دقيقة ، فإن هذه الآثار النفسية ليس من اليسير حصرها ، فليست المسألة مسألة مسألة منطقية تقبل القسمة العقلية ، ولكنها مسألة نفسية تتصل بالنفس البشرية ، تلك النفس الغامضة المعنة في الغموض ذات السراديب العميقة ، والأسرار الدفينة المكبوتة . ويحاول علماء النفس المحدثون دواسة هذه المسألة وأشباهها على أساس ما يسمونه ويحاول علماء النفس المحدثون دواسة هذه المسألة وأشباهها على أساس ما يسمونه وبخاول علماء النفس المحدثون دواسة هذه المسألة وأشباهها على أساس ما يسمونه التي تتكون نتيجة للإحساس بالفقر ، وتدفع صاحبها في محاولة التعويض عن الشعور بالنقص إلى العمل على أن يصير غنياً (١) . فهذه المقدة هي المحور الذي تدور حوله تلك الآثار النفسية التي يخلفها الفقر في نفس الفقير . وتدفع صاحبها في محاولة المقدة هي المحور الذي تدور حوله تلك الآثار النفسية التي يخلفها الفقر في نفس الفقير .

والمتأمل في أخبار الصعاليك وأشعارهم يلفت نظره شعور حاد بالفقر ، وإحساس مرير بوقعه على نفوسهم ، وشكوى صارخة من هوان منزلتهم الاجتماعية وعدم تقدير المجتمع لهم ، وعجزهم عن الأخذ بنصيبهم من الحياة كما يأخذ سائر أفراد مجتمعهم ، أو الوقوف معهم على قدم المساواة في معترك الحياة ، لا لأنهم هم أنفسهم عاحزون ، وإنما لأن مجتمعهم ظلمهم ، وحرمهم من تلك العدالة الاجتماعية التي يطمح إليها كل فرد في مجتمعه ، وجردهم من كل الوسائل

<sup>(</sup>١) شهاب الدين الدلجى ، وقد عقد الفصل الأول من كتابه فى تحقيق معنى المفلوك ، وقال فيه : وهذه اللفظة تلقيداها من أفاضل العجم ، ويريدون بها بشهادة مواقع الاستعال الرجل الغير المحظوظ المهمل فى الناس لإملاقه وفقره » (ص ٣) ، فهى تقرب من كلمة «الصملوك» في دائرتها الفوية .

<sup>(</sup>٢) انظر الفصل الرابع ، ص ١٤ وما يعدها .

Groves; Personality and Social Adjustment, p. 231. (7)

المشروعة التى يواجهون بها الحياة كما يواجهها غيرهم ممن توافرت لهم هذه الوسائل . فغيس بن الحدادية (١) يرى أنه لايساوى عند قومه وعنزا جرباء جهد ماء و (١) و أخبار الشنفرى أن قومه قتلوا رجلا فى خفرة بعض الفهميين ، وفرهنوهم الشنفرى وأمه وأخاه ، وأسلموهم ، ولم يفدوهم و (١) ، وخبر تلك اللطمة التى لطمها الفتاة السهم السهم المنافرى، والتى كانت السبب المباشر فى تصعلكه ، لأنها أنكرت عليه أن يتساى إلى مقامها الاجتماعى ، ويرفع الحواجز الاجتماعية التى تفصل بين طبقتهما ، ويناديها بأخته ، خبر كبير الدلالة على ما كان يعانيه هؤلاء الصعاليك من مجتمعهم (٤) .

وينظر هؤلاء الفقراء الجياع ، المحتقرون من مجتمعهم ، المنبوذون من إخوانهم في الإنسانية، إلى الحياة ليشقوا لهم طريقاً في زحمتها ، وقد جُردوا من كل وسائلها المشروعة ، فلا يجدون أمامهم إلا أمرين : إما أن يقبلوا هذه الحياة الذليلة المهينة التي يحيونها على هامش المجتمع ، في أطراقه البعيدة ، خلف أدبار البيوت ، يخلمون الأغنياء ، أو ينتظرون فضل ثرائهم ، أو بستجدونهم في ذلة واستكانة ، وإما أن يشقوا طريقهم بالقوة نحو حياة كريمة أبية ، يفرضون فيها أنفسهم على مجتمعهم ، وينتزعون لقمة العيش من أيدى من حموهم منها ، دون أن يبالوا في سبيل غاينهم أكانت وسائلهم مشروعة أم غير مشروعة ، فالحق للقوة ، والغاية تبرر الوسيلة .

<sup>(</sup>١) اختلفوا في ضبط اسم أمه بين كسر الحاء وضمها: أما ابن دريد فهي عنده بالضم (الاشتقاق / ٢٧٧) ، وكذلك ابن عبد ربه (العقد الفريد ٣٨٣/٣) ، ولكنها عند السماني في الأنساب بالكسر ، أما المرزباني فإنه يذكر الضبطين فيقول « والحدادية أمه ، وهي من بني حداد من كنانة ، وقوم يجعلونها من حداد محارب ، وحداد بالضم من كنانة ، وحداد بالكسر من محارب » (معجم الشمراء / ٢٢٥) . وهكذا يتضح أن الاختلاف في ضبط الاسم راجع إلى الاختلاف في القبيلة التي تنتسب إليها أم الشاعر ، وهي عند ابن حبيب وأبي الفرج من محارب، وعند ابن الأعرابي من كنانة ( من نسب إلى أمه من الشعراء / ٢ ، والأغاني من حرارب » ولاق) .

<sup>(</sup> ٢ ) أنظر الأغانى ١٣ / ٨ ( بولاق ) .

<sup>(</sup>٣) ابن الأنبارى : شرح المفضليات / ١٩٧ ، ١٩٨ .

<sup>(</sup> ع ) انظر المصدر السابق / ١٩٥ ، ١٩٦ ، والأغانى ٢١/ ١٣٤ وما بعدها . الشعراء الصعاليك

وقد ملك الصعاليك السيلين ، أو - بعبارة أدق - انقسموا مع هذين السيلين إلى طائفتين : طائفة قبلت ذلك الوضع الاجتماعي الذليل ، رضيه لم ضعف في النفس والحسد جميعاً ، وضعف في النفس والحسد جميعاً ، وطائفة رفضت ذلك الوضع ، وأبت أن تعيش تلك الحياة الساقطة التافهة المهينة ، ووجدت في القوة ، قوة النفس وقوة الحسد ، وسيلة تشق بها طريقها في الحياة .

وفى شعر عروة موازنة طريفة بين هاتين الطائفتين ، يعقدها أبو الصعاليك فى دقة وبراعة ، ويصور فيها اختلاف ما بينهما فى الشخصية ، وأسلوب الحياة والغاية الى تنتهى إليها كل منهما (١٠).

وتتجلى قوة نفوس هذه الطائفة الثانية من الصعاليك فى استهانهم بالحياة فى سبيل الوصول إلى الغاية التى يسعون إليها . إنهم يريدون أن يحققوا لهم مكانة فى هذا المجتمع الذى يحتقرهم ويستهين بهم عن طريق فرض أنفسهم بالقوة عليه ، وهم فى سبيل هذا لا يبالون بشىء ، حتى بالحياة نفسها ، فهم جميعاً مؤمنون بفكرة الفناء فى سبيل المبدأ ، وما قيمة الحياة إذا عاش الإنسان فقيراً محتقراً ، منبوذاً من مجتمعه ، مجفواً من أقاربه ؟ إن الموت فى هذه الحالة خير من الحياة :

إذا المرء لم يَبْعث سَوَاماً ولم يَرُح عليه ، ولم تعطف عليه أقاربُهُ فللموتُ خير للفتى من حياته فقيرًا ، ومن مولى تدب عقاربه (٢) فللموت خير للفتى من حياته متشبع في حياتك أو تموت (٣) فسر في بلاد الله والنمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتُعُذَرا (٤)

 <sup>(</sup>١) انظر أبياته الرائية ﴿ لَمَا الله صَعَلَوْكًا ﴿ قَى دَيُوانَهُ / ٧٣ – ٨٢ . وجمهرة أشعار العرب / ١١٥ . والأصمعيات / ٢٩ ، ٣٠ . وانظر ص ٣٢٩ من هذا البحث .

<sup>(</sup>٢) عروة أيضاً (انظر ديوانه / ١٥٠ ، ١٥١) - والبيتان بروسما أبو تمام في حاسته الآبي النشناش ، وهو لص من تميم إسلامي ، مع اختلاف في الألفاظ (انظر الحاسة ١٦٦/١ ، ١٦٧) .

<sup>(</sup> ٣ ) عروة : ديوانه / ١٩٦ .

<sup>﴿</sup> ٤ ) عروة أيضاً : ديوانه / ١٩١ ـ

وفيم الخشية من الموت ؟ إن كل حي ملاقيه، سواء ممَن خاطر بنفسه ومن أحجم ، بل إن الموت قد يصيب المتخلف في أهله وينجو منه المغامر المخاطر :

أرى أم حسان الغسداة تلومني تخوفني الأُعداء، والنفس أُخُوَفُ لعسل الذي خوفتنا مِنْ أُمامنا يصادفسه في أهله المتخلف(١)

ومهما بمد الله في عمر الإنسان فالموت في انتظاره مُشْرَعَيَّةٌ أسنته :

وإنى ، وإن عُمَّرت ، أعلم أننى سألق سنان الموت يبرق أضلعا<sup>(۲)</sup> فالموت نهاية كل حى ، لن ينجو منه أحد مهما يحط نفسه يأبواب قوية وحراس أشداء :

دعینی ، وقولی بعد ما شئت ، إننی سیفندی بنعشی مرة فاغیب (۱)

ثم ما الذى يغرى الصعلوك على التمسك بالحياة والحرص عليها ؟ إن أحداً لا يرغب فى حياته ، وإن أحداً لن يبكى عليه بعد موته . إنه يعيش وحيداً ، وبموت وحيداً :

إذا ما أَتتنى ميتنى لم أبالها ولم تُذْرِ خالاتى الدموعَ وعمنى (٥) وصعائيك هذه الطائفة جميعاً ذوو عزيمة قوية صادقة ، لا يثنبهم شيء

<sup>( 1 )</sup> عروة أيضاً : ديوانه / ٩١ .

<sup>(</sup>٢) تأبط شراً : الأغانى ١٨/٢٨ .

 <sup>(</sup>٣) أبو الطمحان القبنى: الأغانى ١٣٢/١١ (بولانى) - ريمان: حصن باليمن. وأراجيل:
 جسم راجل. وأحبوش: الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة.. والأغضف: الكلب المسترخى الأذن. والآلف: المستأنس بمن بحرسهم، من الإلف.

<sup>(</sup> ٤ ) الشنفرى : الأغانى ٢١٦/١٨ - وديوانه / ٣٢ .

<sup>(</sup>ه) الشنفري أيضاً : الأغاني ١٣٩/٢١ - والمفضليات / ٢٠٦ .

عن هدفهم الذي يسعون إليه إلا الموت ، يقول تأبط شرًا مصورًا صدق عزيمته وقوة نفسه :

وكنتُ إذا ما هممتُ اعتزمتُ وأَخْر إذا قلت أَنْ أَفعلاً ١١

وإذا كانت الحياة قد قست عليهم فإنهم لن يستكينوا لها ، وإذا كانت تعمل على إخضاعهم وإذلالهم فإنهم سيقفون في وجهها ، ويتحدونها ، ويشنون عليها حرباً لا هوادة فيها ، وإذا كانت قد ألقت بهم في الرغام فإنهم سيهضون برغم كل شيء . ولعل هذا الببت الذي قاله أبو خراش الهذلي الصعلوك في رئاء أخ له يعبر تعبيراً دقيقاً عن تلك القوة النفسية التي كان يتمتع بها كل صعلوك من صعاليك هذه الطائفة :

ولكنه قــد نازَعتهُ مجَاوعٌ على أَنه ذو مِرَّة صادقُ النهض<sup>٢١)</sup>
هكذا كانت نفسية هؤلاء الصعاليك ، كل منهم «قد نازعته مجاوع » ،
ولكن كلاً منهم « ذو مرة صادق النهض » .

ومن عناصر قوتهم النفسية أنفتهم من القيام بتلك الأعمال التي يصح أن نطلق عليها « الأعمال الفرعية في المجتمع القبلي » ، وهي تلك التي كان يقوم بها العبيد وأشباههم ، ويأنف السادة من القيام بها ، كخدمة الإبل والقيام بأمرها (٣). ويصرح تأبط شرًا بترفعه على هذه الأعمال الفرعية وبأنه يأنف من القيام بها :

ولستُ بِتِرْعِيٌّ طويل عَشَاوُّهُ يؤنفها مستأنف النبت مُبُهِلِ (١)

<sup>(</sup>۱) ابن قتیبة : الشعر والشعراء /۱۷۷ ، وحماسة ابن الشجری / ٤٧ . ویذکر De Goeje ناشر « الشعر والشعراء » فی تعلیقه علی هذا البیت آن فی بعض انخطوطات « فعلت » مکان » اعتزمت » ، وهی عندی أدق فی تأدیة المعنی .

<sup>(</sup>۲) حماسة أبى تمام ۲/۱۵۱، وديوان الهذليين ۲/۱۵۸ ، وفيه «مخامص» مكان «مجاوع» .

 <sup>(</sup>٣) ﴿ العبد لايحسن الكر ﴾ وإنجما يحسن ألحلاب والصر ﴾ (عنترة ؛ الأغانى ٢٣٩/٨) ،
 وفي شعر السليك إشارة إلى قيام العبيد والإماء برعى الإبل (الأغانى ١٣٤/١٨) .

<sup>( ؛ )</sup> لسان العرب : مادة ( رعى ) - الترعى : الذي يجيد رعية الإبل ، أو من صناعته وصناعة آباته الرعى. ويؤنفها: أي يتنبع بها أنف المرعى أي التي لم ترع , وأبهل إبله: تركها مهملة .

ويصرح مرة أخرى بأنه يخجل من الوقوف وسط قطعان الغنم ، وقد حمل في يده عصا طويلة حتى أشبه ذلك الطائر المائي الطويل المنقار وقد وقف في مستنقع من مستنقعات المياه الضحلة :

ولست براعى تَلَّة قام وَسطها طويل العصَا غُرْنَيقضَحل مُرَسُلِ<sup>(۱)</sup> فهم لا يرتضون لأنفسهم إلا تلك الأعمال الأساسية التي يقوم عليها المجتمع البدوى كالغزو والإغارة . يقول تأبط شرًّا :

منى تبغنى ما دمتُ حبًّا مسلَّماً تجدنى مع المُسْتَرَعل المُتَعبُّهِلِ<sup>(٢)</sup> فكانهم الذى يطلبونه لأنفسهم ليس وراء الإبل أو بين قطعان الغنم ، ولكنه فى الطلبعة المتقدمة بين القادة والأبطال .

ثم هم – برغم فقرهم وما يلاقونه من مجتمعهم – كرماء ، حتى ليضرب بهم المثل فى الكرم (١) ، ويدُق رن عروة بحاتم الطائى الذى يعد فى نظر العرب المثل الأعلى للجود والسخاء ، وقد قال عبد الملك بن مروان : من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد (١) ، وأبدى تعجبه من أن الناس ينسبون الجود والسخاء إلى حاثم ويظلمون عروة (١) ، ووصفه الأصمعى بأنه «شاعر كريم » (١) . والواقع أننا لسنا فى حاجة إلى هذه الشهادات وأمثالها ، لأن أخبار عروة نفسها نفيض بأحاديث كرمه ، بل إن الرغبة فى الكرم التى كانت تملأ عليه نفسه كانت بعض الدوافع التى دفعته إلى تلك الثورة الاقتصادية التى عليه فله ها مختمع الحاهلى :

<sup>( )</sup> لسان العرب : مادة ( رسل) – الثلة : جماعة الغنم . والفرذيق : طائر مائى . و رجل مرسل : كثير الرسل أى اللن .

<sup>(</sup> ٢ ) لسان العرب : مادة ( رعل ) ، ومادة ( عبهل ) – المسترعل : الذي ينهض في الرعيل الأول ، أو الحارج في الرعيل ، أو هو قائد الفرسان . والمتعبهل : المستنع الذي لا يمنع . ( ٣ ) « كل صعلوك جواد » ( الميداني : مجمع الأمثال ٢ / ٩٠ ) .

<sup>( )</sup> الأغاني ٢٤/٣ .

<sup>(</sup>ه) انظر ابن السكيت : شرح ديوان عروة / ١٩٠.

<sup>(</sup>٦) الأصمعي : فحولة الشعراء (تَخطوطة) ورقة رقم ٣ – والمرزياتي : الموشح / ٨٠ .

يُريح على الليل أضياف ماجد كريم ،ومالى مارحاً مال مُقْتِر (١) أيلك معتم وزيد ولم أقم على نكب يوماً ولى نفس مُخْطِر (١) وهي تلك الثورة التي كانت تدفعه إلى مهاجمة الأغنياء البخلاء ليوزع ما يغتمه منهم على الفقراء الذين كانوا يلتفون حوله ، ويلوذون به ، في سي الجدب والقحط والجفاف (١) . وهو - قبل هذا كله - صاحب هذه الأبيات الجميلة التي يصور فيها كرمه تصويراً واثعاً على حظ كبير من الإنسانية ، فيراه مثاركة الفقراء له في إنائه ، واكتفاءه هو بالماء الحالص في أبام الشتاء الباردة ليوفر لم طعامهم ، بل يراه تقسيا لجسمه في أجسامهم حتى أصبح هزيلا شاحباً :

إنى امروً عافى إنائين شركة وأنت امروً عافى إنائك واحدُ أَبَرَا منى أَنْ سمنت وقد ترى بجسمى مس الحق ، والحق جاهد أقسم جسمى في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء ، والماء باردُ (٤) وتنتشر أحاديث هذا الكرم في شعره انتشاراً واسعاً (٥) ، حتى لتكاد كل صفحة من ديوانه تنطق بهذه الأحاديث التي كان يراها :

أحاديث تبتى ، والفتى غيرُ خالد إذا هو أمسى هامة فوق صَبر (٢٠) وهى أحاديث كان كل صعلوك يحرص على أن تبتى له بعد موته . وفى قافية تأبط شرًّا المفضلية المشهورة دفاع قوى عن كرمه وإسرافه اللذين جرا عليه كثيراً من اللوم والعذل والتأنيب :

<sup>(</sup>١) ديوانه / ٨٥ - والأصمعيات / ٢٠ .

<sup>(</sup>٢) ديوانه / ٨٣ - والأصمعيات / ٣٠ .

<sup>(</sup>م) انظر الأغاني ٧٨/٣ - ٧٩ .

<sup>( )</sup> ديوانه / ١٢٨ – ١٤١ .

<sup>(</sup>ه) انظرعل سبیل المثال دیوانه / ۲۰ ، ۲۱ ، ۲۲ ، ۲۲ ، ۲۲ ، ۸۹ ، ۹۳ ، ۹۳ ، ۹۳ ، ۱۸۱ ، ۱۳۹ ، ۱۳۹ ، ۱۸۱ . ۱۸۱ ، ۱۳۹ ، ۱۳۹ ، ۱۸۱ .

<sup>(</sup>٦) ديوانه / ٦٤ - ولمان العرب : مادة (صير) - والصير : القبر .

بل من لعدّالة خدّالة أشِب يقولُ أهلكت مالالوقنعت به عاذلتي إن بعض اللوم مَعْنَفَةً

حرَّقَ باللوم جلدى أَىَّ تُحراقِ من ثوب صدق ومن بَزُّ وأعلاق وهل متاعٌ ، وإن أبقيته ، باق<sup>(۱)</sup>

أما مادة هذا الكرم فهى - بطبيعة الحالى - ما يغنمونه من غزواتهم فى أرجاء الجزيرة العربية ، وغاراتهم على القبائل أو على القوافل التجارية أو على طبقة الأغنياء البخلاء . فقد كانت هذه الغنائم تنبح لهم فرصة - مهما تكن قصيرة - لكى يتشبهوا بالسادة الأغنياء فى البذل والعطاء واكتساب المحامد . وهكذا وكان الصعلوك ، فزع البرية ، ينقلب فى أعقاب غزواته الناجحة سيداً كريماً نبيلا ، يصُف على المواقد الإبل التى نهبها ليطعم منها البتاى والأرامل ، (٢) . فالغزو والغارة والسلب والنهب ليست عندهم وسائل الغنى وجمع المال فحسب ، ولكنها أيضاً وسائل البذل والعطاء ، واكتساب المحامد ، والتشبه بالسادة الأغنياء فى الكرم والجود . وإذا كانت هاتان الغايتان تتنازعان نفوس بالسادة الأغنياء فى الكرم والجود . وإذا كانت هاتان الغايتان تتنازعان نفوس يصرح فى قافيته المفضلية بأن المال وسيلة للكرم ، ووسيلة و لتسديد الحلال ، يصرح فى قافيته المفضلية بأن المال وسيلة للكرم ، ووسيلة و لتسديد الحلال ، أيضاً (٣) ، فإن الغاية الأخيرة وحدها كانت هى الغاية الأساسية عند عروة الذى خلصت نفسه تماماً من هذا التنازع وهذه المجاذبة :

دَعينى أَطوُّنْ فى البلاد لعلنى أَفيد غنى فيه لذى الحق مَحمِلُ السِين عَظِيماً أَنْ تلمَّ ملمَّة وليس علينا فى الحقوق معوَّل فإن نحن لم تملك دفاعاً بحادث تلم به الأيام فالموت أَجملُ (٤)

<sup>(</sup>١) المفضليات / ١٨ ~ عذالة وخذالة للمبالغة . والأشب : المخلط عليه المعترض. والأعلاق : الأشياء النفيسة .

Lammens; Le Berceau de l'Islam, vol. I, p. 190. (Y)

<sup>(</sup>٣) انظر المفضليات / ١٩ - الخلال : خصاصات الفقر ، جمع خله .

<sup>( ۽ )</sup> ديوانه / ٢٠٦ .

فطلب الغنى عند عروة ليس هدفاً فى ذاته ، ولكنه وسيلة للكرم وقضاء الحقوق والتشبه بالسادة .

و إلى جانب هذه القوة النفسية التي كان هؤلاء الصعاليك يمتازون بها كانوا يتمتعون أيضاً بحظ وافر من الشجاعة والجرأة وقوة الحسد .

وتفیض أخبارهم وأشمارهم بأحادیث هذه القوة ، كما تتردد هذه الأحادیث فی أخبار معاصریهم وفی شعرهم أیضاً . یقول تأبط شرًّا مفتخراً بقوته : الله وما وَلدَتْ أَمَى من القوم عاجزًا ولاكان ریشی من ذُنانِی ولا لَغب (۱۱ وما وَلدَتْ أَمَى من القوم عاجزًا ولاكان ریشی من ذُنانِی ولا لَغب (۱۱ المعنوم المعامر المعنوم المعامر المعنوم المعامر المعنوم عاجزًا ولاكان ریشی من ذُنانِی ولا لَغب (۱۱ المعنوم المعامر المعنوم عاجزًا ولاكان ریشی من ذُنانِی ولا لَغب (۱۱ المعنوم المعنوم عاجزًا ولا كان ریشی من ذُنانِی ولا لَغب المعنوم المعنوم عاجزًا ولا كان ریشی من ذُنانِی ولا لَغب المعامر المعنوم المعنوم عاجزًا ولا كان ریشی من دُنانِی ولا لَغب المعامر المعامر

ويصرح الشنفرى – فى اعتداد بنفسه - بأنه يقدم فى شجاعة وجرأة حيث يقف الجبان هلعاً جزوعاً :

إذا خشعت نفس الجبان وخَيُّمَت فلي حيث يخشي أن يجاوز مِخْشَوْ (٢)

ويرسم عمرو بن معديكرب الفارس المشهور صورة السليك بن السلكة يصفه فيها بأنه «كالليث يلحظ قائماً »، وبأنه :

له مامة ما تأكل البَيْضُ أُمُّها وأَشباح عادى طويل الرواجب (٣)

ويرسم أبو كبير الهذل في أبياته اللامية التي رواها أبو تمام في حماسته (1) صورة قوية لتأبط شراً ، يصورفها قوته وصلابته وخفته، وسرعة عدّوه ، وجرأة قلبه ، وشدة مراسه ، ومضاء عزيمته ، وكيف أعدته الطبيعة منذ طفولته المبكرة ، بل من قبل طفولته ، ليكون قويناً يستطيعاًن ينهض بالعبء الذي

 <sup>(</sup>١) لسان ألعرب ، مادة (لغب) - الذنابي . ذنب الطائر أو منبت الذنب . واللغب :
 الريش الفاسد .

 <sup>(</sup>۲) الأغانى ۱٤١/۲۱ ، وق ديوانه / ٣٩ لا وآب إذا أجرى الجبان وظنه لا ولا معنى
 له - خيم : أقام حيث هو فلم يبرح ، أو جبن وتكم . والمحشف : الجرىء على هول الليل ،
 وهو هنا صفة القلب .

<sup>(</sup>٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٣١٦ ، ٣١٧ - أم كل شيء : أصله وعماده ، وأم الرأس : اللماغ أو الجلملة الرقيقة التي عليها . والبيضة : خوذة الحديد . وعادى : كأنه من قوم عاد . والرواجب : مقاصل الأصابع .

<sup>(</sup>٤) انظر ج ١ ص ٨٢ – ٨٩ .

متلقيه الحياة على عائقه فيا بعد ، ذلك العبء الثقيل الذى لا يستطيع أن ينهض به إلا من أعدته الطبيعة له إعداداً خاصًا ، وهى صورة متكاملة الجوانب ، دقيقة الخطوط ، واضحة الألوان ، يرسمها الشاعر لتأبط شرًا ، ولكنها تصلح أيضاً لكل صعلوك من أولئك الصعاليك الأقوياء الذين روعوا الجزيرة العربية في عصرها الجاهلي ، وأثاروا في أرجائها الرعب والفزع .

وحقاً لقد كان هؤلاء الصعاليك فزعاً رهيباً في هذا المجتمع الجاهلي ، حتى لنسمع أن فارساً من فرسانه المعدودين ، وهو عمرو بن معد يكرب ، يصرح بأنه لا يخشى أحداً من فرسان العرب إلا أربعة ، أحدهم السليك ابن السلكة (۱) ، وأنه يستطيع وحده أن يحمى الظعينة وبخترق بها أعماق الصحراء ما لم يلقه واحد من هؤلاء الأربعة (۱) . وحسب السليك أن يُقدرن بعامر وعتيبة وعنترة ، وأن يخشى بأسه عمرو بن معد يكرب .

والواقع أن هذه الشجاعة الفائقة لم تكن مقصورة على صعلوك دون صعلوك و إنما كانت صفة يمتاز بها كل صعاليك هذه الطائفة ، حتى أصبح الصعلوك مثلا يضرب في الشجاعة (٣) . أما أولئك الصعاليك الذين عرفوا بالفرار فإنهم كانوا يتعدُّونه لوناً من ألوان قوتهم الجسدية ، لأنه المجال الذي يظهرون فيه شدة

<sup>(</sup>١) ما أبانى من لقيت من فرسان العرب ما لم يلمقنى حراها وهجيناها » يعنى بالحرين عامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وبالعبدين عنترة ، والمليك بن السلكة . (الأغانى ٢٤٦/٨) .

<sup>(</sup>۲) ولو سرت بظعینة وحدی علی میاه معد کلها ما خفت أن أغلب علیها ، ما لم بلغی حراها أو عبداها ، فأما الحران فعامر بن الطفیل ، وعتیبة بن الحارث بن شهاب ، وأما العبدان أسود بنی عبس (یعنی عنبرة) والسلیك بن السلكة ، وكلهم قد لقیت ، فأما عامر بن الطفیل فسریع الطعن علی الصوت ، وأما عتیبة فأول الحیل إذا أغارت وآخرها إذا آبت ، وأما عنبرة فقلیل الكبوة شدید الجلب ، وأما السلیك فیعید الفارة كالملیث الضاری » (الأغانی ۲۸/۱٤ ، فشرح ابن الأنیاری عل المفضلیات / ۲۰۵ ، ۲۰۵ ، وانظر أیضاً أسامة بن منقة : لباب فشرح ابن الأنیاری عل المفضلیات / ۲۰۵ ، ۲۰۵ ، وانظر أیضاً أسامة بن منقة : لباب الآداب / ۱۸۱) .

<sup>(</sup>٣) «كان يقاتلهم بجنده مقاتلة الصعلوك» (من حديث لرسول المهلب يصف فيه للحجاج قتاله الخوارج – انظر المسعودى : مروج الذهب ١٤٨/٢) .

عَدْوهم، كَمَا كَانُوا يرون فيه وسيلة للنجاة حتى يستأنفوا القتال في ظروف أشد ملاءمة لهم . يقول أبو خراش الهينيل الصعلوك :

فإنَّ تَزَعُمى أَنى جبنتُ فإننى ﴿ أَفْرُ وأَرَى مرةً كل ذلك أَقَالُ حَتَى لا أَرى لى مُقَاتَلاً ﴿ وَأَنجو إِذَاما خفتُ بعض المهالكِ(١)

فهو يدافع عن فراره ، ويرى أنه ليس دليلا على جبنه ، وإنما هو وخطة موضوعة ، يضطر إليها حين يصبح القتال ومغامرة انتحارية ، لا أمل فيها ، حتى ينجو من هلاك محقق ، فيستأنف القتال حين يصبح القتال أمراً مضمون العاقبة .

ومن أشد ما يلفت النظر من مظاهر هذه القوة الجسدية سرعة العدو الخارقة المعادة التى اشهرت بها هذه الطائفة من الصعاليك ، حتى ليطلق عليهم أحياناً اسم و العدائين » (۱) ، أوه الرَّجلييّين » أوه الرُّجييلاء» (۱) ، كأنما أصبحت سرعة العدو ظاهرة مميزة لمم ، وصفة ملازمة يعرفون بها . والمثل يضرب بجماعة منهم في سرعة العدو ، فيقال و أعدى من الشنفرى » (1) ، و و أعدى من السلبك » (١) ، و و أمضى من مليك المقانب » (١) . وتصفهم مصادر الأدب

<sup>(</sup>١) ديوان الهذليين ٢/١٦٩ – وحاسة الخالديين (مخطوطة) ورقة رقم ٢٩٧ .

<sup>(</sup>۲) أفظر على سبيل المثال : الأغانى ١٩٣٢/١٨، ٢١٠ – والبغدادى : خزانة الأدب ٢١٠ – والبغدانى: بخوانة الأدب ١٧/٢ – والميدانى: مجمع الأمثال ٤٣١/١ – والنيسابورى : لطائف المعارف (مصورة) لوحة رقم ٧٧ – وتاج العروس : مادة (شفر) ومادة (شنفر) .

<sup>(</sup>٣) في تأج العروس (مادة رجل) و والرجيلاء كغميصاء ، والرجليون محركة ، قوم كانوا يعدون ع . وهما تسميتان تترددان كثيراً في مصادر الأدب العربي وفي كتب المنة ، انظر على سبيل المثال ابن قنيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ – والمرزباني : معجم الشعراء / ٤٦٨ – والآمدي : المؤتلف والمختلف / ٢٧ – والمبرد : نسب عددان وقعطان / ٩ – وابن حبيب : الحبر / ٣٣٤ – وابن دريد : جمهرة اللغة ١/٠٤١ – وابن عبد ربه : العقد الفريد ٣٤٧/٣ .

<sup>(</sup> ٤ ) الميدانى : مجمع الأمثال ٢/ ٤٣٠ ~ وتاج العروس : مادة (شفر ) ومادة (شنفر ) .

<sup>(</sup> ٥ ) المصدران السابقان : الميداني / ٢٦١ - والتاج : مادة (سلك) .

<sup>(</sup>٣) الميداني : مجمع الأمثال ٢٣٣/٢ – والأغاني ١٣٧/١٨ - وابن عبد ربه : العقد الفريد ٣٢٣/٢ ~ وابن دريد : جمهرة المنة ٢٣٣/١ .

العربى بأنهم د أشد الناس علواً «(۱) ، أو أنهم و لا يجارَون علواً «(۱) ، أو أنهم و لا يجارَون علواً «(۱) ، أو «لا يندحتقون »(۱) ، أو يعدون علواً يسبقون به الحيل (۱) ، أو لا تعلق بهم الخيل (۱) ، أو لم تلحقهم الخيل (۱) .

وتفيض هذه المصادر بأحاديث عدوهم وأخبار سرعتهم ، وتبالغ فيها مبالغة تبدو أحياناً غير مقبولة ، فتأبط شراً ، كان أعدى ذى رجلين وذى ساقين وذى عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر إلى الظباء ، فينتقى على نظره أسمها ، ثم يجرى خلفه ، فلا يفوته حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ، ثم يشويه فيأكله ، (٧) . وفي أخبار حاجز الأزدى أن أباه قال له : « أخبرنى يا بني بأشد عد وك ، قال : نعم ، أفزعتنى خثعم ، فنزوت نزوات ، واستفزتنى الحيل ، واصطف لى ظبيان ، فجعلت أنههما بيدى عن الطريق لضيقه ، ومنعانى أن أتجاوزهما في العدولضيق الطريق ، حتى اتسع واتسعت بنا فسبقهما» (٨) . وفي أخبار السليك أن بنى كنانة قالوا له حين كبر : « إن رأيت أن ترينا بعض ما بنى من أحضارك ، فقال : اجمعوا لى أربعين شاباً ، وابغونى درعاً ثقيلة . فأخذها فلبسها ، وخرج الشباب ، حتى إذا كان على رأس ميل أقبل يُحضر ، فلاث العدو لتوناً ، واهتبصوا في جنبتيه فلم يصحبوه إلا قليلا ، فجاء يحضر منتبذاً حيث لا يرونه ، وجاءت الدرع تخفق في عنقه كأنها خرقة » (٩) . وفي أخبار أبي خراش أنه دخل مكة و والوليد بن المغيرة المخزوى فرسان يريد أن يرسلهما في الحائمة ، ققال الوليد : ما تجعل إن سبقتهما ؟ قال : إن فعلت فهما الك، أبي خراش أنه دخل مكة و والوليد بن المغيرة المخزوى فرسان يريد أن يرسلهما في الحائمة ، ققال الوليد : ما تجعل إن سبقتهما ؟ قال : إن فعلت فهما الك،

<sup>(</sup>١) الأغاني ١٣٤/١٨ - والنيسابوري : لطائف المعارف ، لوحة ٧٧ .

<sup>(</sup>٣) المرزياقي : معجم الشعراء / ٤٦٨ .

<sup>(</sup>٣) الأغاق ١٢٢/١٨ ، ٢٠/٢٠ ،

<sup>(</sup> ٤ ) الأغاني ١٢/ ٩٤ ( بولاق) .

<sup>(</sup> ه ) الأغاني ١٣٨/١٨ ، ١٣٤ - وابن قنيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ .

<sup>(</sup>٦) البندادي: خزانة الأدب ١٦/٢.

<sup>(</sup>٧) الأغاني ١٨/١١٠ .

<sup>(</sup> ٨ ) الأغاني ١٢/١٤ ، ٥٠ ( بولاق ) .

<sup>(</sup> ٩ ) ابن قتيبة : الشعر والشمراء / ٣١٤~ اهتبصوا : أسرعوا أو بالغوا في العدو .

فأرسلا وعدا بينهما فسبقهما، فأخذهما» (١). ويذكر الرواة أن خطو الشَّنْفَرَى ذُرع ليلة قُتُل ، و فوجد أول نزوة نزاها إحدى وعشر بن خطوة ، والثانية سبع عشرة خطوة ، والثالثة خمس عشرة خطوة » (١٦) . ومن الطريف أن يصف تأبط شرًّا رفيقه في الصعلكة الشنفرى حين يعدو بأنه « قد طار » (١٦) ، أو يصف عدو عمرو بن برَّاقة بأنه « مثل الربح » (١٤) ، أو نسمعه يقسم بقوله « والذي أعدو بطيره » (٥) ، وهو قسم يستمد طرافته من ذكر الطبر فيه ، وعقد صلة بينها وببن عدوه ، كأنما أصبح الصعلوك يعدو بأجنحها .

وفي كل مناسبة يردد هؤلاء الصعاليك في شعرهم أحاديث عدوهم وسرعتهم . وهم يتحدثون عنهما دائماً في اعتداد وفخر كبيرين ، إذ يرون فيهما ميزة تفردوا بها من ببن سائر البشر ، ووسيلة تعينهم على الحياة ، وتيسر لهم سبل النجاة . يقول تأبط شرًا مفتخراً بسرعته التي أنجته من أعدائه وما أرسلوه خلفه من خيل سريعة :

ليلة صاحوا وأغروا بي سراعهم كأنما حشحشوا حُصًّا قوادمه كأنما حشحشوا حُصًّا قوادمه لاشيء أسرعُ مني ، ليس ذا عُذر حتى نجوتُ ولمًا ينزعوا سَلَبي

بالعَیْکتین لدی معدی ابن براق أو أم خِشف بدی شَمْتُ وطُبَّاق وطُبَّاق وذا جناح بجنب الرَّیْد خفاق بواله من قَبِیض الشد غَیْداق (۱۲)

<sup>(</sup>١) الأغاني ٢١/٧٥.

<sup>(</sup>٢) البغدادي : خزانة الأدب ١٨/٢ .

<sup>(</sup>٣) ابن الأنباري : شرح المفضليات / ٦ ـ

<sup>(</sup>٤) الأغاني ١٨/١٨.

<sup>(</sup>ه) المصدر الدابق / ۲۱۱.

<sup>(</sup>٢) المفضليات / ٧ - ١١ . العيكتان : امم موضع . حثحثوا : حركوا ، من الحث . القوادم : ما يل الرأس من ريش الجناحين ، والحص : التي تناثر ريشها وتكس ، وهذه دلالة على السرعة والحفة ، وقوله به حصا قوادمه » يعنى الظليم . الحشف : ولد الظبية . الشت والعلباق : نبتان من ذبت السراة . العذر : ما أقبل من شعر الناصية على الوجه ، ويعنى بذى عذر فرسا . الريه : حرف الجبل الذي يشرف على الهواء . الواله : الذاهب العقل فليس يستبق من جهده في عدوه شيئاً . القبيض : السريع . الشد : العدو . الغيداق : الكثير الواسع .

إنه سريع كالظليم أو الظبية ، بل إنه أسرع من كل شيء حتى الخيل الجياد والطبر الجارحة فوق قمم الجبال . ويصرح أبو خراش بأن سرعة عدوه هي التي أنجته من موت محقق ، فلولاها لآمت امرأته ويتم ابنه :

تقول ابنتى لما رأتنى عشيةً: سَلِمْتَ ومَاإِن كدتَ بِالأَمسَ تَسْلَمُ وَلُولاً دِرَاكُ الشَّد قاظت حليلتى تخيَّر من خطابها وهى أَيِّمُ فَتَقَعد أَو ترضى مكانى خليفةً وكاد خراشٌ يومَ ذلك يَيْتَم (١) وفي لامية العرب صورة قوية لهذه السرعة نرى فيها الصعلوك يسبق القطا

الظامئة وهي تسرع إلى الماء :

وتشرب أسآرى القطا الكُدر بعدما سرَت قرباً أحشاؤها تتصلصل هممت وهمت ،وابتدرنا ، وأسدلت وشمّر منى فارط متمهّل فوليت عنها وهى تكبو لعُقره يباشره منها ذُقون وحَوْصَلُ(١) إنها مباراة طريفة يقدمها لنا الشاعر بينه وبين القطا فى الوصول إلى الماء ، تنهى بفوزه عليها ، وإدراكه الماء قبلها ، بل لقد شرب وارتوى قبل أن تصل هى ، فلما وصلت لم تجد إلا سؤراً تشربه من بعده .

ولعل أقوى صورة رسمها صعلوك لهذه السرعة هي تلك الصورة التي رسمها تأبط شرًّا ، والتي نرى فيها الصعلوك يسبق الريح بسرعته الفائقة :

وَيَسْبِقُ وَفَٰدَ الريح مِن حيثُ يَنْتَحى بَمُنْخُرِقَ مِن شَدَّهِ المُتَدَارِلَةِ (٣) بِلَ إِنَ الأمر ليصل بحاجز الأزدى إلى أن يَفَدُّ ي رجليه بأمه وخالته ، وماذا أفاد من أمه وخالته سوى تلك الحياة القاسية المحتقرة التي جَرَّتاها عليه بلونهما الأسود ؟ أما رجلاه فهما كل شيء في حياته ، ولولاهما لفقد الحياة

<sup>(</sup>۱) ديوان الهذليين ۱۹۸/۲ . والأغانى ۲۱/۲۱ه ، ۵۷ . وحماسة الخالديين (مخطوطة) ورقة رقم ۲۵ – قاظت : أقامت .

 <sup>(</sup>٢) القالى : النوادر / ٢٠٥ - القرب : طلب الماء ليلا . الأحناء : الجوانب .
 تتصلصل : تصوت , الفارط : المتقدم . العقر : مقام الساق من الحوض .

<sup>(</sup>٣) حماسة أبى تمام ١/٨٤ – المنخرق : السريع . المتدارك : المتلاحق .

نفسها ، وإذا كانت أمه وخالته سبب ما يلاقيه فى حياته فإن رجليه سبب إنقاذه مما يلاقيه فيها :

فدّى لكما رجلى أمى وخالى بسعيكما بين الصّفا والأثائب ال وعلى ما فى أحاديث هذا العدو فى أخبار الصعاليك وشعرهم من مبالغات يقف المرء عندها متماثلا: أيمكن أن يكون هذا صحيحاً ؟ فإنها على كل حال — تصور ظاهرة لاشك فى حقيقتها المجردة ، وهى أن هؤلاء الصعاليك كانوا يمتازون بسرعة فى العدو خارقة للعادة ، وهى سرعة لفتت أنظار الرواة فسجلوها بما فيها من مبالغات ، واستقرت فى أذهان الناس فضربوا بها الأمثال ، ووجد فيها بعض الشعراء المتأخرين مادة يستغلونها فى فنهم ، ويستخدمونها فى تشبيهاتهم وصورهم الفنية (١٠).

وينظر هؤلاء الصعاليك الأقوياء إلى المجتمع الذي يعيشون فيه ، فإذا هو مجتمع ظالم ، وإذا توزيع الثروة فيه توزيع جائر مضطرب . إنه مجتمع لا يؤمن إلا بالمال ، ولكنه – مع ذلك – لا يحسن توزيع المال بين أفراده ، فليس من العدل أن يكون لأحد أفراده عدد ضخم من الإبل في حين لا يملك الآخر غير حبل يجرره لا بعير فيه ، وما هذه الإبل التي يملكها هذا الفرد سوى إبل الله خلقها للناس جميعاً ، فهي ليست حقاً له وحده دون غيره من خلق الله في هذه الأرض (٣) .

والعجيب من أمر هذا المجتمع أن بين من يعطيهم بغير حساب بخلاء

 <sup>(</sup>١) الأغانى ٢/١٢ه (بولاق) -- وحاجز من أغربة العرب سرى إليه السواد من أمه
 (تاج العروس ، مادة «غرب») والأثائب : شجر ينبت في بطون الأودية .

<sup>(</sup>۲) انظر على سبيل المثال : وصف جرأن العود القوادة ( ابن قتيبة : الشعر والشعراء /۲۵۶) ، ووصف البحرى للمفازة (ديوانه / ۷۳)، ووصف ابن الروى لشهر الصيام (ديوانه ۷۷/۱).

<sup>(</sup>٣) وإنى لأمتحيى لنفسى أن أرى أمر بحبل ليس فيه بمير وأن أسأل العبد اللئيم بميره وبعران ربى في البسلاد كثير (الأحيم السعدي في الشعر والشعراء / ٤٩٥).

أشحاء لا ينتفع بمالهم أحد ، في حين يَعْرِم فيمن يحرم كرماء لو أعطاهم لنفعوا بمالهم أفراد مجتمعهم الفقراء المحتاجين ، فهو يحرم هؤلاء الكرماء ما يكنزه أولئك البخلاء، ويحرمهم نتيجة لهذا فرصة التكافؤ الاجتماعي ومساواة إخوانهم في الإنسانية من الأغنياء الكرماء في شراء تلك الأحاديث الخالدة التي « تبقى والفتى غير خالد إذا هو أمسى هامة فوق صَيَّر ، كما كان يتمول عروة .

ووقف هؤلاء الصعاليك أمام هذه المشكلة الخطيرة ، ولم يجدوا أمامهم السبب ظروف البيئة والمجتمع والزاج الشخصى - من وسيلة يرضونها لأنفسهم إلا الاعتماد على القوة يغتصبون عن طريقها ما آمنوا بأنه حقهم المسلوب ، والحَلَّة تدعو إلى السَّلَّة ، - كما يقول المثل العربي (1)، فحضوا خلف أولئك الأغنياء المترفين ، وبخاصة البخلاء منهم ، وتربصوا بالقوافل التجارية التي تسيل بها شعاب الجزيرة العربية ، ينهبون ويسلبون ، ولا يتورعون عن قتل من يعترض طريقهم ، لأن المسألة أخذت في أذهانهم وضعاً ثنائيًا لا ثالث له : يعترض طريقهم ، لأن المسألة أخذت في أذهانهم وضعاً ثنائيًا لا ثالث له : لقد آمن هؤلاء الصحاليك بأن «الحق القوة » ، وأن الضعيف ضائع حقه في هذه الحياة ، ورأوا أمامهم أولئك الصعاليك الفقواء المستضعفين وما يلاقونه من ذل وضيم وهوان ، قرئوا لهم ، وآلوا على أنفسهم أن يثأروا لهم ممن استضعفوم ، وأن يفرضوا أنفسهم فرضاً على ذلك المجتمع الذي أذل إخوانهم الضعفاء .

هكذا رسم هؤلاء الصعاليك الأقوياء النفس والجسد خطتهم من أجل الحياة أولا ، ثم من أجل فرض أنفسهم على مجتمعهم الذى لا يعترف بهم ، وتحقيق صورة من صور العدالة الاجتماعية بين طبقات هذا المجتمع بعد ذلك ، وهى خطة تقوم على أساس ، الغزو والإغارة للسلب والنهب ،

وأحاديث والغزو والإغارة للسلب والنهب، تنتشر في أخبار هؤلاء الصعاليك وشعرهم انتشاراً واسعاً ، بل لعلها أكثر ما ينتشر في أخبارهم وشعرهم

<sup>. (</sup>١) انظر القاموس المحيط ، مادة (خلل) .

من أحاديث ، حتى لتوشك أن تكون هي اللون البارز في لوحة حياتهم الاجتماعية والفنية .

فيي أخبار السليك أنه و أملق حتى لم يبق له شيء ، فعفرج على رجليه ربعاء أن يصيب غرة من بعض من يمر به فيذهب بإبله ، حتى أمسى في ليلة من ليالي الشتاء باردة مقمرة . فاشتمل الصباء ، ثم نام . . . فبيها هو نائم إذ جثم رجل فقعد على جنبه فقال : استأسر » ، وسأله السليك من يكون ، فقال له : وأنا رجل افتقرت ، فقلت الآخرجن فلا أرجع إلى أهلى حتى أستغنى ، فآتيهم وأنا غنى » ، فقال له السليك : انطلق معى ، و فانطلقا معا ، فوجدا رجلا قصته مثل قصتهما ، فاصطحبوا جميعا ، حتى أنوا الجوف ، فوجدا رجلا قصته مثل قصتهما ، فاصطحبوا جميعا ، حتى أنوا الجوف ، جوف مراد ، فلما أشرفوا عليه إذا فيه نبعيم قد ملاكل شيء من كثرته ، فهابوا أن يغيروا » ، ولكن السليك دبر لهم حيلة و فأطردوا الإبل ، فذهبوا بها ، فهابوا أن يغيروا » ، ولكن السليك دبر لهم حيلة و فأطردوا الإبل ، فذهبوا بها ،

إنها قصة تصور لنا تلك الهوة الواسعة بين الطبقات في المجتمع الجاهلي : بين أولئك الذين الملقوا حتى لم يبق لهم شيء » ، وأولئك الذين أترفوا حتى و ملا نتعسمهم كل شيء من كثرته » ، وهي هوة كانت تدفع هؤلاء الصعاليك المعدمين للخروج إلى الصحراء من أجل اغتصاب رزقهم من أيدى أولئك المترفين ، وانتزاع لقمة العيش من بين أنيابهم ، أو بعبارة أخرى - كانت تدفعهم إلى « الغزو والإغارة للسلب والنهب » .

وفى أخبار تأبط شرًّا أنه خرج فى وعدة من فهم » يريدون الغارة على أحد أحياء بجيلة ، وتمت الغارة بقتل نفر من بجيلة ، وبهب إبل لهم . وساق الصعاليك الإبل حتى إذا كانوا وعلى يوم وليلة من بلادهم » تصدت لهم خثعم طامعة فيا معهم ، ودار قتال بين الفريقين : صعاليك فهم العائدين بغنيمتهم ، ورجال خثعم الطامعين فيها . وثبت الصعاليك – على قلتهم وكثرة خثعم – وانهى

<sup>(</sup>١) الأغانى ١٣٤/١٨ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ – ٢١٥ مع اختلاف يسير في ألفاظ القصة .

الصراع بالهزام ختم وتفرقها ، وانطلاق الصعاليك بغنيمتهم (١) .

فى هذه القصة نرى صورة من حياة الصعاليك فى المجتمع الجاهلى ، تلك الحياة التى كانت تقوم على « الغزو والإغارة للسلب والنهب » ، ومثلا قويمًا لذلك الصراع الدامى الذى كان الصعاليك يخوضون غماره فى سبيل الحياة ، وهو صراع كانوا بخوضون غماره فى شجاعة وقوة لأنهم كانوا يتمثلونه صراعاً بين الحياة والموت .

وفى أخبار عروة أنه كان \_ إذا أصابت الناس سنة شديدة \_ يجمع المرضى والضعفاء والمسنين من عشيرته، و مم يحفر لهم الأسراب، ويكنف عليهم الكُننُف، ويكسبهم ، ومن قوى منهم إما مريض يبرأ من مرضه ، أو ضعيف تثوب قوته ، خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقين فى ذلك نصيباً . حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى و (١).

وفى أخباره أيضاً أنه «بلغه عن رجل من بنى كنانة بن خزيمة أنه أبخل الناس وأكثرهم مالا ، فبعث عليه عيوناً فأتوه بخبره ، فشد على إبله فاستانها ، ثم قسمها فى قومه (٣) .

على هذا النحو كانت الصعلكة عند عروة نزعة إنسانية ذياة ، وضريبة يدفعها القوى للضعيف ، والغنى للفقير ، وفكرة اشتراكية تشرك الفتراء فى مال الأغنياء، وتجعل لهم فيه نصيباً، بل حقاً يغتصبونه إن لم يتُود لهم ، وتهدف إلى تحقيق لون من ألوان العدالة الاجتماعية ، والتوازن الاقتصادى بين طبقتى المجتمع المتباعدتين : طبقة الأغنياء ، وطبقة الفقراء ، و فالغزو والإغارة للسلب والنهب ، لم يعد عنده وسيلة وغاية ، وإنما أصبح وسيلة غايبها تحقيق نزعته الإنسانية وفكرته الاشتراكية .

<sup>(</sup>١) الأغاني ١٨/١٨ - ٢١٦.

<sup>(</sup>٢) الأغانى ٧٨/٣~٧٩ ، والتبريزي : شرح حماسة أبي تمام ٧/٣ .

<sup>(</sup>٣) ابن السكيت : شرح ديوان عروة / ١٨١ .

وقد بحدث أن تتطور هذه الأهداف الاجتماعية والاقتصادية عند بعض الصعاليك إلى لون من التمرد الخالص الذى لا يميز بين الأهداف ، فإذا هم يتعرضون لكل من يسوقه حظه السبئ إلى مناطق تربصهم. يقول تأبط شراً معبراً عن هذا التمرد الخالص الذى أصبح عنده الوسيلة والغاية معاً :

ولست أبيتُ الدهرَ إلا على فتى أسلّبه أو أذعرُ السرّب أجمعا (١)
أو يناصبون قبائل معينة العداء ، يصبون عليها شرورهم ، ويوجهون إليها
غاراتهم وغزواتهم ، كما كان يفعل تأبط شرّا مع تلك المجموعة من القبائل
التي يعددها في بعض أبياته (٢) ، وكما كان بين صعاليك هذّيل وصعاليك
فقهم من عداوة مستحكمة لا بهذا أوارها ، ظهرت آثارها في شعر الفريقين
وأخمارهما (٢) .

وفى شعر الصعاليك صور كثيرة متعددة الألوان والأوضاع لهذه الغارات ، وأحاديث عنها لا تكاد تنهى حتى تبدأ ، وفى أكثر قصائد هذا الشعر ومقطوعاته يردد الصعاليك أقاصيص هذه الغارات فى فخر وإعجاب ، واعتداد بأنفسهم وبطولتهم . وفى تائية الشنفرى المفضلية صورة رائعة قوية لغارة قام بها هو وأصحابه الصعاليك ، يصف فيها كيف أعد عصابته للغزو ، ويصف الطريق الذى ملكوه ، ويتحدث عن الدوافع التي دفعته إلى هذه الغارة ، ثم يتحدث عن الأهداف التي حققها ، والغايات التي وصلت إليها . يقول :

وباضعة حمر القسى بعثتها ومنْ يغزُ يَغْمُ مرة ويُشَمَّت خرجنا من الوادى الذى بين مشعَل وبين الجبا. هيهات أنشأت سُربُتى أمثًى على الأرض التي لن نضرنى لأنكى قوماً أو الاق حُمَّى أمشى على أين الغزاة وبُعْدها يقربنى منها رواحى وغُدُونَى ثُم يقول:

جمار مني وَسطَ. الحجيج المصوّت

قتلنا قتيلا مُهدياً بمُلَيد

<sup>(</sup>١) الأغاني ٢١٧/١٨ .

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق / ٢١٨.

<sup>(</sup>٣) أنظر على سبيل المثال شرح أشمار الهذليين ٢/٣٣، ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ .

جزینا سلامان بن مُفرج قرضها عسا قدمت أیدهم وأزلت و هنی بی قوم ولیسوا عنبی و أصبحت فی قوم ولیسوا عنبی شفینا بعید الله بعض غلیلنا وعوف لدی المَعْدَی أوان استهلت (۱)

وفى لامية العرب قصة غارة مفاجئة خاطفة قام بها الصعلوك فى ليلة باردة ذات ظلام ومطر ، وقد استبد به الجوع والبرد والخوف ، ثم عاد إلى « قواعده » سالماً ، بعد أن حقق أهدافه ، مخلفاً وراءه القوم يتساءلون : ما هذا الذى طرق حيهم ليلا ؟ وقد ذهبت آراؤهم فيه مذاهب شتى :

وليلة نحس يضطلى القوسَ رُبها دُعستُ على غَطْش وبَغْش ، وصحبتى فأعتُ نسوانًا ، وأيتمت إلدة وأصبح عنى بالغُميصَاء جالسًا فقالوا : لقد هرّت بليل كلابنا فلم تك إلا نبأة ثم هوّمت فإن يك إلا نبأة ثم هوّمت فإن يك من جن لأبرَحُ طارقاً

وأقطعُسه اللاني بها يَتَنبَّلُ سُعَارُ وإِرْزِيزٌ ووَجِرُ وأَفكلُ سُعَارٌ وإِرْزِيزٌ ووَجِرُ وأَفكلُ وعدتُ كما أبدأت ، والليلُ أليلُ فريقان : مسئولُ وآخرُ يَسْأَلُ فقلنا أَذنبُ عَسَّ أَم عس فُرْعُلُ فقلنا أَذنبُ عَسَّ أَم عس فُرْعُلُ فقلنا قطاةً ربع أَم ربع أَجْدَلُ وإِن يِك إِنسَاماكها الإِنس تفعل (٢)

<sup>(</sup>۱) المفضليات / ۲۰۲ - ۲۰۳ - ۲۰۰ ، ۲۰۰ ، وانظر أيضاً الأغانى ۱۲۹۲ - ۱۴۰ الباضمة : القاطعة ، ويريد بها أصحابه الصحاليك . بعثها : أى غزوت بهم . حسر القسى : أى أنهم غزوا مرة بعد مرة فاحمرت قسيهم الشمس والمعلم . والقسى تحمر على القدم . السربة : الجساعة ، وقوله ه أنشأت سربتي ه أى أظهرتهم من مكان بعيد ، يصف بعد مذهبه في الأرض طلباً الفنيمة . وقوله « لن تضرفي ه أى لن أخاف بها أحداً . وقوله « لأنكى قوماً » من النكاية . الحمة : المنية . وقوله ه على أين الغزاة ه أى على ما يصيبني من تعبها ، وأنا مع ذلك أمثى . الملبد : المحرم الذي يأخذ صمغاً فيلبد به شعره لئلا يشعث في مدة الإحرام . وقوله « وهي " جمار مني » أى عند الحمار . سلامان بن مفرج من قومه وهم الذين قتلوا أباه . وقوله » وهي " في قوم وما إن هناتهم » أى هنيء في قوم وما انتفعوا في . عبد الله وعوف من بني سلامان . وقوله « وموله » وموله المرب إذا ارتفعت الأصوات فيها .

<sup>(</sup>٢) أعجب العجب / ٩٥ – ٦٤ . والقالى : النوادر ٢٠٦ . اليلة النمس : المراد بها هنا الليلة الباردة . والأقطع: جمع قطع وهو السهم . ويتنبل أي

وكان الصعاليك يخرجون لهذه الغارات الرهيبة فرادى أسياناً ، وفي عصابات أحياناً أخرى . وكان أكثرهم يغير على رجليه ، وبعضهم يغير على الحيل .

في أخبار الشنفرى أنه كان «يغير على الأزد على رجليه فيمن معه من فهم ، وكان يغير عليهم وحده أكثر ذلك » (١) ، ومن أخباره أيضاً أنه خرج «في ثلاثين رجلا ومعه تأبط شراً يريلون الغارة على بني سلاً مان » (١) . وفي أخبار السليك أنه خرج و على رجليه رجاء أن يصيب غرة من بعض من بمر به فيذهب بإيله ، وأنه التني برجلين قصتهما مثل قصته «فاصطحبوا جميعاً » (١) . وفي أخبار تأبط شراً أنه خرج و في عدة من فهم » (١) . وفي شعره حديث عن غزواته هو وصعاليكه على الحيل أحياناً ، وعلى الأرجل أحياناً أخرى :

فيوماً بغُزَّاءٍ ، ويوماً بسُرْبكَ ويوماً بخشخاش من الرَّجْل هَيَـْضَل ِ (٥)

وفى شعر عروة أحاديث كثيرة عن هذين الأسلوبين من أساليب الغزو . يقول متحدثاً عن امرأته التي تلومه على مخاطرته بنفسه فى غاراته المتكررة تارة بأولئك الرَّجليسين الذين يعتمدون فى غزوهم على أرجلهم، وتارة بأولئك الفرسان الذين يغيرون على الخيل :

## تقول : لك الويلات، هل أنت تارك فُسوءًا برَجُل تَارة وبمنسرِ (١٦)

يرى بها. والدعس: شدة الوطء. والغطش: الظلمة. والبغش: المطر الحقيف. والسمار:
 شدة الجوع. والإرزيز: البرد. والوجر: الحوف. والإفكل: الرعدة، والإلدة: الأولاد.
 والغميصاء: اسم موضع بنجد. والعس: الطواف بالليل. والفرعل: ولد الفسع. والنبأة:
 الصوت. وهومت: ذامت. والأجدل: الصقر. وأبرح: من البرح وهو الشدة.

<sup>(</sup>١) الأغاني ٢١/ ١٣٥.

<sup>(</sup>۲) ابن الأنبارى: شرح المفضليات / ١٩٥.

<sup>(</sup>٣) الأغاني ١٨/١٢٤ .

<sup>(</sup>٤) المصدر المابق / ٢١٥.

<sup>(</sup>ه) لمان العرب : مادة (غزا) – السربة : جماعة الحيل ما بين العشرين إلى الثلاثين . والحشخاش : الجاعة في سلاح ودروع . والهيضل : الجماعة المتسلحة . والرجل : الرجالة . (٦) ديوانه / ٦٨ ، والأصمعيات ٢٩/١ ، وشرح التبريزي على حماسة أبي تمام .

١/١٪ – ضبأ : أختباً واستتر ليمغتل . والمنسر كمجلس ومنبر : جماعة الحيل .

ويقول متحدثاً عن اعتماده على كلا الأسلوبين في بعض غاراته :

لعل انطلاق فى البلاد ، ورحلتى وشدى حيازيم المطية بالرَّحْل سيدفعنى يوماً إلى رَب هُجْمَة يدافعُ عنها بالعقوق وبالبخل قليلٌ تواليها وطالب وترها إذاصحتُ فيهابالفوارس والرَّجْل(١)

وقد وفر الصعاليك لهذه الغارات كل ما يحقق لها النجاح ، وبلوغ الغاية ، وإدراك الهدف . فإلى جانب ما وفروه لها من قوة الجسد ، وشجاعة القلب ، وصدق العزيمة ، وسرعة العلو ، وفروا لها سعة الحيلة ، وعمق الدهاء ، والقدرة على الحلاص من المآزق الضيقة ، والمواقف الحرجة . فني أخبار الشنفري أنه كان إذا سار في الليل نزع نعلا ولبس نعلا ، وضرب برجله ، حتى يموه على الناس ، فيظنوه الضبع (٢) . وفي أخباره أيضاً أنه أقبل في ليلة على ماء لبني سلامان ، فلما دنا من الماء قال : إنى أراكم ، وليس يرى أحداً ، إنما بريد بذلك أن يخرج رَصَدًا إن كان ثمة من يترصد له (٣) . وفي أخبار السليك أنه احتال على رجل في سوق عكاظ حتى عرف منه منازل قومه ، تمهيداً للإغارة عليها (١٠) . وخبر الحيلة التي لجأ إليها تأبط شرًا ، حين حاصرته لحيان وهو يشتار العسل من وخبر الحيلة التي لجأ إليها تأبط شرًا ، حين حاصرته لحيان وهو يشتار العسل من غار في بلادهم ، خبر ذائع مشهور (١٠) . وقصة احتباله هو والشنفري وابن براقة على بجيلة حين أسرته ، حتى نجا ونجا معه صاحباه ، وهي القصة التي أشار على قافينه المفضلية ، قصة مشهورة أيضاً (١٠) .

وإلى جانب هذا كله كان طبيعيًّا أن يوفر الصعاليك لغاراتهم السلاح الذي

<sup>(</sup>١) ديوانه / ١٠٨ – ١١١ . وشرح التبريزى على حماسة أبي تمام ٢/٩ .

 <sup>(</sup>۲) ابن الأنبارى : شرح المفضليات / ۱۹۷ ، والأغانى ۲۱/۲۱ ، وابن حبيب :
 كتاب المغتالين (مصورة) لوحة رقم ۹۳ .

<sup>(</sup>٣) الأغاني ٢١/٣١١.

<sup>(</sup>٤) الأعَاني ١٨ /١٣٥ - ١٣٦.

<sup>(</sup> ٥ ) انظر التبريزى : شرح ديوان الحمامة ١/٣٨ وما بعدها ، والأغانى ١٨/٥٢ ، والبغدادى : خزانة الأدب ٣/٣٥٣ ، وابن حبيب : المحبر / ١٩٦ – ١٩٨ ـ

<sup>(</sup>٦) أنظر أبن الأنباري : شرح المفضليات / ٣ – ٧ ، والأغاني ١٨ /٣١١ – ٢١٢ .

يعتمدون عليه في هجومهم ودفاعهم ، لأن الشجاعة أو القوة أو غيرهما من الصفات التي كانوا بمتازون بها لا تكني وحدها وفي تلك البادية الفوضوية التي لا يستطيع إنسان أن يعيش فيها ما لم يكن مزوداً بسيف أو قوس ۽ (١) . والواقع أن الصعاليك أعدوا لغاراتهم كل ما كانت تعرفه الجزيرة العربية من سلاح ، سواء منه ما كان للهجوم وما كان للدفاع ، ووصفوا فى شعرهم كل ما كانوا يستخدمونه منه ، وتحدثوا عن قيمته لهم فى غزواتهم ، بل فى حياتهم كلها ، فقد كانوا يرون فيه أهم شيء في حياتهم ، وأغلى ما يملكون فيها ، وما يخلفونه بعدها، فعمرو بن براقة يذكر أن سيفه هو « جـُلُ ماله » <sup>(٢)</sup> ، وعروة يذكر أنه لن يخلف بعد موته سوى سيف ورمح ودرع ومغفر وجواد : وذی أمل يرجو تراثی ، وإن ما يصيرُ له منه غدًا لقليلُ ومالى مال غير درع ، ومغِفر (٣) وأبيض من ماء الحديد صقيلُ وأسمرُ خطى القنساة مثقف وأجردُ عربانُ السراة طويلُ(٤) هذا كل ما يملكه أبو الصعاليك ، وكل ما سيخلفه من بعده لوارثيه ، وهذا كل ما يسجله في «وصينه» من «ثرونه». وقد بلغ من شدة حرص صَحْر الغمّيّ الصعلوك على سلاحه أنه كان يراه ثياباً له لا يخلعها عن جسده (٥٠) ، ويذكر الرواة أن تأبط شرًا ﴿ كَانَ لَا يَفَارَقُهُ السَّيْفِ ﴾ (٦) .

وقد استبعت هذه الحياة الواقفة في وجه المجتمع ، المتمردة عليه ، الحارجة على نظمه ، أن فقد المجتمع اطمئنانه إلى أصحابها ، كما فقد أصحابها طمأنينهم فيه ، فانقطعت الصلة بينهما ، وانفصمت تلك الرابطة الاجتماعية التي تربط بين الفرد ومجتمعه ، وانحل ذلك العقد الاجتماعي الذي يجعل من الفرد عضواً

Dermenghem; The Life of Mahomet, p. 173. (1)

<sup>(</sup> ٢ ) أنظر أبياته الميمية في الأغاني ٢١ / ١٧٥ .

 <sup>(</sup>٣) معطوف على محل « درع » ، الأن المعنى » ليس لى إلا درع ومنفر » .

<sup>(</sup>٤) ديوانه / ٢٠٧.

<sup>(</sup>٥) انظر قعميدته الدالية في السكرى : شرح أشعاد الهذليين ١٣/١ .

<sup>(</sup>١) الجوهري : محاج القفة ، دادة (أبط) .

عاملا مجتمعه ، متوافقاً معه ، دائراً فى فلكه ، ورأى المجتمع فى هؤلاء الصعاليك وشد اذاً و خارجين عليه ، غير متوافقين معه ، ، فتنكر لهم ، وتخلى عنهم ، وتركهم يواجهون الحياة دون أية حماية منه أو ضهان اجتماعى ، ورأوا هم فى مجتمعهم مجتمعاً مختلا، يسيطر عليه ظلم اجتماعى ، وتسوده أنانية اقتصادية جائرة ، وتنقصه عدالة اجتماعية تسوى بين جميع أفواده ، وتكافؤ فى فرص العيش يهي لكل فرد فيه أن بأخذ بنصيبه من الحياة كما يأخذ سائر الأفراد .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا كله أن فر هؤلاء الصعاليك من مجتمعهم النظامي ليقيموا لأنفسهم بأنفسهم ومجتمعاً فوضوياً ، شريعته «القوة»، ووسيلته «الغزو والإغارة»، وهدفه «السلب والنهب»، ووجدوا في الصحراء الفسيحة الواسعة التي لا تقيدها قيود ، ولا تتحد من حريتها حدود ، ولا يستطيع قانون أن يخترق نطاقها ليفرض سلطانه عليها ، مجالا لا حدود له يمارسون فيه نشاطهم الإرهابي ، ويقيمون «دولتهم» الفوضوية ، «دولة الصعاليك» ، حيث يحيون حياة حرة متمردة ، تسودها العدالة الاجتماعية ، وتتكافأ فيها فرص العيش أمام الجميع .

وأخبار هؤلاء الصعاليك وأشعارهم تحفل بأحاديث هذا التشرد فى أنحاء الصحراء الموحشة ، ووديانها الرهيبة ، حيث بحيا الوحش بعيداً عن البشر ، وحيث يكمن الموت فى كل رجء من أرجائها .

ولعل أقوى ما صُور به هذا التشرد فى شعر الصعاليك هاتان الصورتان المتشابهتان اللتان نجد إحداهما عند تأبط شرًا ، والأخرى فى لامية العرب ، فكلا الصعلوكين مفارق مجتمعه النظامى حيث يعيش البشر ، إلى أعماق الصحراء البعيدة حيث يعيش الوحش ، أما تأبط شرًا فقد ألفته الوحش لطول ما عاش بينها مسالماً فا ، حتى أنست به ، واطمأنت إليه ، وأما صعلوك اللامية فقد وجد فى ضوارى الصحراء أهلا له ، يستعيض بها عن أهله من البشر ، ويجد بينها الأمن والطمأنينة . يقول تأبط شرًا متحدثاً عن نفسه :

يبيت بمغنى الوَحش حتى أَلفنهُ ويصبح لا يَحْمِي لها اللهرَ مُوتعا

رأين فتًى لا صيد وحش يهمسه فلو صافحت إنسًا لصافحنهُ معا (١) ويقول صاحب اللامية نخاطباً أهله :

ولى دونكم أهلونَ : سِيدٌ عَمَلَسُ وأَرْقطُ. زهلولُ ، وعرفاء جَيالُ همُ الأهل ، لامستودَعُ السرذائع لديهم ، ولا الجانى بما جَرَّ يُخذلُ (٢)

ومن الطبيعي أن هذا التشرد جعل الصعاليك على صلة قريبة بحيوان الصحراء ، استطاعوا عن طريقها أن يعرفوا طباعه وعاداته ، وأن يتحدثوا عنه وعنها حديث الحبير المطلع . وفي شعرهم صور كثيرة لحيوان الصحراء ووحثها وطبرها وحشراتها وما يخيل للسارى فيها من أشباح ، كذلك الوصف الدقيق للضباع وحياتها وطباعها في شعر الأعلم الهذلي (٢) ، وكتلك الصورة الرائعة للخناب الحائعة في لامية العرب (٤) ، وكتلك الصور المتعددة للغيلان وما يجرى للإنسان معها في شعر تأبط شرا (٩) .

وكان من نتيجة هذا التشرد البعيد في أعماق الصحراء أن أصبح الصعاليك على علم واسع بأسرارها ، ومعرفة دقيقة بشعابها ودروبها ومسالكها ومياهها ، ومقدرة فائقة على الاهتداء في مجاهلها ، واختراق متاهاتها المضلة دون دليل . ورواة الأدب العربي يصفون السليك «البعيد الغارة» بأنه «كان أدل من قطاة » (١٦) ، بل إنهم يصفون الصعاليك جميعاً بأنهم «أهدى من القطا» (٧) .

 <sup>(</sup>۱) الأغانى ۱۸ /۲۱۷ - وقوله « و يصبح لا يحمى لها الدهر سرتماً » معناه أنه لا يمنعها
 من الرعى فهى لا تخاف منه .

<sup>(</sup>٢) أعجب العجب / ١٧ ، ١٨ - السيد : الذئب . والعملس : القوى على السير السريع . والأرقط المراد به النمر . والزهلول : الأملس . والعرفاء : الفسيع الطويلة العرف . وجيأل : امم الفسيع ، معرفة بدون الألف واللام ، وهي في الأصل صقة ثم غلبت فخرجت مخرج الأسماء ، وهي لهذا ممنوعة من الصرف العلمية والتأذيث .

<sup>(</sup>٣) انظر ديوان الهذليين ٢/٧٧ ، ٨٠ ، ٨٠ .

٤) انظر أعجب العجب / ٣٧ / ٥٠ . . . . .

<sup>(</sup> ٥ ) انظر الأغانى ١٨ /٢٠٩ ، ٢١٠ - وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٧٦ ، ١٧٧ .

<sup>(</sup>٢) الأغاني ١٨/١٣٤ .

<sup>(</sup>٧) المرزباني : معجم الشعراء / ١٦٨ .

وفى شعر الصعاليك أحاديث كثيرة عن الصحراء ، وفخر عريض بمعرفة أسرارها ، والاهتداء فى مجاهلها ، كما نرى فى تلك الأبيات الرائية التى يرويها الأصمعى لتأبط شرا ، والتى يتخدث فيها عن اهتدائه إلى شيعب فى أعماق الصحراء المجهولة بصعاليكه دون أن يهديه إليه دليل أو يصفه له خبير (١) ، وكما نرى فى هذه الأبيات القوية من لامية العرب :

وخِرْق كظهر الترس قفر قطعته بعاملتين ، ظهرهُ ليس يُعمَلُ وألحقت أولاه بأخراه موفيا على قنة أقْعِي مرارًا وأَمْثُلُ ترُودُ الأَرَاهِي الصَّحْمُ حولي كأنها عذاري عليهن الملاء المذيل ويَركُدُنَ بالآصال حولي كأنني من العصم أَدْفي يَنتحي الكِيحَ أعقَلُ (١) فالشاعر في هذه الأبيات يصف الصعلوك بأنه يخترق الصحراء النائية

فالشاعر في هذه الابيات يصف الصعلوك بأنه يخترق الصحراء النائية الخالية التي لا يطرقها أحد ، معتمداً في اختراقها على رجليه القويتين السريعتين ، حتى يصل إلى منازل الوعول البعيدة التي لم تعد تنكره ، لكثرة ما خالطها ، حتى كأنه واحد منها .

والناظر فى أخبار هؤلاء الصعاليك ، المتتبع لظروف نشأتهم وحياتهم ، يستطيع أن يلاحظ فى وضوح ثلاث طوائف مختلفة تتألف منها عصاباتهم : طائفة « الحلعاء والشَّدَّاذ » الذين أنكرتهم قبائلهم ، وتبرأت منهم ، وطردتهم من حماها ، وقطعت ما بينها وبينهم من صلة ، وتحللت بهذا من العقد

من حماها ، وقطعت ما بيها وبيهم من صله ، وتحللت بهدا من العقد الاجتماعي الذي يربط بيها وبينهم ، والذي يصوره المثل العربي القديم « في الحريرة تشرك العشيرة » (٣) ، فأصبحت لا تحتمل لهم جريرة ، ولا تطالب

<sup>(</sup>١) انظر الأصمعيات ١/٣٥.

<sup>(</sup> ٢) أعجب العجب / ٦٧ - ٦٩ - الحرق : الأرض الواسعة تنخرق فيها الرياح . والعاملة ان : رجلاه . وظهره ليس يعمل أى ليس مما تعمل فيه الركاب . وموفياً أى مشرفاً . والقنة : أعلى الحبل . وأمثل : أقف وأقوم . والأراوى : إذات الوعول . والصحم : السود التي يضرب لونها إلى صفرة . ويركفن أى يثبتن . والعصم : الوعول التي في أيديها بياض . والأدفى من الوعول : الذي طال قرنه طولا شديداً . والكيح : عرض الجبل . والأعقل : المعتنع في الجبل العالى . الميدافى : مجمع الأمثال ٢٠/٢ .

بجريرة بجرها أحد عليهم ، مثل حاجز الأزدى (١) ، وقيس بن الحدادية (٢) ، وأبى الطَّمَحَان القيني (٢) .

وطائفة و الأغربة و السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم الإماء و فلم يعترف بهم آباؤهم العرب ، ولم ينسبوهم إليهم ، لأن دماءهم ليست عربية خالصة ، وإنما خالطها دماء أجنبية سوداء لا تصل من درجة نقائها إلى درجة الدم العربى ، مثل تأبط شرا (١) ، والشنفرى (٩) ، والسليك بن السلكة (١٦).

ثم طائفة الفقراء المتمردين الذين تصعلكوا نتيجة لتلك الظروف الاقتصادية المختلة التي كانت تسود المجتمع الجاهلي ، ويمثلهم عروة بن الورد ومن كان يلتف حوله من فقراء العرب ، وكذلك تلك المجموعة الكبيرة من صعاليك هذيل.

من هذه الطوائف الثلاث تألفت عصابات الصعاليك ، وهي عصابات قطعت ما بينها وبين قبائلها من صلات ، وانطلقت إلى الصحراء ، كما تنطلق الذئاب الجائعة ، لتشق لنفسها طريقاً في الحياة ، وقد جمع بينها – على اختلاف قبائلها – الفقر ، والتشرد ، والتمرد ، والكفر بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي يؤمن بها المجتمع الذي خرجت عليه ، والإيمان بأن الحق للقوة ، وأن الضعيف ضائع حقه في هذا المجتمع .

والظاهرة الواضحة في حياة هؤلاء الصعاليك -- على اختلاف الدوافع التي دفعتهم إلى حياة التصعلك -- هي أنهم جميعاً فقدوا توافقهم الاجتماعي . وظاهرة التوافق الاجتماعي ع (٧) هي الظاهرة التي يقرر علماء الاجتماعي أنها الأساس

<sup>(</sup>١) انظر الأغاني ١٢/١٤ (بولان) .

<sup>(</sup> ٢ ) انظر الأغاني ٢/١٣ ( بولاق) .

<sup>(</sup>٣) أنظر الأغانى ١١/١٢١ ( يولاق) .

<sup>( )</sup> أنظر السيوطي : المزهر ٢/٩٦٧ .

<sup>(</sup> م ) انظر المصدر السابق / الصفحة نفسها .

<sup>(</sup>٦) انظر المصدر نفسه/ الصفحة نفسها ، وانظر أيضاً ابن قتيبة : الشعر والشعراء/ ٢١٤.

Social Adjustment (Y)

الذى تقوم عليه الصلة بين الفرد والمجتمع ، بحيث يكون عمل الفرد من أجل صالح المجموع ، كما يكون عمل المجموع لصالح الفرد . وفقدان هذا والتوافق الاجتماعي و ينهى بالفرد عادة إلى أن تكون صلته بمجتمعه قائمة على أساس والسلوك الصراعي و (1) ، وذلك لأن في كل مجتمع تيارين منضادين: أحدهما يتصل بالفرد ، والأخر يتصل بالمجتمع ، ووجود هذين التيارين يستدعى وجود نوعين من الصلة بين الفرد والمجتمع ، فإما أن يكون بيهما و وفاق ، وإما أن يكون بيهما و صراع ، وهذان النوعان من الصلة بين الفرد والمجتمع هما يكون بيهما و صراع ، وهذان النوعان من الصلة بين الفرد والمجتمع هما اصطلح علماء الاجتماع على تسميتهما و بالسلوك التعاوني و (١) ، و والسلوك الصراعي و (١) ، و والسلوك الصراعي و (١) .

ومن الطبيعى أن تكون الأسباب التي جعلت هذه الطوائف المختلفة من الصعاليك تفقد توافقها الاجتماعي أسباباً مختلفة ، وذلك لاختلاف « المشكلة النفسية » التي تواجهها طائفة منها عن المشكلة التي تواجهها طائفة أخرى . ولكن هذه المشكلات - على اختلافها - كانت تنتهى بطوائف الصعاليك جميعاً إلى هذا « اللاتوافق الاجتماعي » الذي كان يدفعها إلى أن يكون ملوكها الاجتماعي « سلوكاً صراعياً » .

. . .

والآن ، بعد هذه الجولة الواسعة خلف أخبار و صعاليك العرب و وأشعارهم، في كتب اللغة ، وفي مصادر الأدب العربي ، نقف لنسجل النتيجة التألية :

تدور كلمة «الصعلكة» في دائرتين : دائرة لغوية ، ودائرة اجتماعية . وتبدأ الدائرةان من نقطة واحدة هي الفقر ، فأما الدائرة اللغوية فتنتهي حيث بدأت ، يبدأ الصعلوك فيها فقيراً ، ويظل في نطاقها فقيراً ، يخدم الأغنياء

Conflict (1)

Co-operation (Y)

<sup>(</sup>٣) انظر في تفصيل هذا:

E.R. Groves; Personality and Social Adjustment, & R.M. Mac Iver; Society.

أو يستجديهم فضل مالم ، ثم يموت فقيراً ، وأما الدائرة الاجتماعية فتتسع وتبعد عن نقطة البدء لتنهى ، أو لتحاول أن تنهى ، بعيداً عنها ، يبدأ الصعلوك فيها فقيراً ، ثم بحاول أن يتغلب على الفقر الذى فرضته عليه أوضاع اجتماعية أو ظروف اقتصادية ، وأن يحرج من نطاقه ليتساوى مع سائر أفراد مجتمعه ، ولكنه — من أجل هذه الغاية — لا يسلك السبيل التعاولى ، وإنما يدفعه ولا توافقه الاجتماعي » إلى سلوك السبيل الصراعى ، فيتخذ من الغزو والإغارة للسلب والنهب » وسيلة يشق بها طريقه فى الحياة ، فيصطدم بمجتمعه الذى يرى فى هذه الفوضوية الفردية مظهراً من مظاهر التمرد . وتنقطع الصلة يبن المجتمع والصعلوك ، فيتخلى المجتمع عنه ، ويحرمه حمايته ، وبعيش الصعلوك خليعاً مشرداً ، أو طريداً متمرداً ، حتى يلتى مصرعه ، فأما أعداؤه فقد استراحوا من هذا الفزع الذى كانوا يترقبونه فى كل حبن ، كما يترقب غائباً استراحوا من هذا الفزع الذى كانوا يترقبونه فى كل حبن ، كما يترقب غائباً متشراً أهله — على حد تعبير عروة — وأما أصدقاؤه فقد سقط أحدهم فى سبيل فكرته بعد أن أدى رسالته فى هذه الحياة .

وإذا كنا قد وصلنا إلى هذه النتيجة عن طريق استعراض هذه الظاهرة في مصدرها الأول ، وهو المجتمع الحاهلي ، فإن في صنيع اللغويين ما يؤيدنا فيا وصلنا إليه ، حيث أشاروا إلى جانب خاص من المادة اللغوية عبروا عنه بصعاليك العرب ، ولنا إذن أن نقول : إن ما عبر عنه اللغويون « بصعاليك العرب » هو ما نعبر عنه « بصعاليك الدائرة الاجتماعية » .

وإذ نلاحظ أن المتصلين بمشكلة الفقر والغنى وتوزيع الثروة فى المجتمع الجاهلي قد أشاروا على ألسنة شعرائهم إلى طائفتين من الصعاليك ، فمدحوا إحداهما «نله هي» ، وذموا الأخرى « لحاها الله » (١) ، نستطيع أن نقول فى ضوء هذه النتيجة التي وصلنا إليها إن هناك نوعين من الصعاليك :

الصعلوك العامل وهو الذي يمثل صعاليك الدائرة الاجتماعية . والصعلوك الحامل وهو الذي يمثل صعاليك الدائرة اللغوية .

<sup>(</sup>١) انظر رائية عروة في ديوانه / ٧٣ – ٨٨ ، وميمية حاتم الطاقي في ديوانه / ٢٥ .

فالمسألة إذن ليست مسألة لغوية فحسب ، يُرجع فيها إلى كتب اللغة ، وإنما هي \_ إلى جانب هذا \_ ظاهرة اجتماعية يرجع فيها إلى المجتمع الجاهلي ، وما كان ينطوى عليه من عوامل عملت على ظهورها ، والاتجاه بها إلى تلك الاتجاهات التي اتجهت إليها .

ولكن ما هذه العوامل ؟ وما هذه الانجاهات ؟ هذا ما سنحاول دراسته في الفصول التالية من هذا الباب .

**☆ \$** 

## القصل الثاني الحغرافي الطاهرة الصعلكة

١

## أهمية العامل الجغرافي:

حين نقف عند الجانب الجغرافي من ظاهرة الصعلكة ، فإنما نقف عند أول عامل من العوامل التي عملت في نشأتها وتوجيهها وطبعها بطابع خاص . ففي كل مشكلة من مشكلات الناريخ يعمل عاملان أساسيان : الإنسان ، والبيئة الجغرافية ، وترجع أهمية العامل الجغرافي إلى أنه يعمل في قوة وإلحاح ، فهو قوة ثابتة لا تكف عن العمل (۱) ، والإنسان – على حد تعبير بعض الباحثين – غلة من غلات سطح الأرض (۲) .

والظاهرة التى نحن بصدد دراسها وتفسيرها اتخذت من البادية العربية مسرحاً لها ، وكان ارتباطها بهذا « المسرح الجغرافي » وثيقاً ، تأثرت به فى نشأتها ، وتكيفت معه فى اتجاهاتها ، ولعل فى دراسة هذا « المسرح الجغرافي » أولا ما يعيننا على فهم الدور الذى قام به أبطال قصتنا « الصعاليك » .

۲

## جزيرة العرب :

يميز الدارسون لتاريخ غربي آسيا بين حملة الحضارة سكان السهول والتلال المنخفضة ، وبين الشعوب المتأخرة سكان الجبال والصحاري (٢)، ويلاحظون أن

Semple; Influences of Geographic Environment, p. 2. (1)

Ibid., p. I. (Y)

OLeary; Arabia before Muhammad, p. 3. (Y)

المدنية في هذا الجزء من العالم هي تلك التي تعرف باسم الحضارة وديان الأنهار القائمة على الزراعة ، التي تصطنع وسائل صناعية للرى ، تغذيها أنهار ذات فيضان موسمى ، وهذه الحضارة تقف عند المستوى الذي يمكن رفع الماء إليه ، ومن هنا يصبح هذا المستوى الحد الفاصل بين الأقاليم المستقرة ومناطق القبائل الرعوية (١١) .

وتمثل البادية العربية « تلك الرقعة من الجنوب الغربي لآسيا التي لم تدخل في نطاق حضارة وديان الأنهار ، والتي أبطأ سكانها ... نتيجة لذلك ... في مدارج التقدم الحضاري» (٢١) ، شأنهم في ذلك شأن سكان الصحاري « أطفال العالم الخالدين» (٣) ، أولئك الذين لا تتغير حيانهم مع تغير الزمن .

والمنظر العام لهذا والمسرح الجغرافي والذي دارت عليه قصة صعاليك العرب منظر و نجد تحيط به صحواء ، رملية في الجنوب والغرب والشرق ، وحجرية في الشهال ، وتطوق هذا النطاق الخارجي سلسلة من جبال ، أكثرها منخفض قاحل ، ولكنها في اليمن وعمان ذات ارتفاع كبير واتساع وخصب ، ومن وراء هذه الجبال حافة ساحلية ضيقة يحدها البحر» (١٠) . وينحدر هذا المسرح الجغرافي ومن الغرب إلى الشرق ، إذ أن معظم الجبال في الغرب ، وإن تكن طائفة من المرتفعات في الجنوب الشرق ، في أعمان ، تعد شذوذاً لهذه التاعدة (٥) .

ومن أظهر ما عرفت به بلاد العرب منذ القدم الجدب والحر ، إذ اا تقع الجزيرة العربية كلها تقريباً داخل نطاق الحرارة القصوى الذى يطوق العالم فى شهر يوليه، (٦) . ويرد الجغرافيون هذا إلى أن قسماً كبيراً منها يقع فى منطقة

Ibid., pp. 3-4. ( \ )

Ibid., p. 5. ( 7 )

Semple; Influences of Geographic Environment, p. 509. (7)

Zwemer; Arabia, the Cradle of Islam, p. 19. ( )

O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 6. ( a )

Zwemer; Arabia, the Cradle of Islam, p. 20. ( 7.)

الرهو المدارية ذات الضغط العالى والمطر القليل ، والقسم الآخر يقع في حيز الرياح التجارية الشهالية الشرقية الجافة ، التي تزداد حرارتها كلما تقدمت إلى الجنوب . و ويزداد هذا الحر قسوة فوق المنطقة الساحلية بسبب الرطوبة التي تنشأ عن كمية البخار الحائلة المتصاعدة من مستنقعات المياه المخلقة (١١) أما فوق المرتفعات فإن درجة الحرارة تنخفض حتى ليوجد الحليد أحياناً في ليالى الصيف فوق الحبال جنوبي مكة (٢١).

ومن عوامل الجدب قلة المطر ، وذلك لأن الرياح الموسمية الجنوبية الغربية الني تتعرض لها الجزيرة العربية صيفاً تصل إليها بعد أن تكون قد أسقطت أمطارها الغزيرة على الحبشة ، ولهذا فإن أمطارها في بلاد العرب لا تكاد تذكر بجانب ما يسقط منها في الحبشة .

وإلى جانب هذه القلة فى كمية المطر نلاحظ أنه يسقط فى فترات متباعدة جداً ، وغير منتظمة ، حتى إن بعض أجزاء الجزيرة العربية لا يسقط المطر فيها إلا كل ثلاث سنوات أو أربع .

وترتبط حياة أهل الصحراء بالمطر ارتباطاً وثيقاً حتى لقد سموه غيثاً وحياً ، ويصفه الله تعالى بأنه «رحمته » (٣) ، ومن صلوات الإسلام و صلاة الاستسقاء » التي بقيمها البدو حين تتُخلف النجوم ، وتجمد الرياح ، ويحتب المطر ، وتتوقف حياة البادية على نلك القطرات من الغيث ترسلها السماء إلى الأرض ، فتحيا بها بعد موتها . وليس من شك في أن فرحة البادية بالمطر عظيمة ، حتى ليصف الله تعالى تأثيره في نفوس أهلها بأنه «إذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يتستبشرون» (١٤) ، وحتى ليقف الشعراء من السحاب والبرق والمطر تلك الوقفات الطويلة الجميلة التي سجلوها في شعرهم ، فيخلع امرؤ القيس تلك الوقفات الطويلة الجميلة التي سجلوها في شعرهم ، فيخلع امرؤ القيس

Ibid., p. 20. (1)

O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 8. (7)

<sup>(</sup>٣) النمل / ٣٣ ، والروم / ٤٦ - ٥٠ .

<sup>(</sup> ٤ ) الروم / ١٨ .

فرحته بالمطرعلى ما حوله من مظاهر الطبيعة فيجعل مُككاكينَ الجواء غيب المطر فى نشوة غامرة كأنما «سقين سلافاً من رحيق مفلفل»، ويدعو الباكون لموتاهم بأن يستى الغيث قبورهم، ويسأل المحبون لدبار أحبابهم أن يسقيها «صوبُ الربيع وديمة تهمى».

ومن أشد ما تقاسيه البادية العربية احتباس المطر ، فمنى احتبس أصبحت غير صالحة للسكني ، فقد حل الجفاف « وما يتبعه من نفوق القطعان ، وهلاك الرعاء ، (١) ، وأجدب البدو وضاقت أمامهم سبل الحياة ، ولم يعد أمامهم إلا أن يرحلوا عن مواطنهم ينتجعون مواطن الكلأ والماء ، حتى لقد يدفعهم الجدب إلى مغادرة البادية العربية كلها إلى تلال اليمن والشام أو إلى سهول النيل والفراتين (٢) . وفي الأخبار القديمة أن بطوناً من خزاعة « خرجوا جالين إلى مصر والشام الأنهم أجدبوا و (١٣) ، وأن بني شيبان أصابتهم و سنة " ذهبت بالأموال ، فخرج رجل منهم بعياله حتى أنزلهم الحيرة ، فقال لهم : كونوا قريباً من الملك يصبكن من خيره حتى أرجع إليكن ، وآلى أليَّة لا يرجع حتى يكسبهن خيراً أو يموت \* (١٤) ، وقد يرفض بعض هؤلاء المهاجرين العودة إلى دبارهم بعد سقوط المطر وعودة الحياة إلى البادية ، ضيقاً بهذه البيئة المتقلبة ، ورغبة في الاستقرار والحياة المطمئنة ، فني أخبار تلك البطون من خزاعة أنهم مضوا في هجرتهم ، وحتى إذا كانوا ببعض الطريق رأوا البوَارق خلفهم ، وأدركهم من ذكر لهم كثرة الغيث والمطر وغزارته » ، فرجع فريق منهم إلى أوطانهم واستمرت قلة في هجرتها (٥) . وفي رأى بعض الباحثين أن السبب الأول في هجرة القبائل اليمنية إلى الشهال يرجع إلى تغير مناخي (١٦) ، وأن

Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 105. (1)

Semple; Influences of Geographic Environment, p. 489. (7)

<sup>(</sup>٣) الأغاني ١٢ / ١ (بولاق) .

<sup>(</sup>٤) الأغاني ١٦ / ٥٠ .

<sup>(</sup> ه ) انظر القصة في الأغاني ١٣ /ه - ٧ ( بولاق )

<sup>(</sup>٦) سليمان حزين في مقالته الفرنسية المنشورة بمجلة كلية الآداب (المجلد الثالث =

تدهور الحضارات القديمة ، وتشنت القبائل ، وانبعاث الهجرات من تلك الجهات ، في العهد السابق للإسلام مباشرة ، مرتبط على ما يظهر ارتباطاً وثيقاً بتغيرات المناخ ، وذبذباته ، وعودته إلى الجفاف النسبي بعد الحالة الممطرة (١).

ويلاحظ الدارسون أن هذه القدرة على هجرة الجماعات الرعتوية ، إنسانها وحيوانها ، إلى مراع جديدة ميزة هامة تمتاز بها هذه الجماعات ، ويلاحظون أن هذا يتم في سهولة ويسر ، ما لم تكن في الأرض الجديدة جماعة أكبر عدداً ، وأشد بأساً من الجماعة المهاجرة (٢). ويرد بعضهم هذه السهولة وهذا البسر إلى أن كمية المطر القليلة التي تسقط في الصحراء لا تساعد على نمو الغابات التي تقوم حاجزاً في طريق الهجرات (٣)

ومما يزيد من قسوة الحياة فى أيام الجفاف اقترانها فى الغالب بريح السموم ، تلك الريح المهلكة (٤) التى تشوى مها الصمحراء كما يقول الشاعر القديم (٥).

ويرجع السبب الأساسي في هذه الحالة القاسية التي تعانيها الصحراء إلى قلة الماء لا فليس في البادية العربية أنهار دائمة الجريان ، وإنما هي أودية تمتليء بالماء في مواسم المطر ، ويغيض ماؤها بعد ذلك (٦) ، وموسم المطر في البادية

<sup>=</sup> الجزء الأول ، مايو ١٩٣٥) تحت عنوان :

Changement historique du climat et du paysage de l'Arabie du Sud", p. 23.

۱۹۳۲ نفسه فى تقريره عن بعثة الجامعة المصرية إلى اليمن وحضرموت ١٩٣٦
 ۱۹۷۸ منافر بالعربية بمجلة كلية الآداب ( المجله الرابع ، الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٣٦) ص ١٩٧٠ .

 <sup>(</sup>٢) ميرز في مقالته عن ١١ المناخ والجغرافيا وأثرهما في التاريخ ١ المنشورة في مجموعة ١ ميرز في مقالته عن ١١ الفصل التاسم / ٣٥٧ .

Semple; Influences of Geographic Environment, p. 483. ( 7 )

<sup>(</sup> ٤ ) افظر القصة الواردة في الأغاني ١١ /٢٤ ( دار الكتب ) .

<sup>(</sup>ه) البعيث الحنق في حماسة أبي تمام بشرح التبريزي ٤/١٥٠ . . «وهاجرة يشوي مهاها سمومها» .

O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 6. (7)

العربية قصير (١١) ، ومن هنا كان جفاف هذه الأودية طويلا « فهي في العادة تظل جافة تسعة أشهر أو عشرة في العام» (٢١) .

ولكن الحال في اليمن تختلف، وذلك لأن و الغدران الساحلية تكثر فيها في أثناء فصل الأمطار، وقد تمتلئ في بعض الأحيان فجأة إلى درجة الفيضان، فتندفع جارفة أمامها كل شيء، وتسمى في هذه الحالة سيولاه (٢)، ويحدثنا امر والقيس في معلقته عن سيل من هذه السيول اقتلع الأشجار الضخمة، وأنزل العصم من رؤوس الجبال، وجرف النخل والأجم، وأغرق السباع حتى بدت فيه كأنها وأنابيش عُنصُل و، بل إنه أحاط ببعض الجبال حتى بدت قممها كأنها ومن السيل والغثاء فلكة مغزل و وفي أغلب الظن أن هذا الوصف ليست فيه مبالغة كبيرة، وأنه ليس خيال شاعر، فأحد هذه السيول هو الذي جرف أمامه مد مأرب المشهور، كما يحدثنا القرآن الكريم (١٤)، ولم يكن هذا السد بالبناء الهين الشأن، وإنما كان سداً أصم طوله من الشرق إلى الغرب نحو ثمانمائة ذراع، وارتفاعه بضعة عشر ذراعاً، وعرضه ماثة وخسون ذراعاً (١٥).

وقد وقف سكان الجزيرة العربية من هذه المياه التى تتدفق بها الصحراء فى مواسم المطر موقفين ، هما موقفا الحضارة والبداوة : أما أهل اليمن فقد استطاعوا استغلال اهذه المياه المتدفقة ، فأقاموا السدود فى عرض الأودية لحجز السيول ، والانتفاع بمياهها فى إحياء موات الأرض ، ويصف القرآن الكريم مسكن سبأ بأنه 1 جنتان عن يمين وشهال (١٦) ، وقد استغل اليمنيون هذه الظاهرة الطبيعية استغلالا واسعاً « فلم يدعوا وادياً يمكن استثار جانبيه بالماء إلا حجزوا سيله بسد ،

Lammens; Le Berceau de l'Isla m, Vol. I, p. 158. (1)

Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 22. (Y)

Ibid,, p. 21. (7)

<sup>(</sup>٤) سبأ / ١٦.

 <sup>(</sup>ه) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ١ /١٥١ .

<sup>(</sup>٦) سبأ / ١٥.

فتكاثرت الأسداد بتكاثر الأودية حتى تجاوزت المئات، (١) ، ويذكر الهَـَـــُـدانى أن فى أحد مخاليف اليمن ثمانين سدًا أشار إليها بعض شعرائهم (٢٠) .

أما أهل البادية في الحجاز ونجد فقد تركوا السهاء تمطر فتحيى لهم ما تحيى من الأرض ، فإذا زادت مياهها عن الحاجة ذهبت بها رمال الصحراء ، حتى إذا ما انقضى فصل المطر عادت الطبيعة لجدبها ، وعادت الحياة لجفافها ، وعاد القوم لظمتهم وقحطهم . ويبدو أن السبب في هذا يرجع إلى طبيعة الظاهرة المخوافية نفسها ، فإن تلك السيول التي عرفتها أودية اليمن لم تعرفها البادية العربية في الحجاز ونجد بحكم ظروفها الجغرافية بها نادراً ، هذا إلى جانب أن أكثر أهل الحجاز ونجد كانوا بدواً لم يصلوا من الحضارة إلى درجة التحكم في هذه السيول والانتفاع بها .

ومع ذلك فليست الجزيرة العربية كلها جدباً ، وإنما هناك مناطق خصبة ، وقد رأينا خصب البمن الني يسميها الهمداني و البمن الخضراء» لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها (۱۳) .

ويذكر الجغرافيون من هذه المناطق الحصبة هضبة نجد العالية (3) ، التي ترتفع عن سطح البحر زهاء أربعة آلاف قدم ، والتي تكسو أغلبها مراع خصبة ، وتنتشر فيها الأشجار ، ومن هنا اشتهرت بنتاج غنمها وإبلها وخيلها (٥) ويرجع السبب في هذا المحصب إلى وفرة المياه التي « توجد في كل مكان ، في آبار لا يتجاوز عمقها خسة عشر قدماً وقد يقل عنها »(١) ، كما أن قدمها التي يتجاوز ارتفاعها خسة آلاف قدم تساعد على تجميع المياه (٧) » .

<sup>(</sup>١) جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام ١٤١/١ .

<sup>(</sup>٢) صفة جزيرة العرب ١٠١/١.

<sup>(</sup>٣) المصدر السابق / ١٥.

Semple; Influences of Geographic Environment, p. 501. ( & )

Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, pp. 147-148. ( o )

Ibid., p. 147, (1)

Semple; Influences of Geographic Environment, p. 501. ( )

ولا تخلو سلسلة جبال السّراة التي تمتد على طول الساحل الشرقي للبحر الأحمر و ما بين أقصى اليمن والشام (1) من مناطق خصبة ، هي بعض تلك الأودية التي تقطع السراة إلى تهامة حتى تنهى إلى البحر (1) ، حتى لنجد أن اسم واحد منها و وادى الجنات وهو — كما يدل عليه اسمه — واد شديد الحصب (1) ، وهناك من هذه الأودية الشديدة الحصب وادى نخلة (1) ، ووادى نحلة (1) ،

ووفقاً لقانون جغرافی تعرفه البادیة یجعل من مناطق الحصب والماء مناطق استقرار للقبائل ، نزلت القبائل فی هذه الأودیة الحصبة ، وأقاموا القری ، فی وادی باحان ، القری والزرع » (۲) ، و بالقرب من وادی الحنات قریة النّبیّرة وهی ، کثیرة الأعناب والفواکه والغیول الحاملة (۸) »

حتى الحجاز - ذلك الإقليم الجبلى الرملى - يشتمل على بقاع خصبة ، هى تلك الكثبان والربى الحصبة التى تتخلله ، والتى تخرج سفوحها حباً ، وشيئاً من الفاكهة ، وكلاً للقطعان ، وينابيع من ماء دائم (١) ، ووفقاً لقانون البادية الجغرافي السابق اتخذت القبائل من هذه الكثبان والربى الحصبة منازل لها ، ومن حولها قامت القرى (١٠) ، وحسبنا أن نذكر من هذه القرى الطائف و جنة مكة » (١١) ، ومصيف المكيين المترفين (١٢) حيباً يشتد بهم صيف مكة الذي

<sup>(</sup>١) الهمداني : صفة جزيرة العرب ١/٧٧.

<sup>(</sup>٢) انظر هذه الأودية في المصدر السابق / ٧١ – ٨٤.

<sup>(</sup>٣) المصدر نفسه / ٧٦ .

<sup>(</sup>٤) المصدر نفسه / ٥٥.

<sup>(</sup>ه) المصدر نفسه / ١٢٢.

<sup>(</sup>٢) المصدر نفسه / ١٢٣.

<sup>(</sup>٧) المصدر تفسه / ١٢١.

<sup>(</sup>٨) المصدر نفسه / ٧٧.

Sédillot; Histoire Générale des Arabes, Tome I, p. 12. ( 1)

Ibid., p. 12. (1.)

<sup>1</sup>bid., p. 12. (11)

Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368. (17)

لا يطاق ، وذلك لأنها لا تبعد عنها أكثر من سبعين ميلا" ، ولم تكن الطائف مصيف أهل مكة وحدهم ، وإنما كانت مصيفاً لغيرهم من القبائل ، حتى البعيدة عنها ، فقد كانت بعض القبائل تقبل إليها من نجد، كما كان يفعل بنو عامر بن صعصعة الذين كانوا يتصيفونها و لطيبها وثمارها ، ويتشتون بلادهم من أرض نجد » (١) ، وتقوم الطائف قريباً من ربوة من تلك الربى الحصبة (١) فوق تلال غزوان (١) ، وتلتف بها الجنات والكروم (٥) ، وشهرة كروم الطائف وأعنابها شهرة قديمة عرفت بها الخنات والكروم (٥) ، وشهرة كروم الطائف وفرة المياه فيها و فالأمطار الموسمية تدوم بها من أربعة أسابيع إلى سنة ، وعندما وفرة المياه فيها و فالأمطار الموسمية تدوم بها من أربعة أسابيع إلى سنة ، وعندما تنقطع تكثر الآبار التي تصلح لسقي حدائقها » (١) ، هذا إلى طبيعة جوها الذي يعرفها جنوبي أوربا (١) ، هذا إلى طبيعة جوها الذي ساعد على نمو كل الفاكهة التي يعرفها جنوبي أوربا (١) ، فالحرارة في أوقات الظهيرة ليست ثقيلة ، والليالي ذوات جو منعش (١).

ومن مناطق الحصب فى الجزيرة العربية أيضاً يثرب والوديان التى حولها ، فقد اشتهرت الوديان الواقعة فى هذه المنطقة البركانية ، منطقة الحرّات ، بخصبها الشديد بالنسبة إلى ما حولها (١٠٠). ومرد خصب هذه المنطقة إلى أمرين : طبيعة الأرض ، فإن تفكك الصخور البركانية فيها يحفظ على الأرض خصبها ، ثم وفرة المياه ، فهناك وادى إضم ، والآبار، والصخور البركانية التى تجمعً

Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 45. (1)

۲) البكرى: معجم ما استعجم ١/٧٧.

Sédillet; Hist. Générale des Arabes, Fome I., p. 12. ( T)

Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368. ( )

Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 45. ( a )

Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368, & Lammens; Le Berceau de l'Islam, (\)\tag{7} vol. I, p. 90.

Zweiner; Arabia, The Cradle of Islam, p. 45. (V)

Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368. (A)

Doughty; Travels in Arabia Deserta, Vol. II, p. 525. (4)

Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368. (1.)

المياه ، وهي كلها مصادر غنية بمياهها (١) .

وتشهر هذه المنطقة بصفة خاصة منذ أقدم العصور بزراعة النخل (٢٠)، ويطلق عليها عروة بن الورد في شعره « منبت النخل (٣٠) » ، وفي شعر حسان ابن ثابت وصف جميل لهذه البيئة الحصبة (٤٠).

وفى شهالى يثرب تقع حمَرة خيبر ، أكبر الحرات فى الجزيرة العربية (٤) ، التى تدين بوجودها إلى غزارة مياهها ، وإلى تحلل صخورها البركانية ، والتى تشمر بخصيها وكثرة مزارعها ونخلها (٢) .

وفى جنوبى يثرب وادى العقيق ذو العيون والنخيل (١٧) بمصايفه ومتنزهاته المحجَّبة فى خضرته (٨) .

#### ۳

# التضاد الجغرافي وأثره في نشأة حركة الصعاليك :

هذه هى الصورة العامة «للمسرح الجغرافي » الذى دارت عليه قصة صعاليك العرب ، كما نراها من الزوايا التى تفسر لنا مشاهدها ، وهى صورة خلاصة ما يقال فيها أنها تجمع لوناً من «التضاد الجغرافي » يلفت النظر ، وبجدر بنا أن نقف عنده لأن فيه مفتاحاً من مفاتيح هذه القصة ، ولأنه يكشف لنا جانباً من الستار عنها .

والحطوط الأساسية لهذه الصورة هي أنها منطقة صحراوية جبلية ، عرفت

Dermenghem; The life of Mahomet, pp. 11, 12. (1)

Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368. (7)

<sup>(</sup>٣) ديوانه / ١٠٦.

<sup>(</sup>٤) انظر ديوانه / ٢٨٤ ، ٢٨٤ .

Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 23. ( 0 )

<sup>(</sup> ٦ ) ياقوت : معجم البلدان ٢ /٩٥ .

<sup>(</sup>٧) المصدر السابق ٦/١٩٩ .

Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 98. (A)

الأغوار المنخفضة ذات الحرارة الشديدة ، والجبال العالية ذات القم الثلجية ، وعرفت بينهما مناطق رملية مترامية الأطراف كثيرة المجاهل والمخاوف . ثم هى منطقة عرفت الجدب الذى تتعذر معه الحياة ، حتى يضطر أهلها إلى الهجرة ، والحصب الذى يغرى الناس على الاستقرار وإقامة القرى ، وعرفت المطر يحتبس حتى تصبح البادية غير صالحة للسكن ، والسيول تتدفق حتى تجرف أمامها كل شي ، وعرفت البرد الذى يعقد ذنب الكلب ، والحر الذى يذيب دماغ الضب ، ويطبخ الإبل ويشويها .

وكان لهذا «التضاد الجغرافى» أثره فى نفوس سكان الجزيرة العربية ، فقد أوجد فى شخصياتهم لوناً من «التضاد النفسى» اصطبغت عناصره بما فى البيئة الجغرافية من لونى المبالغة وعدم الاستقرار . وظهر هذان اللونان الصارخان فى نفوس البدو فى كلا الجانبين الأخلاقيين : جانب الخير وجانب الشر ، فالبدوى لا يعرف القصد لا فى الخير ولا فى الشر ، مبالغ فى عداوته ، مبالغ فى عداوته ، مبالغ فى عداوته ، مبالغ فى عداوته ، مبالغ فى عدور عن الغدر ، ولكنه إذا عاهد على الوفاء بذل حياته فى سبيل عهده ، يغزو وينهب حتى يكاد يفقد حياته ، ثم يوزع ما يغنمه على سواه .

والبدوى \_ إلى جانب هذا \_ يأنف من حياة الاستقرار ، ويرى الدارسون أن «كل جانب من جوانب الحياة البشرية في الصحاري يحمل طابع الحركة» (١) ، وأن « القاعدة التي تقوم عليها حياة البدو قاعدة متقلقلة » (٢) . ومن هنا احتقر البدو الزراعة (٣) ، ويذكر ابن خلدون أنها \* من معاش المتضعين وأهل العافية من البدو \* (٤) ، واحتقروا الصناعة (٥) ، وعند ابن خلدون أن \* العرب أبعد

Semple; Influences of Geographic Environment, pp. 487, 488. (1)

Ibid., p. 49'0 (Y)

Ency. of Islam; art. Arabia, p. 375; & Semple; Influences of Geographic ( T ) Environment, p. 500.

<sup>(</sup>٤) انظر الفصل الثامن من الباب الخامس من الكتاب الأول من المقدمة / ٣٩٤ .

The Ency. of Islam; art. Arabia, p. 375. (a)

الناس عن الصنائع » (١) . وآمنوا بأن الرعى والتجارة والصيد والنهب هي وحدها الأعمال التي تليق بالرجال (٢) ، وهي كلها أعمال بعيدة عن الاستقرار .

ونستطيع بعد هذه النظرة العامة أن نركز الضوء على أبطال قصتنا ، صعاليك العرب ، حيث يتحركون على هذا المسرح الجغرافي الذي رسمنا خطوطه الأساسية ، لنتبين كيف تأثرت حركتهم به ، وكيف تكيفت معه .

وأول ما تلاحظه أن هذه البيئة الجغرافية كانت عاملا أساسيًا في وجود الفقر من ناحية ، وفي الإحساس به من ناحية أخرى .

فهذه البيئة الصحراوية ذات المناخ الحاد ، والموارد الطبيعية المحلودة ، التي تعتمد على المطر تجود به السياء في فترات متباعدة غير منتظمة ، والتي يسيطر عليها الجفاف والجدب أكثر شهور السنة ، والتي تقع تحت وطأة الطبيعة مباشرة ، فلا يجد أهلها إذا ما اشتدت عليهم إلا الهجرة ، عامل فعال في وجود الفقر .

ويلاحظ الدارسون أن والبدوى والعوز صاحبان ألف كل منهما صاحبه (٣)، وأن و القفر مكان الشظف والسَّغَب، وأن و نكد العيش وشظف الأحوال وسوء المواطن والتي اختص بها أهل البادية أمور وحملتهم عليها الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة و(٤)، وأن الظروف الاجتماعية التي تسود البيئة الصحراوية توصد أبواب الرزق في وجوه أبنائها، وتجعل من العمل في سبيله مهمة شاقة غير مشمرة، فهي حياة تعرف الكدح الكثير، ولكنها تضيع ثمرته (٥). وفهذه السهول القاحلة تحول دون نمو الثروة الإنتاجية، فها عدا قطعان الغنم والماشية، بل إنها تحد من نمو هذه القطعان نفسها، نظراً لقلة ما تقدمه لها مراعها الهزيلة المتفرقة من غذاء، وهو غذاء لا يتجاوز تلك

<sup>(</sup>١) انظر القصل الحادي والعشرين من الباب الخامس من الكتاب الأول من المقدمة / ٤٠٤.

The Ency. of Islam; art. Arabia, p. 375 ( )

Semple; Influences of Geographic Environment, p. 490 ( 7 )

<sup>﴿ \* )</sup> ابن خلدون : المقدمة ، الفصل النتاسع من الباب الثانى من الكتاب الأول / ١٢٩ .

Semple; Influences of Geographic Environment, p. I. ( e )

الحشائش والأعشاب وما يشبهها من أنواع النبات التى تحتمل جفاف صيف طويل ، والتى تحتاج إلى وقت قصير لنموها » (١) . وهكذا انحصرت حياة البدو دون تدخل منهم فى الرعى ، ما دامت الموارد الطبيعية التى لديهم قد حصرت ثروتهم فى هذه القطعان . ومع ذلك فإن هذه الثروة النسبية التى يملكها البدوى ليست بالثروة المضمونة البقاء فإن ا وباء ينتشر بين قطعانه ، أو جدباً فى المرعى ، أو جفافاً فى الآبار ، يضعه وجهاً لوجه أمام المجاعة ، ويدفعه دفعاً إلى السرقة والنهب (١) .

وكما كانت هذه البيئة الطبيعية عاملا في وجود الفقر كانت عاملا في الحساس الفقراء إحساساً قويناً به ، حين أوجدت في جوار المناطق المجدبة مناطق خصبة ، مما أشعر أبناء المناطق المجدبة بأن الحياة لم تحرم الناس جميعاً كما حرمهم ، وإنما أغدقت على طائفة من الناس ماء لا ينضب ، وكلاً لا يجف ، وثروة لا تهددها الطبيعة في كل لحظة بالفناء ، بقدر ما سلطت عليهم من سياط الحرمان جفافاً وجدباً وفقراً . والنتيجة النفسية لهذا \_ كما يقرر علماء النفس نشأة « عقدة الفقر » في نفوسهم . ولو أن الطبيعة سوت بين أهل البادية جميعاً في الفقر لما أحس أحد هذه الفوارق الطبقية التي تثير في نفوس الطبقة الفقيرة الثورة والتمد ، وهذا معنى قولنا إن ظاهرة « التضاد الجغرافي » تحمل مفتاحاً من مفاتيح قصة صعاليك العرب .

ثم إن هذه البيئة الجغرافية خلقت من أبنائها رجالا أقوياء . فالصحراء . كما يقرر الدارسون ــ تربى فى نفوس أبنائها و صفات الشجاعة والجرأة ، والكبرياء العنيدة ، كبرياء الرجال الأحرار » (٣) ، ووحياة الصحراء بما فيها من مخاطرة ، واعتماد على النفس ، تجعل من العربى أشجع الجنس البشرى» (٤) ،

Semple; Influences of Geographic Environment, p. 483. (1)

Ibid., p. 490. (Y)

Ibid., p. 510. (7)

Ibid., p. 493. (1)

و وأهل البدو ۽ — كما يذكر ابن خلدون (١١) — و أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر ... قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية ، ومرد هذا عنده إلى حياتهم التي بحيونها في البيداء ، والإنسان و ابن عوائده ومألوفه .

وقد رأينا أن هؤلاء الرجال الأقوياء من أبناء الصحراء يرفضون الاعتباد في سياتهم على الزراعة أو الصناعة ، ولا يجدون سبيلا للعيش إلا فى الرعى أو التجارة أو الصيد أو النهب ، ورأينا فى الفصل السابق كيف كان صعاليك العرب يرفضون الرعى ، لأنهم يرون فيه عملا من أعمال العبيد الأذلاء ، أما التجارة فلم يكن للصعاليك مجال فيها ، إذ هى تعتمد قبل كل شى على رأس مال يستغل فيها ، وأنتى لهؤلاء الفقراء رأس المال الذى يصلح للاستغلال التجارى ؟ وإذن لم يبق أمامهم سوى الصيد والهب ، وقد اعتملوا عليهما جميعاً ، وهما حكذا خلقت الصحراء هؤلاء الرجال الأقوياء ، ووضعتهم فى بيئتها هكذا خلقت الصحراء هؤلاء الرجال الأقوياء ، ووضعتهم فى بيئتها الفقيرة ، وضيقت عليهم موارد العيش ، وأوجدت فى جوارهم بيئات خصبة تفيض بالمال والثراء ، فلم يكن هناك مفر من النتيجة التى تنتج من تفاعل هذه الموامل معاً ، وهي و الغزو والإغارة للسلب والهب » .

وانتشر صعاليك العرب في البادية يقطعون طرقها ، وينهبون ويسلبون ، ويثيرون في أرجائها الرعب والفزع ، ويغيرون على المناطق الحصبة ، ويهددون أهلها في ثروتهم وحياتهم ، ويعترضون القوافل التجارية ، حتى لتضطر إلى أن تخرج مسلحة في حرس شديد ، أو تحتاج إلى من يجيزها على المناطق الحطرة (٢) ، وحتى لتنكب القبائل العربية في اختيار منازلها مقانب العرب في سراياهم (٢) ، ويحذر بعضهم بعضاً من أن يتلعب به صعاليك العرب ، وتتخطفه ذئابها ، وتأكل ماله (١) .

<sup>(</sup>١) المقدمة الفصل الخامس من الباب الثانى من الكتاب الأول / ١٢٥.

 <sup>(</sup>٣) انظر قصة البراض الكثانى وعروة الرحال مع لطيمة النعان في الأغانى ١٩/٥٧ ،
 وانظر في قصص الحفارة المحبر لابن حبيب / ٢٦٣–٢٦٧ .

٣) البكرى : معجم ما استعجم ١/٣٥ .

<sup>( )</sup> الأغانى ٢/٢٦١ ، والبندادى : خزانة الأدب ١/٥٨١ - ١٨٦ .

# التضاد الجغراف وأثره في توجيه حركات الصعاليك :

وتتدخل ظاهرة «التضاد الجغرافي» مرة أخرى لترسم لهؤلاء الصعاليك المغامرين طريقهم ، وتحدد لهم مناطق نشاطهم ، فتكون هي تلك المناطق الخصبة التي تعرفها الجزيرة العربية .

ويلاحظ الدارسون أن هذا الصراع هو الصلة المخرافية الطبيعية بين الصحارى المقفرة والوديان الحصية ، بين أرض الفقر وأرض الثراء (۱۱) ، فمنذ أقدم العصور ، وهذا النطاق الصحراوى الذى يطوق الدنيا القديمة ، يرسل على الوديان الحصية المجاورة موجات متلاحقة من القبائل المغيرة الباحثة عن الحصب فى تلك الأرض الطبية ، عندما تقل لديها موارد الرزق ، ويحرق جفاف الصيف المراعى ، ويجف موارد المياه (۱۲) . وليس من الممكن أن يعيش بدو الصحارى المراحى ، وبجف في موارد المياه وإنها هي الغارات وحضر السهول الزراعية في أى مكان متجاورين في سلام وإنها هي الغارات والاعتداءات والثارات (۱۳) ، حتى ليعد هذا النطاق الصحراوى منطقة تقدم الكل أعداء النظام الحماية والأرض الصالحة التجنيد (۱۱) .

هكذا اتخذ صعاليك العرب من مناطق الحصب في الجزيرة العربية أهدافاً لم يتجهون إليها ، ومناطق نشاط يعملون فيها ، حتى إننا لو رسمنا مصوراً جغرافياً لحركات الصعاليك في الجزيرة العربية ، ووضعنا عليه السهام التي تبين الاتجاهات – كما يفعل أصحاب الحطط الحربية ب لوجدنا هذه السهام تخرج من مناطق الجدب ، وتتجه رعوسها إلى مناطق الحصب . ويذكر تأبط شراً أن أهدافه هي تلك المزارع الحصبة حيث الماء والزرع والماشية :

Semple; Influences of Geographic Environment, p. 487. (1)

Ibid., p. 7. (Y)

Ibid., p. 492. (T)

O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 3. ( t )

فيوماً على أهل المواشى ، وتدارة لأهل رَكِيب ذى ثَمِيل وسنبل<sup>(١)</sup> ويصرح أبو خراش بمثل هذه الأهداف :

لستُ لمرةَ إِنْ لَمْ أُوفِ مَرْقَبَةً يبدولى المحرُّفُ منها والمقاضيبُ (٢) وفي أخبار السليك أنه خرج في بعض غزواته بتتبع الأرياف (٢).

وقد لاحظنا أن أهم مناطق الحصب في الجزيرة العربية هي اليمن ، ونجد ، وبعض مناطق السراة ، ويثرب والوديان المحيطة بها . ونستطيع أن نقول – ونحن مطمئنون إن كلهذه المناطق، بدون استثناء، تعرضت لغزوات الصعاليك .

وقد توزع نشاط الصعاليك بين هذه المناطق ، حتى ليوشك أن تكون لكل جماعة من جماعاتهم مناطق اختصاص يتركز فيها نشاطهم :

أما عروة بن الورد وصعاليكه ، أو « فتيانه » كما كانوا يسمون أحياناً (٤) ، فقد تركز نشاطهم الأساسي في منطقة يثرب وما يجاورها من شالى الجزيرة العربية . وفي شعره وأخباره أحاديث كثيرة عن غزواته لهذه المنطقة . فهو يعلن صعاليكه مرة بأنهم لن يحققوا كل آماله ، ولن يبلغوا أقصى همته ، حتى يصلوا إلى يثرب منبت النخل فيغيروا عليها :

فإنكم لن تبلغوا كل همّى ولا أربى حتى تروا منبت النخل (٥) وفي أبيات أخرى يتوعد الأوس ، ويعلنهم بأنه سيترصد لهم بأحد الأودية حول يثرب :

<sup>(</sup>١) لسان العرب : مادة (ركب) ، ومادة (ثمل) - الركيب : المزرعة . والمحبل : الحب ،

<sup>(</sup>٢) ديوان المذليين ٢/٢٥٥١. ويروى في لسان العرب : مادة (قضب) لعروة بن الورد (انظر أيضاً ديوانه / ١٩٣). والواضح أنه لأبي خراش فإن مرة هو أبوه -أوقى : أشرف والحرف من الجبل : أعلاه المحدد ، ولعلها هذا تحريف صوابه و الحرث ، بمعني النبات، بدليل والمقاضيب ، بعدها ، وهي الأرض تنبت النبات الرطب ، جمع مقضبة أو مقضاب .

 <sup>(</sup>٣) ابن حبيب : كتاب المغتالين (مصورة) لوحة رقم ٩٠ . وانظر أيضاً شرح التبريزى
 على حماسة أبي تمام ١٩٢/٢ .

<sup>( ﴾ )</sup> انظر شرح التبريزي على حماسة أبي تمام ٢/٨ .

<sup>(</sup>ه) المصدر السابق ٢/٨ ١٠٠٠ -

فإلا أنل أوسا فإنى حسبها عنبطع الأدغال من ذى السّلائل (١٠) وفى أخباره أنه أغار على مزينة (٢٠) ، ومنازل مزينة «جبال رَضُوى وقدُ س وَآرة وما والاها وصاقبها من أرض الحبجاز » (٣) «بين حرة بنى سلّم وبين المدينة » (١٠) ، بل إننا لسنا في حاجة إلى هذا التحديد ، فإن قصة الغارة صريحة في أن مزينة كانوا بخالطون بنى النضير (٥) ، وعروة نفسه يذكر في شعره أنهم كانوا بنزلون «فويق بنى النضير » (١) ، وبنو النضير كانوا بنواحى يثرب (١٠) وهذه المنطقة التي أغار عليها منطقة خصبة «فيها العيون والنخل والزيتون والبان والباسمين والعسل وضروب من الأشجار والنبات » (٨) . وفي أخباره أيضاً أنه كان ينزل بصعاليكه في ماوان ، ويجعل منها « نقطة ارتكاز » لغزواته في تلك المنطقة (١٠) ، وماوان واد فيه ماء بين النَّقرة والربسَدة في منطقة يثرب (١٠) ، وهو بتحدث في بعض شعره عماكان يحدث له مع صعاليكه في هذه المنطقة (١٠)، وفي أخباره أيضاً أنه خرج بصعاليكه « متيامناً عن المدينة يريد أرض قضاعة ، وقصد بتنقين » (١١) ، وأنه في مرة أخرى خرج بهم غازياً « ومضي حتى انتهى وقصد بتنقين » (١١) ، وأنه في مرة أخرى خرج بهم غازياً « ومضي حتى انتهى

 <sup>(</sup>١) الأغانى ٣/٥٧. وذو السلائل : واد بين الفرع والمدينة (ياقوت : معجم البلدان ٥/٥٠١) ، والفرع قرية غذاء كبيرة بها فخل ومياه كثيرة (المصدر السابق ٣٦٣/٦) .

<sup>(</sup>٢) الأغاني ٣/٥٧.

<sup>(</sup>٣) البكرى : معجم ما استعجم ١/٨٨.

 <sup>(</sup>٤) المصدر السابق / ٩١ .

<sup>(</sup>ه) الأغاني ٢/٢٧.

<sup>(</sup>٢) ديوانه / ه٤ .

<sup>(</sup>۷) تاریخ ابن خلدون ۲/۸۲.

<sup>(</sup>۸) البكرى : معجم ما استعجم ۱/۳۷.

<sup>(</sup>۹) الأغانى ۲/۷۷، ۵۵، وديوانه / ۹۷، وشرح التبريزى على حماسة أبى تمام ۹/۲ – سطر ۱۸.

<sup>(</sup>١٠) ياقوت : معجم البلدان ٧/٢٧٠ .

<sup>(</sup>۱۱) شرح ابن السكيت على ديوانه / ۹۷ وما بعدها. وشرح التبريزى على حماسة أبي تمام ۷/۷ ، ۹ .

ر (۱۲) شرح النبريزی على حماسة أبی تمام ۱/۸ سطر ۱۲، ۱۳ . وانظر أيضاً شرح ابن السكيت على ديوانه / ۹٦ .

إلى بلاد بنى القين فأغار عليها (١) ، ، ومنازل بنى القين فى أرض التيه (١) فى الشهال الغربى من جزيرة العرب (١) ، وهو يعلن صعاليكه بأنه لن يستقر بهم حتى يروا ، منبت الأثل ، (١) ، ومنبت الأثل بلاد بنى القين (١) .

ومع ذلك فقد كان عروة يغير أحياناً على مناطق أخرى غير مناطق المختصاصه، وهو يصرح في شعره بأنه يغير أحياناً على نجد، وأحياناً على نهامة : فيوماً على نجد وغارات أهلها ويوماً يبأرض ذات شَتْ وَعرع (١٦) وفي أخباره أنه أغار مرة على منازل هذيل (٧) ، ومنازل هذيل في جبال السراة (٨) جنوبي مكة (٩) ، ولكن يبدو أن هذا كان نادراً ، ولعله لم يكن يحدث إلا في حالات خاصة ، فقصة غارته هذه لم تكن إلا لوناً من التسلية أراد به أن يظهر براعته وسعة حيلته ، وأن يبين للهذلي الذي أغار عليه مقدار غفلته ، حتى ليرد عليه ما غنمه منه ، لولا أن يأبي الهذلي ذلك إعجاباً به (١٠).

أما منطقة جبال السراة فيا بين مكة والطائف ، وأول الطريق الصاعد إلى اليمن ، فلعلها المنطقة التي شهدت أكبر عدد من صعاليك العرب، ويذكر الأصمعي أن بالحبجاز والسراة من هؤلاء العدائين الذين يعدون على أرجلهم ويختلسون أكثر من ثلاثين (١١) ، وأن بهذيل وحدها منهم أربعين (١١)، ومرد

<sup>(</sup>١) الأغاف ٢/٢٨ .

<sup>(</sup>۲) شرح التبریزی علی حماسة أبی تمام ۲/۸ سطر ۱۸ ، ۱۹ .

Ency. of Islam; art. 'Urwa b. Al-Ward. (7)

<sup>( ؛ )</sup> شرح ابن السكيت على ديوانه / ١٠٦ .

<sup>(</sup> ه ) شرح التبريزي على حماسة أبي تمام ٢/٩ - السطر الأول .

<sup>(</sup>٦) ديوانه / ٨٤ .

<sup>(</sup>٧) الأغاني ٢/٢٨ .

۸۸/۱ البكرى : معجم ما استعجم ۱/۸۸.

Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368. (1)

<sup>(</sup>١٠) انظر القصة في الأغاني ٣/٣٨ - ٨٥ .

<sup>(</sup>١١) الأصمعي : قحولة الشعراء (مخطوطة) ورقة رقم ١٥ .

<sup>(</sup>١٢) المصدر السابق ، ورقة رقم ٢٢ .

ذلك عندى إلى أربعة عوامل:

فهذه المنطقة ، أولا ، منطقة يظهر فيها والتضاد المغراق » ظهوراً شديداً ، حتى ليعدها المغرافيون من المناطق التي يختلط فيها الرعى بالزراعة (١) . ففيها من المناطق ما يصفه القرآن الكريم بأنه واد غير ذى زرع (١) ، ويذكر بعض الدارسين أن ليس فيا يحيط بمكة من أرض ما يكنى لحياة سكانها (١) ، وليس في جميع جبال مكة - كما يذكر الجغرافيون - نبات إلا شيء يسير من الضهياء يكون في الجبل الشامخ ، وليس في شيء منها ماء (٤) ، ولكن في هذه المنطقة إلى جانب هذا مناطق شديدة الحصب ، وقد رأينا منها الطائف ، وتعد منطقة السراة جنوبي مكة أشد مناطق الحجاز خصباً (٥) ، تنمو بها أشجار الصمغ والصنوبر والسرو (١) ، وقد قلنا إن ظاهرة التضاد الجغرافي تثير في نفوس الفقراء إحساساً قوينًا بالفقر يدفعهم إلى التمرد .

وهذه المنطقة ، ثانياً ، منطقة جبلية . وسكان المناطق الجبلية في العادة في أشداء مغامرون متكبرون ، أخذوا من الصخر شدته ، ومن التواء اللاوب حب المغامرة ، ومن شموخ الجبال الكبرياء العنيدة التي ترفض الخضوع . ويقرر الدارسون للبيئات الجغرافية وأن مكان الجبال الذين لم

Semple; Influences of Geographic Environment, p. 487.

<sup>(</sup>١) انظر المصور الجغراق في كتاب :

<sup>(</sup> ۲ ) إبراهيم / ۲۷ .

Sédillot, Histoire Générale des Arabes, Tome I, p. 12. (Y)

<sup>(</sup> ٤ ) ياقوت : معجم البلدان ٣ / ٢٤٠ – والضهياء : شجر كثير الشوك .

Ency. of Islam, art. Arabia, p. 368. ( a )

Lammens, Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 92. (7)

وليس صحيحاً ما ذكره لامانس من أن جبالها تنبت الجوز بكثرة ، استناداً إلى أنها تسمى جبال الجوز ، كثرة ، استناداً إلى المناداً إلى جبال الجوز ، كما أنه ليس صحيحاً ما ذكره من أن كل منطقة الحجاز تنبت الجوز استناداً إلى السبب نفسه . . . . (Thid., pp. 92, 93)

فالحوز هذا ليس المراد به تلك النمرة المعروفة ، وإنما معناه الوسط ، فهى جبال الحوز لأنها تتوسط بين نجد وتهامة ، وكذلك القول فى الحجاز ، وليس هناك أى دليل على أن هذه المنطقة تنبت الحوز (انظر تاج العروس ، مادة جوز) .

يأخذوا بقسط وافر من الحضارة ، والذين لم نهيئهم أمزجتهم أو ظروفهم الاقتصادية الضيقة للهجرة ، يحلون مشكلة تقص موارد الطعام بالإغارة على حقول جيرانهم الأغنياء ومخارتهم ، حتى لتملأ غارات النهب تاريخ سكان الجبال الفطريين ، ١١١ ، ويذكرون أن سكان الجبال القدماء في الألب وشهالي أسبانيا والبلقان وإيطاليا والمرتفعات المحيطة بالفراتين ، كلهم قطاع طرق ، يعيشون على النهب والسلب ، نظراً لجدب بيئهم الطبيعية وما تسببه لهم من قلة موارد العيش وما يتبع ذلك من فقر وجوع (٢) .

وهكذا لم تكن القبائل العربية التي نزلت فى المناطق الجدبة من سلسلة جبال السراة بدعاً فى تاريخ العالم .

ثم إن هذه المنطقة ، ثالثاً ، بحكم طبيعتها الجبلية تيسر وسائل الهرب والاختفاء والنجاة لهؤلاء الصعاليك ، فما أيسر ما يجدون فى دروبها الملتوية ، وشعابها المتعرجة ، وطرقها الصاعدة الهابطة ، فرصاً طيبة تساعدهم على الهرب، وما أكثر ما يجدون فى كهوفها المتعددة ، وثناياها الغامضة المحجبة ، وصخورها العالية المتناثرة ، أماكن صالحة للاختفاء .

فنى أخبار تأبط شرًا أنه أغار ومعه ابن براقة على بجيلة ، فلما خرجت فى آثارهما « مضيا هاربين فى جبال السراة ، وركبا الحزن » (٣) ، وفى أخبار مرّة بن خليف (٤) أنه غزا الأزد، « فأسند فى جبل لم منكر، ليجد فرصة فيغير » (٥). ثم إن هذه المنطقة ، رابعاً ، تعرضت لظروف اقتصادية خاصة ، سنعرض لها عند تفسيرنا الاقتصادي لظاهرة الصعلكة .

وأشهر الصعاليك الذين انتشروا فى هذه المنطقة الجبلية صعاليك فهم وصعاليك هذيل ، ومن انضم إلى أولئك وهؤلاء من خلعاء القبائل وشذاذها .

Semple; Influences of Geographic Environment, p. 586. (1)

<sup>(</sup>٢) انظر تفعيل هذا في المصدر السابق : الموضع نفه .

<sup>(</sup>٣) الأغان ١٨/١٨ .

<sup>(</sup>٤) ينص الأغافي على أنه من صماليك فهم (١٨/١٨).

<sup>(</sup>ه) ابن حبيب : المحبر / ١٩٨.

وقد قدمنا أن قبيلة هذيل كانت تنزل من تلك المنطقة الجبال جنوبي مكة ، وكان لهم صدور أوديتها وشعابها الغربية (١) التي تلى الرملة من تهامة (٢) ، وكانت تجاورهم في جبالهم فيهم (١) ، وكانت سراة فهم تجاور سَراة ثقيف (٤) التي تقع إلى جانب الطائف (٥) .

وقد اتجهت أكر غزوات صعاليك هذه المنطقة إلى ديار بجيلة ، وهي إحدى القبائل التي عرفت بالضعف (١) . ويبدو أن من أسباب هذا نزول بجيلة و في حضرة الطائف، (٧) هذا الإقليم الشديد الخصب ، وبجاورتها سراة فهم نتيجة لذلك . ولهذا نلاحظ أن تأبط شرا الفهمي ، ورفاقه من صعاليك فهم ، ومن شذاذ القبائل الذين كانوا يصحبونه ، كانوا مفتونين بالإغارة على هذه المنطقة ، فني أخباره أنه خرج في عدة من فهم وحتى بيتوا العوص ، وم حي من بجيلة ، فقتلوا منهم نفراً ، وأخذوا لهم إبلاء (٨) ، وأنه أغار و ومعه ابن براق الفهمي على بجيلة فأطردا لهم نعماً و (١) ، وأنه خرج ومعه صاحبان له ويريدون الغارة على بجيلة فأطردا لم نعماً و (١) ، وأنه خرج ومعه صاحبان له معه » ، أو و هو وصاحبان له مني أغاروا على العوص من بجيلة فأخذوا نعماً له (١١) ، وفي أخبار صعاليك هذيل أنهم كانوا يغزون بجيلة أيضاً (١١) .

وقد اتجهت غزوات صعاليك هذيل إلى منطقة مكة أيضاً ، بحكم قربهم

<sup>(</sup>١) البكرى: معجم ما استعجم ١/٨٨.

<sup>(</sup>۲) السيوطي : المزهر ۲/۳۰۰ .

<sup>(</sup> ٣ ) اليكرى : معجم ما استعجم ١ / ٨٨ .

<sup>(؛)</sup> المصدر السابق /١٥٠ .

<sup>(</sup>م) المصدر نفسه /١٧ .

W. Robertson Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 170. (F.N.) (7)

۱۰/۱ البكرى : معجم ما استعجم ۱/۹۰ .

<sup>(</sup>٨) الأغاني ١٨/١٨ .

<sup>(</sup>٩) المصدر السابق /٢١١ .

<sup>(</sup>١٠) المصدر نفسه /٢١٧ .

<sup>(11)</sup> المصدر نفسه /٢١٢ .

<sup>(</sup>۱۲) السكرى : شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٢ ، ٢٣٤ .

منها ، فنى أخبار الأعلم الهذل أنه خرج وهو وأخواه صخر وصُخرَ برحتى أصبحوا تحت جبل يقال له السطاع و(1)، وهو جبل بينه وبين مكة مرحلة ونصف من جهة البحن (1) ، وفي أخبار بعض الصعاليك الهذليين أنهم كاتوا يغيرون على خزاعة (1) ، وكانت خزاعة تقيم بمكة (1) ، ولكن يبدو أن المسألة جانباً آخر اقتصادياً سنحاول استجلاءه في تفسيرنا الاقتصادى لظاهرة الصعلكة.

وقد كانت بين هذيل وفهم ثارات (°) ، فكان صعاليك كل من القبيلتين يغيرون على الأخرى ، فيتربص بهم صعاليكها ، وهكذا . وببدو أن سر المسألة يرجع إلى الصراع بين الطائفتين على أهداف واحدة ، وقد رأينا أن صعاليك هذيل كانوا بغيرون على بجيلة ، هدف صعاليك فهم الأول ، ويبدو أن كلا من الطائفتين كانت تريد أن تكون لها وحدها السيطرة المطلقة على هذه المنطقة الحصية .

أما منطقة اليمن فقد عرفت أجزاؤها القريبة من الحجاز ، وبخاصة ديار خثم ، صعاليك من فهم وصعاليك من الأزد ، فني أخبار تأبط شراً أنه وأغار على خثم الأن ، وفي أخبار حاجز الأزدى أنه جمع و ناساً من فهم وعد وان ، فللم على خثم ، فأصابوهم غرة وغنموا ما شاءوا (١) ، وكانت خثم تنزل تربة وبيشة وظهر تبالة على محجة اليمن من مكة إليها (١٨) ، وهي منطقة خصبة وبها من النخل والفسيل شيء كثير الهوا ، وبعض أوديتها ،

<sup>(</sup>١) الأغاني ٢٠/٢٠ .

<sup>(</sup>٢) ياقوت : معجم البلدان ٥/٨١.

<sup>(</sup>٣) السكرى : شرح أشعار الهذليين ١٦١/١ ، وديوان الهذليين ٢/١٤٢ .

<sup>( ؛ )</sup> تاریخ ابن خلدون ۲ / ۷۱ .

<sup>(</sup>ء) انظر أمثلة على هذه العداوات في السكرى : شرح أشمار الهذليين ٢/٢٢، ٢٤٣، ٢٤٧، ٢٤٧، ٢٤٧

<sup>(</sup>٦) الأغاني ١٨/١٨ ، ٢١٧ .

 <sup>(</sup>٧) الأغان ١٢/١٥ (بولاق) .

<sup>(</sup>٨) البكرى : معجم ما استعجم ١/ ٩٠ وأيضاً / ٦٣ .

<sup>(</sup>٩) ياقوت : معجم البلدان ٢/٤٣٤ .

و بخاصة وأدى بيشة ، ينتمى إلى أطبب مناطق بلاد العرب، وأكثرها خصباً ١١٠ ، ويصف ياقوت بيشة بأنها و قرية غناء في واد كثير الأهل من بلاد اليمن ۽ (٢) .

وكذلك تعرضت سراة الآزد لبعض الغزوات ، فقد كان الشنفرى يغير من ديار فهم على الآزد فيمن معه من فهم أحياناً ، ووسعده أكثر الأحيان (١) ، وفي أخبار مرة بن خليف و أنه غزا الآزده (١) . ويبدو أن من أسباب ذلك أن سراة الأزد كانت تجاور سراة فهم ، فسراة الآزد تتلو سراة فهم من ناحية اليمن (١) ، وإن تكن بينهما طائفة من السروات تنزلها قبائل أخرى (١) ، ولكن الأزد كانوا ينزلون منطقة خصبة ، فقد كانت منازلم و أودية مستقبلة مطلع الشمس بتثليث وتربة وبيشة و(١) وهي المنطقة التي كانت تنزل فيها خثع ، فقد كانت خثع تنزل أوساط هذه الأودية (٨)

أما مناطق اليمن البعيدة فقد تخصص في الإغارة عليها السليك ، وقد مر بنا أن عمرو بن معد يكرب وصفه بأنه بعيد الغارة ، وفي أخباره أنه كان ايتجاوز بلاد خثعم إلى من وراءهم من أهل اليمن فيغير عليهم (1) ، وفيها أنه كان ايغير على اليمن (11) ، وفيها أنه انطلق مع رجلين ليغير وا ا فأتوا جوف مراد في أرض مبأ (11).

ومع ذلك فقد كان تأبط شرا يتعدى على اختصاص السليك فيغير على

Ency. of Islam; Art. 'Asir, p. 487. (1)

<sup>(</sup>٢) ياقوت : معجم البلدان ٢/٤٣٤ .

<sup>(</sup>٢) الأغاني ٢١/١٥٠٠ .

 <sup>(</sup> t ) ابن حبيب : الحبر / ١٩٨ .

<sup>(</sup>٥) الهنداني : صغة جزيرة المرب ١٢١/.

<sup>(</sup>٦) المصدر السابق /١١٩.

٩٠/١ البكرى : معجم ما استعجم ١/٩٠.

<sup>(</sup>٨) المصدر المابق / ٩٠٠.

<sup>(</sup>٩) الأغاني ١٨/١٧١ ، ١٢٨

<sup>(</sup>١٠) المصدر السابق /١٣٤ .

<sup>(</sup>١١) أبن قتيبة : الشعر والشعراء /٥٢٥ .

<sup>(</sup>۱۲) ياقوت : معجم البلدان ٣/١٧٥ .

هذه المنطقة أحياناً ، فني أخباره أنه خرج يوماً ويريد الغارة فلتي سرّحاً لمراد فأطرده ، ونظرت به مراد ، فخرجوا في طلبه فسبقهم إلى قومه ه (١١) .

وكان السليك يعد العدة لتلك الغارات البعيدة التي يضطر معها إلى اختراق المهاكة التي توصل إلى اليمن ، فكان ، أولا ، لا يغير إلا في الصيف حينا تنقطع إغارة الحيل (٢) ، فيضمن بهذا عدم تعرضه لمطاردات الحيل البعيدة المدى ، وهو لا يملك إلا قدميه يعدو بهما ، ثم كان ، ثانيا ، يدير و موارد تموينه ، في طريق غزواته الجدب ، فكان وفي الربيع يعمد إلى بيض النعام ، فيملؤه من الماء ، ويدفنه في طريق اليمن في المفاوز ، فإذا غزا في الصيف مر به فاستأثره (٣) ، وكان يعتمد في هذا على خبرته الواسعة الصيف مر به فاستأثره (٣) ، وكان يعتمد في هذا على خبرته الواسعة بمجاهل الصحراء ، فقد كان حكما يصفه الرواة \_ وأدل من قطاة ، يجئ بقف على البيضة ، (٤) .

والشيء الذي يلفت النظر في صعاليك هاتين المنطقتين الأخيرتين: منطقة السراة الممتدة من مكة حتى أول الطريق الصاعد إلى اليمن ، ومنطقة السراة الممتدة بعد ذلك حتى اليمن ، هو أن أكثرهم ـ إن لم يكونوا جميعاً من العدائين الرجليين الذين يعدون على أرجلهم ، فيسبقون الحيل ، وقد رأينا أن المثل في سرعة العدو يضرب باثنين منهم هما السليك والشنفرى ، وأن الأصمعى يذكر أن في هذيل وحدها أربعين من هؤلاء العدائين ، ويذكر السكرى وأن هذيل للهوا بأصحاب دواب ، وإنما هم رجالة» (٥) ، وديوان المذليين ناطق بكثرة عدد هؤلاء العدائين الذين كانوا يعتمدون على العدو في غاراتهم وفي فرارهم ، وتشهد بهذا أيضاً حمامة البحترى (٢) .

<sup>(</sup>١) الأغافي ١٨/٢١٦ .

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق /١٣٣ ، ١٣٤.

<sup>(</sup>٣) المصدر السابق /١٣٥.

<sup>(</sup>٤) المصدر البابق (١٣٤ .

۷٦/٢ (ه) ديوان الهذايين ٢/٢٧ ,

<sup>(</sup>٦) انظر الياب الخامس والعشرين ﴿ فيها قبيل في الفرار على الأرجل ﴿ ٦٣ – ٦٩ .

ومرد ذلك ، عندى ، إلى أمرين :

أولهما: طبيعة المنطقة الجغرافية ، فهى منطقة جبلية تمتد على طول الساحل الشرق للبحر الأحمر ، و مقبلة من قُعرة البمن حتى تبلغ أطراف بوادى الشأم، (۱) وفي عرض أربعة أيام في جميع طول السراة ، يزيد كسر يوم في بعض هذه المواضع ، وقد ينقص مثله في بعضها و (۱) ، وترتفع بعض ذراها إلى خسائة وألفين من الأمتار (۱) . وفي الجبال تشتد عضلات الأرجل إلى درجة غير عادية نتيجة لطبيعة الأرض ، وما تستلزمه من صعود وهبوط دائمين ، ويقرر الدارسون و أن الطبيعة تمنح سكان الجبال عضلات في سيقانهم من حديد ليتسلقوا بها المرتفعات و (۱) .

والآخر: أن هذه المنطقة الجبلية المجدبة ليست بالمنطقة الصالحة لتربية الحيل ، لأن الحيل لاتُربتَّى إلا في البقاع الخصبة (٥) ، ومن هنا اعتمد هؤلاء الحيال كا تُحركاتهم .

ولهذا السبب أيضاً نلاحظ أن عروة وصعاليكه ممن كانوا يغيرون على منطقة نجد وشهالى الجزيرة العربية لم يذكر عنهم أنهم كانوا من العدائين أو الرجليين ، و إنما كانوا يستخدمون الحيل أحياناً (٦) ، وذلك لأن هذه المناطق مناطق خصبة تصلح لتربية الحيل ، وهم يذكرون أن « فى نجد وحدها أعز الحيول العربية وأرشقها (٧) .

والواقع أن هذه الظاهرة ، ظاهرة شدة العدو الخارقة للعادة ليست بالأمر المستحيل الذي يأباه واقع الحياة ، فإننا نجد في حياتنا الواقعية التي تحيط بنا

<sup>(</sup>١) الهمدائي : صفة جزيرة العرب ١/٨٤ .

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق ١/٦٧.

<sup>(</sup>٣) جوستاف لوبون : حضارة العرب /١٥ .

Semple; Influences of Geographic Environment, p. 1. ( )

<sup>(</sup> ه ) جوستاف لربون : حضارة المرب / ۵ ه .

<sup>(</sup>٦) انظر ديوان عروة /١٨ ، ١٩ ، ١١١ .

<sup>(</sup>٧) جوستاف لوبون : حضارة العرب /٥٥ .

ما يؤيد ما حملته إلينا مصادر الأدب العربي القديم من أخبار تلك النسرعة التي عرف بها صعاليك السراة .

ورد المألة في جميع هذه الحالات إلى تكينف الإنسان عضوينًا مع البيئة الطبيعية التي يعيش فيها ، والحياة التي بحياها بينها .

# الفصلالثالث

# التفسير الاجتماعي لظاهرة الصعلكة

١

### القبيلة:

حين ننظر إلى المجتمع الجاهلي في صورته العامة نرى أنه مجتمع قبلي ، انقسم فيه العرب إلى وحدات اجتماعية متعددة ، عرفت كل منها باسم القبيلة . وقد نزلت كل وحدة من هذه الوحدات الاجتماعية في بقعة من الجزيرة العربية يتوافر فيها الماء والكلأ ، واتخذت منها موطناً لها ، فإذا ما ساءت ظروفها المخرافية ، فأحالت موطنها إلى بقعة جرداء غير صالحة المحياة ، انتقلت منها الم بقعة أخرى . أما إذا كان الموطن الأول أرضاً ذات خصب دائم \_ نظراً لظروف جغرافية مواتية \_ فإن القبيلة تستقر فيه استقراراً دائماً ، وتنشئ فيه قرية . وقد نزلت بعض القبائل العربية في المدن القليلة المبعثرة في أرجاء الجزيرة ، واتخذت منها مواطن لها ، ولكن يجب أن نلاحظ أن هذه القبائل لم تفقد صورتها القبلية ، فقد ظلت لكل منها « منازلها الحاصة ، ومعاقلها الصغيرة ، وسرتها القبلية ، فقد ظلت لكل منها « منازلها الحاصة ، ومعاقلها الصغيرة ، وساداتها ، وشئونها الخاصة » (١) . ومرد ذلك إلى أن « رابطة القبيلة كانت أقرى من رابطة المدينة ، حتى لقد تؤدى الثارات بين قبيلة وقبيلة إلى انقسام المدينة على نفسها » (١) . ولكن هذه القبائل \_ مع ذلك \_ كانت أكثر المتقراراً من قبائل البادية ، لأن وسائل العيش في المدن لا تقع تحت رحمة المدينة من قبائل البادية ، لأن وسائل العيش في المدن لا تقع تحت رحمة المدينة من حدت رحمة المدينة من من حدت رحمة المدينة من من البعية منائل البادية ، لأن وسائل العيش في المدن لا تقع تحت رحمة المدينة من حدت رحمة المدينة من من بالمدينة ، لأن وسائل العيش في المدن لا تقع تحت رحمة المدينة من من حد المدينة من من حد من المدينة من من المدينة من من بالمدينة من المدينة من المدينة من من من المدينة من منائل الموتفراراً من قبائل البادية ، لأن وسائل العيش في المدن لا تقع تحت رحمة المدينة وتحد من المدينة المدينة

Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 2. ( 1 )

Ibid., p. 2. (Y)

<sup>(</sup>٣) ولعل من خير الأمثلة على هذا ما كان بين الأوس والحزرج في يترب ، وما كان بين عبد شمس وهاشم في مكة

الظروف الجغرافية مباشرة ، وإنما هي وسائل صناعية تخضع إلى حد بعيد لسيطرة الإنسان .

وهكذا نستطيع أن نقول إن القبيلة كانت الوحدة الاجتماعية التي عرفها المجتمع الجاهلي في باديته ومدنه .

وأساس تكوين القبيلة الأسرة ، ذلك أن المثل الأعلى للعربى أن ينجب أكبر عدد من الأبناء الأشداء حتى تصبح أسرته بين أقاربه ذات شأن يجعلهم يعدونه شيخهم الأكبر ، ويدعون أنفسهم أبناءه (۱) ، ومن هنا يصح أن يقال إن القبيلة ليست سوى أسرة أكبر حجماً (۲) . و و بحضى الزمن تنقسم القبيلة إلى قبيلتين أو أكثر ، تضم كل منها سلالة أحد أبناء الحد الأكبر متسمية باسمه ، ثم تنقسم هذه القبائل مرة أخرى على أساس القاعدة نفسها ، وهكذا يستمر الانقسام (۲) .

وقد أثار بعض الباحثين المحدثين جدلا حول تسلسل القبيلة عن طريق الأب ، أو ما يصبح أن نطلق عليه و الانقسام الذكرى في القبيلة العربية ، و وحاولوا أن يتلمسوا آثار الأمومة في أنساب القبائل العربية ، ليثبتوا أن تسلسل القبيلة كان يحدث أحياناً عن طريق الأم (٤) ، ولكن الشيء الثابت عند النسابين العرب هو أن كل القبائل العربية و قبائل أبوية تكونت بانقسام جماعة أصلية انقساماً يعتمد على القرابة من ناحية الأصول الذكرية (٥) ، والذي يعنينا هنا هو أن أفراد كل قبيلة كانوا يؤمنون بأنهم أبناء لأب واحد ، فهم يؤلفون أسرة واحدة قائمة بذاتها لا اختلاط فيها ، متجانسة لا تباين بين أفرادها ،

Ency. of Islam,; art. Arabia, p. 373. ( )

Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 3. ( 7 )

Ibid.; p. 4. (7)

<sup>(</sup>٤) انظر في هذا المصدر السابق ، وانظر أيضاً كتاب « الأمومة عند العرب » للمستشرق المولندي G.A. Wilken الذي ترجمه عن الفرنسية الأستاذ بندلي صليبا الجوزي . وانظر في مناقشة هذه الآراء البحث الذي نشره الأستاذ عبد الوهاب حمودة في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد عنوان » نظرية الأنساب في الميزان » .

Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 3. (c)

متآلفة لا شذوذ بين أعضائها ، يعمل الحميع فى سبيل هدف واحد وهو المحافظة عليها .

وقد نشأ عن هذا الإيمان وبالأسرية و إيمان بوحدة اجتماعية تغلغل فى نفوس أبناء القبيلة ، نشأ عنه أن كان إحسامهم بالشذوذ فى هذه الوحدة إحساساً قويبًا أصيلا . ومن هنا كان حرصهم على أن تظل هذه الوحدة قائمة كما هى ، نقية كما آمنوا بها ، يخرجون منها ما يرونه شوائب فيها ، ولا يبقون إلا ما هو صالح للمحافظة عليها ، ولا يسمحون لغريب بأن يدخل فى مجموعها إلا بشروط خاصة ، ووفقاً لتقاليد معينة ، وداخل نطاق محدد ، وسنرى أن هذه المسألة تحمل أول المفاتيح الاجتماعية لظاهرة الصعلكة .

۲

## إيمان القبيلة بوحدتها:

عرفت القبيلة هذا الإيمان بالوحدة أمراً مقدساً ، وترتبت عليه طائفة من التقاليد الاجتماعية كانت بمثابة و دستور ، ينظم سياستها ، وبحدد ما على أفرادها من واجبات وما لهم من حقوق .

والأساس الذى تفوم عليه نصوص هذا الدستور العصبية »، والمقصود بها النعرة على ذوى القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة » (١) ، أو هى إحساس الفرد برابطته القبلية ، وواجب تأييد مصالحها ، والعمل لها بكل ما يملك من قوة (١) .

وينص هذا الدستورفيا يتصل « بالسياسة الداخلية للقبيلة » على أن أفراد القبيلة جميعاً متضامنون فيا يجنيه أحدهم ، أو ــ كما يقول المثل العربى القديم ــ « فى الجريرة تشترك العشيرة » (٢) ، وعلى أن هذا « العقد الاجتماعي » بين الفرد

<sup>(</sup>١) مقدمة ابن خلدون /١٢٨ .

Ency. of Islam, Art. Arabia, p. 376. (7)

<sup>(</sup>٣) الميداني : مجمع الأمثال ٢/١٧ .

وقبيلته قائم على أساس عاطني بحت ، ولا مجال التفكير فيه (١) ، وإنحا هي النجدة التي تجيب دون أن تسأل (٢) ، وهي نجدة عملية سريعة لا تحتمل انتظاراً ، إجابها تنفيذها (٢) ، وتنص و مواد ، هذا اللمستور على أن نجدة أبناء القبيلة لأخيهم واجبة سواء أكان جارماً أم مجروماً عليه ، فبدؤهم الذي يسيرون عليه وانصر أخاك ظالماً أو مظلوماً (١) ، فجناية كل فرد منهم جناية المجموع ، يعصبونها برأس سيد العشيرة (٥) ، ولم عليه أن يتحمل تبعاتها ، وله عليهم أن يطيعوه فيها يأمرهم به .

وفي مقابل هذا الحق الذي كان الفرد على القبيلة ، كان عليه واجب لها ، عليه أن يحترم رأيها الجماعي ، فلا يخرج عليه ، ولا يتصرف تصرفاً بدون رضاها ، ولا يكون سبباً في تمزيق وحدتها ، أو الإساءة إلى سمعتها بين القبائل ، أو تحميلها ما لا تطبق (١) ، ومن هنا و فرضت وحدة القبيلة ، وتحمل المجموع لتبعات الفرد ، على سادتها أن يمارسوا نوعاً من الإدارة البوليسية ، فإذا ارتكب فرد جرماً رفضت القبيلة أن تتحمل نتائجه ، وإذا أخطأ في حق قبيلته نفسها ، فإنه يطرد منها (١) . ويسمى هذا الطرد خلعاً ، ويسمى قبيلته نفسها ، فإنه يطرد منها (١) . ويسمى هذا الطرد خلعاً ، ويسمى قبيلته نفسها ، فإنه يطرد منها (١) . ويسمى هذا الطرد خلعاً ، ويسمى

 <sup>(1)</sup> لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهاذا
 (قريط بن أنيف في حاسة أبي تمام ١/٩).

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم الأيسة حرب أم بأى مكان
 ( وداك بن تميل المازني في حاسة أبي تمام ١/١٠).

 <sup>(</sup>۳) ونجيب دامية العساح بثائب عجل الركوب لدعوة المستنجد
 ( مضرس بن ربعي في المصدر السابق ۲/۲) .

 <sup>( 1 )</sup> الميدانى : مجمع الأمثال ٢٤٢/٢ . ولم يعرف العرب فى الجاهلية التأويل الإسلامى لهذا المثال من رد الظالم عن ظلمه وكفه عنه .

<sup>(</sup>٥) و والعرب تقول : سيد معم يريدون أن كل جناية يجنيها أحد من عشيرته معموية برأسه و (ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢/٢٢).

 <sup>(</sup>٦) يقول أبو سفيان ۽ لست أخالف قريشا ، أذا رجل منها ما فعلت فعلت ۽ (الواقدي ۽
 کتاب المفازي / ٢٠٠٠) .

Ency. of Islam; art. Arabia, pp. 375, 376. (V)

الطريد وخليعاً (١) ۽ .

ويحدث الحلع الأسباب متعددة ، تدور كلها حول هذا الأساس ، فقد يحدث أن يقتل أحد أفراد القبيلة فرداً منها ، وهنا تبجد القبيلة نفسها في موقف حرج ، فالقاتل والمقتول كلاهما من أبنائها ، ولكل منهما حتى الحماية والنصرة . وهنا يضعلر سادة القبيلة إلى أن يقوموا بدور الوسيط بين الفريقين ، حتى لا يؤدى الأمر إلى انقسام القبيلة على نفسها ، « فتجتمع جماعة من الرؤساء الى أولياء المقتول بدية مكملة ، ويسألونهم الحقو وقبول الدية ، فإن كان أولياؤه ذوى قوى أبوا ذلك ، وإلا قالوا لهم : بيننا وبين خالفنا علامة للأمر والنهى ، فيقول الآخرون : ما علامتكم ؟ فيقولون : أن تأخذ سهما فنرى به نحو فيقول الآخرون : ما علامتكم ؟ فيقولون : أن تأخذ الدية ، وإن رجع كما السماء ، فإن رجع إلينا مضرجاً بالدم فقد نهينا عن أخذ الدية ، وإن رجع كما فلرجع ذلك السهم قط إلا نقيباً ، وهنا يمسح القوم لحاهم علامة للصلح ، ويصالحون على الدية (٢) ، وهكذا تحل المشكلة هذا الحل السلمى الذي يحفظ على القبيلة وحدتها . ولكن المشكلة على أحد وجهين : إما أن يمقتل القاتل على الأر، وهنا تحل المشكلة على أحد وجهين : إما أن يمقتل القاتل بأيدى قومه ، وإما أن تخلعه قبيلته (٢) ، حتى تقرك لأولياء الدم حربة التصرف بأيدى قومه ، وإما أن تخلعه قبيلته (٢) ، حتى تقرك لأولياء الدم حربة التصرف بأيدى قومه ، وإما أن تخلعه قبيلته (٢) ، حتى تقرك لأولياء الدم حربة التصرف بأيدى قومه ، وإما أن تخلعه قبيلته (٢) ، حتى تقرك لأولياء الدم حربة التصرف بأيدى قومه ، وإما أن تخلعه قبيلته (٢) ، حتى تقرك لأولياء الدم حربة التصرف

<sup>(</sup>۱) في لسان العرب : مادة (خلع) . والخليم : الرجل يجى الجنايات يؤخذ بها أولياؤه ، فيتبردون منه ومن جنايته ، ويقولون إذا خلمنا فلاذا فلا فأخذ أحد بجناية تبعى عليه ، ولا نؤاخذ بجناياته التي بجنبها . وفي النهاية لابن الأثير (المادة نفسها) « كانت العرب يتعاهدون ويتعاقدون على النصرة والإعانة ، وأن يؤخذ كل مهم بالآخر ، فإذا أرادوا أن يتبردوا من إنسان قد حالفوه أظهروا ذلك إلى الناس ، وسموا ذلك الفعل خلما ، والمتبرأ منه خليدا أي مخلوعا ، فلا يؤخذون بجنايت ، ولا يؤخذ بجنايتم ، فكأنهم قد خلموا اليمين التي كانوا قد لبسوها معه ، وسموه خلما وخليما بجازا واتساعاه . وفي أساس البلاغة (المادة نفسها) هوكان الرجل في الحاهلية إذا غلبه ابنه ، أو من هو منه بسبيل ، جاه به إلى الموسم ، ثم ذادى : بأيها الناس هذا ابني فلان ، وقد خلمته ، فإن جر لم أضمن ، وإن جر عليه أطلب ، ويه قد تبرأت منه ه .

 <sup>(</sup>۲) البغدادى : خزانة الأدب ۲/۲۷/ . ويسمى هذا المهم مهم الاعتذار ، كما يسمى
 أيضاً المقيقة .

Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 25. (7)

بدون أن تتعرض وحدثها للتداعى ، أو يخلع هو نفسه ، فيفر من قبيلته نجاة بجياته . وعلى كلا الوجهين تكون القبيلة قد تصرفت فى حدود و دستورها ، الذى ينص على أنه ويجب على أهل القاتل ألا يحموه إذا قتل أحداً من دمه ، (١)، وذلك لأن رابطة القبيلة أقوى من رابطة الأسرة (٢).

وقد يحدث أن تتعدد جرائر أحدا فراد القبيلة حتى تجد نفسها عاجزة عن شهرته ، لأن في هذا تكليفاً لها لا تطبقه ، وعبئاً ثقيلا عليها تنوء به ، وتهديداً دائماً لسلامتها ، وإواقة لدماء أبنائها بدون مبرر ، فتضطر إلى التخلص من هذا الفرد ، مفضلة أن تضحى بفرد واحد على أن تضحى بجماعة من أفرادها ، ملقية عليه تبعات جرائمه ، يتحملها هو وحده ، فتخلعه (1).

وقد يحدث أن يسوء سلوك أحد أفراد القبيلة من الناحية الحلقية ، حتى يصبح وجوده بينها وصمة فى جبينها ، وسبة فى مجدها وشرفها ، وحطاً من قدرها بين القبائل ، فترى أنها أمام عضو فاسد لا يرجى إصلاحه ، ضرره أكثر من فقعه ، فتتبرأ من نسبته إليها ، حرصاً على سمعها ، وإبقاء على كرامة المجموع من أن يسىء إليها فرد ، فتخلعه (1).

هذه أهم الجرائم التي كانت القبيلة تحكم على من يرتكبها من أفرادها بالخلع ، وهي كلها تدور حول محور واحد ، هو خروج الفرد على وحدة

Ibid., p. 43. (1)

Ibid., p. 4. (Y)

<sup>(</sup>٣) في أخبار امرئ القيس أنه لما خرج مطالباً بدم أبيه نزل بعامر بن جوين و وعامر بومثذ أحدا للماء الفتاك قد تبرأ قومه من جرائره و (الأغاني ٩/٥٥ ، والبغدادي : خزانة الأدب ٢٤/١). وفي أخبار عبد الله بن جدعان أنه كان و شريرا فاتكا ، لا يزال يجني الحنايات ، فيعقل عنه أبوه ، حتى أبغضته عشيرته ، ونفاه أبوه ، وحلف ألا يؤويه أبدا ، لما أثقله به من الغرم ، وحمله من الديات و (السهيل : الروض الأنف ٢٢/١).

Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 49. ( & )

وَفِي أَخِيارَ البَرَاضَ بن قيسَ الكذائي أنه بركانَ سَكَيْرًا فَاسَقًا ، خَلَعَهُ قَوْمِهُ ، وَتَبَرَّهُوا مَنْهُ » ( الأَغَائي ١٩ / ٥٥ ) . وفي معلقة طرفة حديث عن تهالكه على الحمر واللذات واستهتاره بكل شيء حتى تحامته العشيرة كلها ، وأفرد أقراد البعير المعبد.

القبيلة، وتصرفه تصرفاً فردياً بدون رضاها أو الرجوع إليها ، فتجد القبيلة نفسها أمام فرد و شاذ » خرج على إجماعها ، ورفض السير فى ركابها ، وترى أنه بتصرفه هذا قد ترك لها حرية التصرف ، وأنها أصبحت فى حل من ذلك العقد الاجتماعي الذي يربطها به ، فلم تعد مسئولة عما يفعل ، فتتبرأ منه ، وتطرده من حماها ، وتسحب منه « الجنسية القبلية » ، وتعلن أنها قد خلعته ، وأن صلته بها قد انقطعت ، وحمايتها له قد انتهت ، وتضامتها معه قد انحلت عقدته .

وكان هذا الحلع يتخذ صورة إعلان رسمى يذاع على الناس فى المواسم ولأسواق ، ليكون فى ذلك إشهاد لهم عليه (١١) ، وقد يبعثون منادياً بذلك (٢١) ، وقد يكتبون به كتاباً (٣) ، وبهذا تسقط حقوق الفرد على قبيلته و فلا تحتمل جريرة له ، ولا تطالب بجريرة بجرها أحد عليه » (٤) .

وهنا يجد الحليع نفسه أمام مشكلة خطرة ، هي مشكلة الحياة أو الموت . لقد سحبت منه المجلسية القبلية ، ورَفعت القبيلة عنه حمايتها ، وطردته من حماها ، ولم يعد أمامه إلا أحد أمرين : إما أن يفر إلى الصحراء ليلاقى مصيره في البادية القاسية فقيراً مفرداً ، لا اعتاد له على أحد ، ولا على شيء ، وإما أن يلجأ إلى من يحميه ويعيش في جواره ، ومن هنا كانت نشأة قانون آخر من قوانين المجتمع الجاهلي ، وهو «قانون الجوار» (٥٠) .

وقد قدس المجتمع الجاهلي هذا القانون تقديساً كبيراً ، وكان مما يفخر به

 <sup>(</sup>١) انظر الزمخشري : أساس البلاغة ، مادة (خلع) . وقد خلعت خزاعة قيس بن الحدادية
 بسوق عكاظ ، وأشهدت على أنفسها بخلعها إياء » (الأغانى ٢/١٣ بولاق) .

<sup>(</sup>٢) خلع بدو سهم في الجاهلية عمرو بن العابس ، كما خلع بدو محارة بن الوليد ، إذ هما في الحبشة ، خشية أن يمتدى أحدهما على الآخر فتؤخذ عشيرته به ، ه وتبرأ كل قوم من صاحبهم وبما جر عليهم ، فبعثوا منادياً ينادى بمكة بذلك » ( الأغانى ٩/٥٠) .

<sup>(</sup>٣) انظر جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٤/١٩ ، وانظر أيضاً :

Lammens; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 146 = 242.

<sup>(</sup> ٤ ) الأغاق ٢/١٣ ( بولاق ) . وانظر أيضاً ابن حبيب : المحبر /١٩٥ .

<sup>(</sup> ه ) في القاموس المحيط ( مادة الجور ) : الجوار أن تعطى الرجل ذمة فيكون بها جارك فتجبره، والحار أيضاً الحليف .

العربى أن يكون ملاذاً لكل خائف ، وملجأ لكل طريد ، لأن فى ذلك اعترافاً يقوته ومروءته وكرمه ، وهى فضائل يعتز كل عربى بأن تُنسَب إليه ، حتى لقد اشتهر بعض أشراف العرب بإجارة الخلعاء وحمايتهم (١).

وكانت الصلة بين الجار والمجير تختلف بطبيعة الحال وفقاً للظروف، فكانت أحياناً مؤفتة ، وكانت أحياناً أخرى دائمة ، بل وراثية ، وفى بعض الحالات كان المجير يتعهد بأن ينصر جاره على علو معين فقط ، وفى حالات أخرى كان يتعهد بإجارته من كل الأعداء ، بل من الموت نفسه ، وكان هذا يعنى أن يدفع المجير إذا مات جاره ، وهو فى جواره ، دية لأسرته (٢) ، وقوقوى هذه الحالات على الإطلاق هى تلك التى يتعهد المجير لجاره بأن يثأر له حتى من أخيه الصميم ، (٢) .

ومن هناكان العرب يسمون جارهم هد يهم أوهديهم ديحرم عليهم منه ما يحرم من الهدى القداسة التي كانت ما يحرم من الهدى العرب ، فهو عندهم شيء مقدس ، كأنه قربان يتقد بون به للجوار في نفوس العرب ، فهو عندهم شيء مقدس ، كأنه قربان يتقد بون به إلى الآلهة. ومما يلتي ضوءاً على هذه الفكرة أن بعض المكين كانوا يد تسمون على حمايتهم بلحارهم في الكعبة ، وكان هذا القسم يتخذ صورة إعلان عام ،

<sup>(</sup>۱) كان الزبير بن عبد المطلب في مكة «ينزل عليه الخلمام» (ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ۲۲۹) وقد لجا مطرود بن كعب الحزاعي « إلى عبد المطلب بن هاشم بن عبد سناف لحناية كانت منه ، فعها وأحسن إليه » (المزرياتي : معجم الشعراء / ۳۷۹) ، ونزل البراض الكنائي بعد خلمه » على حرب بن أمية فحالفه ، فأحسن حرب جواره » (الأغاني ۲۱/۱۹) ، وكان حاجز الأزدي حايفاً لبني مخزوم (الأغاني ۲۱/۱۹ بولاق) .

Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 50. (٢) وانظر في الإجارة من الموت قصة الأعشى مع عامر بن الطفيل في الأغاني ٩/٠١، ١٢١.

Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 51. (٣)
وفى أخبار أوفى بن مطر المازنى أن رجلا جاوره و ومعه امرأة له ، فأعجبت قيسا أخاه ،
فجعل لا يصل إليها مع زوجها ، فقتل زوجها غيلة ، فبلغ ذلك أوفى ، فقتل قيسا أخاه بجاره هي المن حبيب : المحبر /٣٤٨) .

<sup>(</sup> ٤ ) لسان العرب : مادة ( هدى ) : والهدى : القربان .

ولا يستطيعون التحلل منه إلا في الكعبة أيضاً (١).

وفى مقابل هذه الحقوق التى كانت اللجار ، كانت عليه واجبات لمن أجاروه . وتتلخص هذه الواجبات فى أن يحترم الجوار ، ولا يسىء إلى من أجاروه ، لا فى أشخاصهم ولا فى سمعتهم ، لا فى حياتهم المادية ولا فى حياتهم المعنوية . فإذا ما رأت القبيلة ما يسيئها من جارها كان لها الحق فى أن تخلعه ، وتتحلل من التزاماتها له . ومن هنا كانت تتعدد استجارة الحليع بالقبائل فى بعض الأحيان (٢) .

ومع ذلك فلم تكن حياة هؤلاء الحلعاء في جوار من استجاروا بهم طيبة دائماً ، فقد كان يحدث أحياناً أن يسيء المجير معاملة جاره ، ويستغل تلك الظروف الحرجة التي يمر بها فيغدر به (٣) ، وكان يحدث أحياناً أخرى أن يعجز المجير عن رد العدوان عن جاره ، إما لضعفه وإما لعدم اهتمامه به (٤) . وعلى كل حال فحسب هؤلاء المستجيرين هواناً لنفوسهم أن ديتهم كانت نصف دية ابن القبيلة الصريح (٥) .

وحين نقف لنتأمل حياة هؤلاء المستجيرين نجد أننا أمام طائفتين : طائفة استقر بها المقام في القبيلة التي أجارتها ، فاندمجت في مجتمعها ، وطابت لها

Su ith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 51. (1)

<sup>(</sup>۲) في أخبار البراض أنه بعد أن خلعه قومه لجأ إلى بني الديل ، فشرب فيهم و فخلعوه ، فأتى مكة وأتى قريشًا فنزل على حرب بن أمية فعالفه ، فاحسن حرب جواره ، وشرب بمكة حتى هم حرب أن يخلعه « ( الأغاني ١٩/٥٩) .

 <sup>(</sup>٣) كان أبو جندب الهذل جارا لبنى نفائة و جاورهم حينا من الدهر ، ثم إنهم ذكروا أن يغدروا به » ( السكرى : شرح أشمار الهذليين ٩٣/١ ) .

<sup>(</sup>٤) استجار أبو الطمحان القيني بعبد الله بن جدءان التيمي ه ومعه مال له من الإبل ، فعدا عليه قوم من بني سهم ، فانتحروا ثلاثة من إبله » ثم عاودوا عليها الكرة ، ه فاستاقوها كلها ، فأتى عبد الله بن جدءان يستصرخ ، فلم يكن فيه ولا في قومه قوة ببني سهم ، فامسك عبم ولم ينصره ه (الأغاني ٢٩/١٦) . واستجار محرز بن المكمبر الضبي ببني عدى من تميم ه فاغار بنو عمرو ابن كلاب على إبله فذهبوا بها ، فطلب إليهم أن يسموا له ، فوعدوه أن يفعلوا ه ، ولكنهم لم يفعلوا شيئا ، مما اضطره إلى الالتجاء إلى بعض بني مازن » (شرح التبريزي على حاسة أبي تمام ٤/٥١) .

الحياة الجديدة ، وشاركت فى ضروب نشاطها ، وسلكت سبل العيش معها فى هدوء واستقرار ، وطائفة أخرى لم نزل فى نفوسها بقية من تمرد ، رفضت هذا الفناء الجديد فى شخصية القبيلة التى أجارتها ، فكانت حياتها فيها امتداداً لحياتها القديمة فى القبيلة التى خلعتها .

و يخرج هؤلاء والشُّد آذه (۱) على حياتهم الجديدة ، ليجدوا في الصحراء متسعاً لنشاطهم المتمرد الذي لا يحتمله مجال القبيلة الضيق ، وليشقوا طريقهم في الحياة بأسلوبهم الذي اعتادوا عليه ، دون أن يعتمدوا على أحد سوى قويهم ، وأغراهم على هذا أنهم كانوا واثقين من أنهم وإذا أخفقوا فلن يعدموا أن يجدوا سيداً أو حياً يستقبلهم ويضمن لهم ملجأ » (۱) . ويبدو أن هؤلاء الشذاذ المتمردين كانوا ينظرون إلى القبائل التي يستجيرون بها على أنها و نقط ارتكاز ، لنشاطهم ، وإلى حياتهم فيها على أنها فترات راحة في حياتهم العنيفة .

وحين نعود إلى أخيار صعاليك العرب لننظر فيها على ضوء هذا « المصباح الاجتماعي » نجد أن طائفة كبيرة منهم من الحلعاء والشذاذ .

فقد كان قيس بن الحدادية و صعلوكاً خليعاً » (٣) خلعته قبيلته خزاعة لأنه اشترك مع جماعة من أسرته فى قتل أحد أفراد قبيلتهم ، وعجزوا عن دفع الدية ، ففروا هاربين ، و فنزلوا فى فراس بن غنتم ، ثم لم يلبئوا أن أصابوا أيضاً منهم رجلا، فهربوا ، فنزلوا فى بجيلة على أسد بن كرز فآواهم ، وأحسن إلى قيس ، وتحمل عنهم ما أصابوا فى خزاعة وفى فراس» (١) وفى خبر آخر أنه بعد خلعه و نزل عند بطن من خزاعة يقال لمم بنو عدى بن عمرو بن خالد ،

 <sup>(</sup>١) فى لسان العرب (مادة شذ) : « وقوم شذاذ إذا لم يكونوا فى منازلهم ولا حيهم . . .
 وشذاذ الناس الذين يكونون فى القوم ليسوا فى قبائلهم ولا منازلهم » .

وفى أساس البلاغة ( المادة نفسها ) و شد عن الجهاعة شدودًا أنفرد عنهم ، وهو من شدّادُ القوم : من الذين هم فيهم وليسوا منهم .

Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 194. (1)

<sup>(</sup>٣) الأغاني ٢/١٣ (بولاق).

<sup>( )</sup> المعدر السابق / ؛ ؛ ه .

فَآوَوه وأحسنوا إليه » <sup>(1)</sup> . والظاهر أن هذا كان قبل استجارته ببني فراس . وآلف قيس بعد خلعه عصابة من صعاليك العرب جمع فيها وشذاذآ من العرب وفتاكاً من قومه؛ (٢) ، ويغلب على الظن أن هؤلاء الفتاك هم أولئك الذين اشتركوا معه في حادثة القتل التي كانت سبباً في خلعه . وكان أول ما فعلته هذه العصابة أن حاولوا الانتقام لأنفسهم من أولئك الذبن كانوا سبباً في خلعهم ، فأغاروا عليهم وقتلوا منهم رجلا واستاقوا أموالهم (٣) ، وهكذا أثبت لقومه الذين خلعوه أنه قادر على أن يقف فى وجههم برغم أنه وخليع مطرّد ، ، على حد تعبيره في بعض أبياته (١٤) ، وأنه لا يتورع عن قتل أي فرد من قومه وقف في طريقه ، وأنه قادر على أن يسلبهم تلك الأموال التي كان حرمانه منها سبباً في عجزه عن دفع الدية ثم في خلعه نتيجة لذلك . ومع ذلك فقد كان قيس نبيلا في موقفه من أولئك الذين لم يكن لهم ضلع في خلعه ، فقد لحقه بعد هذه الخارة و رجل من قومه كان سيداً ، وكان ضلعه مع قيس فيما جرى عليه من الحلع يقال له ابن محرِّق ، فأقسم عليه أن يرد ما استاقه، فقال : أما ما كان لى ولقومى فقد أبررت قسمك فيه ، وأما ما اعشَّوَرته أيدى هذه الصعاليك فلا حيلة لى فيه ، فرد سهمه وسهم عشيرته» (٥) . وهكذا كان قيس الصعلوك وسيداً ، في موقفه ، فرق بين أولئك الذين كانوا سبباً في خلعه وبين سائر عشيرته ممن لم يكن لهم يد في هذا الخلع ، وفرق بين مركزه زعيماً لعصابة لأفرادها حق فى الغنيمة لا يجوز حرمانهم منه ، وبين مركزه طالباً الانتقام من جماعة معينة .

وظل هذا الصعلوك المتمرد يجمع الخلعاء والشذاذ ويغير بهم ، حتى قتل

<sup>(</sup>١) المصدر السابق /ه.

<sup>(</sup>٢) المصدر نفسه /٢.

<sup>(</sup>٣) ألمصدر تفسه /٣.

<sup>(</sup>٤) المصدر نفسه /ه.

<sup>(</sup> ٥ ) المصدر نفسه /٢ -- والضلع – بفتح الغداد -- الميل . واعتوروا الشيء : تداولوه .

وهو خليع قيتلمة كان فيها شجاعاً حتى النهاية (١)، وقبل أن يوشك سراج سياته على الانطفاء تذكّر تلك الحادثة التي كانت سبباً في تلك الحياة القاسية التي عاشها طريداً مشرداً ، حادثة خلعه ، فأخذ ينشد وهو يقاتل نشيداً فيه حسرة ، وفيه شجاعة واعتداد بالنفس (١) ، حسرة على سياته التي ذهبت مع الريح ، بعد أيام شباب جميلة قضاها في حيمتي القبيلة ، في اللهو تارة ، وفي الجد تارة أخرى (١) ، عضواً عاملا في مجتمع القبيلة ، يدافع عنها ، ويشيد بمفاخرها ، ويهجو أعداءها (١) ، بل يقودها أحياناً في شجاعة إلى مواقع النصر (٥) .

وكذلك كان أبوالطبّمت القيني من هذه الطائفة من الحلعاء الشذاذ ، ولم تحدثنا أخباره عن سبب خلعه ، ولكني أرجع أنه خلع لسوء أخلاقه . ويصفه ابن قتيبة بأنه (كان فاسقاً» (٦) ، ويقدمه صاحب الأغاني بأنه وأدرك الجاهلية والإسلام فكان خبيث الدين فيهما» (٧) ، ويصفه بعض رواة الأغاني بأنه وكان فاسقاً خارباً» (٨) ، وقد سئل عن وأدنى ذنوبه » كأنه كان معروفاً بكبائره ، فاندفع يقص في استهنار قصة ليلة ارتكب فيها أربع مويقات (٩) ، فإذا كانت هذه أدنى ذنوبه فليس من شك في أنه كان مستهراً استهناراً فاضحاً .

وقد تقلبت الأيام بأبي الطمحان تقلباً عنيفاً ، فقضى حياة مضطربة ،

<sup>(</sup>١) الأغاني ١٢/٨ (بولاق).

 <sup>(</sup>٣) المصدر السابق /٨، وانظر أيضاً كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء لابن حبيب
 مس ٦.

 <sup>(</sup>۲) فيرملى يوم في الحسديد مسريلا ويوم مع البيض الأوانس لاهيا
 (الأغانى ۱۲/۸ بولاق).

<sup>(</sup> ٤ ) انظر أخيار ذاك في المعدر السابق ٣/ ، ٤ ، ٥ .

<sup>(</sup> ه ) انظر ذاك في المعدر نقسه من ٣ .

<sup>(</sup>٦) الشمر والشمراء /٢٢٩ .

<sup>(</sup>٧) الأغاني ١١/٠٢١ (بولاني) .

<sup>(</sup>٨) المصدر السابق /١٣٢ .

<sup>(</sup> ٩ ) ابن قتيبة : ألشعر والشعراء /٢٧٩ ، والأغاني ١٣٢/١١ ( بولاق) .

لم تكد تعرف طعم الاستقرار إلا فى فترات متقطعة ، متنقلا بين أحياء العرب ، مستجيراً بها ، لا يكاد يستقر فى جوار حتى يحدث ما يعيده إلى حياة الاضطراب مرة أخرى . وهو يشكو فى شعره مر الشكوى من غدر من يستجير بهم :

أَجَدُّ بنى الشرق أُولِعَ أَننى منى أَستجرْ جارا وإنْ عَزَّ يغُدِر إِذَا قَلْتَ أَوْفِي أَولِعَ أَننى منى أَستجرْ جارا وإنْ عَزَّ يغُدِر إذا قلت أَوْفى أَدركتُه دَرُوكة فيا مُوزِعَ الجبران بالغي أقصِر (١١)

ويبدو أن شاعرنا الصعلوك كان سيء الحظ مع جيرانه ، فقد كان مجاوراً في بطن من طبي يقال لهم بنو جديلة ، لا فنطح تيس له غلاماً منهم فقتله ، فتعلقوا أبا الطمحان وأسروه حتى يؤدى ديته مائة من الإبل ، فاستنجد بنزياه ، مصوراً في أبيات له ذل موقفه ، وحسرته على بعده عن قومه (٢)

ويشاء سوء حظه مرة أخرى أن تقتتل طبي فيها بينها ، وتنحزب حزبين ، وينهزم حزب جدية الذي كان مجاوراً فيهم ، ويؤسر أبو الطمحان في هذا القتال الشره رجلان من طبي واشتركا فيه ، فاشتراه منهما أحد أفراد القبيلة ، بعد ما بلغته أبيات له يمدح فيها قومه ، فدحه أبو الطمحان بقصيدة ، فجز الطاقى ناصيته وأعتقه (٣) ، وهكذا أنقذه شعره من سوء حظه مرتين.

وحدث أنه استجار مرة بعبد الله بن جدعان التيمى ، فعدا عليه قوم من بنى سهم ونهبوا إبله كلها ، فأتى عبد الله بن جدعان يستصرخه ، ولكنه لم يستطع أن ينصره ، لأنه لم يكن فيه ولا فى قومه قوة ببنى سهم ، فأنشد أبو الطمحان أبياتاً يحن فيها إلى وطنه وأهله وأيامه بينهم ، ويندب سوء حظه ، ثم ارتحل عنهم (1)

<sup>(</sup>١) الأغانى ١١/١١هـ (دار الكتب) ، ٢٩/١٦ . ورواية البيتين في هذا الموضع الأخير تختلف بعض الاختلاف اللفظى عن روايتهما في الموضع الأول ؛ ولكنه اختلاف لا يغير المعنى أي تغيير .

<sup>(</sup> ٢ ) الأغاني ١١/١٢ (بولاق) .

<sup>(</sup>٣) المصدر السابق/١٣٢ و ١٣٣ ، وانظر بيتاً له في مدح بني لام في الشعر والشعراء/٢٣٠

<sup>( 1)</sup> الأغاني ٦٩/١٦ .

ويبدو أن سوء حظه مع جيرانه قد فارقه بعد ذلك ، فقد نزل على الزبير الشوة ابن عبد المطلب بن هاشم بمكة ، فطال مقامه لديه ، ولكنه كان كثير الشوة إلى أهله ، شديد الحنين إليهم ، فاستأذن الزبير في الرجوع إليهم ، ووشك إليه شوقاً لم فلم يأذن له ، وسأله المقام ، فأقام عنده مدة ، ثم عاوده الحنين مرة أخرى ، فأتاه وأنشده أبياتاً يصور فيها هذا الحنين الحارف ، فلما أنشده إياها أذن له فانصرف (١١) .

ولكن يظهر أن تمرد أبي الطمحان لم يفارقه بعد ذلك ، فقد جنى جناية وهرب من بلاده ، و وجل إلى بنى فزارة ، فنزل على رجل منهم يقال له مالك ابن سعد أحد بنى شميخ ، فآواه وأجاره ، وضرب عليه يبتاً ، وخلطه بنفسه ، فأقام مدة ، ثم تشوق يوماً إلى أهله وقد شرب شراباً ثمل منه ، فقال لمالك : لولا أن يدى تقصر عن دية جنايتي لعدت إلى أهلى ، فقال له : هذه إبلى فخذ منها دية جنايتك ، وازدد ما شئت ، فلما أصبح ندم على ما قاله ، وكره مفارقة موضعه ، ولم يأمن على نفسه ، ، فأتى مالكا وأنشده أبياتاً يمدحه فيها مدحاً قويباً ، هو من غير شك صادر من أعماق نفسه ، يصور تقديره لذلك السيد النبيل ، ويصرح له فيها بأنه قرر البقاء في جواره ، فقد أصبح كأنه واحد منهم :

وقد عَرَفَت كلابكم ثيابي كأنى منكم ونسيت أهلى

و فقال مالك : مرحباً فإنك حبيب ازداد حبناً ، إنما اشتقت إلى أهلك ، وذكرت أنه يحبسك عنهم ما تطالب به من عقل أو دية، فبذلت لك ما بذلت وهو لك على كل حال ، فأقم في الرحب والسعة ، فلم يزل مقيماً عندهم حتى هلك في دارهم (٢١) و بعد أن امتدت به الحياة حتى بلغ أرذل العمر (٢١).

<sup>(</sup>١) الأغاف ١١/١١ (بولاق) ، والشمر والشمراء /٢٢٩ .

<sup>(</sup>٢) الأغانى ١١/٢٢ ( بولاق) .

<sup>(</sup>٣) يذكر أبو حاتم السجستان أنه عاش مائتي سنة (كتاب المعمرين /٦٢) .

وهكذا قضى هذا الصعلوك السيئ الحظ حياته الطويلة مشرداً حتى تداركته يد هذا السيد النبيل في أخريات أيامه ، ولكن أمنيته الكبرى - مع ذلك - لم تتحقق ، فقد قُضِي عليه أن يموت بعيداً عن أهله الذين طالما استبد به الحنين إليهم .

هذه هي الصررة التي استطعت أن أكوبها عن هذا الجانب من حياة أبي الطمحان من مجموعة أخباره القليلة المتناثرة التي لم تحاول مصادرها أن ترتبها ترتيباً يعطيناصورة كاملة متصلة لحياته الطويلة المضطربة ، وهي صورة شخص و بوهيمي و قلق ، مفرط الحساسية ، قوى العاطفة ، مبي الحظ ، لولا أن تداركته العناية الإلهية في أخريات أيامه ، فأدرك الإسلام ، وأسلم ، وإن لم ير النبي صلى الله عليه وسلم (۱) ، ولكنه ظل خبيث الدين في إسلامه ، كما خبيث الدين في جاهليته .

٣

### إيمان القبيلة بجنسها:

كما آمنت القبيلة بوحدتها هذا الإيمان العميق الذي ترتب عليه ظهور هذه الطائفة من التقاليد الاجتماعية التي تحدثنا عنها ، آمنت بجنسها ، وذلك لأن من الأسس التي قامت عليها القبيلة العربية إيمان أبنائها ال برابطة الدم ، أي أنهم جميعاً من دم واحد .

وقد أثار بعض المستشرقين تشكيكاً في « رابطة الدم ، هذه : أهي رابطة حقيقية أم رابطة مند عاة (٢) ؟ وليس يعنينا هنا هذا التشكيك ، الأن

<sup>(</sup>١) يقول ابن حجر عنه إنه ه أدرك الإسلام » (الإصابة في تمييز الصحابة ٢ /٦٦) ، ويضمه في القسم الثالث من كتابه فيمن أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره ( مس ٣٥ من الجزء نفسه ، وانظر مقدمة الكتاب ٤/١) .

Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, pp. 1, 62; & (۲)
Zwemer; Arabia, the Cradie of Islam, p. 159.

مناقشته والاتهاء إلى رأى فيه إنما تكون في مجال دراسة أصول القبائل العربية وأنسابها ، وليس هنا مجال هذه الدراسة ، وإنما الذي يعنينا هنا هو أن ه كل الأفراد الذين ينتمون إلى قبيلة واحدة كانوا يعدون أنفسهم من دم واحد » (۱) ، وأنهم جنس واحد ، متشابه العناصر والمقومات ، لا يختلف أفراده إلا بمقدار ما يختلف أبناء الأسرة الواحدة ، بل إن بعض الباحثين المحدثين يرى أن أفراد الحي الواحد من القبيلة كانوا لا يعدون أنفسهم من و دم واحد ، فحسب ، ولكن من و حلم واحد ، فحسب ، ولكن من و حلم واحد ، أيضاً ، ومن ملاحظاته التي يؤيد بها رأيه ما تستعمله ولكن من و حلم واحد ، أيضاً ، ومن ملاحظاته التي يؤيد بها رأيه ما تستعمله اللغة العربية من لفظة و الشحمة ، في التعبير عن معني القرابة (۲) ، ولعل فيا عبر به العرب عن بعض أشكال جماعاتهم بالبطن والفخذ ما يصور ذلك الإحساس الذي كان بحسه العربي بتلك الصلة و الجسدية ، التي تربطه بجماعته .

وقد نشأ عن هذا الإيمان بوحدة الجنس فى نفوس أبناء القبيلة إيمان بامتيازه ، فقد آمنوا بأنهم جنس ممتاز لا تفضلُهم قبيلة أخرى (١٠)، وهم يَفَضُلون كل القبائل (٤) ، آباؤهم أشرف آباء (٥) ، وأمهاتهم أكرم أمهات (١١) ، وهم أجلر الناس بأن يكونوا خير الناس (٧) ، ولعل فى هذا الإيمان بامتياز الجنس ما يفسر

Smith; Kinship & Marriage in Early Arabia, p. 25. (1)

Ibid.; p. 175. (Y)

<sup>(</sup>٣) حسديسا النساس كلهم جميعسا مقسارعة بنيهم عن بدينسا (عمرو بن كلثوم في معلقته). ويقول التجريزي : وقالوا معنى حديا الناس كما تقول واحد الناس، وقيل معناه نحن أشرف الناس و . (شرح القصائد العشر /٢٣٢).

 <sup>(</sup>٤) إنى لمسن قسوم بنى أقد مجهم على كل باد في الأذام وحاضر
 (المرزباني : معجم الشعراء /٢٢٧).

<sup>(</sup>ه) إنسا بنى نهشسل لا نسلعى لأب عنه ولا هو بالأبناء يشرينسا (سياسة أبي تمام ١/١ه).

 <sup>(</sup>٦) وأمانتها أكسرم بهن عجسائزا ورثن العلا عن كابر بعد كابر
 (المرزبانی : معجم الشعراء /٢٢٧) .

 <sup>(</sup>٧) ونسن بنسو مساء الساء قلا ترى الأنفسدا من دون مملكة قصرا
 (سماسة أبي تمام ١/١٣٠)

تلك المنافرات التى امتلأت بها أخبار العصر الجاهلى ، وذلك الفخر الذى تلوًى أصداؤه فى قصائد شعرائه . وبما شجع على هذا الإيمان بامتياز الجنس فى نفوس أبناء القبيلة صلات العداوة بين القبائل المختلفة التى كانت تسيطر على الحياة الاجتماعية فى العصر الجاهلى ، فقد و كانت كل قبيلة تؤلف وحدة مناوئة لكل القبائل الأخرى ، (1) .

وقد نشأ عن هذا و الإيمان بوحدة الجنس وامتيازه » طائفة من التقاليد تنظم العلاقات بين الطبقات الاجتماعية في القبيلة .

والناظر فى تكوين القبيلة الاجمَاعية يستطيع أن يميز ثلاث طبقات اجمَاعية : الصرّحاء ، والعبيد ، والموالى .

أما الصرحاء فهم فى عرق القبيلة أبناؤها ذوو اللم النبى الذى لا تشوبه شائبة ، الذين ينتمون جميعاً إلى أب واحد ، والذين تتمثل فيهم العصبية القبلية بأقوى معانيها . ومنهم تتكون الطبقة و الأرستقراطية » فى القبيلة ، وفيهم رياستها ، وبيوتات الشرف فيها . وتعتمد هذه و الأرستقراطية » أول ما تعتمد على النسب (٢) ، ومن هناكان حرص هذه الطبقة على أن يظل دمها نقيباً ، وعلى أن تجمع الشرف من و كلا طرفيه » : الآباء والأمهات ، فلا يكون فى أحد طرفى الشرف ما يشينه (٢) .

وأما طبقة العبيد فقد كانت تتألف من عنصرين : عنصر عربي ، وهم أولئك الأسرى الذين كانوا يقعون في أيدى القبيلة في حروبها مع القبائل الأحرى ، وعنصر غير عربي ، وهم أولئك الرقيق الذين كانوا يجلبون من البلاد المجاورة للجزيرة العربية .

Zwemer; Arabía, The Cradle of Islam, p. 159. (1)

 <sup>(</sup>۲) انظر ابن خلدون : المقدمة ، الفصل الحادى عشر والثانى والثانث عشر من الباب الثانى
 من الكتاب الأول / ۱۳۱ - ۱۳۵ .

<sup>(</sup>٣) الأغانى ٨٦/١١ (بولاق) . ويقول معقل بن خويله :
بنسو فالمج قومى وهم ولدوا أبى وخالى تُمال الضيف من آل فاتك (السكرى : شرح أشعار الهذليين ١/١٢١) .

وقد قلنا إن الصلات بين القبائل العربية كانت صلات خصام ، ومن هنا كانت الحرب دائماً قائمة بينها ، ووكان سبى الرجال والنساء على السواء أمراً أساسياً في كل غارة و (1) ، ومن الطبيعي أن يكون تعرض النساء المسبى أكثر من تعرض الرجال (7) ، فإن ضعف المرأة في هذه الحالة من الصراع المستمر في الجزيرة العربية يجعلها دائماً في مركز الضحية (1) . وبقدر ما كان العدبي بأنف من قتل سبيته لما فيه من نزول بمروءته ، كان حرصه على سبى أكبر عدد مكن من النساء الآن في هذا إهانة الأعدائه . وقد كان بحدث أحياناً أن يفاجأ كل نساء الحي ، وهم خلوث ، فيؤخذ أن مبايا (1) . ومن هنا وكانت حماية كل نساء الحي ، وهم خلوث ، فيؤخذ أن مبايا (1) . ومن هنا وكانت حماية النساء والأطفال خطة أساسية في فنهم الحربي و (1) ، ومن هنا أيضاً كانت المقدرة على حماية و الظعينة و عنصراً أساسياً من عناصر البطولة العربية جعلهم يطلقون على بعض أبطالم لقب و حامي الظعينة و أو و فارس الظعينة و (1) .

وقد كان يحدث أحياناً أن تبيع القبيلة أساراها ، فقد اشتعلت حرب
بين لحيان وخنناعة و فكان بعضهم لا يزال يغزو بعضاً، فإذا أصابت بنو لحيان
من خناعة أحداً باعوه (٢) ، وكان زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه
وسلم من قضاعة وأصابه سباء في الجاهلية لأن أمه خرجت به تزور قومها

Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 89. (1)

وقد وفد سميفع بن ناكور الكلاعي على عمر بن الحطاب و وله أربعة آلاف أهل بيت قن من العرب ماليك أسرهم في الجاهلية و ( نقائض جربر والفرزدق ٢/١٤) .

Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 295. (Y)

وأخبار سبى النساء في العصر الجاهل كثيرة . ( انظر : الأغانى ٢/٥٥ – ٧٨ ، ٢٠/١١ . ١٧٢/١١ ، وأخبار سبى النساء في العصر الجاهل كثيرة . ( انظر : ١٣/١ ، وديوان عروة /١٩٩ ، ١٧٠ ) .

Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 280. (?)

<sup>﴿</sup> ٤ ) انظر نقائض جرير والفرزدق ١/٥٤١ ، والأغانى ٢٢/٣١ ، ٢٤ .

Smith; Kimbip and Marriage in Early Arabia, p. 295. ( 0 )

<sup>(</sup>٢) القالى: الأمالى ٢/١٧٢.

<sup>(</sup>٧) السكرى : شرح أشعار الحذايين ١٠٠/١ .

بنى معن ، فأغارت عليهم خيل بنى القين بن جَسْر فأخذوا زيداً، فقدموا به سوق عكاظ ، فاشراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد ، وقيل اشتراه من سوق حُباشة » (۱) ، وكانت أم عمرو بن العاص و من بنى عترة أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ » (۱) ، وفي أخبار خناعة أنهم أسروا سيداً من سادة العرب و فباعوه بمكة » (۱) .

ومن هذا نرى أن بيع القبائل العربية لأساراها كان منتشراً في أسواق مكة بالذات ، ويرينا ديوان الهذئيين أنه كانت بمكة نجارة منتظمة في الرقيق تروجها الحروب التي كانت لاتنقطع بين القبائل المجاورة (1) . وكان يحدث أحياناً أن يرد إلى أسواق مكة رقيق من أسرى العرب من المناطق البعيدة عنها ، فقد كان أبو صبيب ، سنان بن مالك ، ينزل بأرض الموصل عاملا لكسرى على الأبلة ، و فأغارت الروم على تلك الناحية فسبوا صهيباً ، وهو غلام صغير ، فنشأ بالروم ، فابتاعته كلب منهم ، ثم قدمت به مكة فاشتراه عبد الله بن جدعان » (٥) .

أما العنصر الآخر الذي شارك في تكوين طبقة العبيد في القبيلة العربية ، وهو العنصر غير العربي ، فقد كان مصدره البلاد المجاورة لجزيرة العرب كالحبشة وما حواليها من الأمم ، فكان تجار الرقيق يحملون العبيد والإماء من هذه البلاد إلى جزيرة العرب يبيعونهم في أسواقها بالمواسم (٢) ، ولم يكن ينظر إلى المسألة من جانبها الإنساني ، وإنما هي تجارة كسائر التجارات تتخذ منها القبائل وسيلة للربح ، فقد لا كانت قريش تتجر بالرقبق مثل اتجارها بسائر

<sup>(</sup>٧) أبن الأثير : أسد اللغابة في معرفة الصحابة ٢/٤/٢ .

<sup>(</sup> ٢ ) المصدر السابق ٤/١١٦ .

<sup>(</sup>٣) السكرى : شرح أشمار الحذايين ١ /١١٦ .

Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 89. (t)

<sup>(</sup> ه ) ابن قتيبة : المارف /١١٤ .

<sup>(</sup>٦) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٤/٠٠ .

السلم؛ (۱) وكانت هذه التجارة منتشرة بالذات في بني تيم (۲) ، وكان عبد الله ابن جدعان التيمى رئيس قريش في حرب الفجار من أشهر تجار الرقيق في الحاهلية (۲) .

وكان هؤلاء الأرقاء المجلوبون كثيرين في المجتمع الجاهلي ، وكان كل شريف من أشراف العرب يحرص على ألا يخلو منزله منهم ، فقد كان لعبد الله بن أبي ربيعة مثلا عبيد من الحبشة يتصرفون في جميع المهن ، وكان عددهم كبيراً ، حتى لقد عرض على النبي صلى الله عليه وسلم أن يستعين بهم في غزوة حنين (1) .

وأما الطبقة الثالثة في المجتمع القبلي ، وهي طبقة الموالى ، فقد كانت تتألف من العتقاء ، ومن العرب الأحرار الذين لجأوا إلى القبيلة من قبائل أخرى ، وعاشوا في حمايتها ، أو حماية رئيسها أو بعض ذوى النفوذ فيها (٥) . أي أن طبقة الموالى في القبيلة العربية كانت ترجع إلى أصلين : أحرار ، وعبيد ، أما الأحرار فهم أولئك اللاجئون إلى القبيلة ، أو إلى أحد أفرادها ، من خلعاء القبائل ، طالبين الحماية والنصرة ، وكانوا يسمون أحياناً والحلفاء ، وأما العبيد فهم أولئك الذين أعتقهم سادتهم من نير الرق فظلوا مرتبطين بهم العبيد فهم أولئك الذين أعتقهم سادتهم من نير الرق فظلوا مرتبطين بهم برابطة الولاء (١) .

وهذه الطبقة كانت تؤلف طبقة مكانها الاجتماعية بين الطبقتين السابقين ،

<sup>(</sup>١) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٢٠/٤ .

Lammens; La Meoque à la veille de l'Hégire, p. 167 = 263. ( Y )

<sup>(</sup>٣) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٢١/٤ .

<sup>(</sup>٤) الأغانى ١/٥٦. وقد اتخذ بعض الشعراء من عبيد آل أبي ربيعة مادة لفهم (انظر البيت الوارد في المصدر نفسه / ١٤ لأبي ذويب الهذل الذي يشبه فيه حيار الوحش بعبد مهم).

Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, pp. 47, 48. ( o )

 <sup>(</sup>٦) فى لسان العرب (مادة ولى) : « والمولى الحليف وهو من افضم إليك فمز بعزك وامتنع بمتعتك . . . والمولى المعتق انتسب بنسبك » ، وهكذا يشير هذا المعنى اللغوى لهذين النوعين الاجتماعيين من طبقة الموائى .

آمنت القبيلة العربية بهذه الطبقات الاجتماعية ، وعرفت لكل طبقة متزلّها ، وما لها من حقوق ، وما عليها من واجبات ، وتعارفت على الصلات التي تكون بين أفراد كل طبقة وأفراد الطبقتين الأخريين .

وما أظن أننا في حاجة إلى القول بأن طبقة العبيد كانت في حالة اجهاعية ميئة في هذا المجتمع الأرستقراطي (٢) الذي يؤمن بوحدته وبجنسه إيماناً عيقاً ، والذي يمثل العنجهية الجاهلية بكل ما فيها من معانى الطغيان والجبروت والاستبداد أقوى تمثيل ، حتى لنجد أن هذه الطبقة كانت من أسرع الطبقات استجابة إلى دعوة الإسلام الذي ضمن لهم حقوقهم ، ونظم علاقاتهم بساداتهم تنظيماً إنسانياً عادلا ، والذي أتاح لهم فرصاً كثيرة للعتق والتحرر. وليس من شك في أن حياة هذه الطبقة كانت سلسلة من الذل ، تبدأ منذ أن يشترى السيد عبده ، ويقوده إلى منزله ليتصرف فيه كيف شاء . ولم يكن يعهد للعبيد إلا بتلك ويقوده إلى منزله ليتصرف فيه كيف شاء . ولم يكن يعهد للعبيد إلا بتلك الأعمال التي يأنف السادة من القيام بها ، وهي تلك التي سميناها و الأعمال الفرعية في المجتمع القبلي » ، فإذا مات السيد ورث ورثته عبيده كما يرثون سائر الفرعية في المجتمع القبلي » ، فإذا مات السيد ورث ورثته عبيده كما يرثون سائر متاعه إلا إذا كان قد أوصي لهم بحريتهم بعد موته (١٤) .

ومع ذلك ، ومع حرص العربى على الشرف فى كلا طرفيه ، كان يحدث أحياناً أن يتزوج العربى من أمته ، ولكن المجتمع الجاهلي كان يرى فى هذا الزواج زواجاً غير متكافئ ، ومن هنا أطلق على ثمرته اسما خاصاً ، فسمى ابن العربى من الأمة و هجيناً (٥) ، ومن الطبيعى ألا ينظر إلى هذه الصلة

<sup>(</sup>١) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٤/٢١ .

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق /٢٤ .

Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 198, p. 277. (Y)

<sup>(</sup> ٤ ) جرجي زيدان : تاريخ النمدن الإسلامي ٤ / ٢٠ .

<sup>(</sup>ه) في القاموس المحيط (مادة همين) . « والهمين : اللَّذيم، وعربي ولد من أمة أو من أبوه خير من أمه يه ، ويقول المبرد « والهمين عند العرب الذي أبوه شريف وأمه وضيمة ، والأصل في ذلك أن تكون أمه » (الكامل / ٣٠٢) .

نظرة احترام ، فقد كانت كل أمة عندهم تدعى فرتنى أو ترفى (١) ، ولم وكانت طبقة العاهرات تتألف عادة من الإماء أو جمن أعنق مهن (١) ، ولم يكن العربي يعرف لمؤلاء الإماء ومساواة في الحقوق ولا مساواة في المعاملة (١) . ويبدو أن المسألة لم تكن أكثر من نزوة جنسية ، فقد كان أبغض ما يبغضه العربي أن تلد أمته منه (١) ، ومن هنا كانوا يستعبدون أولاد إمائهم (٥) ، ويرفضون الاعتراف بهم إلا إذا أبدوا نجابة ممنازة ، فإنهم حينتذ يلحقونهم بنسبهم (١) .

وكان أسوأ هؤلاء الهجناء حظاً، وأوضعهم منزلة اجتماعية ، أولاد الإماء السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم ، فقد كانوا سبة يعير بهم آباؤهم (٧). ومرد ذلك من غير شك إلى ظاهرة اللون ، فقد كان العرب يبغضون اللون الأسود بقدر ما يحبون اللون الأبيض ، وقد وصفوا كل شيء ممدوح عندهم مادياً كان أو معنوياً بالبياض (٨)، وكان مما يمدح به الرجل أو يفتخر به أنه أبيض (٩)،

 <sup>(</sup>۲) نقائض جریر والفرزدق ۱/۱۱ و ۲۳ و ۲۴ ، وشرح المحکری علی آشعار الحذایین
 ۲/۱۱ و ۲۳۰ . ومن معانی هاتین الکلمتین و البغی ، والمرآة الزاذیة و (انظر مادتی و ترن و فرتن و فرتن و فرتن و المعجات اللغویة) .

Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, pp. 168-169. (Y)

Lammens; Le Berceau de l'Islam, Voi. I, p. 277. ( v )

<sup>(</sup>٤) ﴿ إِذَا قُومِ دْبِغْضَ أَنْ تُلِدُ فَيِنَا الْإِمَاءِ ﴾ ( الْأَغَانَى ٢٠ / ١٦٥ ) .

<sup>(</sup> ه ) انظر : الأغانى ٨ / ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، وابن قتيبة : الشمر والشعراء / ١٣٠ ، والبغدادى: خزانة الأدب ٢ / ٢٢ .

 <sup>(</sup>٦) الأغانى ٨/ ٢٣٧ ، وانظر المثل على هذا في إلحاق عنترة باييه في المصدر نفسه / ٢٣٧ ،
 ٢٣٩ وفي الشعر والشعراء / ٢٣٠ ، ١٣١ .

 <sup>(</sup>۷) کان لعمرو بن شأس و امرأة من قومه وابن من أمة سوداً يقال له عرار فكانت تعيره
 إياء به ( شرح التبريزي عل حماسة أبى تمام ١/٩٩/) .

 <sup>(</sup> A ) وإذا قالت المرب فلان أبيض ، وفلانة بيضاء، فالمعنى نقاء العرض من الدنس والعيوب ، وإذا قالوا فلان أبيض الوجه ، وقلانة بيضاء الوجه ، أرادوا نقاء اللون من الكلف والسواد الشائن »
 ( لسان العرب : مادة و بيض و) .

<sup>( ) ،</sup> بیض الوجوه علی العدو ثقال ، ( الفرزدق فی نقائض جریر والفرزدق ا /۲۸۷) ، ه من كل أبیض یستضاء بوجهه ، ( جریر فی نقائض جریر والفرزدق ۱ / ۳۰۱) ، « بیض الوجوه مصانع لسن ، (قیس بن عاصم المنقری فی شرح التبریزی علی حاسة أبی تمام ٤ / ۲۸) .

ومن سيمات جمال المرأة أن تكون بيضاء (١)، وهو أيضاً دليل على شرفها ، فقد كان مما يسملح به الرجل أنه ابن بيضاء (٢)، بل إنهم كانوا يفخرون بأن سباياهم من النساء البيض (٢). ومن هنا أطلقوا على هؤلاء السود اسماً خاصاً تمييزاً لهم من سائر إخوانهم الهجناء ، فسموهم والأغربة ، تشبيها لهم بذلك الطائر البغيض المشئوم في لونه الأسود (١٤) ، ونسبوهم في أكثر الحالات إلى أمهانهم (٥).

ويخرج هؤلاء والأغربة » إلى الحياة ، وقد وسمتهم الطبيعة بذلك اللون الذي يبغضه مجتمعهم ، والذي لايد لهم فيه ، ولا خروج لهم منه ، فإذا هو يحول منذ البدء دون أن يعترف بهم آباؤهم ، ثم إذا هو بعد ذلك يقف صخرة تتحطم عليها آمالهم في أن يشاركوا في الحياة الاجتماعية كما يشارك غيرهم ، ولا يهي لهم إلا فرصة ضيقة للحياة على هامش المجتمع حياة ذليلة محتقرة بخدمون فيها سادتهم ، ويقومون لهم بتلك الأعمال الفرعية التي يأنفون هم من بخدمون فيها سادتهم ، ويقومون لهم بتلك الأعمال الفرعية التي يأنفون هم من القيام بها ، أما الأعمال الأساسية فلا يقوم بها إلا أبناء الحرائر (١١) ، فما يحسن هؤلاء الأغربة أولاد الإماء السود غير والحلاب والصر » كما يقول أسدهم هؤلاء الأغربة أولاد الإماء السود غير والحلاب والصر » كما يقول أسدهم

 <sup>(</sup>۱) و مهفهفة بيضاء غير مفاضة و (اسرؤ القيس في معلقته) ، و ومن كل بيضاء
 رعبوبة و (لمبرد : الكامل / ۳۰۵) .

<sup>(</sup> ٢ ) يه هو ابن لبيضاء الجبين نجيبة يه ( العجير الملولي في الأغاني ١١ / ١٥٤ بولاق ) .

<sup>(</sup>٣) رحلنا من الأجبال أجبال طبي نسوق النساء عودها وعشارها ترى كل بيضاء العوارض طفلة تقرى إذا شال الساك صدارها (عروة بن الورد في ديوانه / ١٧١).

<sup>( )</sup> في لسان العرب ( مادة غرب ) « وأغربة العرب سوداتهم ، شهوا بالأغربة في لويهم » ، وفي ثاج العروس ( المادة نفسها ) « وكلهم سرى إليهم السواد من أمهاتهم » ويقول أبو عبيدة : ووإنما سموا أغربة لأن أمهاتهم كن سودا » ( كتاب الشعراء ، مخطوط، فصل من غلب اسم أمه على اسم أبيه ، ورقة رقم ٢١) .

<sup>(</sup> ه ) انظر كتاب و من نسب إلى أمه من الشعراء يه لابن حبيب ، وافظر فعمل يو من غلب اسم أمه على اسم أبيه يو في كتاب الشعراء ، وافظر أيضاً ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٣١ ، والأغانى ٨ / ٢٤٠ .

<sup>(</sup>٦) لا يكشف النهاء إلا ابن حسرة يرى غرات الموت ثم يزورها (سهاسة أبى تمام ١/٥٦)، ويقول التبريزى: «يعنى أن أبناء الحرائر هم الصابرون على المكاره في ابتناء الحجد واكتساب الشرف ».

- عنترة بن زبيبة الأمة السوداء - في سخرية لاذعة من تلك الأوضاع الاجتماعية التي وضعها السادة البيض وآمنوا بها (١) .

ومع ذلك فقد يبدى أحد هؤلاء الأغربة امتيازاً فى ناحية من النواحى ، فتشعر القبيلة أنها أمام فرد تستطيع أن تنتفع به ، فيمحو هذا الامتياز عنه معنوباً سواد لونه ، فيعترف به أبوه ، وتعمل القبيلة على تقريبه من مركز الدائرة ، ليقوم بدوره فى أعمال القبيلة الأساسية ، كما حدث لعنترة الذى أصبح بعد اعتراف أبيه به ، لشجاعته الفائقة فى دفاعه عن قبيلته ، عنترة بن شداد العبسى (٢) .

ولكن لم تكن الفرصة التي أتيحت لعنرة بالتي تتاح لكل أولئك الأغربة الذين كان يغص بهم المجتمع الجاهلي (٢) ، كما أن منهم من كان يرفض تلك الحياة والهامشية ، ويتمرد على ذلك الوضع الاجتماعي الذليل المحتقر الذي فرض عليه ، لأن لديه من القوة النفسية ما يجعله يرفض قبوله ، ومن القوة الجسدية ما يمكنه من رفع راية العصيان في وجه هؤلاء السادة (٤) . وقد خرج هؤلاء الأغربة الأقوياء على أوضاع القبيلة ، ورفضوا الحياة الذليلة التي فرضها عليهم ، وخرجوا من حماها، ليشقوا طريقهم في الحياة بالأسلوب الذي يضمن لهم حياة كريمة حرة تعتمد على القوة في سبيل الحصول على الحق . ومن هؤلاء

<sup>(</sup>١) ابن قتيبة : الشمر والشمراء /١٣٠ ، والأغاني ٨/٢٣٩ .

<sup>(</sup> ٢ ) المصدران السابقان : الشعر والشعراء / ١٣٠ ، ١٣١ ، والأغاف ٨ / ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

<sup>(</sup>٣) يجاول بعض رواة الأدب العربي أن يحدوا عداً غربة العرب ، فبينا يحددم بعضهم بثلاثة (ابن قتيبة في الشعر والشعراء / ١٣١ ، وابن الكلبي في الأغاني ٨ / ٢٤٠ ، وأبو عبياة في كتاب الشعراء - مخطوطة -- ورقة رقم ٣١) ، يحدهم آخرون باربعة (النيسابوري في لطائف المعارف - مخطوطة -- ورقة ٨٧) ، ويحددهم غيرهم بسبعة (ابن الأعرابي في المزهر ٢/٢١٢) ، ويحددهم آخرون بأكثر من ذلك (ابن حبيب في الهبر / ٢٠٧ وما بعدها ، ولسان العرب ، وتاج العروس ، مادة غرب) ، وعندي أن هذه الإحصائيات لا قيمة لها ، فإن هذا شيء أكثر من أن يحصى ، ويبدو أن المقصود بها هو تسجيل أسماء المشهورين منهم .

 <sup>(</sup>٤) یصفهم النیسابوری بآنهم و سودان شجمان و (لطائف الممارف - مخطوطة - و رفة
 رقم ۸۷) .

الأغربة المتمردين تألفت جماعات من صعاليك العرب .

وحين نعود إلى شعرائنا الصعاليك لننظر إليهم فى ضوء هذا ا المصباح الاجتماعي » نجد أن طائفة منهم تألفت من هؤلاء الأغربة .

فالسليك بن السلكة (۱) السعدى يصفه ابن قتيبة بأنه « أحد أغربة العرب وهجنائهم وصعاليكهم (۲) ، ويصفه المبرد بأنه « كان من غربان العرب (۳) ، ويصفه النيسابورى بأنه كان أسود (١) ، ويقدمه ابن قتيبة فى أول ترجمته بأنه « منسوب إلى أمه (۱) ، ويترجم له ابن حبيب فى كتابه « من نسب إلى أمه من الشعراء» (۱) ، ويصفها ابن قتيبة بأنها « كانت سوداء» (۱) ، ويصفها الفضل بأنها « كانت سوداء» (۱) ، ويصفها ويذكر عنها المبرد أنها « كانت سوداء حبشية» (۱۱) ، ويضعه ابن حبيب بين ويذكر عنها المبرد أنها « كانت سوداء حبشية» (۱۱) ، ويضعه ابن حبيب بين « أبناء الحبشيات» (۱۱) .

وتأبط شرًا من هذه الطائفة أيضاً يضعه صاحب لسان العرب نقلا ص أبن سيده عن ابن الأعرابي بين أغربة العرب ، وكذلك يفعل صاحب تاج العروس نقلا عن التهذيب والمحكم ولسان العرب (١٢)، ويضعه ابن الأعرابي في

<sup>(</sup>۱) هي أمه (تاج العروس مادة سلك ، والأغاني ۱۸ /۱۳۳ ، وابن قتيبة ؛ الشعر والشعراء / ۱۳۱ ، وابن حبيب ؛ كتاب المغتالين – مخطوطة - ورقة رقم ۸۹ ، والمحبر / ۳۰۸ ، والمبرد ؛ الكامل / ۲۹۸ ، والآملى ؛ المؤتلف والمختلف / ۱۳۷ ، والبغدادي ؛ خزانة الأدب ۲/۷۷ ، والنيسابوري ؛ لطائف الممارف - مخطوطة - ورقة رقم ۷۹ ، والسيوطي ؛ المزهر ۲/۹۹۲) .

<sup>(</sup>٢) الشعر والشعراء/ ٢١٤ ـ

<sup>(</sup>٧) الكامل / ٢٩٨

<sup>﴿</sup> يَ ﴾ لطائف المعارف (مخطوطة) ورقة رقم ٧٧ .

<sup>(</sup> ه ) الشعر والشعراء /۲۱۳ .

<sup>(</sup>١) ص ١ .

<sup>(</sup>٧) الشعر والشمراء /٢١٣ .

<sup>(</sup>٨) الميداني : مجمع الأمثال ١/٣٩٩ .

<sup>(</sup>٩) لطائف المعارف (مخطوطة) ورقة رقم ٧٦ ورقم ٧٧ .

<sup>(</sup>۱۰) الكامل /۲۹۸ .

<sup>(</sup>١١) الحير /٣٠٧ و ٣٠٨.

<sup>(</sup>١٢) مادة (غرب). وخطه ما ذكراه من أنه من الإسلاميين، فكل المصادر التي بين =

نوادره بين أغربة الجاهلية (١) ، ويذكر Fresnel أنه ابن أمة (١) ، ويذكر صاحب الأغانى أن اسمها أميمة (١) ، ولكنه يقول «يقال إنها من بنى القين بطن من فهم » (١) ، ولعل في هذا التشكيك الذي يثيره صاحب الأغانى حول نسبتها إلى بنى القين ما يقلل من أهمية هذا الخبر . ومن الحق أن المصادر التي تعرضت لتأبط شرا ، ما عدا تلك المصادر التي ذكرته بين أغربة العرب، لم تذكر شيئاً صربحاً عن أصل أمه ، على كثرة ما تعرضت لها ، ولكن من الحق أيضاً أن هذه المصادر صورتها في صورة امرأة غير عمرمة ، تؤخذ بول المن أيضاً أن هذه المصادر صورتها في صورة امرأة غير عمرمة ، تؤخذ بول ابنها إذا غزا (١) ، وتسعى في قتله ليخلو لها الجو مع زوج تزوجها بعد أبيه (١) ، وتحدث هي نفسها بأنها حملت به في ليلة ظلماء وإن نطاقها لمشدود (١) ، وتحدثنا أخبارها بأن أولادها الخمسة كانوا بحملون ألقاباً عجيبة تعطينا فكرة عن وتحدثنا أخبارها بأن أولادها الخمسة كانوا بحملون ألقاباً عجيبة تعطينا فكرة عن هوان المنزلة الاجتماعية لهذه الأسرة (٨) .

ومن الطبيعى أن تكون صلة هؤلاء الأغربة بأمهاتهم أقوى من صلتهم بآبائهم ، وقد رأينا أن أكثرهم قد نسبوا إليهن ، وهى ظاهرة يصح أن تطلق عليها و العصبية النسائية في حياة أغربة العرب » . ومرد هذا من غير شك إلى إنكار آبائهم لهم منذ أول حياتهم ، وإهمالهم شأنهم بعد ذلك ، فنشأوا فى رعاية أمهاتهم ، أو فى إهمالهن ، لا يرون لهم أحداً مواهن ، فتعصبوا لهن وتعصبن لهم ، ويصرح

<sup>=</sup> أيدينا - ما عداهما - مجمعة على أنه جاهلي ، وكل أخباره تؤيد هذا .

<sup>(</sup>١) السيوطي : المزهر ٢/٢٦٩ .

Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme (Première Lettre, p. 108). ( 7 )

<sup>(</sup>٣) الأغاني ٢٠٩/ ٢٠٩ ، وأخطأ الأستاذ Brau في The Ency. of Islam حين ذكر أن اسمها أمينة ، ولم يتنبه لهذا الحطأ مترجمو الدائرة إلى اللغة العربية .

<sup>(</sup>٤) الأغاني ١٨/٢٠٩.

<sup>(</sup> ه ) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٧٥ .

<sup>(</sup>٦) التبريزى : شرح حاسة أبي تمام ١/٥٥ .

<sup>(</sup>٧) المصدر السابق /٢٢ .

<sup>(</sup> ٨ ) الأغانى ١٨ / ٢٠٩ ، وانظر أيضاً المرزبانى ؛ معجم الشعراء /٢٢٦ ، والسيوطى المزهر ٢ / ٢٧٥ ، وانظر لسان العرب وتاج العروس مادة ( لغب ) .

السليك بأن رأسه قد شاب مما تقاسيه خالاته من ضم وهوان ومذلة يعجز لفقره عن إنقاذهن منها (۱) ، وهو يذكر هذا فى مجال دفاعه عن تصعلكه وفخره به ، مما يشعر بأن هذه و العصبية النسائية و كانت من الأسباب الفعالة فى هذا التصعلك . وتتحدث أم تأبط شرا عن ابنها حديث المعجبة به ، فقد حكى عنها أنها قالت فيه : وإنه والله شيطان ، ما رأيته قط مستشقيلا ولاضحكا ، ولا هم بشيء مذكان صبيا إلا فعله (۱) ، وتتحدث عنه مرة أخرى حديثا تبين فيه كيف حملت به ، وكيف وضعته ، ومدى اهتمامها بتنشئته منذ طفولته الأولى تنشئة قوية (۱)

ومن هنا أيضاً كثر رثاء قريبات هؤلاء الأغربة لهم ، وحديثهن عن حزنهن عليهم ، فقد رثت السُلكَة ابنها السليك بأبيات رائعة تفيض حزناً وتَفَحَمُّا ، تصور فيها مصابها الشديد فيه ، وحسرتها البالغة عليه (١) ، ورثت أم تأبط شرا ابنها بقطعتين مسجعتين لعلهما تمثلان مرحلة من مراحل أولية الشعر العربي ، لم تنس فيهما أن تصور بطولته وشجاعته (٥) ، وكذلك فعلت أخته ريطة

<sup>(</sup>١) المبرد : الكامل / ٢٩٩ ، والبغدادى : خزانة الأدب ١٢٨/٣ ، ويقول المبرد و وإنما توجع لحالاته لأنهن كن إماء » (٢٩٩/٢) ، وانظر الأبيات كلها وشرحها في الكامل ٢/٨٩٢ وما بعدها .

<sup>(</sup>۲) التبریزی : شرح حاسة أبی تمام ۱ /۴۳ .

<sup>(</sup>٣) المبرد: الكامل /٧٩، والجماحظ: الحيوان ٢٨٦/١، ولسِان العرب، وتاج العروس، مادة (وضع)، مع بعض الخلاف اللفظى، وزيادات في العباوات في بعض المصادر، لعلما من صنع الرواة، رغبة مهم في إطالة هذه السجعات، ولعل أصح هذه الروايات رواية الكامل ورواية الخيوان.

<sup>(</sup>٤) التبريزى : شرح حاسة أبى تمام ٢/ ١٩١ ، ١٩٢ ، وأسامة بن منقل : لباب الآداب /١٨٣ ، ويقال إنها لأم تابط شرا (المعرى : شرح حاسة أبى تمام - مخطوطة بدار الكتب ورقة رقم ٥ ، وانظر أيضاً شرح التبريزى ٤/ ١٨٦ و ١٨٧) ، ولكن التبريزى يرجح أنها لأم السليك (ص ١٩٢) ، وتروى في العقد الفريد (٣/ ٢٦١ ، ٤٢٧) لأعرابي مجهول في قصة واحدة في الموضعين ، ولكن يلاحظ أن القصة لا تتفق مع الأبيات ، وبخاصة البيت الثالث (ص ٢٦١) فليس هناك محل لهذا التساؤل في البيت ما دامت القعمة تذكر أن أفعى لدغت ابن هذا الأعرابي فات .

<sup>(</sup> ه ) السان العرب ، المواد (قرب - هوف - هيف ) .

فقد رثته برجز تحدثت فيه عن مكارم أخلاقه (١) ، وكذلك فعلت أخت حاجز الأزدى ، فقد رثته ببيتين تصور فيهما حسرتها على فقده ، وحيرتها لاختفائه (١) ، ورثت عَمْراً ذا الكلّب (١)أخته جَنَّوب بمجموعة من القصائد المتازة (١) .

وقد انضمت هذه الطائفة من الصعاليك الأغربة إلى الطائفة السابقة من الصعاليك الخلعاء والشذاذ ، ليشتركوا جميعاً في العمل ضد هذا المجتمع الذي فقدوا توافقهم الاجتماعي معه ، إما لأنه تخلي عن رعابتهم كما في حالة الأغربة ، وإما لأنه تخلي عن رعابتهم كما في حالة الأغربة ، وإما لأنه تخلي عن حمايتهم كما في حالة الخلعاء والشذاذ .

٤

## الصعاليك والمجتمع القبلي:

الظاهرة المهمة التي تلفت النظر في حياة صعاليك العرب الاجتماعية هي فقد الإحساس بالعصبية القبلية التي كانت قوام المجتمع الجاهلي ، وتطورها في نفوسهم إلى وعصبية مذهبية ، وهي ظاهرة من السهل تعليلها بعد ما فهمنا الظروف الاجتماعية التي وجد فيها هؤلاء الصعاليك ، فأما الخلعاء والشداذ فقد تخلت قبائلهم عنهم ، وصحبت منهم و الجنسية القبلية » ، فكان من الطبيعي أن يفقدوا إيمانهم بكل معانى القبلية ، وأن يكفروا بتلك العصبية القبلية التي

<sup>(</sup>١) لمبين حبيب : كتاب المفتالين (مصورة بدار الكتب) لوحة رقم ٨٣ ورقم ٨٤ ، ولسان العرب مادة (رخم) ، وينسب هذا الرجز إلى أمه (ياقوت : معجم البلدان ٤ / ٢٤٢ مادة رخهان) .

<sup>(</sup>٢) الأغانى ١٢/٢٥ (بولاق) .

<sup>(</sup>٣) ينص صاحبالفلاكة والمفلوكين نقلا عن بمض مصادره على أنه من صعاليك العرب/ ١١٩.

<sup>(</sup>٤) السكرى: شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٤١ - ٢٤٦ ، وانظر أيضاً الأغانى ١ / ٢٣ ، ٢٣ ، وتنسب وحاسة ابن الشجرى / ٨٣ ، ٨٣ مع بعض الاختلاف في الألفاظ وترتيب الأبيات وعددها، وتنسب بعض هذه الأبيات إلى أخت عمرو و ريطة و (الأغانى ٢٣/ ١٩) وإلى أخته و عمرة و (شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٤٤). ولكن هذا الاختلاف في كل هذه المواضع لا يغير من الفكرة التي نقررها شيئا.

لم يعدلها قيمة في حياتهم، بل قد ينقلبون انقلاباً تاماً فتصبح صلتهم بقبائلهم صلة عداوة ، فيوجهون غزواتهم إليها ، كما فعل قيس بن الحدادية لما خلعته قبيلته ، فجمع لهم و شذاذاً من العرب ، وفتاكا من قومه ، وأغار عليهم بهم الله ، فنحن هنا أمام حالة شاذة في المجتمع الجاهلي ، يغير فيها بعض القبيلة على بعضها . وأما الأغربة فقد أدركوا أن قبائلهم لا تكاد تعترف بهم ، بل تكاد تنكر صلتها بهم ، فلم يكن هناك إذن ما يوجب حرصهم على تلك العصبية القبلية لأنها مرفوضة من جانب القبيلة .

وحين ننظر في أخبار صعاليك العرب نلاحظ هذه الظاهرة واضحة تماماً ، وقد رأينا في غارة قيس بن الحدادية على قومه أنه ألف جماعته من شداذ من العرب وفتاك من قومه . وفي أخبار حاجز الأزدى أنه جمع \* ناساً من فهم وعدوان فللم على خثم ، فأصابوهم غرة وغنموا ما شاعوا \*(١) ، فهو أزدى وهم من فهم وعدوان . وكان الشنفرى الأزدى يغير أحياناً على الأزد فيمن معه من فهم ، دون أن يجد الفهميون في من فهم ، دون أن يجد الفهميون في ذلك غضاضة ، وهو يتزعمهم ليغير بهم على قبيلته ، دون أن يجد هو في ذلك عاراً . وفي أخبار امرئ القيس أنه بعد أن طرده أبوه \* كان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شداذ العرب من طبي وكلب وبكر \* (١) ، فنحن هنا أمام جماعة من الصعاليك تألفت من ثلاث قبائل مختلفة .

ولعل السليك هو الشذوذ الوحيد لهذا الشذوذ ، فقد ه كان لا يغير على مضر ، وإنما يغير على البمن ، فإذا لم يمكنه ذلك أغار على ربيعة ه (٥) ، بل إن المسألة عنده لم تقف عند هذا الجانب السلبي ، بل كانت أحياناً تتعداه إلى جانب إيجابي يستخدم فيه مواهبه صعلوكاً في مبيل قبيلته ، في بعض أخباره

<sup>(</sup>١) الأغاني ٢/١٣ (بولاق) .

<sup>(</sup>٢) الأغان ١٢/١٥ (بولاق) .

<sup>(</sup>٣) الأغاني ٢١/١٣٥ .

<sup>(</sup>٤) الأغاني ٩/٧٨ .

<sup>(</sup> ه ) الأغاني ١٨ /١٣٤ .

أنه رأى طلائع جيش لبكر بن وائل جاءوا ليغيروا على تميم ، فاستغل سرعة عدوه لينذر قومه حتى لايؤخذوا على غرة (١)

ولكن من المهم أن نلاحظ أن العصبية القبلية قد تطورت في نفس السليك من عصبية ضيقة الأفق إلى عصبية ذات أفق واسع، ترتفع عن العصبية القريبة التي كان تؤمن بها القبيلة في حدودها الضيقة إلى عصبية واسعة تشمل الجنس كله الذي تنتمي إليه القبيلة ، فهي عصبية من نوع آخر غير العصبية القبلية التي كانت تؤمن بها كل قبيلة ، ويصح أن نطلق عليها وعصبية جنسية و

ويجب ألا نفهم من هذا أن السليك كان مرتبطاً بقبيلته كسائر أفرادها ، فقد كان يحيا حياته الخاصة ، حياة التصعلك ، خارج قبيلته ، دون أن يرتبط بها فى شىء ، أو يعتمد عليها فى شىء .

وقد نشأ عن كفر صعاليك العرب بالعصبية القبلية ، وإيمانهم بعصبية مذهبية قوامها والغزو والإغارة للسلب والنهب وأنهم كثيراً ما كانوا يقومون في المجتمع الجاهلي بدور يشبه دور والجنود المرتزقة وعند الأمم الأخرى ، وفا دام هؤلاء الصعاليك لا يعرفون العيش إلا في ظلال سيوفهم ، وما داموا لا ينتظرون في حياتهم أي سلام أو أمن ، فقد كانوا يقاتلون أحياناً كما يقاتل الأبطال الشجعان ، ومن هنا كان الأشراف الذين يرغبون في أن يوجهوا إلى خصومهم ضربة قاصمة يلجئون إلى بسالتهم مفضلين إياهم على رجال قبائلهم وكانوا وتحدثنا الأخبار أن قوماً من شذاذ العرب كانوا يكونون مع الملوك ، وكانوا وتحدثنا الأخبار أن قوماً من شذاذ العرب كانوا يكونون مع الملوك ، وكانوا

<sup>(1)</sup> المصدر السابق / ١٣٦ ، والمبرد : الكامل / ٣٥١ ، ٣٥١ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٥ ، والميداني : مجمع الأمثال ١ / ٢٣١ . والشعراء / ٢١٥ ، والميداني : مجمع الأمثال ١ / ٢٣١ . والشعراء / ٢١٥ ، والميداني : مجمع الأمثال ١ / ٣٠١ . ومع أن المبرد يسوق القصة في باب يتحدث فيه تكاذيب الأعراب فإن التكذيب ينصب ، كما هو واضع من القصة ، على سرعة العدو الخارقة العادة ، وهي مسالة لا صلة لها بما نقروه هذا ، وقد ذاقشنا مسألة العدو في الفصل السابق .

Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 193. (7)

سموبهم و الصنائع و (۱) . وفی أخبار امرئ القیس أنه لما خرج لیثأر لابیه و جمع جمعاً من بنی بكر بن وائل وغیرهم من صعالیك العرب ، وخرج برید بنی أسده (۲) ، وفی مرة أخری غزاهم و وقد جمع جموعاً من حیدیر وغیرهم من ذوبان العرب وصعالیكها و (۲) ، وأنه لما استنصر مرثید الخیر الحمیری أمده بخمسهائة رجل من حمیر خرج بهم ، وتبعه شذاذ من العرب (۱) ، وفی أخبار زید الخیل الطائی أنه و جمع طیئاً وأخلاطاً لمم ، وجموعاً من شذاذ العرب ، فغزا بهم بنی عامر ومن جاورهم من قبائل العرب من قیس (۱) ، وفی أخبار زهیر بن جناب أنه جمع بنی كلب و ومن تجمع لهمن شذاذ العرب والقبائل ۵ ، فغزا بهم بكراً وتغلب (۱) ، وفی أخبار أبی جندب الهذل أنه خرج لیثار لاخیه و فقدم مكة فواعد كل خلیع وفاتك فی الحرم أن یأتوه یوم كذا و كذا فیصیب بهم قومه ۵ (۷) ، وفی أخباره أیضاً أن بنی لمیان قتلوا جارین له ، فقدم مكة ولا قضی نسكه و خرجوا معه ، حتی صبح بهم بنی لحیان (۱) ، وفی شعر بنی لحیان ، فخرجوا معه ، حتی صبح بهم بنی لحیان (۱) ، وفی شعر خفاف بن ندبة إشارة إلی اشتراك الصعالیك فی بعض الغزوات (۱) .

ولعل من أسباب هذا كثرة الصعاليك وانتشارهم فى أرجاء الجزيرة العربية فى العصر الجاهلي بصورة واسعة ، وقد مر بنا فى الفصل الأول أن النعمان بن المنذر لما طلبه كسرى ، وهرب مستنجداً بقبائل العرب ، نصحه بعضهم بالعودة إلى كسرى ، فإن صفح عنه عاد ملكاً عزيزاً ، وإلا فالموت خير من أن

<sup>(</sup>١) الأغاني ١/٨٠ .

<sup>(</sup>٢) العباسي : معاهد التنصيص ١/٥ .

<sup>(</sup>٣) البغة ادى : خزانة الأدب ٣/٣٣٥ .

<sup>(</sup>٤) الأغاني ١/٩٩.

<sup>(</sup>ه) الأغاني ١٦/١٦ .

<sup>(</sup>١) الأغاني ٢١/٢١.

<sup>(</sup>٧) المصدر السابق /٦٢ .

<sup>(</sup> ٨ ) السكري : شرح أشعار الهذليين ١ / ٨٣ ، ٨٤ ، والأغاني ٢١ / ٦٧ ، ٨٠ .

<sup>(</sup> ٩ ) الأغانى ٢ / ٢ ٢ ، والبغدادى : خزانة الأدب ٢ / ٢٧١ .

يتلعب به صعاليك العرب ويتخطفه ذئابها فتأكل ما له ، وفي أخبار معبد بن زرارة و أن قيساً أسرته يوم رَحرَ سان فساروا به إلى الحجاز ، فأتى لقيط (أخوه) في بعض الأشهر الحرُم ، ليفديه فطلبوا منه ألف بعير ، فقال لقيط : إن أبانا أمرنا ألا نزيد على المائتين فتطمع فينا ذؤبان العرب، (1).

وهنا يجلر بنا أن نقف لنلاحظ أن هذا الأسلوب من أساليب العيش الذى ملكه صعاليك العرب لم يكن إلا صورة من الحياة الاجتماعية التى كان يعرفها المجتمع الجاهلي ، ذلك المجتمع الذى كان يؤمن بأن و الغزو أدر القاح ، وأحد السلاح و (٢) . وليس من شك في أن المجتمع الجاهلي كان يؤمن بالقوة إيماناً جعلها من مقومات حياته ، وجعل الغزو أساساً من الأسسالتي يقوم عليها بناؤه (٣) ، و فيقدر ما كان التناصر بين أفراد القبيلة ، كان التخاصم بين القبائل في سبيل الشرف والرياسة أو المال والعيش ، لذلك كانت حياة القبائل الجاهلية حمراء مصبوغة بالدم (١) يتسابق أفرادها إلى الجهل ، بل يحرص كل منهم على أن مصبوغة بالدم (١) يتسابق أفرادها إلى الجهل ، بل يحرص كل منهم على أن يظلم و فوق جهل الجاهلينا (٥) ، مؤمنين بالظلم و بأن و من لا يتظلم الناس يظلم (١٦) ، و بأن في الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان (٧) ، و بأن و الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان (٧) ، و بأن و الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان (١٠) ، و بأن و الشر نجا ولا شر (٨) .

ولعل عمل الصعاليك وكان استئناساً بعمل القبائل معاً ، إذ كانت حياتها قائمة إلى حد ما على الغزو والسلب ، والفرق بين الصورتين أن عمل القبائل جماعي منظم ، وعمل الصعاليك فردى لا نظام له» (١) .

<sup>(</sup>١) المبرد : الكامل /٢٧٦ .

<sup>(</sup>٢) أبن قتيبة : عيون الأخبار ١/٤٤٪ .

L'ammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I. p. 247. (T)

<sup>(</sup> t ) أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي / ٣٧ .

<sup>(</sup>ه) عمرو بن كلثوم في معلقته (التبريزي : شرح القصائد العشر /٢٤٩) .

<sup>(</sup>٦) زهير بن أبي سلمي في معلقته (المصدر السابق /١٢٧).

<sup>(</sup>٧) الفند الزماني ( التبريزي : شرح حماسة أبي تمام ١ / ١٤) .

<sup>(</sup>٨) الجاحظ : الحيوان ٢ / ٩٠ .

<sup>(</sup>٩) أحمد الثايب : تاريخ الثمر البياسي / ٣٥ .

وخلاصة القول أن إيمان القبيلة بوحدتها أوجد في المجتمع الجاهلي طائفة المحلماء والشذاذ ، وأن إيمانها بجنسها أوجد فيه طائفة الأغربة ، وأن المتمردين من هاتين الطائفتين من شتى القبائل قد اجتمعوا في عصابات من صعاليك العرب ، كافرين بالعصبية القبلية ، مؤمنين بعصبية مذهبية قوامها الغزو والإغارة للسلب والهب ، معتمدين على قوتهم في سبيل العيش ، شأنهم في ذلك شأن المجتمع الذي يعيشون فيه ، وإن يكن عملهم فردينًا فلم يعترف به .

	-	

# لفصل الابع

## التفسير الاقتصادي لظاهرة الصعلكة

١

#### العرب والتجارة :

عرفت الجزيرة العربية مند أقدم عصورها النشاط التجارى على صورة واسعة . وقديماً ذكر سترابو «أن كل عربى تاجر» (١) ، وهى عبارة -على الرغم مما فيها من إطلاق وتعميم - تسجل الصدى الذى استقر فى نفس ذلك الرحالة القديم عن بلاد العرب فى أثناء زيارته لها . ويذكر شبرنجر فى جغرافيته القديمة للجزيرة العربية أن تاريخ التجارة الأولى هو تاريخ البخور ، وأرض البخور هى بلاد العرب (٦) ، وأول تجار ورد ذكرهم فى التوراة هم العرب (٣) ، وأول تجار ورد ذكرهم فى التوراة هم العرب (٣) ، الأقصى » (١) ، « وأن البيزنطيين كانوا « الواسطة بين قدماء الأوربيين والشرق الاقصى » (١) ، « وأن البيزنطيين كانوا بعتمدون فى شئونهم التجارية على قوافل البدو التي كانت تحمل لهم الأحجار الكريمة والتوابل من بلاد الهند الغامضة ، البدو التي كانت تحمل لهم الأحجار الكريمة والتوابل من بلاد الهند الغامضة ، والجلود والمعادن والمواد الغربية والحرير من الصين ، لأجل ثياب أباطرتهم وحظاياهم وكهنهم ، والعطور من بلاد المجوس ، والبخور من اليمن ، والصمغ من إفريقية ، لأجل كنائسهم وقصورهم» (٥) . وقد كان لمخازن العرب من

Lammens; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 27 = 123; & Dermenghem; ( ) )
The Life of Mahomet, p. 20 & p. 24.

Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 159. (Y)

Lammens; La Mecque à lavieille de l'Hégire, p. 28 = 124; & Dermenghem; ( )
The Life of Mahomet, p. 24.

وفي سفر حزقيال ( الإصحاح ٢٧ ) حديث عن تجارة العرب .

<sup>(</sup>٤) جومتاف لوبون : حضارة العرب /١٠٦ .

Dermenghem; The Life of Mahomet, pp. 25, 26. ( a )

الأهمية ماكان لمخازن البندقية إبان عظمتها (١) ، ومنذ عصور سحيقة والقوافل التجارية النشطة تعمل بين مناطق الإنتاج في بلاد العرب السعيدة وبين مدن العراق والشام ومصر (٢).

ويبدو أن هذه الحركة التجارية النشطة التي سالت بقوافلها وديان الصحراء العربية ، سي جعلت من العرب كما يقول بعض المؤرخين و حملة العالم بين الشرق والغرب (٣) ، ترجع إلى تلك الظروف التي كانت تسود العالم القديم في ذلك الوقت ، فقد كان الطريق البحري بين الشرق والغرب محقوفاً بالأخطار ، فإلى جانب و القراصنة الذين كانوا بهددون أمنه ، ويقطعون طرقه ، ويأخذون كل سفينة غصباً ، كانت الملاحة نفسها متأخرة ، ولهذا و انحصرت التجارة حبدون استثناء تقريباً - في البر ، وكانت تلك القارة التي هي الآن أكبر عقبة في سبيل الحركة التجارية وسيلها الأساسية الميسرة ، وكانت براري آسيا عقبة في سبيل الحركة التجارية وسيلها الأساسية الميسرة ، وكانت براري آسيا الوسطى وجزيرة العرب بحار القدماء ، وكانت قوافل الإبل سفنهم » (١) .

وكانت التجارة في أول الأمر في أيدى اليمنيين ، و فعلى أيديهم كانت تنقل ُ غلات ُ حضرموت وظفار ، وواردات الهند ، إلى الشام ومصر » (م) ، وكانت كثرة التجارة مع بلاد العرب الجنوبية تنقل ألى الشام ومصر عن طريق الحجاز» (١٦) .

وليس من شك في أن هذه الحركة التجارية النشطة التي كان يسبطر عليها الجنوبيون ، والتي كانت تتخذ من بلاد الشهاليين طريقاً لها ، أوجدت في نفوس الشهاليين رغبة في الأخذ بهذا الأسلوب من أساليب العيش ، الذي يرونه يدر على أصحابه رزقاً وافراً وثراء عريضاً ، وغرست في نفوسهم النواة الأولى لحب

<sup>(</sup>١) جومتاف لوبون : حضارة العرب /١٠٦ .

Semple; Influences of Geographic Environment, p. 506. (Y)

Muir; The Life of Mohammad, pp. IXXXIX, XG. (7)

Ibid., p. XC. ( )

<sup>(</sup>ه) أحمد أمين : فجر الإسلام ١٥/١ .

O'Leary; Arabia before Muhammad, pp. 180, 181. ( \)

التجارة التى لم إلى النحلال . فما كادت القوة الحميرية يدب فيها الوهن فى أثناء القرن وأخذت فى الانحلال . فما كادت القوة الحميرية يدب فيها الوهن فى أثناء القرن الخامس حتى سنحت الفرصة لعرب الحجاز للقبض على زمام الحركة التجارية ، وويبدو أن هذه التطورات كانت شديدة التدرج ، ولكن الأمر الذى لا ريب فيه هو أنه من قبل أن يبدأ القرن السابع كان طريق الحجاز كله فى أيدى العرب الذين ينزلون فيه ، والذين جعلوا من مكة مركزاً إدارياً لمم ، أيدى العنين ، ثم يحملونها شهالا على حصابهم الخاص يستقبلون فيه البضائع من أيدى اليمنيين ، ثم يحملونها شهالا على حصابهم الخاص إلى أسواق سورية ومصر ، وربما أيضاً إلى فارس ، وإن يكن من المعروف أن جزءاً من التجارة الفارسية كان فى أيدى عرب الحيرة ه (١) .

۲

#### الطرق النجارية :

ولم يكن طريق الحجاز الطريق التجارى الوحيد للقوافل التجارية ، وإنما كانت هناك طرق أخرى . ويقرر الدارسون أن «طرق القوافل ليست مسألة اختيار مطلق» (٢) ، وإنما هي مسألة وتعتمد على طبيعة الصحاري والجبال وموارد المياه» (٦) ، ويلاحظون أن «طرق القوافل في الجزيرة العربية تتبع عادة مجارى الوديان» (١) ، وهذا طبيعي لأنها تتجنب به مجاهل الصحراء ، ووعورة الجبال ، وتضمن طرقاً واضحة المعالم ، محددة المسالك، تكثر فيها نسبياً فرص وجود الماء .

وقد عرفت الجزيرة العربية منذ أقدم عصورها طريقين أساسيين للقوافل

O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 181. (1)

Muir; The Life of Mohammad, p. XC. (Y)

O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 103. (7)

Zwemer; Arabia, The Gradie of Islam, p. 22. ( i )

التجارية بين طرفيها الشهالى والجنوبي (١١). ويبدأ الطريقان من ظَفَار التي كانت المركز الأساسى لتجارة البخور التي يعتمد عليها الشطر الأكبر من التجارة العربية، ويجرى الطريقان إلى الشرق والغرب منها، ليتجنبا اختراق تلك الصحراء الرهيبة المعروفة الآن بالربع الحالى .

أما الطريق الشرق فيمضى متاخماً لقوس مُمان الساحلى، متجها إلى القطيف على الحليج الفارسى ، التى كانت مرفأ تُدحمل إليه بضائع الهند ، ومن القطيف عن طريق تدمر إلى فلسطين وصُور بسورية . وليس من شك في أن هذا الطريق كان الطريق الأساسى الذى تنقل فيه بضائع الهند إلى صنعاء باليمن ، ومنها إلى ثغور البحر الأحمر أو إلى الحجاز .

وأما الطريق الغربي فيبدأ من ظفار أيضاً ، ثم يسلك وادى حضرموت إلى شبوة في أقصى طرفه الغربي ، حيث يلتي بطريق فرعى يتصل بعدن ، ثم يستمر إلى مأرب ، ومها إلى صنعاء حيث بلتي مرة أخرى بطريق فرعى يتصل بعدن أيضاً ، ومن صنعاء يصعد شهالا محاذباً البحر الأحمر ، متجنباً في الشرق الصحراء المحرقة اللافحة ، وفي الغرب المرتفعات الساحلية الوعرة ، حتى يدخل الحجاز بين سلسلني الحبال المتوازيتين التي تقع مكة والطائف بينهما ، ويمضى شهالاعن طريق وادى القرى إلى العلاء الثغر الأملى لديار الأنباط ، حيث كان يجرى تبادل البضائع بين العرب الجنوبيين والأنباط ، ثم إلى تهاء حيث تشعب الطرق ، فبعضها يتجه شهالا إلى بتصرى وتدمر ودمشق في سورية ، وبعضها إلى مصر عن طريق أيلة وغزة والعربش والطرف الشهالي لشبه جزيرة سيناء ، وبعضها إلى بابل عن طريق حائل الذي ينحني انحناءة واسعة ليتجنب صواء النفود القاسية .

وإلى جانب هذين الطريقين الأساسيين اللذين يدوران حول صحارى الحزيرة العربية من مكة في الحزيرة العربية من مكة في

<sup>(</sup>١) انظر في هذين الطريقين :

O'Leary; Arabia before Muhammad, pp. 103-105; & Muir; The Life of Mohammad, p. XC.

انحناءة حول الحد الشمالى للربع الخالى عن طريق الرياض إلى القبَطيف على الخليج العربى (١) .

ويبدو أنه كانت هناك طرق أخرى مهمة ، فنى الأخبار القديمة أن النعمان كان يبعث بلطيمة كل عام للتجارة إلى عكاظ (١) ، وأن عروة الرسطال من بنى كلاب أجارها فى بعض الأعوام ، حتى إذا وصل «إلى أهله دُويَنَ الحَريب بماء يقال له أوارة» وثب عليه البراض فقتله ، ثم مضى هارباً حتى أنى خيبر (١) . وهنا نتساءل : أى الطرق كانت تسلكها لطائم النعمان فى قدومها من الحيرة إلى عكاظ ؟

يبدو أن الإجابة عن هذا السؤال تفسرها ظاهرة جغرافية، فهناك واد عظيم بمتد من حرة خيبر التي ترتفع ستة آلاف قدم ، مخترقاً غربي القديم بين أبانيين حتى يقارب البصرة ، وهو وادى الرُّمة الذى يرجحون أنه كان عجرى نهر في عصور ما قبل التاريخ (١٤) . وقد قلنا إن طرق القوافل في الجزيرة العربية تتبع مجارى الوديان ، ومن هنا نستطيع أن نرجح أن وادى الرمة هو الطريق الذى كانت تسلكه لطائم النعمان ، ويؤيد هذا أن المواضع التي ورد ذكرها في قصة عروة الرحال والبراض تقع في هذا الوادى، فالجريب واد عظيم لبني كلاب يصب في الرمة من أرض نجد (٥) ، ومنازل كلاب حيث قتل عروة تقع في وسط الرمة أو في أعاليها (١) ، وخيبر التي فر إليها البراض تقع كما تقع في وسط الرمة أو في أعاليها (١) ، وخيبر التي فر إليها البراض تقع كما رأينا عند بداية الرمة ، وبهذا نستطيع أن نحدد ذلك الطريق التجارى الذي كان يخترق شمالي الجزيرة العربية ، فهو يبدأ من منطقة الحيرة ثم يمضي مع وادى الرمة

O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 105. (1)

<sup>(</sup>٢) انظر في قصة هذه اللطيمة : الأغاني ١٩ / ٥٧ ، وابن حبيب : المحبر / ١٩٥ ، ١٩٩ .

<sup>(</sup>٣) ابن حبيب : الحبر /١٩٦ .

The Ency. of Islam; Art. Arabia, p. 371. (t)

وانظر أيضاً معجم البلدان لياقوت ، مادة ( الرمة ) ٢٩٠/٤ ، ٢٩١ .

<sup>(</sup> ه ) ياقوت : معجم البلدان ، مادة ( الجريب ) ٢ / ٩١ .

<sup>(</sup>٩) المصدر السابق ، مادة (الرمة) ٤/ ٢٩٠ ، ٢٩١ .

حتى يصل إلى خيبر، ومنها عن طريق وادى القرى إلى يثرب، ثم إلى مكة فى الطريق الذى يصل بين شهالى الجزيرة العربية وجنوبيها، ومن مكة إلى عكاظ. وقد أشار زويمر نقلا عن بعض مصادره إلى طريق كان وفى أيدى العرب الإسماعيليين يخترق وادى الرمة وبلاد نجد إلى حاضرة الحميريين القديمة مأرب، (١)، ولكنه لم يذكر شيئاً عنه أكثر من هذه الإشارة الموجزة، ولعله الطريق الذى حددناه.

٣

## الأسواق :

ومن الطبيعي أن تقوم على طول هذه الطرق التجارية ، حيث يوجد الماء، عجموعة من الأسواق تنزل فيها القوافل التجارية، ويقبل إليها سكان هذه المناطق والمناطق التي تجاورها بسلعهم ، ويقوم ببن الفريقين تبادل تجارى، ترسل بعده القوافل ببعض ما تنتجه هذه المناطق، ويعود سكان هذه المناطق ببعض ما كانت تحمله هذه المقوافل مما يحتاجون إليه ولا تنتجه بلادهم.

وقد ذكر اليعقوبي من هذه الأسواق عشرا (۱)، بدأ بها من أقصى الشال حيث تقام سوق دُومة الجندل ، ثم تتبعها على طول الخليج العربي حيث تقام سوق المشقر بهجر ، وسوق صحار ، وسوق دبي (۱۳) ، ثم على طول الساحل الجنوبي للجزيرة العربية حيث تقام سوق الشيّحر بشحر مهرة ، وسوق عدن ، وسوق الرابية بحضرموت ، وسوق صنعاء ، ثم مضى على طول الساحل الشرق للبحر الأحمر حتى انتهى إلى سوق عكاظ وسوق ذى الحجاز بالقرب من مكة ، وقد ذكر ابن حبيب هذه الأسواق أيضاً (١) ، وأضاف إليها سوقين أخريين :

Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 260. (1)

<sup>(</sup> ٢ ) تاريخ اليعقوبي ١ / ٣١٣ ، ٣١٤ .

<sup>(ُ</sup> ٣) في المصدر السابق و روا ۽ ، وهو تحربف ، صوابه ما ذكرناه هذا . ( انظر القاموس المجيط ، مادة و دبي ۽ – ومعجم البلدان لياقوت ، مادة و دبيا ۽ ح ؛ ص ٣٠ – والحبر لابن حبيب /٢٠٥) .

<sup>(</sup>٤) الحبر /٢٦٢ - ٢٦٧ .

سوق حَمَجُر التي كانت تقام باليمامة ، وسوق نَطَاة التي كانت تقام بخيبر (١) . ومن الطبيعي أن هذه الأسواق ليست كل ما كانت تعرفه الجزيرة العربية في جاهليتها ، وقد ذكر ابن حبيب أن هذه الأسواق هي وأسواق العرب المشهورة في الجاهلية ، (٢) ، ومع ذلك فقد عرف العرب الجاهليون أسواقاً أخرى مشهورة ، فقد عرفت منطقة مكة مع سوقى عكاظ وذى المجاز سوق مجنة (٢) ، وعرفت منطقة تهامة سوق حباشة التي أرسلت السيدة خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها (٤) ، وفي أخبار الشنفرى أن أعداءه تربصوا له وهو عائد منها (٥) ، وكذلك كانت بدر ١ موسماً من مواسم العرب تجتمع لهم بها سوق كل عام؛ <sup>(١)</sup> ، وقد عرفت عُمان سوقاً أخرى مشهورة هي سوق و دما ، يذكر عنها ياقوت أنها وكانت من أسواق العرب المشهورة ، (٧) ، وكذلك كان اليهود يقيمون أسواقاً حيث كانوا ينزلون ، فقد كان لبني قينقاع سوق في يثرب ، ﴿ وَكَانَتُ سُوقاً عَظِيمة ﴾ ، وقد زارها النابغة الذبياني مرة ، فلما أشرف عليها سمع بها ضجة حاصَتْ به ناقته منها <sup>(٨)</sup> ، ويذكر المؤرخون أن أهل مكة كانوا يقصدون إلى خيبر لبجلبوا منها حلى آل أبى الحقيق التي كانت نساؤهم يتحلين بها (١) . ومن الطبيعي أن تقوم بخيبر ويثرب أسواق ، نظراً لنزول اليهود أصحاب الأموال والتجارة والصناعة فيهما ، وقد وكانت التجارة بنوع خاص من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز ، حتى صار

<sup>(</sup>١) المصادر السابق/ ٢٦٨.

<sup>(</sup>٢) المصدر نفسه /٢٩٢ .

<sup>(</sup>٣) انظر معجم البلدان لياقوت مادة (مجنة) ٧/٢٩٠، ومادة (عكاظ) ٢/٢٢٠ .

<sup>(</sup>٤) انظر المصدر السابق مادة (حباشة) ٢٠٦/٢ .

<sup>·</sup> ١٣٧/٢١ نَافَالَ ١٣٧/٢١ .

<sup>(</sup>٦) تاريخ الطبري ٢/٢٧٦ والمغازي الواقدي /٣٧ .

<sup>(</sup>٧) معيم اليلدان ١٩/٤ (مادة دما) .

<sup>(</sup> ٨ ) الأغاني ٢١ / ٢٢ .

<sup>(</sup> ٩ ) ألواقدى : المفازى / ٢٧٧ .

لبعضهم فيها شهرة عظيمة وصيت بعيد ، (۱۱) ، وكذلك من الطبيعى أن تقوم بمنطقة مكة تلك المجموعة من الأسواق التي ذكرناها نظراً لأنها كانت أكبر مراكز التجارة في الجزيرة العربية ، ونظراً لكثرة وفود العرب التي كانت تهوى اليها في مواسم الحج ، وقد كان النعمان يبعث كل عام إلى سوق عكاظ بلطيمة « تباع ، وتشتري له بثمنها الأدم والحرير والوكاء والحذاء والبرود من العسب والوشي والمسسير والعكدي الآدم.

ونستطيع أن نقرر ، ونحن مطمئنون ، أنه على طول الطرق التجارية كانت تقوم الأسواق ، وأن هذه الأسواق كانت تكثر حول مراكز التجارة الأساسية .

ونستطيع أن نقسم هذه الأسواق إلى مجموعتين : فهناك أسواق تقع فى بلاد فيها هيئة حاكمة ذات قوة تنفيذية ، ترد الظالم عن ظلمه ، وتأخذ لصاحب الحق حقه من غاصبه ، أو - كما كان يسميها القدماء وأرض مملكة وأمر محكم ، وهذه لم يكن التجار فيها يحتاجون إلى خفارة ، لأن القوة التنفيذية فيها كانت تقوم بهذه المهمة ، نظير عشور يحصلونها من التجار ، كسوق عدن (٦) ، وهناك أسواق تقع فى مناطق بدوية لا حكم فيها إلا للقوة الفوضوية ، أو - كماكان يقول القدماء - « من عز فيها برز ، ، وهذه كان التجار بحتاجون فيها إلى خفارة ، كسوق الرابية بحضرموت (٤) . وكان سادة بعض التجار بحتاجون فيها إلى خفارة ، كسوق الرابية بحضرموت (٤) . وكان سادة بعض هذه المناطق ينصبون أنفسهم حكاماً على أسوانها ، و ويسيرون فيها بسيرة الملوك ، ، فيأخذون من التجار فيها العشور ، كمذ كان يفعل بعض بنى تميم في سوق المشقر بهجر ، وكماكان يفعل الجلندكي وآل الحكمندكي في سوق مثحار وفي سوق دى (٥) .

<sup>(1)</sup> إسرائيل ولشنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب / ١٨ .

<sup>(</sup>٢) الأغاني ١٩/٥٧.

<sup>(</sup>٣) ابن حبيب : المحبر /٢٦٦ ، وتاريخ اليمقوبي ١ /٣١٤ .

<sup>( )</sup> المصدران السابقان : ابن حبيب / ٢٦٧ ، واليمقوب ١ / ٣١٤ .

<sup>(</sup> ه ) المصدران السابقان : ابن حبيب / ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، واليحقوبي ١ / ٣١٤ .

ومع ذلك فقد كان التجار في هذه الأسواق عادة آمنين على دمائهم وأموالم (۱) ، فبالرغم من أنه كان في العرب قوم يستحلون المظالم إذا حضروا هذه الأسواق ، وكانوا يسمون المحلّين ، كان فهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم ، والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر ، وكانوا يسمون اللذادة المحرّمين (۱) ، وكان هؤلاء الذادة المحرمون «يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس ، وكان العرب جميعاً بين هؤلاء تضع أسلحتهم في الأشهر الحرم » (۱) ، كا أن بعض هذه الأسواق كانت تقوم بحمايتها القبائل التي كانت تقام في أراضبها ، ويسمون بذلك جيرانها ، فقد كانت كلب وجديلة طبئ جيرانا ألوضبها ، ويسمون بذلك جيرانها ، فقد كانت كلب وجديلة طبئ جيرانا وكان حلف الفضول بجير في أسواق مكة (۱) ، وقد وصلت هذه الإجارة في بعض الأحيان إلى درجة كبيرة من القوة تستطيع بها أن ترد على المظلوم حقه ، بعد أن تنتزعه من غاصبه ، كما كان يفعل الفضول في مكة (۷) .

والغاية التي نريد أن نصل إليها من هذا هي أن الفرصة التي كان من المنتظر أن تكون سانحة أمام صعاليك العرب في هذه الأسواق الغزو والإغارة السلب والنهب قد أفلتت من أيديهم ، نظراً لتلك الحماية التي كان الذادة المحرمون يأخذون بها أنفسهم ، وهذه الإجارة التي كانت بعض القبائل أو الأحلاف تقوم بها ، ونظراً من ناحية أخرى - إلى ازدحام هذه الأسواق بالناس من مختلف الطبقات ازدحاماً يفسد على الصعاليك «خططهم الحربية» التي تعتمد قبل كل شيء على التربص الحذر ، ثم المفاجأة الحاطفة ، فالفرار

<sup>(</sup>١) قاريخ اليعقوبي ١/٣١٣ .

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق /٢١٤ .

<sup>(</sup>٣) المصدر نفسه /٣١٥ .

<sup>( ۽ )</sup> ابن حبيب ۽ الحبر /٢٦٣ .

<sup>(</sup>ء) المصدر المابق /٢٦٥ .

<sup>(</sup>٦) السهيل : الروض الأنف ١/٩٠ ، ٩١ .

 <sup>(</sup> ٧ ) المصدر المابق ، المؤسع نفسه .

السريع من أجل النجاة والسلامة .

ولكنهم - مع ذلك - لم يدعوا هذه الفرصة تفلت من أيدبهم إفلاتاً تامًّا ، فما لا يُكرك كله لا يترك كله ، فقد رأوا أن هذه الأسواق مواسم يلتقي فيها ضروب من الناس من شي القبائل ، مما يتيح لهم فرصة طيبة للاتصال بهم ، وانتقاء ضحاياهم من بينهم ، ليضعوا على أماس ذلك خططهم المقبلة التي يعتزمون تنفيذها بعد ذلك ، فني أخبار السليك أنه خرج في الشهر الحرام حتى أتى عكاظ ، فلما اجتمع الناس ألتى ثيابه ثم خرج متفضلا مترجلا ، فجعل يطوف بين الناس ويقول : من يصفُ لي منازل قومه وأصف له منازل قومى ؟ فلقيه قيس بن مكشوح المرادى ، فقال : أنا أصف لك منازل قومى ، وصف لى منازل قومك ، فتواقفا وتعاهدا ألا يتكاذبا ، ووصف كل منهما للآخر منازل قومه ، فانطلق قيس إلى قومه فأخبرهم الخبر ، فقال أبوه المكشوح : تُكلتك أمك ! هل تدرى من لقيت؟ قال : لقيتُ رجلًا فُصُلًا كأنما خرج من أهله ، فقال : هو والله سليك بن سعد ، ثم لم يلبث السليك أن وضع خطته موضع التنفيذ ، فأغار في أصحاب له على مراد وخثعم ، وأسر قيس بن المكشوح ، وأصاب من نعمهم ، وسبى سبية من خثعم ، ثم انصرف مسرعاً (١٠)، ويبدو من معرفة المكشوح للسليك بمجرد حديث قيس عنه أن هذا اللون من الاستيال من ( السوابق) التي عرفها ( صحيفة ) السليك ، والتي يعرفها عنه أصحاب الخبرة ، كما يعرف رجال الشرطة في العصر الحديث أرباب السوابق من المحتالين بمجرد ذكر حوادث احتيالهم .

وإذا كانت الفرصة قد أفلتت من صعاليك العرب فى داخل هذه الأسواق، \_ ما عدا أمثال هذا الاحتيال \_ فإن فى الطرق الموصلة إليها، وفى المناطق المحيطة بها ، متسعاً لحركاتهم ، فوقفوا يترصد ون التجار فى مقد مهم إليها ، وفى منصرفهم عنها ، يقطعون عليهم الطرق ، وينهبون ما تصل إليه أيديهم من تجاراتهم .

<sup>(</sup>١) الأغاني ١٨/ ١٣٥ ، ١٣٦ .

وهنا نقف لنذكر أننا قلنا عند تعليلنا لانتشار حركات الصعاليك في منطقة السراة المحيطة بمكة وفي قبيلة هذيل أن للمسألة جانباً اقتصاديباً ، وأظن أننا نستطيع الآن أن نقول إن من أسباب انتشار الصعاليك في هذه المنطقة وقوعها على الطريق التجاري الذي يصل بين اليمن والشام مما جعلها ممراً اللقوافل التجارية ، هذا إلى أن قربها من مكة حيث تقام ثلاث أسواق مشهورة : عكاظ ومجنة وذو المجاز (۱) جعل منها مبداناً نشطاً لحركات التجار في غدوهم ورواحهم ، ما أتاح للمتمردين من صعاليك هذه المنطقة الفرصة المواتية للغارة والغزو للسلب والنهب . ولهذا السبب اضطر التجار في مناطق هذه الأسواق إلى أن يتخفر والنهائل القوية التي تنزلها (۲) .

وكان لهذه الأسواق - من ناحية أخرى - أثر في حياة صعاليك العرب ، فضها ، أو في بعضها على الأقل ، كانت تجرى تجارة رائجة ، هي تجارة الوقيق الذي كان يجلب من إفريقية ، وقد رأينا في الفصل السابق صورة من تلك التجارة في أسواق مكة ، وفي سوق حباشة كانت تجرى هذه التجارة أيضاً (٢١) ، وقد رأينا في الفصل السابق أن هذه التجارة كانت سبباً في نشأة طبقة الأغربة في المجتمع الجاهلي ، وأن هذه الطبقة قد أمدت حركة الصعلكة بمجموعة كبيرة من صعاليك العرب . وإلى جانب هذا اللون من التجارة ، عرفت هذه الأسواق - أو بتعبير أدق - الأسواق الأساسية لوناً من النشاط الاجتماعي كبيرة من صعاليك العرب . وهي ظاهرة الخلع ، وقد قلنا في الفصل السابق كان له أثر في حركة الصعلكة ، وهي ظاهرة الخلع ، وقد قلنا في الفصل السابق إن هذا الحلع كان يتخذ صورة إعلان رسمي بذاع على الناس في المواسم والأسواق ، ورأينا أن هؤلاء الحلعاء كانوا بملون حركة الصعلكة أيضاً بمجموعة والأسواق ، ورأينا أن هؤلاء الحلعاء كانوا بملون حركة الصعلكة أيضاً بمجموعة كبيرة من صعاليك العرب .

<sup>(</sup>١) انظر معجم البلدان لياقوت ، عكاظ ٦/٢٠٣ ، ومجنة ٧/٣٩٠ ، والحجاز ٧/٨٥/٧ .

<sup>(</sup>٢) انظر المحبر /٢٦٤ وما بعدها ، وتاريخ اليعقوبي ١/٢١٤ ,

<sup>(</sup>٣) ياقوت : معجم البلدان ، مادة (حباشة) ٣/٢٠٦ . وابن الأثير : أسد الغابة ٢/٢٢٤ .

ومعنى هذا أن هذه الأسواق شهدت السطور الأولى من قصة هاتين الطائفتين من صعاليك العرب : طائفة الأغربة ، وطائفة الخلعاء .

٤

## الصراع الاقتصادى في المدن التجارية:

من الطبيعي أن يشارك في هذه الحركة التجارية النشطة التي عرفتها الجزيرة العربية سكانها ، كل حسب طاقته المالية، وحسب طروفه الاجتماعية ، وحسب قربه أو بعده عن مراكز النشاط التجاري ، ومن الطبيعي أيضاً أن يختلف موقف العرب من هذه الحركة التجارية عن موقف البدو .

أما أولئك العرب الذين تقع مدنهم على الطرق التجارية فقد فرض عليهم موقعهم أن يشاركوا في هذه الحياة التجارية بكل ما تحتمله رءوس أموالهم .

وقد نشطت الحركة التجارية في مكة بالذات نشاطاً واسع النطاق ، جعل منها كما يحلو للامانس أن يقول عنها « جمهورية تجارية » (١) ، أو كما يسمبها درمنجم « جمهورية بلوتقراطية » (١) ، تعتمد في سيادتها على طبقة الأثرياء ، أو كما يقول بندلى جوزى « مدنية تجارية محضة لا يفكر أهلها إلا في التجارة ، ولا يهمهم إلا جمع المال واستناره بجميع الوسائل المحللة والغير المحللة » (٣) .

ويؤرخون أهمية مكة الحقيقية في هذا النشاط التجاري بذلك الوقت الذي أصبح فيه عرب الحجاز أصحاب التجارة ، وجعلوا من مكة و مركزاً إداريًّا ، لأعمالهم ، أما قبل ذلك ، حينا كانت التجارة في أيدى اليمنيين ، فإن مكة لم تمعّد أن تكون محطة على طريق القوافل ، كما يذكر سترابو (3) . فقد كانت

له Mecque à la veille de l'Hégire, : انظر كتابه (١)

وانظر أيضاً مقالته عن Mecca ن . The Ency. of Islam, p. 438.

The Life of Mahomet, p. 26. (Y)

<sup>(</sup>٣) من تاريخ الحركات الفكرية في الإملام / ١٤ ، ١٥ .

O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 182. ( t )

مكة قبل القرن الخامس الميلادى و محطة للقوافل التى كانت تمر بها وهى راجعة من جنوب الجزيرة تحمل بضائع الهند واليمن إلى سوريا وفلسطين ومصر ، فأصبحت فى أواخر الجيل السادس مدينة تجارية غنية تمد بما كان يأتبها من البضائع المحلية والأجنبية أكثر سكان الحجاز وأسواقه و (١) .

وقد سيطر على أهل مكة رُوحٌ تجارى نشط « فاشتعلت فى نفس كل مهم حميّى تدفعه للعمل والمال والمضاربات التجارية ، من التاجر ذى الأريكة الحشبية فى الهواء الطلق ، إلى صاحب الدكان الصغير ، إلى رجل الأعمال الكبير صاحب الكتبة الكثيرين ، الذى تزدان دفاتر حساباته الحارية بالأختام والكتابات الحاذقة » (٢) ، وبلغ من سيطرة هذا الروح التجارى أن كان من ألقاب الشرف فى مكة لقب « تاجر » ، ذلك اللقب الذى كان يخول لصاحبه ألقاب الشرف فى مكة لقب « تاجر » ، ذلك اللقب الذى كان يخول لصاحبه أن يشارك فى السلطان السياسى (٣) .

وقد أحدث هذا النشاط التجارى نوعاً من الاختلال في التوازن الاقتصادى، نشأت عنه طبقة من الصعاليك المعوزين ممن تخلفوا عن القافلة ، ونحاهم التبار التجارى الجارف جانباً ، حيث يركد الماء ، ويتراكم الغثاء . ويرى بعض الباحثين أن عدد أفراد هذه الطبقة في مكة كان كبيراً جداً بالنسبة إلى عدد أصحاب الثروة فيها ، وأنهم كانوا في حالة سيئة ولا يملكون شيئاً حتى أنفسهم ، لأن حق التشريع كان محصوراً في أيدى الطبقة العليا ، فكان أصحابها يسنون من الشرائع ما كان يوافق مصلحتهم ، ولما لم يكن لأصحاب هذه الطبقة زاجر من أنفسهم ، ولا رادع من ضمائرهم يردعهم عن استبار أتعاب الصعاليك وامتهانهم ، ويوقفهم عند حد معلوم من القساوة ، كانت حياة الصعاليك بينهم عرضة دائمة للأخطار ، وسلسلة يأس وعذاب ، فلا قانون يحميهم ، ولا شريعة ترق لحالم ، وتحاول أن تنتشلهم من هاوية الموت الاجتماعي والرق

<sup>(</sup>١) بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام /١٣ ، ١٤ .

Dermenghem; The Life of Mahomet, p. 29. ( Y )

Lammens; La Mecque 4 la Veille de l'Hégire, p. 165 = 261. (7)

الأبدى ، فكانوا يعيشون فى شعاب البلدة وأطرافها البعيدة ، وفى بيوت حقيرة قذرة ، وعيشة ضنك ، وجوع مستمر ، بيها كان الذين أثروا من أتعابهم يقيمون فى وسط المدينة ، فى قصورهم الفخمة ، بالقرب من الكعبة والنادى ، أو دار الندوة ، مصدرى ثروتهم وسلطتهم » (١) .

وكانت العلاقات بين هاتين الطبقتين : طبقة المالة وطبقة الصعاليك من السوء إلى حد بعيد ، فقد كانت الطبقة الأولى مسيطرة على كل مظهر من مظاهر الحياة الاجهاعية والاقتصادية . وقد رأينا أن حق التشريع كان فى أيديهم . وإلى جانب هذا كانوا هم المسيطرين على الحياة الاقتصادية ، فكانوا يعملون أحياناً إلى التلاعب بالأسواق ، أو المضاربة بالدراهم والدنانير والتبر والنقود الأجنبية ، و فكانوا تارة يزيدون فى وزيها أو قيمها ، وطوراً يخفضون ، تبعاً لمصالحهم الشخصية وجرياً وراء جشعهم المعهود ه (١) مما كان يؤدى إلى اختلال التوازن الاقتصادى اختلالا كبيراً ، يكون من نتائجه أن تصبح طبقة الصعاليك تحت رحمهم ، فيضطر أفرادها إلى الاستدانة إبقاء على حياتهم . الصعاليك تحت رحمهم ، فيضطر أفرادها إلى الاستدانة إبقاء على حياتهم . فائدة فاحشة كانت تراوح بين أربعين فى المائة ومائة فى المائة ") . ويبلو فائدة فاحشة كانت تراوح بين أربعين فى المائة ومائة فى المائة ") . ويبلو أن عدد المرابين فى مكة والمدينة كان كبيراً جداً ، ومعروف أن القرآن الكريم فى سوره المكية والمدنية حمل حملات شعواء على الربا والمرابين أن القرآن الكريم فى سوره المكية والمدنية حمل حملات شعواء على الربا والمرابين أن القرآن الكريم فى سوره المكية والمدنية حمل حملات شعواء على الربا والمرابين أن يوفران الكريم فى سوره المكية والمدنية على عليه أن يؤدروا آجالها ، أو يقد موها . القرآن الكريم "كانوا يتلاعبون بالديون بأن يؤخروا آجالها ، أو يقد موها .

<sup>(</sup>١) بنمل جوزى: من تاريخ الحركات الفكرية في الإملام /٢٠ ، ٢١ .

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق / ١٩.

<sup>(</sup>٣) المصدر السابق /١٨ ، وفى خزافة الأدب للبندادى (١/ ٣٤٥ مطر ١١) « اقترض ثمانية آلاف درهم باثنى عشر ألف ۽ ، وفى كتاب المغازى الواقدى ( ص ٢١) « مال سع قوم قراش على النصف » .

<sup>(</sup>٤) البقرة / ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ وهي مدنية ، وآل عمران / ١٣٠ وهي مدنية أيضاً ، والنساء / ١٦١ وهي مدنية أيضاً ، والروم / ٣٩ وهي مكية .

<sup>(</sup> ه ) آل عمران / ۱۴۰ .

أو يضيفوا إليها ، إلى غير ذلك من الأعمال التي كانت تؤدى دائماً إلى خراب المستدين واستعباده ، (١) . وفي القرآن الكريم إشارة إلى ذلك إذ وقف من هذا التلاعب بالديون موقفاً رائعاً صريحاً نظم فيه الصلة بين الدائن والمدين تنظيماً واضحاً دقيقاً ، ووضع الشروط التي تضمن لكلا الطرفين حقه ، في آيتين طويلتين من سورة البقرة (٢) ، وكانت هذه الديون تزداد يوماً بعد يوم عاكان يضاف إليها من الربا الفاحش ، مما كان يجعل محاولة سدادها أمراً ميئوساً منه ، وولهذا لم يكن وقتئذ أمل في التخلص من أولئك الظلمة بالطرق السلمية إلا فيا ندر ، أما أكثر المدينين فإنهم كانوا مضطرين إما إلى الهب إلى الصحراء ، والالتحاق بطبقة المتشردين وقطاع الطرق ، وإما أن يدخلوا في طبقة الأرقاء ، ويقيموا فيها إلى ما شاء الله » (٣) .

ويرجع هذا إلى أن مكة كانت في الجاهلية - كما هي في الإسلام - حرماً مقدساً ولا ظلم ولا بغي فيها و (1) ، نظراً لوجود الكعبة فيها ، هذا إلى جانب أنها مدينة لها نظامها الاجتماعي ، ويقيم سكانها في منازل ، فهي لهذا ليست بالميدان الصالح لحركات الصعاليك المتمردين . ومن هنا لم يجدوا مفراً من الحروج منها إلى البادية الواسعة حيث الحياة فوضي ، وبجال العمل المتمرد متسع ، وحيث طوائف المتشردين وقطاع الطرق وذؤبان الصحراء منتشرة ، فإذا ما ضاقت بهم حياة التصعلك والتشرد ، أو ضاقوا بها ، أو رغبوا في الراحة منها إلى حين ، فإن طريق العودة إلى مكة ميسر ، فأبواب البلد الحرام مفتوحة لكل لاجئ أو خائف أو طريد ، و من دخله كان آمناً ، ومن أحدث في غيره من البلدان حدثاً ثم بلغاً إليه فهو آمن إذا دخله و (٥) . ومن هنا نستطيع أن نفهم السر في كثرة عدد الحلعاء من شتى القبائل فيها ، واتخاذهم منها مركزاً يلتقون السر في كثرة عدد الحلعاء من شتى القبائل فيها ، واتخاذهم منها مركزاً يلتقون

<sup>(1)</sup> بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام /١٩ .

<sup>.</sup> TAT 4 TAY (T)

<sup>(</sup>٣) بندل جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام /١٩ ، ٢٠ .

<sup>(</sup>٤) تاريخ الطبرى ٢/١٩٨ .

۱۲۲/۸ (مكة) ١٢٢/٨ .

فيه آمنين على حياتهم من الطلب ، حتى إذا ما حانت ساعة العمل خرجوا منها إلى ميدان كفاحهم ، وقد رأينا فى الفصل السابق صورة لأولئك الخلعاء والفتاك الذين كانوا بجتمعون فى مكة ، حتى إذا ما احتاج إليهم ثائر لغزوة من الغزوات قدم إليهم فيها ، وواعدهم فى الحرم ، ثم خرج بهم جنوداً مرتزقة .

٥

### الصراع الاقتصادى في البادية:

إذا ما تركنا هذه المدن التجارية بطبقاتها الاقتصادية ، وما يدور بينها من صراع ، ومضينا إلى البادية لنتبين موقف أهلها من هذا النشاط التجارى ، فإننا نجد أن موقفهم قد اختلف تبعاً لمواقع قبائلهم ، من حيث قربها من مراكز النشاط التجارى وطرق القوافل أو بعدها عنها .

ومن الطبيعي أن تشارك القبائل التي كانت تنزل على طول الطرق التجارية أو قريباً منها في هذا النشاط التجاري ، فقد كان مرور القوافل التجارية بهم فرصة تسنح لهم من حبن إلى حبن ، يستغلوبها في إنعاش حياتهم الاقتصادية ولو لفترة محدودة من الزمن ، فكان بعض الأفراد من الطبقات الفقيرة في هذه القبائل يعملون لهذه القوافل نظير أجر يتقاضونه ، بعينهم على تكاليف الحياة ، ويساعدهم على موازنة حياتهم الاقتصادية ، وسداد ما عليهم من ديون اضطروا إليها في أوقات الأزمات التي كانوا كثيراً ما يتعرضون لها ، وبحدثنا الطبري أن النبي صلى الله عليه وسلم حينا كان يستعد لغزوة بدر بعث برجلين إلى ماء بدر التحسسا له أخبار قريش ، فسمعا جاريتين « تتلازمان على الماء ، والملزومة تقول لصاحبتها : إنما تأتى العير غداً أو بعد غد فأعمل لم حتى أقضيك الذي لك التي النبي الذي النبي الله الم حتى أقضيك

وليس من شك في أن هذه القوافل الضخمة في رحلاتها الطويلة في مجاهل

<sup>(</sup>١) تاريخ الطبرى ٧/٥٧٠ – والملازمة : المطالبة بالحق .

الصحراء كانت تبحتاج إلى أشياء كثيرة حتى تصل إلى غايتها البعيدة بسلام .

ولعل أول ما كانت تحتاج إليه و الأدلاء و الذين بهدونها الطربق فى دروب الصحراء الملتوبة الغامضة ، بما لهم من خبرة ودراية بها ، حتى لا تضل أو تضيع ببن مجاهلها ، وتجدثنا الأخبار عن دلياين كانت تستخدمهما القوافل المكية فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم : فرات بن حيان ، وقيس بن امرئ القيس أله النبى الله عليه وسلم : فرات بن حيان ، وقيس بن المرئ القيس أله النبى الله عليه وسلم : فرات بن حيان ، وقيس بن المرئ القيس (1) .

وليس من شك في أن هؤلاء الأدلاء كانوا كثيرين ، نظراً لطبيعة البيئة الصحراوية التي تفرض على سالكها أن يكون على علم دقيق بطرقها ، ومواقع مياهها ، ومنازل الرعى التي تحتاج إليها الإبل في طريقها ، ومواطن الأمن والحوف فيها ، إلى غير ذلك مما جعل العربي يفخر بمقدرته على هداية الركب و في ديمومة فيها الدليل يتعتض بالخمس » (٢٠) ، ومكابدته الحرق الذي :

ينسى الدليسل به هدايتسه من هول ما يلقى من الرعب (۲)

ولم يكن هذا العلم الواسع ليهيأ إلا لأولئك البدو الذين يعيشون في قاب الصحراء، ويضطرون تحت الظروف الجغرافية إلى التنقل من منزل إلى منزل، أما أبناء المدن من العرب المستقرين فلم يكن يتاح لهم - أو لأكثرهم على الأقل شيء من هذا ، فلم يكن هناك بد من استعانهم بهؤلاء الأدلاء وجوابي الصحراء الذين لا يتعبون ، كما يصفهم لامانس (٤) ، والذين لم تعد الصحراء أمامهم سراً مغلقاً ، وإلا كان إقدامهم على اختراقها مغامرة جنونية

<sup>(</sup>۱) الواقدى : كتاب المفازى / ۳۲ ، ۱۹۲ وقد ورد ذكرهما فى شعر حسان بن ثابت ( انظر ديوانه ط السعادة بالقاهرة / ۲۳۷ قصيدته الكافية ) ، وقد وصف المكيون فرات بن حيان بانه دليل بطرق الصحراء يسلكها وهو مغمض العين قد دوخها وسلكها (المفازى / ۱۹۲) ، وقد طلبوا إليه فى أثناء الحصار الذى ضربه المسلمون على طريقهم التجارى إلى الشام أن يسلك بهم طريقاً إلى أسواق الشام دون أن يمروا بمنطقة المدينة (المصدر السابق / ۱۹۲) .

<sup>(</sup> ٣ ) الأغاني ١٦ / ٧٧ ، والتبريزى : شرح حاسة أبي تمام ٤ / ١٥٥ .

<sup>(</sup>٣) الأصمعيات / ١٠ البيت ١٤.

La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 182 = 278. (1)

لا تؤمن عواقبها ، ويحدثنا ابن حبيب عن طائفة من و أدلاء العرب الذين انتهت إليهم الدلالة ، (١) . ويذكر منهم واحداً و بلغ و بار ولم يبلغها غيره ، (٢) .

وإلى جانب هؤلاء الأدلاء كانت القوافل التجارية تحتاج إلى وخفراء الو وحماة ويؤمنون سبلها ، ويلودون عنها وحوش الصحراء (١٣) ، ويدفعون عنها و ذو بان العرب ، وصعاليك الأحياء ، وأصحاب الغارات ، وطلاب الطوائل و كما يعددهم الجاحظ في بعض رسائله (١٠) ، وذلك لأن طرق القوافل وكانت دائماً معرضة لغزو القبائل ، وسطو شذاذ الطرق وقطاعها ، الذين كانوا يعيثون في الصحراء فساداً ، ويعيشون من السلب والنهب (٥) ، وعناصة في تلك المناطق التي يصفها المؤرخون بأنها ولم تكن أرض مملكة ، وكان من عز فيها بز و (١١) ، أي تلك المناطق التي لم تكن فيها حكومة منظمة تضرب على أيدى العابثين ، وإنما كانت تدين بشريعة القوة ، ويسبطر عليها مذهب و الحق للقوة و ، ولهنا كانت تدين بشريعة القوة ، ويسبطر عليها مذهب و الحق للقوة و ، ولهذا كان أصحاب القوافل مضطرين إلى استخدام مذهب و الحق للقوة و ، ولهذا كان أصحاب القوافل مضطرين إلى استخدام جماعات كبيرة من الناس لخفارة بضائعهم والمحافظة عليها في الطريق (١٧) ، مخباط بالقرب من تلك المفاوز المعرضة لغزوات الصعاليك ، أو عند ما يضطرون الى اختراق المناطق التي تنزلها قبائل معادية أو مشتبه فيها «(١٨) ، كقبيلة هذيل التي كانت قبيلة تخشاها القوافل التجارية (١١) ، وكقبيلة فهم التي كانت

<sup>(</sup>١) المحبر /١٨٩ وما بعدها .

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق /١٨٩ .

O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 185. (7)

<sup>(</sup> ٤ ) رسالة فضل هاشم على عبد شمس /٧١ .

<sup>(</sup> ه ) بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام /١٦ .

<sup>(</sup>٣) تاريخ اليعقوبي ١/٢١٤ ، والمحبر /٢٦٧ .

<sup>(</sup>٧) بندل جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام /١٧ .

Langueus; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 185 = 281. ( ٨ )

Ency. of Islam; p. 440. : ن "Mecca" وانظر أيضاً مقالته عن "Mecca" ن

Lammens, La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 52 = 148. (4)

برغم صغرها مشهورة بلصوصها (١) ، وكان هؤلاء الخفراء يقومون بهذا العمل تظير جُعُل يسمى ، الخفارة ، (٢) ، وسواء أكان هدايا أم نقداً (٣) فقد كان في العادة جعلا كبيراً يتكافأ مع خطر العمل، وكثرة تبعاته، وكان هؤلاء الخفراء ويعيدون في أكثر الأحيان هذا الجعل إذا ما عرض عارض بحول دون أن تزتى خفارتهم تمرتها ، (٤) ، ومن الطبيعي أن يكون هؤلاء الخفراء من القبائل التي تمر بها القوافل لأن في هذا ضهاناً من تعرص هذه القبائل لهم ، أو قطعها الطريق عابهم ، وإرضاء ككبرياء البدوى التي تجعله دائماً يتوقع ، أن يُطلب ليتقدم الطريق أمام أي قافلة تحترق إقليمه الذي يعده ملكاً خاصاً لقبيلته ، (٥) ، كما أن أفراد هذه القبائل أعرف بطبيعة الحال ــ بمواطن الخطر في مناطقهم ، وأدرَى بسبل النجاة منها ، ويحدثنا الرواة أن كل تاجر بخرج من اليمن والحجاز فى طريقه إلى سوق دُوَمة الجندل كان يتخفر بقريش ما دام فى بلاد مضر ، لأن مضر لم تكن تعرض لتجار مضر ، ولا بهيجهم حليفً لمضرى ، فإذا أخذ طربق العراق تنخفر ببني عمرو بن مرّثد من بني قيس بن تعلبة فتجيز ذلك له ربيعة كلها ، أما إذا مضي إلى مهرة ، وهي ليست بأرض مملكة ، فإنه كان يتخفر فيها ببني مُعَارب من مهرة ، فإذا مضى إلى حضرموت حيث تقام صوق الرابية التي ولم يكن يصل إليها أحد ٌ إلا بخفارة ، لأنها لم تكن أرض مملكة ، وكان من عز فيها بز صاحبه ، فإن قريشاً كانت تتخفر ببني آكل المرار ، وسائر الناس يتخفرون بآل مسروق بن وائل من كندة (١) ، ومن هنا كان أصحاب القوافل يلجئون في أكثر الأحيان إلى رؤماء القبائل ، أو إلى سيد

Krenkow; Ency. of Islam, art. "Al-Shanfara". (1)

Ency. of Islam; art, Arabia, p. 325. (7)

O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 179. (Y)

Ibid; pp. 179, 186. ( t )

Ibid; p. 185. ( a )

۲۲۷ - ۲۲٤/ ابن حبيب : الحبر /۲۲۱ - ۲۲۷ .

فيهم مطاع ، ليجبروا لهم توافلهم ، كما كان يفعل النعمان مع لطائمه الى كان يبعث بها كل عام إلى سوق عكاظ ، فقد كان يجيرها له سيد مضر ((۱) ومن هذا أطلقوا على هذه الخفارة أيضاً الجوار (۱) ، وكان هذا الجوار اعلا مربحاً يسعى وراءه سادة الصحراء سعياً شديداً » ((۱) ، فقد كان أصحاب القوافل يشركونهم في عملياتهم التجارية ، أو يقاسمونهم الأرباح ، أو يفتحون يعدل سعى هؤلاء السادة وراء هذا الجوار إلا حرص أصحاب القوافل عليه ، حتى لقد كانوا يستميلونهم أحباناً بالمصاهرة (۵) ، ولعل أشهر قصص هذا الجوار محتى لقد كانوا يستميلونهم أحباناً بالمصاهرة (۵) ، ولعل أشهر قصص هذا الجوار وعمد بن صلام عن قصة هذا الإيلاف حديثاً طويلا يرويه لنا القالى في وعمد بن صلام عن قصة هذا الإيلاف حديثاً طويلا يرويه لنا القالى في محديثين آخرين ، وكذلك يحدثنا الجاحظ في بعض رسائله (۱) عن هذا الإيلاف صورها - ترجع إلى أن القرشيين قاموا بمفاوضات مع جيرانهم الذين تمر قوافلهم مورها - ترجع إلى أن القرشيين قاموا بمفاوضات مع جيرانهم الذين تمر قوافلهم بديارهم ، من أجل تأمين سلامة هذه القوافل ، والإذن لها بالمرور ، وحصلوا على ترخيص من ملوك البلاد التي كانت لهم ومناجر » أو « وجوهاً » - كما ترجيص من ملوك البلاد التي كانت لهم ومناجر » أو « وجوهاً » - كما ترجيص من ملوك البلاد التي كانت لهم ومناجر » أو « وجوهاً » - كما على ترخيص من ملوك البلاد التي كانت لهم ومناجر » أو « وجوهاً » - كما

<sup>(</sup>١) الأغاني ١٩/١٩ .

<sup>(</sup>٢) الأغاني ١٦/١٦ سطر ١٢.

O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 185 (7)

La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 178 = 274. ( t )

<sup>(</sup> ه ) بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام /١٧ .

<sup>(</sup>٩) سورة قريش ٢٧٤ ، والإيلاف : العهد والذمام (لسان العرب ، مادة ألف) وهو ه عهود بينهم وبين الملوك ، (الألوسي : روح المعانى ٣٠/٣٠) ويفسره الأزهري بأنه ، شبه الإجارة بالخفارة ، (المصدر السابق / ٢٤٠) ، وقد أجبع الرواة على أن أول من أخذ الإيلاف لقريش هاشم بن عبد مناف (رسالة فضل هاشم على عبد شمس من رسائل الجاحظ / ٧٠) ، وفي حديث ابن عباس ، وقد علمت قريش أن أول من أخذ لها الإيلاف لهاشم ، (لسان العرب مادة ألف) .

<sup>(</sup>۷) ص ۱۹۹ ، ۲۰۰ ،

<sup>(</sup>٨) رسالة قضل هاشم على عبد شمس /٧٠ ، ٧١ .

كانوا يسمونها (١) - ليدخلوا بتجاراتهم أسواق هذه البلاد ، ويذكر الجاحظ في تفسير قوله تعالى و وآمنهم من خوف و في قصة هذا الإيلاف أنه و خوف من تفسير كان هؤلاء الإخوة (يعنى هاشها وإخوته) يمرون به من القبائل والأعداء وهم مغتربون ومعهم الأموال و (١)

وإلى جانب هذه الخفارة كان بدو القبائل يقومون أحياناً بدور الرسل أو والبريد بين القوافل في أثناء الطريق ويين المراكز التجارية التي خرجت منها أو التي تقصدها ، فإذا جد ما يستدعى اتصال القافلة بأحد هذه المراكز استأجر أصحابها بعض البدو من القبيلة التي يمرون بها ، وبعثوا به إلى حيث يريدون . ويحدثنا رواة السيرة أن أبا سفيان عندما تعرضت قافلة قويش لحطر مهاجمة المسلمين لها عند بدر واستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى ، فبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتى قريشاً يستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة ، (٢١) ، وكان هذا نظير عشرين مثقالا استأجره بها (٤) .

ولكن إلى جانب هذه العناصر الكادحة من بدو القبائل ، وجدت عناصر متمردة رأوا فى هذه القوافل الضخمة التى تنتقل بين أطراف الجزيرة محملة بثرواتها وكنوزها ، مخترقة البادية ، أرض الجوع والجدب والضيق ، صورة من صور اختلال التوازن الاقتصادى ، ومثلا من أمثلة سوء توزيع الثروة ، فرفضوا أن يشاركوا فى هذه الأوضاع الاقتصادية المختلة ، ورأوا أن يقفوا منها موقفا معاديا يعتمد على القوة فى كسب الرزق ، فنى مرور هذه القوافل فى مناطق الصحراء المقفرة الموحشة فرصة صالحة للغارة والغزو ، وصَيد موات للسلب والنهب ، ورزق ساقه الله إليهم يجدر بهم أن يعتملوا على قوتهم فى أغتصابه ، فاجتمعوا فى عصابات ، وانضم إليهم خلعاء القبائل ،

<sup>(</sup>١) أنظر الأغاني ٩/٢ه ، والمحبر /١٦٢ ، ١٦٣ .

<sup>(</sup>٢) رسالة فضل هاشم على عبد شمس /٧١ .

<sup>(</sup>٣) تاريخ الطبرى ٢/٠٧٠ .

<sup>( ؛ )</sup> الواقدى : كتاب المغازى / ٢٣ .

وشذاذ الأحياء ، وصعاليك القبائل إلى تنزل بعيداً عن طرق القوافل ، ووقفوا يتربصون بها فى مواسم مرورها ، ويقطعون عايها الطرق ، وينتهبون ما يقدرون على انتهابه، ليتقاسموه فيا بينهم ، ويشركوا فيه أحياناً أولئك الصعاليك الضعاف والمرضى والمسنين ممن حالت ظروفهم الحاصة دون المشاركة فى الغزو والغارة .

ومن الطبيعي أن يتربص هؤلاء المتمردون من الصعاليك بالقوافل الصغيرة ، لأنها غنيمة أيسر منالا ، وأضمن عاقبة ، ويحدثنا ابن قتيبة عن فاتكين التقيا وفسارا حتى لقيا رجلا من كندة في تجارة أصابها من مسك وثياب وغير ذلك ، فتربصا به ، حتى قتلاه واقتسها ماله (١١ . ولهذا كان أصحاب القوافل يحرصون — إلى جانب ما كانوا يتخذونه من وسائل لسلامة قوافلهم — على أن تكون هذه القوافل كبيرة ضخمة كثيرة العدد ، وقد بلغت قافلة قريش التى تصدى لما المسلمون عند بدر ألف بعير (١١ ) وبلغ عدد الرجال المرافقين لها قريباً من سبعين راكباً في بعض الروايات (١١ . وثلاثين أو أربعين في رواية أخرى (١١ ) ويصفها ابن إسحق بأنها ه عير عظيمة ، (١١ ) وكانت بعض قوافل قريش تصل الله ألفين وخسيائة بعير (١١ ) وكان مرافقو بعض هذه القوافل يبلغون أحياناً ثلاثمائة (١١ ) ، وقد رأى سترابو قافلة من قوافل العرب التجارية وشبهها بالجيش (١٠) . ويذكر لامانس أن هذه القوافل كانت تتميز عادة بضخامها العددية (١١ ) .

ومع ذلك لم بحل هذا كله دون استمرار حركات المتمردين ضد هذه

<sup>(</sup>١) عيون الأخبار ، الحِلد الأول ٢/ ١٨١ ، ١٨٢ .

<sup>(</sup> ۲ ) الواقدي : المغازي / ۲۰ .

<sup>(</sup>٣) تاريخ الطبي ٢ /٢٦٧ .

<sup>(</sup>٤) المصدر السابق /٢٧٠ . ٠

<sup>(</sup>ه) المصدر تقسه /۲۷۰ .

<sup>(</sup>٦) الواقدى : المنازى /٢ .

٧/ المسدر السابق /٧.

O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 185. & Lammens; La Mecque (A) à la Veille de l'Hégire, p. 178 = 274.

La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 178 = 274. (1)

القوافل ، أو و تعوير المتجر ، كما كان يقول أهل مكة (١) ، ويحدثنا الرواة أن لطائم النعمان التي كان يبعث بها كل عام للتجارة إلى عكاظ كان يعترضها بعض بني كنانة فينتهبها (٢) ، وليس من شك في لطائم النعمان كانت ضخمة كثيرة العدد والرجال .

ويبلو أن هذه الغارات \_ مهما تختلف أسبابها المباشرة باختلاف أصحابها \_ يرجع سببها العام إلى اختلال التوازن الاقتصادى فى ذلك الحبتمع الذى يضع طائفة من أفراده بين نايين من فقر وجوع ، بينا يضع فى أيدى طائفة أخرى كنوز الثروة ومفاتيح الاقتصاد ، وهو لا يفصل بين هاتين الطبقتين ، ولا يجعل كلا منهما تعيش فى عالمها الخاص ، وإنما أباح لإحداهما أن تعرض ثراءها ، وتنيه بما أغلق عليها أمام أعين الطائفة الأخرى ، فتزيد من إحسامها بالفقر والجوع ، فكان من الطبيعى \_ إذا ما أتبحت لهذه الطائفة البائسة القرصة لاغتصاب أى شيء من الطائفة الأخرى \_ أن تنهزها مؤمنة بأن هذا الاغتصاب حق ، ما دامت لا تبغى من ورائه سوى أن تعيش .

فإذا ما تركنا هذه القبائل التي كانت تنزل على الطرق التجارية ، ومضينا إلى داخل البادية العربية حيث تنزل القبائل بعيدة عن مراكز النشاط التجارى ، فإننا نجد ثمة صوراً أخرى من صور الصراع بين الفقر والغنى .

والمجتمع البدوى من ناحيته الاقتصادية بسيط التكوين ، يتكون من طبقتين اقتصاديتين أساسيتين : طبقة أصحاب الإبل ، أو «أرباب المخائض » كما يسميهم بعض الشعراء (١٠) ، وطبقة الصعاليات .

والناظر في المجتمع البدوي يلاحظ لأول وهلة أن الفرق الاقتصادى بين هاتين الطبقتين كان بعيداً ، بقدر ما كان الفرق النفسي بينهما قريباً ، ومن

<sup>(</sup>١) الواقلى : المازى /١٩٦ .

۱۹۲/ ابن حبيب : الحبر /۱۹۲/ .

<sup>(</sup> ٣ ) يزيد بن الصقيل المقيل في الكامل المبرد / ٥٩ .

هاتين الظاهرتين المتناقضتين : ظاهرة البعد الاقتصادى ، وظاهرة القرب النفسي نشأت ظاهرة الصعلكة .

وقد حصرت البيئة الجغرافية لأعراب البادية مواردهم الطبيعية في المراعي ، ووقفت ظروفهم الحضارية بمجال عملهم عند الرعي ، ومن هنا انحصرت ثروتهم في قطعان من الإيل والغنم والمعز . ومن الطبيعي أن تكون الإيل مقياس ثروتهم ، فهي خبر ما في هذه الثروة ، وقد سعوها والنعم ه (1) ، لأنها النعمة الكبرى التي أنعم الله بها عليهم ، وقد كان من عوامل سقوط اعتبار الفرد في الهيئة الاجتاعية أن تقوم المعز أو صغار الماشية في حياته مقام الإيل (١) ، وبينا كانت المعز مادة يشتق منها الساخرون من الهجائين عناصر سخريتهم ، كانت الإيل مادة يشتق منها المادحون عناصر مدحهم ، أما الغنم فليست بحيوان الصحراء الأولى ، لشدة حاجتها إلى المراعي ، وقلة صبرها على الماء . ومن هنا الموق أبنائها ، وبحق سموها مالا (١) ، لأنها حلى حد التعبير الاقتصادي ثروة أبنائها ، وبحق سموها مالا (١) ، لأنها حلى حد التعبير الاقتصادي يتعاملون بها في حياتهم ، ومنها مهور نسائهم ، وديات دمائهم ، ورهن ميسرهم ه (اع) . ولهذا كانت كل قبيلة تتخذ و وسماً ع خاصاً لإبلها تميزها به (٥) ، ميسرهم ه (اع) . ولهذا كانت كل قبيلة تتخذ و وسماً ع خاصاً لإبلها تميزها به (٥) ، ميسرهم ه (اع) . ولهذا كانت كل قبيلة تتخذ و وسماً ع خاصاً لإبلها تميزها به (٥) ، ميسرهم ه (ع) . ولهذا كانت كل قبيلة تتخذ و وسماً ع خاصاً لإبلها تميزها به (٥) ، ميسرهم ه (ع) . ولهذا كانت كل قبيلة تتخذ و وسماً ع خاصاً لإبلها تميزها به (١٠) ، كانتخذ كل دولة في العصر الحديث رسماً خاصاً ليهدها .

وكانت ثروة الأفراد في المجتمع البدوى تقاس بمقدار ما يملكون من الإبل ، و فكل ثرائهم كان يقوم بالإبل ، (١٦) ، وما أكثر ما نسمع عن أولئك

<sup>(</sup>١) لمان العرب مادة (نعم).

Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. 1, p. 134. (7)

<sup>(</sup>٣) و وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل و (لسان العرب ، مادة مول ) ، ويقول الزنخشرى و مال العرب الإبل و (أساس البلاغة ، المادة نفسها ) ، ويقول الشاعر و فلم أرمثل الإبل مالا لمفتن و (حماسة أبي تمام ٤/٣٧) .

Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. 1, p. 134. (1)

Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 247. ( a )

Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. 1, p. 134. (1)

الذين كان لهم ال نعم قد ملأ الأرض الألى ، أو النعم قد ملأ كل شيء الله الذين كانوا يفقئون أعين قحلهم ليردوا عن إبلهم العين لأنها بلغت ألفاً ") ، أو ذلك الذي فقاً أعين عشرين بعيراً لأن إبله بلغت عشرين ألفاً ، والذي ربما ذبح في أيام الحجيج عشرة آلاف بد نه (الأنه ) ، وفي الأخبار أن عشاب بن ورقاء تكفل مرة بدفع تسع دبات (٥) ، وما أكثر ما نسمع عن ديات بلغت آلافاً من الإبل (١) .

وإلى جانب هذه الطبقة من المالة الذين ملاً نعمهم الأرض ، وجدت طبقة أخرى من الصعاليك لا تكاد تملك شيئاً ، أو \_ كما يقول بعض شعرائها \_ التجرّر حبلا ليس فيه بعير ، (٢) . وقد رأينا في الفصل الأول صورة لفقر هؤلاء الصعاليك ، وكيف أن بعضهم كان يملق حتى لا يبقي له شيء ، أو يفتقر فيخرج وقد آلي على نفسه ألا يرجع حتى يستغيى .

والأمر الذي لا شك فيه أن حياة هذه الطبقة الفقيرة من البدو كانت في مستوى اقتصادى سبئ جدًا ، حتى ليضطر بعضهم إلى قتل أولادهم خشية إملاق ، كما بحدثنا القرآن الكريم (٨) ، أو بيعهم ليستعينوا بأنمانهم على الحياة ، كما نرى فيا يرويه الرواة عن صَعصَعة بن ناجية الذي كان يشترى الموادات من آبائهن ، إذ يذكرون عنه أنه لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلم ، قال له : « يا رسول الله ، إنى كنت أعمل عملا في الحاهلية ، أفينفعني فأسلم ، قال له : « يا رسول الله ، إنى كنت أعمل عملا في الحاهلية ، أفينفعني

<sup>(</sup>١) فقائض جرير والفرزدق ١/٣٣٤.

<sup>(</sup>٢) الأغاني ١٦٤/١٨ .

٣٣٤ / ١ نقائلفس جرير والفرزدق ١ / ٣٣٤ .

 <sup>( 1 )</sup> ابن كثير : البداية والنهاية ١٨٧/١ .

<sup>(</sup> ٥ ) ألجاحظ : البيان والتبيين ٣ / ١٣٤ .

<sup>(</sup>۱) بلغت الدية التي دفعت لبني تعلبة بن سعد في حرب داحس والغبراء ألف ذاقة (نقائض جربر والقرزدق ۱/۵۰۱) وقد عرض بدو أسد على امرئ القيس بعد قتلهم أباء ألف بعير دية (الأغانى ۱۹/۵۰۱) وبلغت الديات في حرب عبس وذبيان ثلاثة آلاف بعير (الأغانى ۱۰/۲۹۷) (۲۹۷/۱۰) الأحيمر السعدي في المؤتلف والمختلف للآمدي /۳۳.

 <sup>(</sup>٨) الأنعام /١٥١ ، والإسراء /٣١ .

ذلك اليوم ؟ قال : وما عملك ؟ قال: أَضْلَلْتُ ناقتين عُشَرَاوين ، فركبت جملا ومضيت في بُغائهما ، فرُفع لي بيت حريدٌ ، فقصدته فإذا شيخ جالس بفناء الدار ، فسألته عن الناقتين ، فقال : ما نارهما ؟ قلت : ميسم بني دارم فقال : هما عندى وقد أحيا الله بهما قوماً من أهلك من مضر ، فجلستُ معه لتُخرَجا إلى ، فإذا عجوزٌ قد خرجت من كسر البيت فقال لها : ما وضعت ؟ فإن كان سقباً شاركنا في أموالنا ، وإن كانت حائلًا وأدناها ، فقالت العجوز : وَضَعَت أَنْنَى ، فقلت : أتبيعها ؟ قال : وهل تبيع العربُ أولادها ؟ قلت : إنما أشترى منك حياتها ولا أشترى رقها ، قال : فبكم ؟ قلت : احتكم، قال : بالناقتين والجمل ، قلت : ذاك لك على أن يبلغني الجمل وإياها ، قال : ففعل ، فآمنت بك يا رسول الله وقد صارت لي سنة في العرب على أن أشترى كل موءودة بناقتين عشراوين وجمل ، فعندى إلى هذه الغاية تمانون ومائتا موءودة فقد أَنقذتها (١) . . . ، وهي قصة تعطينا صورة واضحة عن الفرق الكبير بين هاتين الطبقتين الاقتصاديتين في المجتمع البدوي ، وبين أولئك الذين يبيعون بناتهم بهذا النمن البخس ، وذلك الذي يشتري ثمانين ومائتي موعودة ، ثم أرأيت إلى هذا اللون من ألوان والتجارة و عند هؤلاء الأعراب الفقراء ؟ بيع بناتهم نظير ناقتين وجمل راجين من وراء ذلك أن يتكون لهم رأس مال من الإبل يعينهم على الحياة ، ويساعدهم على رفع مستواهم الاقتصادى ، ولو كان ذلك على حساب أكبادهم التي تمشى على الأرض ، كما يقول شاعرهم القديم (٢) .

والقصة بعد هذا تشير إلى نفسية أولئك الأعراب الفقراء ، وإحساسهم عا صيناه والقرب النفسى ، بيهم وبين الأغنياء ، أرأيت إلى ذلك الأعرابي كيف بقول لذلك السيد إن ناقتيه اللتين أضلهما قد أحيا الله بهما قوماً من أهله ؟ كأنما برى أن الأغنياء والفقراء أسرة واحدة ، وأن هذا الفرق الاقتصادى بيهما

<sup>(</sup>١) المبرد: الكامل /٢٧٨ ، ٢٧٩ .

<sup>(</sup>٢) حطان بن المعلى ، في حياسة أبى تمام ١٥٣/١ .

لا تأثير له في « العامل المشترك ، بينهما وهو كرم العنصر وطيب النَّىجار ، ثم أرأيت إليه كيف يتساءل منكراً : وهل تبيع العرب أولادها ؟ وانظر كيف عبر بالعرب ولم يقل الناس ، كأنما يرى أن العرب جنس متميز لا يجرى علبهم ما يجرى على سائر الأجناس ، أولئك الذين يرى أولادهم رقيقاً يُشترى عند ﴿ أَهَلُهُ ﴾ من السادة الأغنياء ؟ وليس ينقض هذا الإحساس َ بالجنس أنه باع ابنته بعد ذلك ، فقد كان ذلك تحت ضغط الفاقة وإلحاح الحاجة ، تم هو لم يفعل ذلك إلا بعد أن تعهد له هذا السيد بأنه لن يستعبدها ، وهو عذر – مهما يكن واهيأ ــ يصور ذلك الإحساس النفسي الذي كان يسيطر على تفوس هؤلاء البدو ، فإن « الصفقة » لم تتم بين ذلك السيد وذلك الصعلوك إلا بعد هذه المحاولة من السيد لإرضاء نفس الصعلوك . ومهما يكن من أمر ذلك الأعرابي ، فالشيء الذي لا ريب فيه هو أن هؤلاء البدو ــ بقدر ما كانوا في فقر مادي ــ كانوا على جانب كبير من الغني النفدي . ومعنى هذا أن البدوي الفقير كان يرى نفسه مساوياً للسيد الغنى ، ويرفض أن يكون فقره سبباً فى النزول بنفسه أو تطامن كبريائه ، وأن الحياة إذا كانت قد ظلمته برغمه ، فإن عليه أن يعمل على أن يزيل عنه ذلك الظلم ، سالكاً في ذلك أي سبيل ، والغاية تبرر الوسيلة .

ولسنا في حاجة إلى القول بأن مجال العمل أمام هؤلاء البدو الفقراء كان ضيقاً جداً ، فهذه قضية مفروغ منها ، لأن أخلاف الحياة الاقتصادية الثلاثة : الزراعة والتجارة والصناعة لا تُكرُّ خيراً فوق رمال الصحراء القاحلة ، وفي وسط تلك الظروف الحضارية المتأخرة . ومن هنا لم يكن أمامهم إلا أن يعملوا لمؤلاء الأغنياء ، يقومون لم بالرعى وخدمة الإبل ، أو يعينون نساء الحى ، كما يقول عروة بن الورد (١١) ، فإذا رفضت نفوسهم القيام بهذه الأعمال لم يكن هناك بد \_إبقاء على حياتهم \_ من الغزو والإغارة للسلب والنهب محاولين \_ كما يقول بعض الباحثين \_ وأن يزيلوا هذا الحيف المقدار بأسنة رماحهم ،

<sup>ٔ (</sup>۱) انظر دیوانه /۷۷ .

معتقدين أن من الحلال دهم القوافل ، وسلب ما بأيديهم ، تعويضاً لهم عما لم تقدر أن تجود عليهم به أراضيهم القاحلة يه (۱) .

ولكن بجب أن نسجل أن حركات القبائل في هذا الصراع بين الفقر والغنى كانت حركات قبلية ، تصدر عن القبيلة وتجرى برضاها ، أما حركات الصعاليك فقد كانت حركات فردية ، تصدر عن شخصياتهم المتمردة ، حتى لو أدى الأمر إلى أن يخلع الصعلوك نفسه من قبيلته في سبيل تنفيذ حركته . وعلى هذا الأساس من التفسير الاقتصادى نستطيع أن نفهم كثيراً من حركات صعاليك العرب .

ومعنى هذا أن ثمة صراعاً كان يدور فى داخل البادية العربية بين طبقة المالة أصحاب المخائض والمتمردين من طبقة الصعاليك ، وأن مادة هذا الصراع التى دار حولها كانت الإبل عادة "، لأنها الثروة الأساسية فى المجتمع البدوى ، فكان هؤلاء المتمردون يتربصون بقطعان الإبل ما أمكنتهم الفرصة ، وينهبون منها ما يقدرون على نهبه ، أو يقتلون أصحابها أو رعانها ويسوقون القطيع بأسره ، ولكن ليس معنى هذا أن الإبل كانت المادة الوحيدة التى دار حولها هذا الصراع ، فإن أيدى الصعاليك لم تكن تمتنع عن أية غنيمة تعرض لم ، فى أخبار تأبط شرا أنه خرج غازياً مع رجل بريدان بجيلة ، فأتى ناحية منهم ه في أخبار تأبط شرا أنه خرج غازياً مع رجل بريدان بجيلة ، فأتى ناحية منهم ه فقتل رجلا ثم استاق غنما كثيرة » (١) ، وفى أخبار عروة أنه سلب هذلياً فوسه (١) ، ولكن الأمر الذى نراه بكثرة تلفت النظر فى أخبار هؤلاء الصعاليك وأشعارهم تعرضهم للإبل ونهبها .

<sup>(</sup>١) جوستاف لوبون : حضارة العرب/٨٢.

<sup>(</sup>٢) الأغاني ١٨/٢١٢.

<sup>(</sup>٣) الأغاني ٢/٨٤.

الباب الثاني شعر الصعاليك

# الفصل الأول

## ديوان الصعاليك

١

#### مصادره :

يقف الدارس لشعر الصعاليك أمام مسألة بالغة الخطر ، تواجهه منذ البداية ، وتوشك أن تنصرف به عن المضى فى دراسته ، إذ هى عماد هذه الدراسة ، والمحور الذى تدور حوله ، تلك هى مسأله مصادر هذا الشعر : أين هى ؟

ومن الحق أن نسجل قبل الإجابة عن هذا السؤال أن مسألة مصادر الشعر الجاهلي من المسائل التي تواجه الباحثين فيه منذ البداية ، ذلك لأن أكثر عجموعات شعر القبائل التي تزخر بأسمائها كتب التراجم قد فتقدت ، ولم يصل البينا منها إلا القليل ، أما دواوين الشعراء فقد تركزت عناية الرواة والشراح بعواوين المشهورين منهم ، أما أولئك الذين لم يكن لهم خطر في نظرهم فلم يكن حظهم من العناية بهم كبيراً . هذا إلى أن عمل هؤلاء الرواة والشراح قد اتجه انجاها فنيا أو لغويا خالصا ، أما فكرة جمع الوثائق الأدبية التي تمثل الجوانب الاجتماعية أو الاقتصادية أو الدينية أو غير ذلك من جوانب العصر المختلفة فشيء وراء اهمام هؤلاء الرواة ، مع ما له من أهمية للباحث الأدبي والباحث التاريخي على حد سواء . وليس من شك في أن هؤلاء الرواة لو نظروا إلى عملهم على أنه عمل تاريخي بحرص على تسجيل كل جوانب العصر الذي يجمعون وثائقه الأدبية ، حتى تلك التي تصور انحطاطه أو ضعفه ، لتغير وجه التاريخ الأدبي العصر القديم تغيراً كبيراً .

أما أولئك المغمورون من الشعراء فقد بتعثرت مجموعاتهم الشعرية بين ثلاثة مصادر : كتب الثقافة العربية المختلفة ، كل منها يستغلها لأغراضه الخاصة وفي دائرته الخاصة ، ثم مجموعات المختارات من شعر الشعراء ، وهذه ــ بطبيعة الحال ــ كانت متأثرة بذوق أصحابها ، كما أنها كانت محصورة داخل دائرة الاختيار ، وهي دائرة مهما تتسع ضيقة ، ثم كتب التراجم التي تذكر بعض أخبار من تترجم لهم وبعض نماذجهم الفنية ، وحتى هذه ــ أو على الأقل أكثرها ــ لم تكن تعنى إلا بالمشهورين . ولنستمع إلى ابن قتيبة في مقدمة والشعر والشعراء ، يحدثنا عن الأساس الذي أقام عليه كتابه ، لنرى صورة من ذلك الاهتمام الذي يقف عند المشهورين فحسب ، ولا يكاد يفكر فيمن عداهم : وقال أبو محمد : وكان أكثر قصدى للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو وفي كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما من خنى اسمه ، وقل ذكرُه ، وكسد شعره ، وكان لا يعرفه إلا بعض الحواص ، فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة ع (١) . ومعنى هذا أن رواة الشعر العربي ـــ أو على الأقل أكثرهم ــ كانوا ينظرون إلى الشعر القديم على أنه وسيلة لأغراض لغوية لا على أنه نتاج عصر متعدد الجوانب.

والأمر في شعر الصعائيات أسوأ من هذا ، فقد عرفنا أن هؤلاء الصعائيات كانوا يمثلون طائفة خارجة على المجتمع ، متمردة على أوضاعه وتقاليده ، لا تحرص على قبائلها كما لا تحرص قبائلها عليها ، ونتيجة هذا أن القبائل لم تحرص على شعرهم ، لأنه يمثل ذلك المروج عليها ، وذلك الممرد على أوضاعها وتقاليدها ، ولأنه حديث فردى يعنى بتصوير شخصيات أصحابه بقدر ما يهمل شخصيات قبائلهم ، وما حاجة القبائل إلى ذلك اللون من الشعر الذي لا يهم بها في شيء ، بل على العكس يهم بتسجيل تمرده عليها والإساءة إليها ؟ وماذا يحمل هذه القبائل على المحرص على هذا الشعر بعد أن لم تحرص على أصحابه ؟ وقد رأينا إلى جانب الحرص على هذا الشعر بعد أن لم تحرص على أصحابه ؟ وقد رأينا إلى جانب

<sup>(</sup>۱) ص ۲ ۲ ۴ .

هذا أن هؤلاء الصعاليك عاشوا حياة متشردة بين أرجاء الصحراء الواسعة الرهيبة ، حيث يعيش الحيوان النافر ، والوحش الضارى ، ونتيجة هذا أن سبل الاتصال بين هؤلاء الصعائيك وبين مجتمعهم لم تكن ميسرة ، بل على العكس كانت معقدة أشد التعقيد ، إذ هي صلة عداوة مستحكمة ، لا تجعل أحدهما يطمئن إلى الآخر ، وقد قلنا من قبل إن المجتمع فقد اطمئنانه إلى هؤلاء الصعاليك كما فقلوا هم طمأنينهم فيه . ومعنى هذا أن كثيراً من شعر الشعراء الصعاليك ضاع بين آفاق الصحراء المجهولة ، وذهبت أنغامه ما بين حيوانها ووحشها ، حيث لا ناطق ولا سميع ولا راوية إلا هؤلاء الصعاليك أنفسهم الذين بتعدد ما بينهم وبين مجتمعهم، وقد هدد تأبط شرا عاذليه إن لم يتركوا عذله ليتركنهم إلى آفاق الصحراء المجهولة حيث لا أحد – مهما تكن معرفته – بمنبئهم عن موضعه (۱) ، وإذن فكيف يصل ما يقوله من شعر في تلك الآفاق المجهولة إلى آذان المجتمع الأدبي ؟

ومع ذلك فقد وصلت إلينا مجموعة لا بأس بها - وإن تكن قليلة - من شعر هؤلاء الصعاليك . وقد نتساءل : كيف وصلت إلينا هذه المجموعة برغم كل هذا ؟

### مصادرهنه الجموعة ، عندى ، ثلاثة:

فليس من شك في أن هؤلاء الشعراء الصعاليك قد مرت بهم في حياتهم فترات عاشوا فيها مع قبائلهم حياة قبلية متوافقة توافقاً اجتماعياً ، وهي تلك الفترات التي سبقت حياتهم المنصعلكة ، إذ ليس مما يمكن تصوره أن يبدأ هؤلاء الصعاليك حياتهم المتصعلكة منذ أن ترى أعينهم نور الحياة ، وإنما الذي يمكن تصوره أنهم عاشوا فترة من حياتهم -قصرت أو طالت - مع قبائلهم ، فليس التصعلك بالظاهرة الوراثية ، وإنما هو كما رأينا في الفصول السابقة ظاهرة تعمل فيها عوامل جغرافية واجتماعية واقتصادية . ومن الطبيعي أن يكون بعض هؤلاء الشعراء الصعاليك قد اكتملت ملكاتهم الفنية قبل أن يتصعلكوا ،

<sup>(</sup>١) انظر البيتين ٢٣ و ٢٤ من قصيدته القافية ( ابن الأنبارى : شرح المفضليات[١٨] .

وأن يكونوا قد شاركوا صائر شعراء قبائلهم فى حياتهم الفنية ، وقد رأينا مثلا لهذا قيس بن الحدادية الذى شارك قبيلته اجتماعياً وفنياً مشاركة قوية ، خاض معها غمار أيامها ، بل قادها أحياناً إلى مواطن النصر ، وتغيى بهذا كله فى شعره . ومن الطبيعي أيضاً أن تحرص القبيلة على هذا الشعر وترويه ، وتتغيى به ، وتتناقله جيلا بعد جيل ، حتى يتلقفه من أفواه أبنائها رواة الشعو العربي الذين كانوا يشدون الرحال إلى البادية ليجمعوا شعر قبائلها . ومعنى العربي الذين كانوا يشدون الرحال إلى البادية ليجمعوا شعر قبائلها . ومعنى هذا أن جزءاً من شعر الصعاليك ، وهو ما يصبح أن نطاق عليه و الشعر خارج دائرة الصعلكة ، ، قد وصل إلينا عن طريق قبائلهم نفسها .

ومن هذه المجموعة أيضاً ذلك الشعر الذي خلا من مهاجمة القبيلة أو التعرض لها بما تكره ، كوصف الغارات ، أو وصف وحش الصحراء ، أو قصص تلك الأشباح التي كانت تتراءى الصعاليك في تشردهم في ليالي الصححراء المظلمة ، فما على القبيلة ضير من رواية هذا الشعر ، أو هذه الأقاصيص العجيبة التي ترضى الذوق الشعبي ، في أوقات فراغها أو في ليالي أسمارها . ولعل مما يؤيد هذا قلة ما وصل إلينا من شعر هؤلاء الصعاليك الذي هاجموا فيه قبائلهم ، أو تعرضوا فيه لها بما تكره ، وليس من شك في أنه كان شعر الشعر كثيراً ، فإن هذه المجموعة من الشعر قد أغفلتها القبائل ما استطاعت الى ذلك سبيلا . ويشبه هذا ما نلاحظه من ضياع تلك المجموعة من الشعر التي قالها مشركو مكة في أول ظهور الإسلام ، عند احتدام الصراع بين شعراء مكة المشركين وشعراء المدينة الذين اعتنقوا الإسلام ، ووقفوا يدعون له ، ويدافعون عنه .

ومن هذه المجموعة أيضاً شعر أولئك الصعاليك الذين فقدوا توافقهم الاجماعي مع قبائلهم لأسباب اقتصادية في أكثر الأحيان ، أو اجماعية في بعض الأحيان ، ولكنهم لم يفارقوها ، كما نرى عند طائفة من صعاليك هذيل ، أو عند السليك الذي قلنا إن العصنية القبلية عنده قد انسعت حتى أصبحت وعصبية جنسية ، أو عند تأبط شرا الذي جعل من قبيلته فهم - أو بتعبير

أدق ــ من موطنها مركزاً يعود إليه بعد غاراته (١) ، فهذه الطوائف من الصعاليك لم تجد قبائلهم ضيراً من أن تروى ما وصل إليها من شعرهم ، وبخاصة لأنه يصلح مادة للسمر الممتع الشهى .

ومعنى هذا أن المصدر الأول من مصادر شعر الصعاليك هو قبائلهم نفسها .

وقد رأينا أن الصعائيك الخلعاء الذين تبرأت مهم قبائلهم ، وطردتهم من حماها ، قد استجاروا ببعض القبائل أو ببعض ساداتها ، إما استجارة دائمة وإما استجارة مؤقتة . ومن الطبيعي أن يتحدث شعراء هذه الطائفة من الصعائيك الشذاذ عن هذا الجوار في شعرهم ، فيمدحوا من أجاروهم ، ويثنوا عليهم عا يرونه ردّاً لذلك الدّين الذي طوقت به أعناقهم . ومن الطبيعي أيضاً أن يتعرضوا لقبائلهم التي خلعهم ، فيكيلوا لها الهجاء ، ويخصوا بالذات أولئك الذين كانوا سبباً في خلعهم . ومن الطبيعي أن تحرص هذه القبائل التي أجارتهم ، وهؤلاء السادة الذين أنزلوهم في حماهم ، على هذا الشعر حرصاً شديداً ، وأن يعملوا على إذاعته بين العرب ، لأنه تسجيل لبعض مفاخرهم ، وإشادة ببعض أبجادهم ، وليس ما يمنع من أن تذبع هذه القبائل ما قاله هؤلاء الصعائيك في قبائلهم التي خلعهم ، لأنه فرصة النيل منها .

وإذن فالمصدر الثانى من مصادر شعر الصعاليك هى تلك القبائل التى استجار بها الخلعاء منهم .

والمصدر الثالث من مصادر شعر الصعاليك هم الصعاليك أنفسهم . ويتغنوا وأظن أنه ليست هناك غرابة فى أن يروى الصعاليك شعر شعرائهم ، ويتغنوا به ، ويرددوه فى كل مناسبة ، لأنه صورة من حياتهم ، وصدى لما يدور فى نفوسهم . ومن الطبيعى أن يعمل هؤلاء الصعاليك على أن يذبعوا هذا الشعر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، لأنه تعبير عن مذهبهم فى الحياة ، وتعليل لذلك الأسلوب الذى سلكوه فى حياتهم ، لعلهم بهذا يضمون إليهم أنصاراً جدُدُداً ،

 <sup>(</sup>۱) قابت إلى فهم وما كنت آثباً وكم مثلها فارقتها وهي تصفر
 (حيامة أبي تمام ۲۸/۱).

أوية نعون مجتمعهم بأنهم على حق في حركتهم . وساعدهم على هذا ما كان يجده هذا الشعر من إعجاب في الأوساط الشعبية التي كانت تنفشتن بهذا اللون من الشعر ، بما فيه من غرابة ، وما فيه من بطولة ، ولأنه تعبير عن أشياء لعلهم أكثر من يحسونها ويشعرون بها . ولعل شعر عروة بن الورد وصل إلينا أكثره عن طريق هذا المصدر ، لأن عروة كان يمثل شخصية الزعم الشعبي صاحب المذهب الذي يحرص على أن يضم إليه أكبر عدد ممكن من الأنصار ، ولعل هذا هو السبب في أن شعر عروة هو أكبر مجموعة من شعر الصعاليك هذا هو السبب في أن شعر عروة هو أكبر مجموعة من شعر الصعاليك وصلت إلينا .

أما تلك المجموعة من الشعر الني نظمها الصعاليك المخضرمون بعد ظهور الإسلام ، والتي يصح أن نطلق عليها وشعر ما يعد الصعلكة » ، فإن شأنها شأن سائر الشعر في ذلك العصر ، رواها الرواة كما رووه ، وحفظوها كما حفظوه ، إذ أن الصعاليك المخضرمين قد ودعوا حياة التصعلك بعد ظهور الإسلام وشاركوا في الحياة الجديدة كما شارك غيرهم .

عن طريق هذه المصادر وصل إلينا شعر الصعاليك . ويبدو أن بعض رواة الشعر العربي قد تنبهوا إلى أن هذا الشعر يكون مجموعة متشابهة المقومات الفنية ، فعملوا على جمعه في دواوين خاصة به (۱) . ولكن مع الأسف الشديد لم يصل إلينا من هذه الدواوين إلا أسمارها وأسماء مؤلفيها ، أما هي فقد ضاعت مع ما ضاع من التراث العربي القديم ، وليس بين أبدينا الآن من هذه الدواوين - فيا أعرف - سوى قطعة من و كتاب أشعار اللصوص و لأبي سعيد السكرى الذي أشار إليه البغدادي في مقدمة الخزانة بين الكتب التي اعتمد عليها في تأليفها (۱) ، والذي ذكره ابن النديم من بين مؤلفات السكري (۱) ، ويذكر بركلمان أنهذه القطعة هي ديوان طبهشمان من العصر الأموى، وأن

<sup>(</sup>۱) انظرها و رد فی فهارس معجم الأدباء لیاقوت عن کتب أشعار اللصوص والشطار والفتیان والفتاك (جزء ۲۰) .

<sup>(</sup>٢) خزانة الأدب ١٠/١ .

<sup>(</sup>٢) القهرست /٧٨ .

الأستاذ رايت نشرها (١) ، وفي خزانة الأدب البغدادي قطعة أخرى منه (٢) ، هي مجموعة من أخبار عبيد الله بن الحير وأشعاره ، وهو أيضاً من صعاليك العصر الأموى ، وينقل عنه ياقوت في معجم البلدان في كثير من المواضع (٦) ، وكذلك ينقل عنه صاحب الأغاني (١) ، ويذكر بركلمان أن في شرح الحماسة التبريزي مقتطفات منه (٥) . ويبدو أن هذا الكتاب من الكتب التي كانت لما قيمتها ، والقطع التي وصلت إلينا منه تدل على هذا دلالة قوية ، وصاحب الخزانة يثني عليه (١) ، وحسب هذا الكتاب أنه من عمل السكرى الذي يقول عنه ابن النديم «الذي عمل من علماء أشعار الشعراء فجود فأحسن أبو سعيد السكرى» (٧) . والسكرى أيضاً كتابان آخران يذكرهما ابن النديم ، هما أشعار السكرى» (٧) . والسكرى أيضاً كتابان آخران يذكرهما ابن النديم ، هما أشعار فهم وأشعار الأزد (٨) . وليس من شك في أن هذين الكتابين كانا يضهان شعر تأبط شرا وغيره من صعاليك فهم ، والشنفري وحاجز وغيرهما من صعاليك الأزد . ويما يؤسف له حقاً أن تضيع هذه المجموعة من كتب السكرى التي الأزد . ويما يؤسف له حقاً أن تضيع هذه المجموعة من كتب السكرى التي الوقد وصلت إلينا لأفادتنا كثيراً كما أفادنا ديوان الهذلين له .

وتشير مصادر الأدب العربي إلى دواوين لبعض الشعراء الصعاليك ، فيشير الآمدي في ترجمته لأبي الطّمحان القيبي إلى «ديوانه المفرد» (٩٩ ، فيشير الآمدي في ترجمته لأبي الطّمحان القيبي إلى «ديوانه المفرد» (وينقل ذلك عنه البغدادي في خزانته (١٠٠)، ويذكره أيضاً ابن النديم ، ويذكر

Brockelmann; Geschichte der Arabischer Literatur, I, p. 21. (1)

<sup>.</sup> Y44 - Y4V/1 (Y)

 <sup>(</sup>۳) انظر على سبيل المثال مادة (شعفان) ه/۲۷٤ ، ومادة (شعفين) ص ه۲۷ في
 أخبار عن عروة بن الورد .

<sup>(</sup>٤) انظر ۲۰/ ۱۹۹

Brockelmann; Geschichte der Arabischer Literatur, I, p. 108. ( .)

<sup>. 444/1 (1)</sup> 

<sup>·</sup> ١٥٧/ الفهرست /١٥٧ .

<sup>(</sup>٨) المصدر السابق /١٥٩.

<sup>(</sup>٩) المؤتلف والمختلف /١٤٩ .

<sup>. 277/</sup>T (1·)

أن الذي عمله الأصمعي وأبو عمرو (١) ، ومما يؤسف له أن يفقد هذا الديوان أيضاً . ويشير صاحب الجزانة أيضاً إلى ديوان تأبط شرا في نص ينقله عن ابني جني في تصحيحه رواية ببت له يقول فيه ١ وكذلك وجدتها في شعر هذا الرجل بالخط القديم ، وهو عتيد عندي إلى الآن (١) ، ويذكر بركلمان في حديثه عن تأبط شرا أن و بعض مختارات من ديوانه جمعها ابن جني مخطوطة في الاسكوريال المجلد الثاني / ٧٧٨ (١) .

وقد وصل إلينا من دواو بن الشعراء الصعاليك ديوانان : ديوان عروة بن الورد، وديوان الشنفري .

ويذكر ابن النديم أن شعر عروة قد جمعه اثنان من الرواة: الأصمعى وابن السكيت (1) ، ولكن لم يصل إلينا إلا الثانى . وقد طبع هذا الديوان عدة مرات ، طبعه نولدكه فى جوتنجن سنة ١٨٦٣ مع مقدمة وتعليقات وترجمة ألمانيا ، ثم طبع مرة أخرى فى المطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٩٣ ه فى مجموع مشتمل على أربعة دواوين أخرى هى دواوين النابغة الذبيانى ، وحاتم الطائى ، وعلقمة الفحل ، والفرزدق ، تحت اسم و مجموع مشتمل على خسة دواوين من أشعار العرب ، وديوان عروة فيه مختلف فى ترتيبه عن طبعة نولدكه ، وفى أوله ترجمة عروة نقلا عن الأغانى دون إشارة إلى ذلك ، ثم طبع هذا المجموع مرة أخرى فى بيروت بالمطبعة الأهلية بدون ذكر لتاريخ الطبع ، ويبدو أن هذه الطبعة منقولة عن الطبعة المصرية ، وإن يكن صاحبها يذكر فى أولها أنها و طبعة جديدة مصححة منقحة ، مقابلة على عدة تسخ ، مرتبة على الحروف ، حضافاً عليها كثير من شعره مما تغرق فى دواوين الأدب » .

وأدرج لويس شيخو ديوان عروة مع شرح ابن السكيت في شعراء

<sup>(</sup>١) الفهرست /١٥٨.

<sup>.</sup> ot . /T (Y)

Geschichte der Arabischer Literatur, I, p. 25. (?)

<sup>(</sup>٤) القهرست /١٥٨.

النصرانية (١) ، وأضاف إليه ما ورد فى شرح التبريزى على حماسة أبى تمام مع بعض أخبار منقولة عن الأغانى.

ثم طبعه مرة أخرى الشيخ ابن أبى شنب الاستاذ بكلية الادب بالجزائر ، بمطبعة جول كربونل بالجزائر سنة ١٩٢٦ ، وأضاف إليه جملة من شعره مما لم يذكر فيه ، وشرحا على الأبيات يكمل به شرح ابن السكيت .

ومن دیوان عروة نسخة خطیة فی دار الکتب المصریة تحت رقم ۱۸۶ه (أدب) ، وهی أیضاً من جمع ابن السکیت وشرحه ، وهی صورة من دیوانه المطبوع .

ولديوان عروة ترجمة فرنسية قام بها الأستاذ R. Basset ونشرها فى المجلة الأفريقية التي تصدرها كلية الأدب بالجزائر بالعدد ٦٢ سنة ١٩٢٨ .

أما ديوان الشنفرى فقد كان حظه من العناية دون حظ ديوان عروة ، فيين أيدينا منه نسختان : نسخة مطبوعة صنعها الأستاذ عبد العزيز الميمنى ، ونشرها في مجموعة والطرائف الأدبية ، بلجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ يذكر في مقلمها أنها عن نسخة خطية من الديوان عثر عليها بكتبخانة خسرو باشا في استنبول تحت رقم ١٤٩ ، وعن مجموعة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨٦٤ (أدب) يظن أنها نسخة أخرى من الديوان مبتورة ، وقد أضاف إلى ما ورد في هاتين المخطوطتين بعض أبيات وجدها في مصادر الأدب العربي الأخرى ، ولكنه أسقط من الديوان التائية المفضلية ، ولامية العرب ، ورثاء تأبط شرًّا ، لأن الأوليين وإن كانتا توجدان في النسختين إلا أن ما عند غيرهما أبق وأثم ، والثالثة خلتا عنها مرة " ، فما لي ولإثبانها ، وهي في عامة الكتب ، على أنها لا يوثق بعزوها إليه ، — كما يقول في مقدمته (١) .

والنسخة الأخرى التي بين أيدينا من هذا الديوان نسخة مأخوذة بالتصوير الشمسي عن نسخة خطية بخط محامن بن إسماعيل بن على من شعراء حلب ،

<sup>(</sup>١) من ص ٨٨٠ إلى ص ٩١٦ .

<sup>.</sup> ۳۰ س ۲۰ .

فرغ من كتابتها بلمشق فى منتصف شهر جمادى الآخرة منة ٨٣٥ ه. وهذه النسخة المصورة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت اسم وشعر الشنفرى التحت رقم ٦٦٧٦ (أدب) ، وهي نسخة من الراجح أن الميمني لم يطلع عليها لأنه لم يشر إليها فى ديوانه الذي طبعه .

وإلى جانب هذين الديوانين هناك مجموعة أشعار هذيل التى عملها السكرى أيضاً (١) ، وبين أيدينا منها الجزء الأول الذى نشره الأستاذ كوسجارتن إيضاً (١) ، وبين أيدينا منها الجزء الأول الذى نشره الأستاذ بوسف هل في ليبزج ، في لندن سنة ١٨٥٤ ، والجزء الذى نشره الأستاذ بوسف هل في ليبزج ، سنة ١٩٣٣ تحت اسم و مجموعة أشعار الهذليين الجزء الثاني ، والقسم الذى نشرته دار الكتب المصرية تحت اسم و ديوان الهذليين القسم الثاني ، في سنة ١٩٤٨. في هذه المجموعات من أشعار المهذليين طائفة من دواوين صعاليك هذيل : أبي خراش (١) ، والأعلم (١) ، وصخر الغيلي (١) ، وعمرو ذى الكلب (١) ، هذيل عدارة مشبوبة الأوار .

فإذا ما تركنا هذه المجموعة من دواوين الشعراء الصعاليك وجدنا أنفسنا أمام مشكلة صعبة ، هي مشكلة شعر سائر الصعاليك : أين نجده ؟

لا مفرلنا ... من أجل هذا ... من الرجوع إلى كل مصادر الأدب العربي ، سواء منها المطبوعة أو المخطوطة ، لننقب ... بعد امتئذان علماء الآثار ... عن أبياته ومقطوعاته وقصائده . والواقع أن شعر الصعالية. مفرق تفريقاً شديداً بين

<sup>(</sup>١) ابن النديم : الفهرست /٧٨ .

<sup>﴿</sup> ٢ ﴾ مجموعة أشعار الهذليين ٢ /٤٧ – ٧٨، وديوان الهذليين القسم الثانى /١١٦ – ١٧٧ .

<sup>(</sup>٣) شرح أشمار الحذليين ١/٤٥ – ٦٩ ، وديوان الحذليين القسم الثانى /٧٧ – ٨٧ .

<sup>(</sup>٤) شرح أشعار الهذليين ١/٢ – ١٩ ، وديوان الهذليين القسم الثانى /١٥ – ٧٦ ، ٧٧ – ١٠٧

<sup>(</sup>ه) شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٢ – ٢٤١ ، ولم تصل طبعة دار الكتب إلى ديوانه .

<sup>(</sup> ٦ ) انظر شرح أشعار الهذليين ١ / ٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٧ ، وهناك طائفة من أخباره وحديث شعراء هذيل عنه متناثرة في ٤٦ ، ٣٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٤٧ .

هذه المصادر ، حتى ليصح أن نقول ... في شيء من الحذر ... إن كل هذه المصادر تضم أبياتاً من شعر الصعاليك . وأظن أن ليس في هذا غرابة ، فما دام شعر الصعاليك يمثل البادية العربية في كثير من جوانبها اللغوية والجغرافية والاجتماعية والاقتصادية تمثيلا صادقاً صحيحاً ، فمن الطبيعي أن يتخذه اللغويون والرواة والجغرافيون والمؤرخون مصدراً من مصادرهم الأماسية ، لأنهم يجدون فيه شواهد لكثير مما يقررون .

ومن هنا كانت المجموعة اللغوية من أهم مصادر شعر الصعائيك ، وأخص بالذكر منها لسان العرب وتاج العروس وجمهرة اللغة لابن درريد، وأهمية هذه المصادر - إلى جانب ما تقلمه لدارس شعر الصعاليك من شرح لألفاظه ومعانيه ، وإلى جانب ما تتيحه له من فرصة الموازنة بين الروايات المختلفة - ترجع أيضاً إلى ما انفردت به من أبيات لم ترو في مصادر هذا الشعر الأخرى (۱) ، بل إن الأمر ليصل أحياناً إلى انفرادها بمجموعة كبيرة من الأبيات لشاعر واحد من بحر واحد وقافية واحدة مما يرجح أنها من قصيدة واحدة (۱) ، أو انفرادها بأبيات تصلح أن تكون تكملة لما روته المصادر الأخرى (۱) ، أو انفرادها بأبيات تصلح أن تكون تكملة لما روته المصادر الأخرى (۱) .

فإذا تركنا هذه المجموعة اللغوية وجدنا أن المجموعة الجغرافية ، وأخص بالذكر منها معجم البلدان لياقوت ، ومعجم ما استعجم للبكرى ، من المصادر

 <sup>(</sup>۱) انظر على سبيل المثال في لسان العرب المواد : قطر . وجر . بأس . سكن . ذوم
 (تابط شرا) - جوش . شهق . قها (أبو الطمحان) - رمل . صرى (السليك) - ولغ (حاجز) - وانظر أيضًا ابن دريد : جمهرة اللغة ١/١٤٠ (حاجز) .

<sup>(</sup>٢) انظر الأبيات اللامية من بحر الطويل لتأبط شرا في المواد: جلب . خعب . ركب . شحر . كلب. صوف . ثمل . ختل . رسل. رعل . حلل . كدل . هبل . هدمل . جثم . رعى . غزا . وهي أبيات نرجح - لاتحاد و زنها وقافيتها وموضوعها - أنها من قصيدة واحدة لم تصل إلينا، كا نرجح أن الأبيات التي تروى في معلقة امرى القيس ، والتي يشك الرواة في صحة نسبتها إليه ، ويجحون أنها لتأبط شرا ، وهي التي يتحدث فيها عن حمله قربة الماء وقطعه الوادى المقفر حيث تعوى الذئاب ، من هذه القصيدة أيضا .

<sup>(</sup>٣) انظر على سبيل المثال لسان العرب : مادة (جنس ) حيث يروى بيت لتأبط شرا لعله من قصيدته الرائية التي يرويها له الأصمعي في الأصمعيات / ٣٥ .

الأساسية أيضاً لشعر الصعاليك. ويرجع ذلك إلى أن هذا الشعر ــ لكثرة ما يرد فيه من أسماء الأماكن في الجزيرة العربية ــبُعدَ مادة صالحة يستشهد بها هؤلاء الحغرافيون في دراسهم. وقيمة هذه المجموعة من المصادر ـــ إلى جانب ما تقلمه لنا من هذا الشعر ـــ ترجع إلى أنها تعيننا على ضبط نصوصه، وتصحيح روايته، بما تقلمه لنا من ضبط لألفاظ الأماكن التي ترد فيه، والتي قد تكون واردة في المصادر الأخرى محرفة أو مصحفة (١).

فإذا ما تركنا هاتين المجموعتين اللتبن تعنيان بشعر الصعاليك من حيث هو وسيلة لأغراضهما اللغوية والجغرافية، نصل إلى مجموعة تنعنى بهذا الشعر من حيثهو غاية فنية تقصد لذاتها ، وهي مجموعة المختارات من شعر الشعراء ، وعلى رأس هذه المجموعة نضع المفضليات للضبي ، لا لكثرة ما فيها من شعر الصعاليك ، فليس فيها منه سوى قصيدتين : إحلاهما قافية تأبط شرا (٢) ، والأخرى تاثية الشنفرى (٣) ، ولكن لأنها روت هاتين القصيدتين كاملين ، فلما إلى عابما أناح لنا فرصة الوقوف أمام نصين كاملين من ديوان الصعاليك . هذا إلى جانبأن ابن الأنبارى في شرحه عليهما قدم لنا مجموعة أخرى من شعر الصعاليك ، هذا إلى غرو في المصادر الأخرى (١) .

ومن الطبيعي أن نذكر مع المفضليات الأصمعيات ، لأنها بمثابة التكمنة لها ، أو الجزء الثاني منها، وقد قلمت لنا أيضاً قطعتين من ديوان الصعاليك ،

<sup>(</sup>۱) انظر على سبيل المثال ما ورد في لسان العرب، مادة (مرج)، السليك : وأذعر كلابا يقسود كلابسه ومرجة لما أقتبسها محقنب

فإننا حين نمضى إلى المجموعة الجنرافية لا نجد (مرجة) بالجيم ، وإنما هي (مرخة) بالمحاه وهي يه بله بالين ومن نواحيه واد كثير النخل يه (ياقوت : معجم البلدان ١٩/٨) ، فإذا أضفنا إلى هذا ما قررفاه في التفسير الجنراني لظاهرة الصعلكة من أن السليك قد تخصص في الإغارة على النين ، وأن حركات الصعاليك كانت تتجه إلى المناطق الحصبة ، تأكد لذا أن صحة هذا الاسم بالحاء ، وأن موضعه في لسان العرب يجب أن يكون في (مرخ) لا في (مرج).

<sup>(</sup>۲) من س ۱ – ۲۰ .

<sup>(</sup>۲) من ص ۱۹۱ – ۲۰۷ .

 <sup>(</sup>٤) انظر بيتى الشنفرى الغالبين فى ص ١٩٧ ، وأبياته الثلاثة العالية أيضًا فى ص ١٩٨ ،
 وقد نقلها الميمنى عنه فى ديوانه الذى نشره فى الطرائف الأدبية (ص ٣٤ ، ٣٥).

إحداهما رائية عروة المشهورة (١) ، والأخرى رائية لتأبط شرا (٢) ، وهذه الأخيرة قد انفردت بها الأصمعيات دون المصادر الأخرى ، وقد قلنا منذ قليل إن فى لسان العرب بيتاً نرَجح أن يكون منها .

وهناك و جمهرة أشعار العرب » لأبي زيد محمد بن أبي الحطاب القرشي ، وفيها قطعة كبيرة من رائية عروة المشهورة (٣) يضعها في مجموعة و المنتقيات » . ثم هناك و منتهى الطلب من أشعار العرب » لمحمد بن المبارك ، وهي مخطوطة بدار الكتب المصرية (تحت رقم ٥٣ ش أدب) ، الموجود منها جزءان ، في الأول منهما طائفة من قصائد عروة بن الورد ، وفي الثاني بعض مقطوعات للشنفري وتأبط شرا .

وهناك مخطوطة أخرى مجهولة المؤلف فى الخزانة التيمورية ( تحت رقم ١٢٧٥ تيمورية شعر ) فيها قصائد للشنفرى ولعمرو بن براقة الهمدانى.

ثم هناك مجموعات الحماسة ، وعلى رأسها حماسة أبى تمام التي تمدنا عجموعة كبيرة من شعر الصعاليك متنوعة الأغراض ، كما يمدنا التبريزي في شرحه عليها بمجموعة أخرى كبيرة ، تجعل من هذا المصدر مصدراً أساسياً لشعر الصعاليك .

وتقف إلى جانب حماسة أبى تمام فى مستوى واحد حماسة الخالديين ، وهى مخطوطة بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية (تحت رقم ٢٦٢ تيمورية شعر) ، فإنها تمدنا بمجموعة كبيرة من شعر الصعاليك ، بل إنها تنفرد أحياناً برواية قطع منه (1) .

ثم هناك حماسة البحترى ، وهي أيضاً تمدنا بمجموعة لا بأس بها من شعر الصعاليك موزعة على أغراضها .

<sup>(</sup>۱) ص ۲۹ ، ۲۰ .

<sup>(</sup>٢) ص ٣٥.

<sup>(</sup>٣) ص ١١٤ ، ١١٥ .

<sup>( ؛ )</sup> انظر على سبيل المثال : أبيات عمرو بن براقة (ورقة رقم ٤٤٣) ، وبيتى السليك (ورقة رقم ٣٧٠ ورقم ٣٧١) وبيتى تأبط شرا (ورقة رقم ٢٩١) .

ثم هناك الحماسة الصغرى لأبى تمام ، وهي المعروفة بالوحشيات ، ومنها نسخة مصورة بدار الكتب المصرية (تحت رقم ٢٢٩٧ أدب) وفيها أيضاً مجموعة لا بأس بها من شعر الصعاليك .

وهناك أيضاً الحماسة البصرية لعلى بن أبى الفرج البصرى ، ومنها نسختان في دار الكتب المصرية ، إحداهما مخطوطة (تحت رقم ٢٠٥ أدب) ، والأخرى مصورة (تحت رقم ١٣٠٠ أدب) ، وفيها أيضاً مجموعة لا بأس بها من شعر الصعاليك .

وهناك حماسة ابن الشجرى ، وهي مطبوعة ، وفيها قصيدة لتأبط شرا ، هي لامية له (١) ، وقطعة لعمرو بن براقة من قصيدته الميمية المشهورة (٢) .

فإذا ما تركنا هذه المجموعة من المختارات التى تعنى بشعر الصعاليك من حيث هو غاية فنية تقصد لذاتها ، فإننا نقف عند مجموعة أخرى من مصادر هذا الشعر تعنى به من حيث هو جانب من جوانب حياتهم ، ونتعنى بها كتب التراجم ، وما أحسبنى في حاجة إلى القول بأن كتاب الأغانى لأبى الفرج على رأس هذه المجموعة بدون استثناء ، ففيه أكبر مجموعة من شعر الصعاليك يرويها صاحبه فى أثناء تراجمه لأصحابها (٢) .

وكذلك الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ولكننا نلاحظ أنه أغفل ترجمة الشنفرى ، وإن يكن قد روى له بضعة أبيات فى مقدمته (٤) ، وربما كانت ترجمة الشنفرى قد سقطت من مخطوطات الكتاب .

<sup>(</sup>١) ص ٤٧ ـ

<sup>(</sup>۲) س ۵۵.

<sup>(</sup>٣) عروة بن الورد (٣/٣٧ – ٨٨ دار الكتب) ، وفضالة بن شريك (١٠/١٠ – ١٧٢ بولاق). الملا بولاق) وأبو الطمحان (١١/١٠ – ١٣٤ بولاق) ، وحاجز (١٢/٤٠ – ٥٩ بولاق). وقيس بن الحدادية (٢/١٣ – ٢/١٣ بولاق) ، والسليك (١٨/٣٣ – ١٣٨ بولاق). وتأبط شرا (١٨/ ١٣٣ – ١٣٨ بولاق) وعرو ذو الكلب (٢٠/٢٠ – ٢٢ بولاق) وعرو ذو الكلب (٢٠/٢٠ ، ٢٢ بولاق) ، وأبو خراش (٢١/ ٤٥ – ١٠ ليدن) ، والشنفرى (٢١/ ١٣٤ - ١٣٤ ليدن) ، والشنفرى (٢١/ ١٣٤ - ١٢٤ ليدن) ، والشنفرى (٢١/ ١٢٥ ) .

<sup>(</sup>٤) ص ١٩٠

ثم المؤتلف والمختلف للآمدى ، ومعجم الشعراء للمرزبانى ، وتراجم الشعراء فيهما ـ وإن تكن موجزة جداً ـ تمدنا بمجموعة لا بأس بها من شعرهم، ثم كتاب و المغتالين ، لابن حبيب ، ومنه نسختان فى دار الكتب المصرية : نسخة خطية (تحت رقم ٧٥ ش أدب) ونسخة مصورة (تحت رقم ٢٦٠٦ تاريخ) . وطرافة هذا الكتاب تأتى من أنه يهتم بتلك اللحظات الأخيرة فى حياة من يترجم لهم ، فإذا لاحظنا أن أكثر الشعراء الصعاليك قد قتلوا ، أدركنا أهمية هذا الكتاب للباحث فى شعر الصعاليك ، وإن كنا تلاحظ أن تراجم الشعراء فيه موجزة .

ثم كتاب و من نسب إلى أمه من الشعواء » لابن حبيب أيضاً ، وقد كنا ننتظر أن نجد في هذا الكتاب شيئاً كثيراً عن الشعواء الصعاليك ما دام كثير منهم كانوا أغربة ينسبون إلى أمهانهم ، ولكن ابن حبيب، أو لعل النسخة التي وصلت إلينا من كتابه ، قد خيبت ظننا ، فليس فيها من الشعواء الصعاليك سوى قيس بن الحدادية ، وليس فيها من شعره سوى قطعة من أرجوزته التي أنشدها قبيل مقتله (١) .

ثم كتاب «المعمَّرين » للسجستانى ، وفيه البيتان اللذان أنشدهما أبو الطمحان فى شيخوخته (۲) .

فإذا ما تركنا مجموعة كتب التراجم التى تُعنى بشعر الصعاليك من حيث هو جانب من جوانب حياتهم ، وصلنا إلى مجموعة أخرى تعنى به من حيث هو مادة للدراسة الأدبية أو اللغوية ، ونعنى بها كتب الأمالى والمحاضرات والأحاديث ، ونخص بالذكر منها الكامل المبرد ، والأمالى القالى ، والنوادر له أيضاً ، والتنبيه لأبى عبيد البكرى ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والبيان والتبين للجاحظ ، والمحبر لابن حبيب ، ومحاضرات الأدباء الراغب ، ولباب الآداب لأسامة بن منقذ ، ونقد الشعر لقدامة ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ،

<sup>(</sup>۱) ص ۲ ،

<sup>(</sup>۲) ص ۲۳.

والوساطة بين المتنبى وخصومه ، وغيرها من كتب تلك المجموعة الضخمة من التراث العربي .

ثم هناك مجموعة كتب الشواهد ، ونخص بالذكر منها خزانة الأدب البغدادى ، وشرح الشواهد الكبرى للعينى ، ففيهما مقدار كبير جداً من شعر الصعاليك . ومرد ذلك إلى اهتمام النحاة بهذا الشعر فى شواهدهم . وميزة الخزانة - فوق هذا - أنها ترد كل ما ترويه إلى مصادره التى تنقله عنها ، وما أكثر المصادر التى اعتمد عليها صاحب الجزانة فى تأليفها ، والتى أشار إليها فى مقدمته طا (1) ، حتى لتعد الجزانة من المصادر الأولى لشعر الصعاليك .

وقد قلنا إن الشعراء الصعاليك - نتيجة لتشردهم - ذكروا طائفة كبيرة من حيوان الصحراء في شعرهم ، ومعنى هذا أن الكتب العربية التي تعنى بدراسة الحيوان تضم مجموعة لا بأس بها من شعر الصعاليك ، ونخص بالذكر من بين هذه الكتب كتاب الحيوان للجاحظ .

ومن بين الشعراء الصعاليك جماعة أدركوا الإسلام ، وأسلموا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، كأبي خراش وأبي الطمحان ، فهؤلاء نجد تراجمهم وطائفة من شعرهم في كتب الصحابة ، كالإصابة لابن حجر ، وأسد الغابة لابن الأثير . ومن هذا القبيل أيضاً ما ترويه كتب السيرة من شعر عروة بن الورد وأخباره ، نظراً لأن إحدى سبياته كانت في بني النضير عندما أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر (٢) .

هذه أهم المجموعات التي تكون مصادر « ديوان الصعاليك » ، وهذه أهم كتبها ، ولم نقصد من ذكرها إلى الحصر ، فإنه ليس باليسير ، وقد قلنا في أول حديثنا عنها إننا نستطيع أن نقول ، في شيء من الحذر ، إن كل مصادر الأدب العربي تضم أبياتاً من شعر الصعاليك ، وإنما كل ما قصدنا إليه من

<sup>(1)</sup> أنظر ١/٨ – ١٢.

<sup>(</sup>٢) أنظر على سبيل المثال : السهيل : الروض الأنف ٢/١٧٨ – ١٨١ ـ

هذا الحديث هو أن نهبي والمفاتيح، التي نتوصل بها إلى وكنوز و ديوان الصعاليك .

۲

#### مادته:

حبن ننظر فى «المادة ، التى تجمعت لنا من كنوز ديوان الصعائبك نلاحظ عابها ثلاثة أشياء : قلتها ، وكثرة الاضطراب فى رواية نصوصها ، ثم الشك الذى يحيط ببعض نصوصها .

والأمر الذى لاشك فيه هو أن مادة شعر الصعاليك قليلة قلة لا تتكافأ مع كثرة مصادرها ، ومرد ذلك من غير شك إلى ضياع جزء كبير منها ، لأنها - من ناحية - شعر جاهلى ، ونحن نعرف أن الشعر الجاهلى قد ضاع أكثره ، ولم يصل إلينا منه إلا أقله ، وهي حقيقة معروفة مقررة عند القدماء (١) ، ثم هي - من ناحية أخرى - نتاج طائفة من الشعراء متمردة على قبائلها ، متشردة في مجاهل الصحراء . وليس الأمر استنتاجاً نظرياً ، وإنما هي حقيقة يذكرها القدماء ، فهم يذكرون عن قيس بن الجدادية أنه الشاعر قديم كثير الشعر اللهم اللهم اللهم قيس التي بين أيدينا بالتي يصح كثير الشعر اللهم على صاحبها أنه لا كثير الشعو ، وليس من شك في أن كثيراً من الشعراء الصعاليك كانوا مثل قيس من حيث كثرة الشعر ، وأن كل الشعراء الشعراء الصعاليك كانوا مثل قيس من حيث كثرة الشعر ، وأن كل الشعراء

(٢) المرزباني : معجم الشعراء /٣٢٦ .

<sup>(</sup>۱) يقول أبو عمرو بن العلاء «ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، وأو جاءكم وإفرا لجاءكم علم وشعر كثير » (ابن سلام : طبقات الشعراء /۱۰) ، ويعلل عمر بن الحطاب لهذا بهلاك رواته من العرب في الفتوح الإسلامية (المصدر السابق /۱۰) ، ويقول ابن قتيبة «ولا أحسب أحدا من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ولا قصيدة إلا رواها » (الشعر والشعراء /۳) ، ويحدثنا الأصمعى أنه » كان ثلاثة أخوة من بني سعد لم يأتوا الأمصار فنعب رجزهم » (المصدر السابق /٤).

الصعاليك كانوا مثله ومثل سائر الشعراء الجاهليين من حيث ضياع أكثر شعرهم .

وإلى جانب هذه القلة فى المادة تلاحظ أيضاً كثرة الاضطراب فى رواية نصوصها ، وهى ظاهرة نلاحظ على كل تصوص الشعر الجاهلى ، ولكنها تلاحظ بصورة قوية فى نصوص شعر الصعائيك . ومن اليسير أن نفهم هذا ما دمنا قد عرفنا أن الشعراء الصعائيك كانوا يمثلون طائفة متمردة على قبائلها ، متشردة فى عاهل الصحراء ، وما دام هذا الشعر قد وصل إلينا مفرقاً فى مصادر الأدب العربى المختلفة ، ولم يصل إلينا إلا قليل منه فى دواوين مستقلة .

وكما يُلاحظ هذا الاضطراب فى ألفاظ هذا الشعر ، يلاحظ فى ترتيب أبياته ، ويلاحظ أيضاً فى عدد هذه الأبيات ، وهذا ما سنحاول الإشارة إليه فها يمر بنا منه فى هذا البحث .

فإذا ما تركنا هاتين الملاحظتين الشكليتين ، فإننا نصل إلى الملاحظة الثالثة ، وهي الشك الذي يحيط ببعض تصوص هذا الشعر ، وهي ملاحظة جوهرية ، لأنها تتصل بالمادة التي بين أيدينا : أهي حقاً لأصحابها أم هي مزيفة عليهم ؟ وشعر الصعالبك في هذه المسألة ليس بدعاً من سائر الشعر الجاهلي الذي اتهم بالتزييف والانتحال اتهاماً شديداً ، والذي تعرض لحملة شديدة كانت على وشك أن تعصف بأركانه . ولسنا نبرئ الشعر الجاهلي من هذا الاتهام ، ولكنا أيضاً لا نمضي مع هذا الاتهام إلى ذلك الحد الذي يجعل من رواة الشعر الجاهلي و عصبة من المزيقين و لا هم في إلا صناعة نماذج من الشعر ألحاهلي وعصبة من المزيقين و لا هم في الا صناعة نماذج من الشعر ألحاهلي و عطبة ، والذي يجعل درس الشعر الجاهلي ضرباً من الأعمال و البوليسية و التي لا هم فيا إلا البحث عن هؤلاء المزيقين ضرباً من الأعمال و البوليسية و التي لا هم فيا إلا البحث عن هؤلاء المزيقين ومصادرة و عملهم و الزائفة .

والأمر الذي لا أكاد أشك فيه هو أن الشعر الجاهلي قد لتي من عناية القدماء نصيباً موفوراً ، وأن نقاد هذا الشعر لم يشكوا في شيء منه إلا سجلوا هذا الشك ، وحسبنا هذا الشك دلبلا على عناية القدماء بأمر هذا الشعر . أما ما كان التزييف فيه بارعاً إلى درجة خفيت على القدماء أنفسهم من النقاد والرواة ، فما أظن أننا نبيح لأنفسنا الادعاء بأننا أدق حسًا بالشعر الجاهلي من هؤلاء القدماء الذين كانوا أقرب منا عهداً بعصر هذا الشعر ، أما إذا كان الراوية أو الناقد مجرَّحاً عرفت عنه الغفلة أو الكذب ، أو كان المتن نفسه يحمل في أثنائه دليلا على الكذب أو التزييف ، فهنا تكون مواضع الشك والاتهام . وليست هذه الحطة بدعاً في الدرس ، وإنما هي خطة سار عليها علماء الحديث في دراستهم لأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وتحقيقها .

ومجموعة شعر الصعاليك التي دارت حولها أحاديث الشك نوعان: فمجموعة كان الشك فيها « داخلياً » بمعنى أن الرواة قد اتفقوا على أنها من شعر الصعاليك، ولكنهم اختلفوا في نسبتها إلى أيهم ، ومن الأمثلة على هذه المجموعة تلك البائية التي تروى مرة لأبي خراش الهذلي (١) ، ومرة للأعلم الهذلي (١) ، ومرة لتأبط شرا (١) وهم جميعاً من صعاليك منطقة واحدة هي منطقة السراة .

ومن الأمثلة على هذه المجموعة أيضاً تلك الدالية التي يروبها الأصمعي وأبو عمرو الشيباني والسكري لصخر الغي الهذلي الله عنه والتي يذكر أبو عبيدة وانه رأى جماعة من شعراء هذيل يختلفون في هذه القصيدة فبرويها بعضهم لصخر الغي ، ويروبها بعضهم لعمرو ذي الكلب ، وأن الهيم بن عكري حدثه عن حماد الراوية أنها لعمرو ذي الكلب الأهام ، وكلا الشاعرين من صعاليك هذيل .

والخَطْب في هذه المجموعة هين ، فإن المسألة لم تخرج عن دائرة الصعاليك. وهذا الاختلاف ـــوإن يكن له تأثير في الدراسة الفنية للشاعر الواحدـــ

<sup>(</sup>١) ديوان الحذليين ، القسم الثانى /١٦٨ ، ١٦٩ .

<sup>(</sup>٢) الآمدي : المؤتلف والمختلف / ٩٥ .

<sup>(</sup>٣) ديوان الهذليين، القسم الثاني /١٦٨، ١٦٩، وَأَبِنَ دَرَيْهُ : جبهرة اللغة ١ / ٢٤٠.

<sup>(</sup>٤) الأغانى ٢٠/٢، وشرح أشعار الهذليين ٢/١، ، ويرومها له أيضاً ابن قتيبة فى الشمر والشعراء /٤٢٠ .

<sup>(</sup> ٥ ) الأغاني ٢٠ /١٩ .

لاتأثير له في الدراسة الفنية لشعر الصعاليك من حيث هو شعر مجموعة ، ولا تأثير له في الدراسة الاجتماعية لظاهرة الصعلكة .

ومن هنا وقفنا من هذه المجموعة موقفين مختلفين ، فاعتمدنا عليها فى دراسة ظاهرة الصعلكة ، وفى دراسة شعر الصعاليك من حيث هو شعر مجموعة ، أما حين ندرس شاعراً معيناً ، فمن الطبيعي ألا نعتمد عليها ، لا فى دراسة حياته ، ولا فى دراسة فنه ، وإلا وصلنا إلى نتائج مشكوك فى مقلماتها .

أما المجموعة الأخرى فإن الشك فيها شك ه خارجى ، بمعنى أنه يدور سول نسبتها إلى الشعراء الصعاليك أو إلى غيرهم من الشعراء ، كتلك الأبيات التي تنسب مرة إلى تأبط شرا(۱) ، ومرة ثانية إلى البعييث(۱) ، ومرة ثالثة إلى هد بعض المعادر هد العنرى(۱) ، وكتلك الأبيات البائية التي تنسب في بعض المصادر إلى أبي الطمحان (أ) ، وفي بعضها إلى لقيط بن زُر ارة (أ) ، وكالبيتين اللذين ينسبان في بعض المصادر إلى السليك (آ) ، وفي بعضها إلى المعتصم بالله ابن هارون الرشيد (۱)

وقد يكون من اليسير أن ينهى الباحث إلى رأى في هذا الاختلاف إذا أعانته بعض الخصائص الفنية في نصوص هذه الأبيات على التعرف على شخصيات أصحابها ، فثلا قد يكون من اليسير أن نصحح نسبة البيتين الأخيرين إلى المعتصم ، إذ أن سمات والأرستقراطية » تبلو علبهما في صورة ذلك السيد الذي يأمر غلامه بأن يهي له حصانه ويطرح عليه سرجه وبلحامه ، فإذا أضفنا إلى هذا أن البيت الثاني يروى في بعض المصادر و أبلغ الأتراك » (٨)

<sup>(</sup>١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ، الحجله الأول / ٢٨١ .

<sup>(</sup>٢) المعدر السابق /٢٧٦ .

<sup>(</sup>٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١١٦/١ .

<sup>(</sup>٤) المبرد : الكامل /٣٠ ، وانظر أيضاً مس ٦٦ ، ٥٠٧ .

<sup>(</sup> ٥ ) الجاحظ : الحيوان ٣ / ٩٣ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء /٤٤٧ .

<sup>(</sup>٦) أسامة بن منقذ : لباب الآداب /١٨٢ .

<sup>(</sup>٧) المرزباني : معجم الشعراء / ٢٥٠ -

<sup>(</sup>٨) للصدر السابق / ٢٥٥ .

مكان أبلغ الفتيان ، رجحت لدينا نسبة هذين البيتين للمعتصم ، ومن الحق أن السليك كان له فرس اسمه و النحام ، (١) ، ولعل هذا هو الذي أشكل على بعض الرواة فنسبوا البيتين له ، ولكن هذا لبس كافياً لإثبات صحة هذه النسبة ، فقد يكون في خيل المعتصم ما يحمل هذا الاسم .

والأمر في الأبيات التي تنسب إلى أبي الطمحان أو لقبط بن زرارة بشبه هذا الأمر ، فإن في الأبيات فخراً بقوم الشاعر بالسيادة والحسب ، وهذا أليق بلقيط ذلك السيد التميمي الذي يصفه ابن قتية بأنه «كان أشرف بني زرارة » (٢) ، كما أن فخر الشاعر بلسان قومه ليس من الحصائص المألوفة في شعر الصعاليك ، ومن هنا نستطيع أن نرجح نسبة هذه الأبيات إلى لقيط ، وقد تنبه ابن قتيبة إلى هذا حيث يقول «وبعض الرواة ينحل هذا الشعر أبا الطمحان القيني ، وليس كذلك ، إنما هو للقيط » أبا الطمحان القيني ، وليس كذلك ، إنما هو للقيط » (١) .

وقد تنبه القدماء إلى مثل هذا ، فقد اختلف الرواة فى أربعة أبيات من معلقة امرئ القيس : أهى له أم لتأبط شرا ؟ وهى تلك الأبيات التى يتحدث فيها الشاعر عن حمله قربة الماء ، وتشرده فى الوديان المقفرة مع الذئاب الجائعة ، وعن فقره وإسرافه وهزاله (3) : أما الأصمعى فقد ذهب إلى أن هذه الأبيات ليست لامرئ القيس وإنما هى لتأبط شرا ، وتابعه فى هذا الرأى أبو حنيفة الدينورى وابن قتيبة ، وأما السكرى فقد خالفهم فى هذا ورواها لامرئ القيس فى معلقته (٥) ، وقد تنبه صاحب خزانة الأدب إلى أن هذا الشعر أشبه بكلام الملوك (١) .

وقد يقال إن امرأ القيس تصعلك حقبة ً من حياته ، فلعله يعبر عن هذه

 <sup>(</sup>١) انظر الكامل المبرد / ٤٧١، ولسان المرب مادة (تحم).

<sup>(</sup>٢) الشمر والشمراء /٢٤٤.

<sup>(</sup>٣) المصدر السابق /٢٤٤.

<sup>(</sup>٤) التبريزي: شرح القصائد العشر /٣٧، ٢٨.

١٥) البندادى : خزانة الأدب ١ / ١٥ .

<sup>(</sup>٦) المصدر السابق /٦٥.

الحقبة فى هذه الأبيات ، ولكن يلاحظ أن وضع هذه الأبيات فى المعلقة وضع قلق ، إذ أنها حديث شاب و أرستقراطى و عن اللهو والنساء والصيد فليس من المعقول أن يتحدث فى أثناء هذا عن حمله قربة الماء وفقره وتشرده ، وقد رجحنا منذ قليل أن هذه الأبيات قطعة من لامية لتأبط شرا لم تصل إلينا ، وقلنا إنه من الممكن أن تتألف من تلك الأبيات الكثيرة الواردة له فى لسان العرب من وزن واحد وعلى قافية واحدة .

وصورة أخرى من هذا والشك الخارجي و نراها حين تهم بعض نصوص شعر الصعاليك بأنها قد صنعت وحملت عليهم ، فثلا يقول أبو عمرو تعليقاً على القصيدة القافية المنسوبة إلى قيس بن الحدادية في مدح أسد بن كرُز : وهذه الأبيات من رواية أصحابنا الكوفيين ، وغيرهم يزعم أنها مصنوعة ، صنعها حماد الراوية لخالد القسرى في أيام ولايته وأنشده إياها ، فوصله ، والتوليد بين فيها جداً و (۱) ، ويذكر أبو الفرج بعد أن روى القصيدة البائية المنسوبة إلى قيس بن الحدادية أيضاً التي يفتخر فيها بقومه ، ويعيدً عامر النارب بفراره : وهذه القصيدة مصنوعة والشعر بين التوليد (۱) .

ولعل أشهرَ ما تعرض لهذا الشك من شعر الصعاليك لاميتان : إحداهما تنسب إلى الشنفرى ، وهي المعروفة بلامية العرب ، ومطلعها :

أقيموا بني أمى صدور مطيكم فإنى إلى قوم سواكم لأميل والأخرى اختلف القدماء في نسبتها اختلافاً شديداً ، ومطلعها : ان مالف مالف مالف من الله من من الله م

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيسلا دمه ما يطسل وكلتا اللاميتين الهم يصنعهما خلف الأحمر (٣).

والقدماء يصفون خلفاً بأنه ﴿ كَانَ مِن أَمرِسِ النَّاسِلِبِيتِ شَعْرٍ ﴾ (٤)

<sup>(</sup>١) الأغاني ١٢/٥ (بولاق).

<sup>(</sup>۲) المسدر السابق /٤.

<sup>(</sup>٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/٣٠٧، وابن قتيبة : الشمر والشعراء /٤٩٧ ، والجاحظ : الحيوان ١/٨٢، والقالى : الأمالى ١/٣٥١ .

<sup>(</sup>٤) اين النديم : الفهرست / ٥٠ .

ويقول ابن سلام: وأجمع أصحابنا أن الأحمر كان أفرس الناس ببيت شعره (۱) ، ويقول الأخفش: ولم أدرك أحداً أعلم بالشعر من خلف الأحمر الأصمعي ه (۲) ، ويقول أبو اليزيد: وأتيت بغداد حين قام المهدى محمد ، فإفاها العلماء من كل بلدة بأنواع العلوم ، فلم أر رجلا أفرس ببيت شعر من خلف ه (۳) . ولكنهم مع الأسف يصفونه بأنه و كان يقول الشعر فيجيد ، وربما نتحكه الشعراء المتقدمين ، فلا يتميز من شعرهم لمشاكلة كلامه كلامهم ويقول أبو الطيب عبد الواسد اللغوى : و كان خلف يضع الشعر وينسبه إلى العرب فلا يتعرف ه (۱) ، ويقول ابن عبد ربه : و وكان خلف مع روايته وحفظه المتقلمين ه (۱) ، ويقول ابن عبد ربه : و وكان خلف مع روايته وحفظه يقول الشعر فيتحسن وينحله الشعراء ه (۷) ، ويذكر ابن النديم عنه أنه وكان شاعراً يعمل الشعر على لسان العرب ويتنحكه إياهم ه (۸) ، بل إنه هونفسه يصرح بهذا فني بعض الأخبار أنه قال : و كنت آخذ من حماد الراوية ولمحيح من أشعار العرب ، وأعطيه المنحول فيقبل ذلك منى ، ويدخاه في أشعارها ه (۱) .

ومعنى هذا أننا أمام «مزينف» بارع يعرف أساليب العرب فى الشعر ويقلدها ثم يحملها عليهم ، فلا يكادون يميزوبها ، وهنا موطن الخطر ، فلو لم يكن خلف على هذه البراعة، لاستطاع القدماء ، ولاستطعنا نحن أيضاً، أن نعرف ما هو صحيح النسبة إلى أصحابه بما يرويه من الشعر وما هو منحول عليهم.

<sup>(</sup>١) ياقوت : معجم الأدباء ١١/٦٧ .

<sup>(</sup> ٢ ) المصدر السابق ١١ / ٦٧ .

١٤ ابن النديم : القهرست / ١٥ .

<sup>( 1 )</sup> ابن الأنباري : نزمة الألبا في طبقات الأدبا / ٢٠، ٦٩.

<sup>(</sup> ه ) ياقوت : معجم الأدباء ١١ / ١٨ .

<sup>(</sup>٦) الشعروالشعراء / ٤٩٧.

<sup>(</sup>٧) المقد الفريد ه/٣٠٧.

<sup>(</sup>۸) الفهرست / ۰۰ .

<sup>(</sup>٩) الأغاني ٦/٦٩ .

ولعل الأمر في اللامية الأخيرة وإن بالشّعب وأيسر ، فإن الشك يكتفها اكتنافاً شديداً لم تتعرض لمثله أية قضيدة أخرى من و دبوان الصعاليك و وتكاد مصادر الأدب العربي المختلفة لا تتفق على قائلها ، فهي مرة تُسب إلى تأبط شرا(۱) ، ومرة إلى الشنفرى(۱) ، هذا إلى جانب نسبتها إلى خلف الأحمر(١) ، بل إن أبا تمام الذي ينسبها في حمامته في صراحة إلى تأبط شرا(۱) ، ينسبها في بعض المصادر الأخرى في صراحة أيضاً إلى الشنفرى(١) ، بل الغريب أن تنسب أحياناً إلى الشنفرى في مراحة أيضاً إلى الشنفرى أن الشنفرى قتل قبل تأبط شرا(۱) ، مع أن المعروف أن الشنفرى قتل قبل تأبط شرا ، وأن تأبط شرا هو الذي رئاه (۱) ، وإلى المخلول بن حيانا الأحمرو(۱) ، ويقول مرة أخرى : وقال تأبط شرا أو أبو عرز خلف بن حيانا الأحمرو(۱) ، ويقول مرة أخرى : وقال تأبط شرا أو أبو عرز خلف بن حيان الأحمرو(۱) ، ويقول في أسلوب المتشكك حيث يقول : ووقع رقوى البيت المسوب إلى الشنفرى أو إلى تأبط شرا . . . وضع العبارة على هذه الصورة المتشككة ، والتعبير بكلمة و المنسوب ع يشعران بما كان يدور في نفس ابن دريد من والتعبير بكلمة و المنسوب ع يشعران بما كان يدور في نفس ابن دريد من والشك في صحة هذه النسبة إلى أي من الشاعرين. ويقول ابن عبد ربه : وويقال الشك في صحة هذه النسبة إلى أي من الشاعرين. ويقول ابن عبد ربه : وويقال الشك في صحة هذه النسبة إلى أي من الشاعرين. ويقول ابن عبد ربه : وويقال

<sup>(</sup>١) حَاسَةُ أَبِي تَمَامُ ٢ /١٦٠ . ولسان العرب : مادة (سلم) .

<sup>(</sup>٢) ابن عبد ربه : المقد الفريد ١/ ٢٥٢ ، ٣/ ٢٩٨ ، ه/ ٢٤٦ .

<sup>(</sup>٣) البغدادى : خزانة الأدب ٣٢/٣ . ولسان العرب : مادة (سلم) . وحاسة الحالديين ( مخطوطة ) ورقة ٣٤٩ .

<sup>(</sup>٤) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٤٩٧.

<sup>(</sup>٥) حامة أبي تمام ٢/١٩٠٠ .

<sup>(</sup>٢) حماسة الخالدين (مخطوبلة) ورقة ٥٠٠ .

 <sup>(</sup>٧) البغدادى : خزانة الأدب ٣/٣٠٥ . ولسان العرب : مادة (ملم) . وحياسة المالديين
 ( مخطوطة ) ورقة ٢٤٩ .

<sup>(</sup>٨) الأَعَالَى ٢١/٢٣١ .

<sup>(</sup>٩) الحيوان ١٨٢/١ .

<sup>(</sup>١٠) المصدر السابق ٢ / ٦٨ .

<sup>(</sup>۱۱) جمهرة أقلمة ١/٩٧ .

إن الشعر المنسوب إلى ابن أخت تأبط شرا وهو :

إن بالشعب السدى دون سلع لقتيسلا دمسه ما يطسل خلف الأحمر ، وإنه نحله إياه ، (١) . ويقول التبريزى فى صراحة عن هذا الشعر : ووذكر أنه لخلف الأحمر ، وهو الصحيح ، (٢) . وكذلك يفعل ابن قتيبة إذ يذكر فى صراحة لا تحتمل شكًّا أن قائل هذه القصيدة هو خلف ، وهو يذكر هذا فى ترجمته له (٣) .

ومعنى هذا أن القدماء لم يتفقوا على نسبتها إلى أسد من الشعراء الصعالبك ، وإنما كان اختلافهم فى هذا اختلافاً عريضاً ، وأنهم يقفون منها موقف المتشكك فى صحة نسبتها إلى أى من الشعراء الصعاليك، بل إن بعض من يُعتدُ برأيهم يصرحون فى قوة بأنها تُخلف .

ولكنا نعود فنقف أمام نص للخالديين في حماستهما يذكران فيه ببعد أن ذكرا هذه القصيدة منسوبة إلى الشنفرى - و وقد زعم قوم من العلماء أن الشعر الذي كتبنا الشنفرى هو لحلف الأحمر ، وهذا غلط المناء من يرويان خبراً طويلا (٥) عن الصولى عن أبي العيناء عن العنتي في إثبات هذا ، خلاصته أن العتبي كان جالساً يوماً بالمريد مع وجماعة من أهل الأدب الومعهم خلف الأحمر يتذاكرون و أشعار العرب الله م أخذ خلف ينشدهم قصيدة له على رَوى هذه اللامية وقافيتها و يذكر فيها ولد أمير المؤمنين عليهم الرحمة وما نالهم وجرى عليهم من الظلم الله الإهماء ودخل في هذه اللامية ، وكمان منحرفاً عن أهل البيت ، فقطع خلف قصيدته ، ودخل في هذه اللامية ، ولم يكن في الجماعة وأحد عرف هذا الشعر ولا رواه للشنفرى الا ، فلما انصرف الأصمعى أقبلوا على خلف يكشرون سرعة بديهته ، ومقدرته على الارتجال ، ولكنه قال لهم على خلف يكون في مرعة بديهته ، ومقدرته على الارتجال ، ولكنه قال لهم

<sup>(</sup>١) المقد القريد ٥/٧٠٠.

<sup>(</sup>٢) شرح حاسة أبي تمام ٢/١٦٠ .

<sup>(</sup>٣) الشعر والشعراء /٤٩٧ .

<sup>(</sup> ٤ ) ورقة رقم ٥٥٠ ( مُعْطَوطة ) .

<sup>( 4 )</sup> من ورقة رقم ٢٥١ – إلى ورقة رقم ٢٥٤ .

ه إن كان تقريظكم لى لأنى عملت الشعر فما عملته والله ، ولكنه للشنفرى تأبط شرا<sup>(۱)</sup> ، ووالله لو سمع الأصمعى بيتاً من الشعر الذى كنت أنشدكموه ما أمسى أو يقوم به خطيباً على منبر البصرة فيتلف نفسى ، فادً عاء شعر لو أردت قول مثله ما تعذر على أهون عندى من أن يتصل بالسلطان فألحق باللطيف الحبير » .

والحبر على هذه الصورة يحمل فى ثناياه كذبه ، فاذا يحمل خلفاً على أن يدًعى أمام الأصمعى أن هذه القصيدة له ، ولا ينسبها صراحة إلى صاحبها ؟ ثم كيف نتصور أن الأصمعى لم يكن يعرف هذه القصيدة لوكانت حقاً للشنفرى أو غيره من الشعراء الجاهليين ، وهو الذى يقرنه الأخفش بخلف الأحمر فى العلم بالشعر ، ويقول إنه لم يدرك أحداً أعلم بالشعر منهما (١) ؟ كيف نتصور أن خلفاً يسىء الظن بالأصمعى إلى هذا الحد الذى ينشده فيه قصيدة جاهلية ، ويداً عيها لنفسه ، دون أن يظن أن الأصمعى قد يكون يرويها هو أيضاً ؟ ثم كيف نتصور أن هذه والجماعة من أهل الأدب ، المجتمعة لتنذاكر وأشعار العرب ، على حد تعبيرات القصة – قد خلت من واحد يعرف أن هذه الحماعة من أهل الأدب ، المجتمعة يعرف أن هذه الحماعة من أهل الأدب ، المجتمعة عرف أن هذه القصيدة جاهلية ؟ ثم أين سائر أفراد هذه والجماعة من أهل الأدب ، ولم لم يكذكر واحد منهم غير العتبى هذا الخبر ؟

أما أنا فأرجح ترجيحاً شديداً أن العتبى راوى هذا الخبر هو مختلقه . ويؤيد هذا انفراده بروايته ، وقوله إنه لم يبق من يعرفه غيره ، وأنه تحدث به في مجلس له ورجل يقرأ عليه شعر الشنفرى ، فلما وصل إلى هذه اللامية قال بعض من كان في المجلس : هذه القصيدة لخلف الأحمر ، فضحك العتبى مستخفاً به ، ومضى يقص هذا الخبر . وهذا يجعلنا نرجح أن المسألة كانت تحدياً بينه وبين بعض الحاضرين ، وفي مثل هذا الموقف قد يعمد بعض الناس إلى الاختلاق . ثم قد يكون العتبى اختلق هذه القصة ليبرئ خلفاً من

<sup>(</sup>١) كذا في المخطوطة (ورقة رقم ٢٥٢) وأظن أن صوابه « للشنفري يرثى تأبط شرا ي .

<sup>(</sup>٢) ياقوت : معجم الأدباء ١١/٧٧ .

تهمة الكذب ، وكلاهما شيعي .

هذا من الناحية التاريخية ، أما من الناحية الفنية فقد حاول القدماء ممن نسبوها إلى خلف أن يدللوا على صحة هذه النسبة ، يروى التبريزى عن النمرى أنه قال «ومما يدل على أنها لحلف الأحمر قوله فيها — جلل حيى دق فيه الأجل — فإن الإعرابي لا يكاد يتغلغل إلى مثل هذا »(١) . ويروى عن أبى الندكي أنه قال «مما يدل على أنهذا الشعر مولد أنه ذكر فيه سلاعاً وهو بالمدينة ، وأين تأبط شرا من سلع ؟ وإنما قديل في بلاد هذيل (١) . ولكن صاحب معجم وأين تأبط شرا من سلع ؟ وإنما قديل جبلا اسمه سلع (١) ، ولكن صاحب معجم البلدان يذكر أن في ديار هذيل جبلا اسمه سلع (١) ، ولكنه — من ناحية أخرى — ينقل عن بعض العلماء أنهم استدلوا على أن هذه القصيدة ليست أخرى — ينقل عن بعض العلماء أنهم استدلوا على أن هذه القصيدة ليست لتأبط شرا « بأن ملعاً ليس دونه شعثب " (١) .

على هذه الأسسالتاريخية والفنية نظن، بل نرجيح، أن هذه اللامية ليست لأحد من الشعراء الصعاليك ولا في رثاء أحد من الصعاليك.

أما القصيدة الأخرى ، لامية العرب ، فإن الأمر فيها أصعب من هذا ، فليس حولها هذا الحلاف العريض الذي رأيناه حول اللامية الأولى ، فإن الرواة الذين تعرضوا لها ينسبونها إلى الشنفرى (أ) ، ما عدا صاحب تاج العروس الذي ينسبها إلى تأبط شرا(1) ، وليس بين أيدينا من النصوص الصريحة على أنها ليست للشنفرى سوى نص يرويه القالى عن ابن دريد يذكر فيه أن هذه القصيدة المنسوبة إلى الشنفرى لخلف الأحمر (١) . وهو نص له قيمته ، لأن ابن دريد

<sup>(</sup>١) شرح حاسة أبي تمام ٢/١٦٠ ، ١٩١ .

<sup>(</sup>٢) المصدر المابق / ١٩١١.

<sup>(</sup>٣) ياقرت : معجم البلدان ٢/٨٠٤ ، مادة (سلع) .

<sup>( ؛ )</sup> المصدر السابق ١ / ٥ (المقدمة ) .

<sup>(</sup>ه) انظر على سبيل المثال التبريزي في شرحه على حاسة أبي تمام 1/٢٣٤ ، والبغدادي في خزانة الأدب ٢/٤٤٤ ، ٣/٤٣٤ ، والعيني في شرح الشواهد الكبرى (على هامش خزانة الأدب) ٢/٢١٤ و إن كنا نلاحظ أن العيني يذكر أن الشنفري هو عمرو بن براق ، وهو خلط، وهبة أند العلوي في ديوان مختارات شعراء العرب/٢١ ، وسياسة الحالديين (مخطوطة) ورقة رقم ١٣٠٠. (٢) مادة (آم) .

كان قريب عهد بخلف ، فأكثر أخباره مروية عن تلاميذ الأصمعى عن خلف ، ثم إنه كان على صلة بأعمال المدرسة البصرية التى ينتمى إليها خلف ، ثم إنه كان على صلة بأعمال المدرسة البصرية التى ينتمى إليها خلف (١) ، فإذا أضفنا إلى هذا أن أبا الفرج قد أغفل هذه اللامية فى ترجمته للشنفرى إغفالا تاميًا ولم يشر إليها أى إشارة على كثرة ما روى من شعره (١) ، كما فعل مع اللامية الأولى فى ترجمته لتأبط شرا (١) ، وأن لسان العرب على كثرة ما نقل من شعر الصعاليك لله يرد فيه أى ذكر لها ولا أى بيت منها ، بدأت كفة الشك فى صحة نسبتها إلى الشنفرى ترجح .

هذا من الناحية التاريخية ، أما من الناحية الفنية فإن أول ما يلفت نظرنا أن هذه اللامية طويلة طولا ليس مألوفاً في شعر الصعاليك ، وسترى فيا بعد أن شعر الصعاليك كان في مجموعه شعر مقطوعات ، فهذه اللامية تبلغ عانية وستين بيتاً ، في حين لا تزيد أطول قصيدة في « ديوان الصعاليك وهي تاثية الشنفرى المفضلية على خمسة وثلاثين بيتاً في بعض المصادر (1) ، أي أن هذه اللامية تبلغ ضعف أطول قصيدة في ديوان الصعاليك تقريباً . وإلى جانب هذا نلاحظ قلة الاضطراب في رواية ألفاظها ، وفي ترتيب أبياتها ، وفي ظاهرة ليست مألوفة في شعر الصعاليك ، فقد لاحظنا في أول هذا الفصل وهي ظاهرة ليست مألوفة في شعر الصعاليك ، فقد لاحظنا في أول هذا الفصل فإذا أضفنا إلى هذا ما لاحظه كرنكو (٥) من قلة أسماء المواضع والأشخاص فيها ، وهي ظاهرة ليست طبيعية في قصائد الشعر العربي المبكرة ، والأشخاص فيها ، وهي ظاهرة ليست طبيعية في قصائد الشعر العربي المبكرة ، والأشخاص فيها ، وهي ظاهرة ليست طبيعية في قصائد الشعر العربي المبكرة ، والاستخاص فيها ، وهي ظاهرة ليست طبيعية في قصائد الشعر العربي المبكرة ، والاستخاص فيها ، وهي ظاهرة ليست طبيعية في قصائد الشعر العربي المبكرة ، والاستخاص فيها ، وهي ظاهرة ليست طبيعية في قصائد الشعر العربي المبكرة ، والدت كفة الشك في صحة نسبة هذه اللامية إلى الشنفري في الرجحان .

وقد نتساءل بعد هذا : ما السر في تلك العناية الغريبة التي لقيتها هذه

Krenkow; The Eucy. of Islam, Art. Al-Shanfara. (1)

<sup>. 14</sup>r - 174/Y1 (Y)

<sup>.</sup> TIA - T.4/1A (T)

<sup>( )</sup> انظر في شرح ابن الأنباري على المفضليات (طبيروت) تعليق الأمتاذ العلاما على البيت الأخير من التائية ( ص ٢٠٧ ) .

The Ency. of Islam, Art. Al., Shanfara, (4)

اللامية حتى تؤلّف فيها تلك الشروح الكثيرة المتعددة (١) ، وحتى يحرص الغربيون على ترجمتها إلى لغاتهم (٢) ؟

الذى يبدو لى أن سر إقبال الشراح العرب عليها هو أنهم وجدوا فيها مادة لغوية طيبة ، ثم أخذت المسألة تصبح لوناً من التقليد والتنافس بين الشراح ، أما الغربيون فقد وجدوا فيها صورة متقنة لحياة الأعراب فى الجزيرة العربية ، فكان اهتمامهم بها لغرض اجتماعى ، كما كان اهتمام العرب بها لغرض لغوى .

والحق يقال إن خلفاً قد صور حياة صعاليك العرب في هذه اللامية تصويراً رائعاً ممتازاً ، حتى ليصح أن تكون مصدراً من مصادر دراسة حياتهم الاجماعية . والأمر الذي لاشك فيه هو أن خلفاً قد تمثل أولا حياة صعاليك العرب وخصائص شعرهم الفنية ، ثم مضى يصور هذه الحياة وهذا الفن في قصيدة رائعة ، حاول ما استطاع أن يجعلها صورة صادقة لما عرف عن شعرهم وأخبارهم، حتى ليصح أن نطلق عليها لا « لامية العرب » وإنما « لامية الصعاليك » أو «دنيا صعاليك » أو «دنيا

 <sup>(</sup>١) انظر فهرس دار الكتب المصرية في شروح هذه اللامية التي تبلغ أكثر من عشرين شرحا.

The Ency. of Islam, art. Al-Shanfara. انظر (٢)

# الفسل لثاني

## موضوعات شعر الصعاليك

# ١ \_ الشعر داخل دائرة الصعلكة

#### أحاديث المغامرات :

من الطبيعى - ما دامت حياة صعاليك العرب قد اتخذت شعارها والغزو والإغارة للسلب والنهب و - أن يكون أكبر ما يعنى به شعراؤهم أحاديث مغامراتهم ، لأن هذه المغامرات هي و الحرفة والتي قامت عليها حياتهم ، والأسلوب الذي انتهجوه فيها لتحقيق غاياتهم . وهم يتحدثون عن هذه المغامرات حديث المؤمن بقيمتها في حياته ، المعجب بها ، الفخور ببطولته فيها ، أو بمقدرته على النجاة من أخطارها وقد ضاقت في وجهه سبل النجاة .

وهم يصفون كل ما يحدث في هذه المغامرات ، منذ أن تأخذ جماعة الصعاليك في وضع خطتها ، إلى أن تنتهى الغارة ، ويعود فتيان الصعاليك بأسلابهم بعد أن نفذوا خطتهم ، وحققوا أهدافهم ، وهم يصفون ، في أثناء ذلك ، الطريق الذي سلكوه ، ويتحدثون عن رفاق الغارة ، ودور كل واحد فيها ، وكيف نفذوا خطتهم ، وكيف كانت آثارها في أعدائهم ، وكيف أنتهت الغارة وعاد فتيان الصعاليك إلى قواعدهم سالمين بعد أن قتلوا وسلبوا وسبوا .

فهذا الشنفرى بخرج فى عبداً من فهم (١) فيهم عامر بن الأخنس وتأبط شرا والمسبّب وعمر و بن براقة ومراة بن خليف يقصدون العوص ، وهم حى من بجيلة ، فلما انتهوا من الغارة ، وأخذوا طريق العودة ، اعترضت لهم خشم ،

<sup>(</sup>١) الأغاني ١٨/ ٢١٥، ٢١٦، وديوان الشنفري في الطرائف الأدبية / ٣٢.

ودارت بينهم معركة النهت بانتصار الصعاليك ، فإذا ما انتهت المعركة فرغ الشنفرى إلى فنه يحدثنا عنها حديثاً رائعاً فيه دقة وتفصيل ، يبدأ منذ أن أعلن امرأته أنه خارج لها ، غير مبال بحياته أو حريص عليها، وفيم المبالاة أو الحرص وهو يعلم أن أجله لابد آت في يوم من الأيام :

دَعيني وقولى بعد ما ششت إنني سيغدى بنعشى مرة فأغيب وهو لا يطيل فى هذا الحديث لأنه فى لهفة إلى أن يدرك رفاقه ، والموقف لا يحتمل رَيثاً ولا إبطاء ، فليترك امرأته بعد هذا القول الفاصل «دعيني وقول بعد ما شئت » ، وبعد هذا الحجة القاطعة «إنني سيغدى بنعشى مرة فأغيب » ، وليسرع إلى رفاقه فى لهفة شديدة ، يمثلها انتقاله السريع من هذا الحديث إلى حديثه عن خروجهم فى مغامرتهم . وهو يذكر لنا أنهم كانوا عمانية ، وأنهم خرجوا جميعاً مسرعين ، لم يعتهدوا إلى أحد بالقيام على شنونهم ، ولم يتوصوا أحداً بأهلهم ، وهم جميعاً فتيان كأنهم الذئاب ، وجوههم مشرقة لا تبدو عليها مظاهر جزع أو خوف :

خرَجنا فلم نعهد وقلّت وصائنا تمسانية ما بعدها متعتب سرَاحين فتيان كأن وجوههم مصابيح أو لون من الماء مُذْهَب الم ثم هاهم أولاء في طريقهم إلى هدفهم مسرعين ، لا يعرجون على شيء حتى على الماء ، على شدة حاجتهم إليه ، وعلى علمهم أن الزاد ظن مغيب ، ثم هاهم أولاء بعد ثلاثة أيام على أقدامهم يصلون إلى هدفهم يتقدمهم دليل خفيف فارع شجاع :

نمرُّ برَهُوالمَاءِ صَفحاً وقد طوَت ثَمَاثلنا ، والزادُ ظن مغيَّبُ ثَمَّاثلنا ، والزادُ ظن مغيَّبُ ثَلَاثاً على الأَقدام حتى ممَا بنا على العَوْص شَعْشاعُ من القوم محرَبُ (٢)

 <sup>(</sup>١) الذي هذا رواية الأغانى ، وفي الديوان « مستختب ، مكان « متعتب ، والسراحين :
 الذئاب .

 <sup>(</sup> ۲ ) الرهو : مستنقع الماء . الثماثل جمع تميلة وهي سقاء الماء . الشعشاع : الطويل الخفيف .
 المحرب : الشديد الحرب الشجاع .

ثم يصور المعركة التى دارت قبيل الفجر ، فى ظلام الهزيع الأخير من الليل ، وقد تنبه لهم الحى الذى بهاجمونه ، فعلت صيحاتهم ، واختلطت بصيحات الصعاليك . ودارت المعركة وقام كل من الصعاليك بدوره فيها فى بطولة وشجاعة : أما تأبط شرا فقد بدأ هجومه السريع بسيفه الذى يهتز فى يده لسرعة ضرباته ، وأما المسيّب فقد أعمل فيهم سيفه فى تصميم لايلين ، وأما المسيّب فقد أعمل فيهم سيفه فى تصميم لايلين ، وأما الشنفرى فقد وقف للدفاع هو وجماعة من فتيان الصعاليك ، وثبنوا فى موقفهم ، حتى انجلت المعركة عن انتصار الصعاليك بعد أن قتلوا جماعة من أعدائهم وسلبوهم ، أما سائرهم - على كثرتهم - فقد انتابهم فزع شديد ، من أعدائهم وسلبوهم ، أما سائرهم - على كثرتهم - فقد انتابهم فزع شديد ، حتى خيل إليهم أن كل مرتفع من الأرض يصب عليهم كل الصعاليك حتى خيل إليهم أن كل مرتفع من الأرض يصب عليهم كل الصعاليك الثمانية :

فثاروا إلينا في السّواد فهجهجوا فشن عليهم هزّة السيف ثابت وظلت بفتيان معى أتقيهم وقد خر منهم راجلان وفارس يشن إليه كل ربع وقلعة وقلعة

وصَمَّم فيهم بالحسام المسيَّبُ بهن قليلا ساعة شم خيَّبوا بهن قليلا ساعة شم خيَّبوا كميُّ صرعناه وخوَّم مسلَّبُ ثمانية ، والقومُ رَجْلُ ومقْنبُ (١)

وهنا ، وقد انتهى الشاعر من تصوير هذه الغارة الناجحة ، لم يعد أمامه هو وأصحابه إلا أن يسرعوا عائدين إلى قواعدهم سالمين ، لبحدثوا قومهم الصعاليك فى فخر واعتزاز بما قاموا به من بطولة :

فلما رآنا قومُنا قبل أفلحوا فقلنا اسألوا عن قائل لا يكذّب وهذا السليك بخرج مع رفيقين له يريدون الغارة « في عشية فيها ضباب ومطر » ، حتى يأتوا بيتاً « قد انفرد من البيوت » ، ويأبى السليك إلاأن يكون بطل هذه الغارة ، فيخلف صاحبيه وراءه ، ويتربص هو بمفرده ، حتى بطل هذه الغارة ، فيخلف صاحبيه وراءه ، ويتربص هو بمفرده ، حتى

<sup>(</sup>١) هجهجوا: صاحواً. المثوب: الداعى المكرر الدعاء. الوخوم: الثقيل. الربع: المرتفع من الأرض. الرجل: الجهاعة على أرجلهم. المقنب: الجهاعة على الحيل - وقد خالفنا الأستاذ الميمني في شرحه للبيت الأخير (انظر الطرائف الأدبية / ٣٧).

إذا خرج رب البيت بإبله ليعشيها تبعه السليك ، حتى إذا ما أخذت الشيخَ سنة من النوم وقد غطى وجهه بثوبه من البرد حانت الفرصة للسليك ، فاستله من ردائه فضربه فأطار رأسه ، وصاح بالإبل فطردها إلى حيث ينتظره صاحباه ، فطرَدَ اها معه <sup>(١)</sup> ، حتى إذا ما اطمأنوا فرَغَ السلبك لفنه مسجلا هذه المغامرة في هذه المقطوعة الرائعة :

بسوط. قتيل وَسطها يُتسيُّفُ (٢) إذا ما أناه صارم يتلهف (٣) فبات له أهل خلاء فناوُّهم ومرت بهم طير فلم يتعيفوا " وما نائنها حيى تصعلكت حقبة وكدت الأسباب المنيسة أعرف (١)

وَعاشية راحت بطاناً ذَعرْتها كأن عليه لونَ برد محبَّر وباتوا يظنون الظنون ، وصحبى إذا ما علوا نَشْرًا أَهلوا وأَوْجفوا " وحتى رأيتُ الجوعَ بالصيف ضرنى إذا قمتُ تغشاني ظلالُ فأُسْدِف (٧)

فالشاعر الصعلوك هنا يبدأ مقطوعته من حيث انتهت مهمته الخطرة ، فهو لا يذكر شيئاً عن خروجه للغارة ولا عن تربصه لها ، وإنما يبدأ بذكر طرده الإبل بعد أن قتل صاحبها ، كأنما هو فرح بتلك الغنيمة التي أنقذته من الحوع والإشراف على الهلاك ، فهو لا يرى إلا تلك الإبل التي نهبها ، تم ينتقل إلى موازنة طريفة بين طرفى الصراع : بين أصحابه الصعاليك وأهل ذلك الشيخ القتيل ، أما هؤلاء فقد خلا فناؤهم من إبلهم ، ولكنهم مطمئنون حيى إنهم لم يتعيفوا الطير التي مرت بهم، لأن خبر الغارة لما يبلغهم بعد، وأما أولئك

<sup>(</sup>١) الأغاني ١٨/ ١٣٤ ، ١٣٥ ، والميداني : مجمع الأمثال ١/ ٢٩٩ .

 <sup>(</sup> ۲ ) هذه روایة الأغانی ، وفی مجمع الأمثال « وعاشیة روح بطان » ، و « بصوت قتیل » . والعاشية : الإبل ترعى ليلا . ويتسيف : يضرب بالسيف .

 <sup>(</sup>٣) هذه رواية الأغانى ، وفي مجمع الأمثال « صارخ » مكان « صارم » ، وفيه أيضا لا متلهف ي . و ير يد بقوله ي لون برد محبر ي طرائق الدم على القتيل .

<sup>( ؛ )</sup> هذه رواية الأغانى ، وفي مجمع الأمثال « لها » مكان ي له » .

<sup>(</sup>ه) كذا في المصدرين . النشز : المكان المرتفع . أهل : صاح ورفع صوته . أوجفوا : حملوا الإبل على الوجيف وهو ضرب من السير .

<sup>(</sup>٦) كذا في المصدريني.

 <sup>(</sup> v ) هذه رواية الأغانى، وفي مجمع الأمثال ويقشانى و . أمدف أى أظلم بصره من شدة الجوع .

فقد نجوا بغنيمتهم فوق طريق جبلى وعر، وهم يصيحون صيحة الفرح والفوز، ويحثون الإبل المنهوبة على الإسراع بينا أهل الشيخ يفكرون أين استقر به وبإبله المقام ؟ وماذا أخره حتى تلك الساعة من الليل ؟ وفى هذه الغمرة من الفرح لا ينسى السليك أن يبرر غارته، فهو لم يقدم عليها إلا بعد أن أصبحت المسألة مسألة حياة أو موت، فقد أشرف على الهلاك لشدة فقره وجوعه، حتى ليصيبه الدُّوار كلما قام لفرط ضعفه وإعيائه، وتظلم عيناه لشدة هزاله وإجهاده.

وهذا تأبط شرا يحدثنا في مقطوعة له (١) عن مغامرة طريفة من مغامراته ، خرج فيها إلى غار في بلاد هذيل ، أعدائه الألداء ، ليشتار عسلا ، وعلمت هذيل بخبره ، فوجدوا الفرصة سانحة ليتخلصوا منه ، فحاصروه في الغار وطلبوا إليه التسليم ، ولكنه راح يراوغهم وقد أخذ « يئسيل العسل على فم الغار ، ثم عَمد إلى زق فشده على صدره ، ثم لصق بالعسل ، ولم يزل يزلق حتى جاء مليماً إلى أسفل الجبل ، فنهض وقاتهم » .

يبدأ الشاعر الصعلوك قصيدته بأبيات فى الحكمة يودعها خلاصة تجربته التى مر بها ، فالشخص الحازم هو الذى يستعين بالحيلة فى مواطن الخطر ، لينجو بها منه ، وهو الذى يعمل للأمر حسابه قبل أن يأخذه على غرة ، وعلى المرة أن يكون مرناً فى تصرفاته إذا ما سدت مناقذ الأمر عليه :

إذا المراء لم يحتل وقد جدَّ جِده أضاعَ وقاسى أمره وهو مدَّبرُ ولكن أَخو الحزَّم الذي ليس نازلا به الخطبُ إلا وهو للقصد مبصر فذاكَ قريعُ الدهر ما عاشَ حوَّلُ إذا سُدَّ منه منخرُ جاشَ منخرُ (٢)

<sup>(</sup>۱) التبريزى: شرح حياسة أبي تمام ٢/ ٣٨ وما بعدها، والبغدادى: خزانة الأدب ٣٥٧/٣ وما بعدها، والعينى: شرح الشواهد الكبرى (على هامش الخزانة) ٢/ ١٦٥ - ١٧٠٠ وفي الأغانى ١٨/ ١٦٥ مع اختلاف في ترتيب الأبيات عن سائر المصادر الأولى، ومع انفراده بزيادة بيت على آخر القصيدة، وقد آثرنا رواية المصادر الأولى لأنها أدق في التعبير عن نفسية الشاعر.

 <sup>(</sup>۲) قريع الدهر : يريد به المجرب البصير . وقوله : و إذا سد منه منخر و المراد به إذا ضافت عليه الأمور ، وسدت المسائك .

فإذا ما انتهى الشاعر من هذا «الدرس النظرى» انتقل إلى «التطبيق العملى» ، يبدأ به منذ أن تحرجت أموره حين حاصرته لحيان (١) ، وينقل لنا طرفاً من حواره معهم ، ذلك الحوار الذي أراد أن يخدعهم به حتى يفرغ من إعداد وسيلته للنجاة :

أَقُولُ للحيان وقد صَفِرْت لهم وطابی، ويوْمی ضَيِّ الجُحْر مُعُور (٢) هما خطتا إما إسار ومنة وإما دَمَّ ، والقتل بالحر أَجلَرُ وأخرى أَصَادى النفس عنها وإنها لموْردُ حزْم إنَّ فعلتُ وَمَصْدَرُ

ولا يكاد الشاعر يفرغ من تهيئة وسيلة نجانه حتى يسارع إلى تنفيذها ، فإذا هو يفرش لها صدره فى براعة تساعده عليها ضخامة صدره ودقة متنه ، حتى نجا من الموت الذى وقف ينظر إليه خزيان ، ثم إذا هو فى قبيلته وقد عاد إليها بعد أن كاد يهلك :

فرَشَتُ لها صَدْرى فزَلَّ عن الصَّفا به جوَّجوً عبلُ ومتن مُخصَّرُ (٣) فخالطُ سهْلَ الأَرض لم يكدَح الصفا به كدْحة ، والموت خزْيانُ ينظرُ فأبتُ إلى فهم ولم أَك آيباً وكمْ مثلها فارقتها وهي تصْفِرُ (٤) شعر المرَاقب :

كما تحدث الشعراء الصعاليك عن مغامراتهم ، تحدثوا أيضاً عن تربصهم بأعدائهم ، وترصدهم لضحاياهم ، وارتقابهم الفرصة الملائمة لمهاجمتهم ، فوق المرتفعات العالية التي يشرفون منها على الطريق بحيث يرون الناس ولا يرونهم ، والتي كانوا يسمونها ه المراقب » . وتكثر في شعر الصعاليك هذه الأحاديث

<sup>(</sup>١) لحيان : بطن من هذيل .

<sup>(</sup>۲) الوطاب : جمع وطب وهو سقاء اللبن . وصفرت : خلت . والمراد بقوله « صفرت لهم وطابى » أن نفسه أشرفت على الهلاك بسبهم . والمعور : الذي انكشفت عورته للعدو فهو مكشوف غير محصن . والمراد بقوله « و يومى ضيق الجحر معور » أنه في مركز حرج ضيق المنافذ .

<sup>(</sup>٣) الصفا : الصخر . والجؤجؤ : الصدر . والعيل : الضخم .

<sup>(</sup>٤) فهم : قبيلته . وقوله « وهي تصفر » المراد به أنها تلغط في أمره ، وتكثر القول في شأنه ، أو المراد أنها تتأسف على إفلائه منها .

التي يصح أن نطلق عليها ﴿ شعر المراقب ﴾ .

والمرُّقبة الَّتِي يَتَرْبُص فَوقها الشَّاعِرِ الصَّعَا وَلَدُداتُكُمُّ مَنْبِعَةً أَبِيةً عَلَى سُواه ، وأكثر ما يتحدثون عن تربصهم فوقها والليل مقبل يغشى الكون بدياجيه الكثيفة ، ليكون هذا أمعن َ في التخفي ، وأقرب إلى مواتاة الفرصة ، وأدل على جرأتهم وقوة قلوبهم ، و ﴿ اللَّيْلِ أَسْنَى لَلُويَلِ ﴾ كما يقول العرب في أمثالهم (١٠ ، و \$ الصعاليك نومهم قليل » كما يقول الشاعر الصعلوك عمرو بن براقة (٢) .

ويرسُمُ الشنفري في قصيدة من شعره لوحة رائعة لمرْقبة منيعة عالية يعجز دونها الصياد الماهر الخفيف الذي يخرج بكلابه المضرَّاة للصيد ، ويصف كيف صعد إليها وقد أقبل الليل بظلامه الحالك الشديد الذي يلف الكون ، وكيف قضَى الليل فوقها متربصاً ، مُحَد باً على ذراعيه مبالغة في تخفيه كما يتطوي الأفعوان المتكسر ، ولا شيء معه سوى نعلين باليتين ، وثياب أخلاق ، تم أصحابه الذين لا يفارقونه ، سيفه وقوسه وسهامه :

ومُرْقبة عيطاء يقصر دولها أخوالضرودةالرَّجل المخفيف المشفَّف تميتُ إلى أُعلى ذُرَاها وقد دَنيا فبت على حد اللراعين مُحدباً قليل جَهازى غيرَ نعلين أسحَقت ا ومُلحفة دِرْس وجرد ملاءة

من الليل ملتف الحديقة أسدف كما يتطوى الأرقش المتقصف صدورُهما مخصورةً لاتُخصَّفُ إذا أنجمت من جانب لاتكفُّف (٣)

<sup>(</sup>١) الميداني : مجمع الأمثال ٢/١٣٠.

<sup>(</sup>٢) الأغاني ٢١/١٧٥ .

<sup>(</sup>٣) الأغاني ٢١/ ١٤٠ ، ١٤١ . وديوانه في الطرائف الأدبية /٣٧ . وديوانه المصور لوحة رقم ٥٠ . ورواية الأبيات في المصدرين الأخيرين مضطربة يكثر فيها التحريف ، ولذا آثرذا رواية الأغانى ــ العيطاء : العالمية المرتفعة ، أو الآبية المعتنعة . أخو الضروة : الصياد معه كلاب ضراها الصيد . الرحل بسكون الجيم وفتح الراء كالرجل بضمهما . المشقف : النحيل . الأسدف : المظلم . محدياً : من أحدب إذا المحنى . أسحقت : بليت . الملحقة : ما يلبس فوق التياب من دنار البرد ونحوه الدرس بكسر الدال : الثوب الخلق ، ومثله الجرد بفتح الجيم . أنجمت : ظهرت وطلمت . كف الثوب : خاط حاشيته .

فإذا ما قتل الشنفرى ، ووقف تأبط شرا يرثيه ، لم ينس تلك المراقب الشياء التي طالما رَبض فوقها في انتظار فرائسه ، فرائس الغزو وفرائس الثأر : ومرقبة شهاء أقعيت فوقها لبغنم غاز أو ليدرك ثائر (١) وأما عند تأبط شرا فالمرقبة ذات صورة طريفة ، إنها مرقبة تعلو سائر المراقب ، وهي - إلى جانب هذا - معقلة ذات تجاعيد كأنها عجوز شمطاء عليها ثباب بالية ، ولكنه - مع ذلك - ما إن ينتصف الليل حتى ينهض إليها لبيلة في تنفيذ خططه :

ومرقبة يا أم عمرو طِمِرَّة ملَه بَالَه فوق المراقب عَيْطلِ بَهِضَتُ إليها من جنوم كأنها عجوزُعليها هِدُمِلٌ ذاتُ خيعل (٢) وأما ذو الكلب فالمرقبة التي يتربص فوقها بعيدة واسعة عالية ملساء ، وهو متربص فوقها من حتى إذا حانت الفرصة تحدر فوقها وهو ما يزال متخفياً كما يتحدر الماء الصافى :

ومرقبة يحارُ الطرفُ فيها تزلّ الطيرَ مشرفة القذّال أقمتُ برَيدها يوماً طويلا ولم أشرف بها مثل الخيال ولم يُشخص بها شرّ في ولكن دنوتُ تحدّر الماء الزلال (٣) وأما أبو خراش فالصورة التي يرسمها لمرقبته أشملُ وأكثر تفصيلا ، فهي مرقبة في نتوء مشرف من الجبل كأنه حد الفاس ، يشرف على طريق ضيق كأنه النفق ، يتسرب فيه الناس بعضهم في إثر بعض ، وقد أقيم فوق هذا التوء عرش يستظل المربص تحته و يختني فيه ، ولكن هذا العرش قديم

مُهَدِّم لم يبق منه إلا عودان أحدهما قائم والآخر ملتى على الأرض:

<sup>(</sup>١) ديوان الشنقري في الطرائف الأدبية / ٢٨ .

<sup>(</sup>٢) لسان العرب ، مادة (هنسل) ، ومأدة (جثم) . ويروى البيت الثانى أيضاً في أمالى القالى 1 / ٢٨ – الطمرة : المرتفعة . العيطل : الطويلة . الحدمل : الثوب الحلق . الحيمل : ثوب من ثياب النساء كالقميص ، أو هو قميص لا كين له .

 <sup>(</sup>٣) شرح أشعار الحذايين ١/٢٣٧ - القذال : الرأس ، يريد به رأس المرقبة . الريد : الحرف يندر من الجبل ، ومعنى البيت الثانى أنه أقام بها منكبا ولم يقم مشرفا .

لستُ لمرَّة إِنْ لَم أُوف مرقبة يبدو لى الحرَّفُ منها والمقاضيبُ فى ذات رَيْد كذَلْق الفاً م مُشْرفة طريقها سَرَبُ بالناس دُعبوبُ لم يبق من عرْشها إلا دَعامتها جِذْلانِ : منهدم منها ومنصوبُ (۱) ولكن أبا خراش يختلف هنا عن زملائه شعراء المراقب ، فهو لم يكن وحيداً فوق مرقبته ، وإنما كان معه صاحب له ، وهو معنى بصاحبه أكثر من عنايته بنفسه ، فهو صاحب حذر قوى النفس لم يرْض لها أن يكون عبداً راعباً ، وإنما آثر أن بكون صعلوكاً عاملا ، يتربص فوق المراقب فى عبداً راعباً ، وإنما آثر أن بكون صعلوكاً عاملا ، يتربص فوق المراقب فى

فيهم ، ممن يؤثرون النوم والدفء على العمل والكفاح : بصاحب لا تُنالُ الدهر غِرَّتُهُ إذا افتلى الهدف القِنَّ المعازيبُ بعثتُ بعثتُ بسواد الليل يرْقبني إذْ آثر النومَ والدفء المناجيبُ ٢١١

سواد الليل ، رافضاً تلك الراحة البغيضة التي ينعم بها الضعفاء الذين لا خير

ويمضى أبو خراش بعد ذلك مضيفاً إلى صورة صاحبه خطين آخرين ، فهو قائم فوق هذه المرقبة كأنه السهم ، ثم هو سَمْحُ النفس على نحافته وقلة لحمه : يظل في رأسها كأنه زُلَمٌ من القداح به ضَرْسٌ وتعقيبُ سَمْحٌ من القوم عريان أشاجعه خف النواشر منه والظنابيب (٣)

<sup>(</sup>١) ديوان الهذايين ٢/١٥٩ ، ١٦٠ - أوفى : أشرف . الحرف من الجبل : أعلاه المحدد ، وقد رجحنا من قبل أنها هذا تحريف صوابه « الحرث » بمعنى النبات، بدليل « المقاضيب » التي تأتى بعدها ، وهي الأرض تشبت النبات الرطب . ذلق الفاس : حدها . السرب : الشائع الذي يتسرب فيه الناس بعضهم في إثر بعض . الدعيوب : الموطود . الجذل : الدود .

<sup>(</sup>٢) ديوان الهذليين ٢/١٦٠ - افتلى الهدف أى فلاه من أهله ، أى عزله وفصله . الهدف : الثقيل الوخم من الرجال . القن : الذى أبوه عبد وأمه أمة . الممازيب : الإبل والشاء التي تعزب عن أهله ألم المرعى . يريد يصاحب ليس براع تيعده إبله وشاؤه عن أهله . المناجيب : الضعفاء الذين لا خير فيهم .

<sup>(</sup>٣) المصدر السابق /١٦١ - الزلم بفتح الزاى وضمها : القدح لا ريش عليه . الضرس : تأثير العض . عريان أشاجعه يعنى ليس بكثير المعجم . النواشر : عصب ظهر الكف . الظنابيب : عظام الماق أو حرفها .

وأما صَمَوْر الغي ــوإن لم يرد فيا بين أيدينا من شعره حديث عن المراقب فإن حديثها قد ورَدَ عنه في رثاء شاعر هذكى له هو أبو المثلم، حيث يصفه بأنه وربّاء مرقبة و(١).

وأما عروة فصفة الزعامة لا تفارقه ، فهو لا يقف رَبيئاً لأصحابه ، وإنما يبعث أحدهم ليرقب لهم الطريق فوق المرتفعات ، وهو يرسم فى بعض شعره صورة لهذا الربيء ، وقد وقف فوق مرقبة ثابتاً لايتحرك كأنما غرس فوقها ، ولكن عينيه لا تستقران ، فهو يقلبهما دائماً فى الفضاء الذى يحيط بهم ، حيث أناخوا إبلهم ، وأوقدوا مواقدهم بهيئون لأنفسهم طعاماً :

إذا ما هبطنا منهلا في مُخوفة بعثنا رَبيئاً في المرابي كالجذّل يقلِّب في الأرض الفضاء بطرفه وهن مناخات ومرجلنا يغلى (١) التوعد والتهديد:

كما تحدث الشعراء الصعاليك عن التربص والترصد تحدثوا عن التوعد والتهديد ، حتى يجمعوا بين ركنى الجريمة القانونيين : التربص وسبق الإصرار ا وأكثر من يتوعدهم الشنفرى بنو سلامان ، أولئك الذين أشربت نفسه بغضهم ، والذين كانوا السبب المباشر لتصعلكه ، والذين عاهد نفسه ليقتلن منهم مائة بما اعتبدوه (١) . وهو يتوعدهم في شعره توعداً عنيفاً ، فيعلن لهم أنه — ما لم يجل الموتُ بينه وبينهم — لن يكف عن غزوهم ، فالمسألة عنده مفروغ منها ، وكل ما يرجوه أن بمد الله في أجله حتى يشني غليله منهم حين يلاقيهم في عقر دارهم :

نلاقنى أمشٌ بدَهْوِ أَو عِدَافِ بَنُوْرَا . ، ونارة ينفِّض رجلى بُسْبطاً فعَصَنْصرا مر بدارهم وسوف ألاقيهم إن الله أخَّرا

<sup>(</sup>١) شرح أشعار الهذليين ١/٣٤.

<sup>(</sup>٢) ديوانه /١١١ ، ١١٢ – الجلل هنا جدع الشجرة .

<sup>(</sup>٣) انظر الأغاني ٢١/١٣٤ .

وبوماً بذات الرُّسُ أو بطن مِنْجُل هنالك نَبْغي القاصي المتغوّرا(١)

وهو إذا كان يتأخر عن غزوهم أحياناً فليس هذا دليلا على أنه قد كف عنهم ، وإنما هو يمهلهم إلى حين ، وهو واثق من قدرته على غزوهم ، فهو يعرفهم وهم يعرفونه ، وأحب شيء إليه أن يغير عليهم ، وأن يقطع الطريق على سادتهم، وهو الخبير بطرق الصحراء ومسالكها، القدير على الاهتداء فى مجاهلها:

كَأَنْ قَدْ ، فلاَ يغرُّرُك منى تمكنى ، وإنى زَعيم أَنْ أَلفَ عجاجتى وإنى زَعيم أَنْ أَلفَ عجاجتى وأمشى لدى العَصْدَاء أبغى سرَاتهم هم عرفونى ناشئاً ذا منخيلة كأنى إذا لم أمس فى دار خالد

سلكتُ طريقاً بين يَرْبُغُ فالسرد على ذى كساء من سلامان أو برُدِ وأسلك خَلاً بين أرفاغ والسرد أمثى خلال الدار كالأسد الورد بتياء لاأهدى سبيلا ولاأهدى(٢)

أما عمرو ذو الكلب فيعلن أعداءه بأنالصراع بينه وبينهم سيكون مريراً لا رحمة فيه ، الوَيلُ فيه للمغلوب ، وينذرهم بأنه لن يرحمهم إذا ظفر بهم ، كما أنه لا يريد منهم رحمة إذا هم ظفروا به ، فليكن الصراع بينه وبينهم عنيفاً ، وكيغزُهم برفاقه الصعاليك الشجعان الذين يختلف عندهم بين الواحد والحماعة ، وهو \_ فوق ذلك كله \_ يتوعدهم بأنه لن يكفعن عن غزوهم حتى يقتلهم ويرمل نساءهم :

وإِنْ أَثْقَافَ فسوف ترَوْنَ بالى أَوَّم سوادَ طود ذى نِجَال ويوماً فى أَضَاميم الرجال

فَإِنَّ أَنْقِفْتُمُونِي فَاقْتَلُونِي فَأَبِرَ حُ غَازِيًا أَهدى رُعيلا ويبرحُ واحدُ واثنان صَحبي

<sup>(</sup>١) ديوانه في الطرائف الأدبية /٣٩ ، ٣٦ . والأغانى ٢١ / ١٣٥ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ١١ ، ١١ . مع اختلاف في الألفاظ والترتيب -- دهو أو رهو ، وعداف ، ويتور ، ويسبط ، وعصنصر : أسماء جبال . الحياط : شجر يشبه شجر التين ـ ينو صعب بن مر هم إخوة سلامان . ذات الرس و بطن منجل : موضعان .

<sup>(</sup>٢) ديوانه في الطرائف الأدبية /٣٤ . والأغاني ٢١ / ١٣٥ . والخبكري : مصبم ما استعجم الإمران و المرائف الأدبية /٣٤ . والأغاني ٢١ / ١٣٩ . يربغ : موضع بين عمان والبحرين . السرد وأرفاغ : جيلان ليني سلامان ، وجما منازلهم . العصداء : أرض لبني سلامان . المفل : الطريق ينفذ في الرمل ، أو النافذ بين وملتين ، أو النافذ في الرمل المتراكم .

بفتيان عَمارطُ. منْ هذَيل همُ ينفون آناسَ الحِلال وأبرحُ في طوال الدهر حتى أقيمَ نساء بَجْلَةَ بالنعَالُ (١) وأما تأبط شرا فقد كان أوسع ميداناً من ذي الكلب ، فإنه لا يقنع بغير غزو خصم وبجيلة وثمالة وهذيل ، وهو يرد الفضل في هذا كله إلى قدميه اللتين أودع الله فيهما عذاباً وشرًّا يصبهما عليهم :

أرى قدى وقعهما خفيف كتحليل الظّليم حذا رثالة أرى بهما عذاباً كل يوم لخثهم أو بجيلة أو ثماله وشرًّا كان صُبَّ على هذيل إذا علِقتْ حبالهُم حباله (٢) وهو لا يترك دم صليقه دون أن يثأر له ، وإنما يهدد بالانتقام الشنيع ، يقتل فيه الرجال ، ويسبى النساء ، فأكبر همه كما يقول و دم الثار أو يلتى كياً مسفيعاً و أن عابة ما في الأمر أنه يحترم تقاليد مجتمعه اللينية ، فيؤخر انتقامه حتى تنهى الأشهر الحرم :

فَعُدُّوا شهورَ المُحُرِّم ثم تَعرَّفوا قتبلَ أناس أو فتاةً تعانَقُ (1) وهو في هذا الاحترام لمقلمات مجتمعه يخالف تلميذه الشنفرى الذي يصرح في بعض شعره بأنه قتل قتبلا في أيام حجه وسط الحجيج المصوَّت بمي : قتلنا قتبلا مُهُدِياً بملسد جمارَ مني وسط الحجيج المصوَّت (0)

<sup>(</sup>۱) شرح أشعار الهذليين ١/٢٢٠ ، ٢٣٤ - أثقفه : ظفر به . البال في البيت الأول معناه الحال . قوله و فأبرح غازيا ، يريد به فلا أبرح . الرعيل : الجاعة المتقدمة . النجال : ما يخرج من الأرض . الأنساميم : الجاعات ، واحدها إضهامة . العارط : الصعاليك . الحلال : جمع حلة ، والمدى أنهم يمرون بأصحابها فيهربون من خوفهم . بجلة : قبيلة .

<sup>(</sup>٢) الأغانى ١٨/ ٢١٨ ، وأيضا /٢١٦ – التحليل : العدو . الردّال : جمع رأل وهو ولد النعام . حذا : حاذى .

 <sup>(</sup>٣) حامة أبى تمام ١/٤٤ . والأغانى ١٨ /٢١٧ وفيه « مقندا » مكان « مسفدا » .
 (٤) الأغاني ١٨ /٢١٤ . الحرم : الإحرام . و يريد بقوله « فاة تمانق » سبية ثقع في أسره .

١٢٧ - والأغانى ٢١ / ١٤٠ وفيه و محلهما بين الحجيج ع. وأيضا / ٢١ = ١٣٧
 الشهراء الصمائيك

ومن أطرف ما نصادفه في هذا الباب توعد الصعلوك للصملوك ، وتأتى طرافته من أنه يمثل صراعاً بين قوتين متكافئين ، ومن هنا كان حرص كل مهما على تجنب الاصطلام بالآخر من أخص ميزات هذا اللون من التوعد ، ولكن هذا الحرص ليس جبناً ، وإنما هو محاولة لتفادى الكارئة ، ولهذا كان حديث الشاعر الصعلوك عن حرصه هذا مقر وناً عادة " بحديثه عن قوته ، ومقدوته على التغلب على خصمه إذ أن أى ضعف يبدو منه في هذا الحديث قد يكون سبباً في أن بدفع حياته ثمناً له ، ولهذا كله كان توعد الصعلوك للصطوك في شعر الصحاليك قليلا جداً ، ولعل أصلق مثال لهذه و الحرب الباردة ، يين الشعراء الصحاليك توعد أن يصفه أولا بأنه يعانى صراعاً نفسياً ، سببه حقده عليه يلقبه ، فهو في قصيدة له يصفه أولا بأنه يعانى صراعاً نفسياً ، سببه حقده عليه وعجزه عنه ، ثم ينصحه ثانياً بأن يخفف من حدة هذا الصراع النفسى ، ولكنه يعاده من أن يجعل وسيلته إلى ذلك الاصطدام به ، فإنه لو فعل التي حتفه كذوه من أن يجعل وسيلته إلى ذلك الاصطدام به ، فيمزج العنف باللين في حديث قيه لباقة وفيه دهاء ، يجعل وسيلته إليه أن يشير إلى بعض الصفات المحمودة في خصمه ، ويسأله ألا يكون سبباً في الإساءة إلها :

فإن ابن تُرْنى إذا جئتكم أَرَاه يُدَافعُ قولا عنيفا قد افنى أنامله أَزْمهُ فأمسَى يعض على الوظيفا فلا تقعدن على زخّة وتُضمر ثالقلب وَجدًا وَخِيفا ولا تُقدَمن على خطة تكون إداً لك حتفا ففيفا ولا أَبغينُكَ بعد النهى وبعد الكرامة شرًا ظليفا ولا أَرْفعنُك رَقْعَ الصّدِي علاء م فيه الصنّاع الكتيفانا الكتيفانا ولا أَرْفعنُك رَقْعَ الصّدِي علاء م فيه الصنّاع الكتيفانا

تنوفيه و قتلت حراما و رو ببطن من وسط الحبيج و ، وهي رواية البندادي في خزاقة الأدب ٢ /١٨~ المهنى : الذي يقدم الهنى . والملبد : المحرم الذي يأخذ صمنا فيلبد به شعود لثلا يشعث في مدة الإحرام . والمدي : قتلنا رجلا محرم ارجل محرم . وقوله و جهار منى و أي عند جهار منى . والمصوت : الملمي الذي يرفع صوته و التلاية في المهج .

<sup>(</sup>١) شَرَح أشعار الحذليين ١/٤٦، ٧٤ - الأزم : العض . الوظيف : الذراع . الزخة : =

#### وصف الأسلحة :

ومن الطبيعي أن يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحتهم ، فهي القوة الثالثة التي يعتمدون عليها في مغامراتهم إلى جانب قوة قلوبهم وقوة أرجلهم ، تلك القوى الثلاث التي تقوم عليها حياة الصعلوك يجمعها تأبط شرا في رثاته للشنفري حيث يقول :

فلا يبعدُنُّ الشنفرَى ، وسلاحه الصعاليك من تلك التي كان يعرفها العرب والأسلحة التي يصفها الشعراء الصعاليك من تلك التي كان يعرفها العرب في العصر الجاهلي ، سواء منها أسلحة الهجوم : السيف ، والرمع ، والقوس ، والسهام ، أو أسلحة الدفاع : الديع ، والترس ، والمغفر . ويلح الشعراء الصعاليك على الحديث عن هذه الأسلحة إلحاماً شديداً ، وليس في هذا غرابة ، إذ أنها تكاد تكون كل ما يملكون في حياتهم الفقيرة ، وهي من غير استخدام الأفعال المقاربة كل ما يحرصون عليه في هذه الحياة الحمراء المتمردة . وفي أبيات لعروة يذكر أنه لن يخلف لوركته بعد موته سوى درع ومغفر وسيف ورمح وجواد (٢) ، فهذا كل ما يحرص عليه في حياته ، وكل ما سيظل محافظاً عافظاً

و بصرّح صخر الغی فی بعض شعره بأنه حریص علی سلاحه لا یفرط فیه ، لئلا یطمع فیه أحد من أولئك الذین یتوعلونه ، ویتر بصون به ، من أعدائه الذین طالما و تر هم ، فهو بعدد سلاحه فی قصیدة طویلة له ویصفه ، ثم یقول عنه : ذلك بَرّی ، فلن أفر طه أفر طه أخاف أنْ ینجزوا الذی و علواله من ویصل اعتداد الأعلم الهذل بسلاحه إلی درجة أنه یری فیه وسیلة تنقله من

النبية . الحيف: جمع خيفة . الحنف الفغيف : القاتل الذي يجهز عليه . الظليف : الشهيد أو النفيظ . وقعه : أصلحه بالرقاع كرقعه (بالشايد). الصديع : النصف من الشيء المشقوق تصفين . العلم . أصلح . الكتيف : الضبات ، يريد لا أرقعنك بالمجاء .

<sup>(</sup>١) الأغانى ٢١/ ١٢٧ . وديوان الشنفرى في الطرائف الأدبية /٢٩ – الشد : الجرى .

<sup>(</sup> ۲ ) انظر دیوانه / ۲۰۷ ـ

<sup>(</sup>٣) شرح أشمار الهذليين ١٣/١ - والبز : السلاح .

دائرة البشرية إلى دائرة يكون فيها صنواً للموت :

منى ما تلقنى ومعى سلاحى تلاق الموت ليس له عليه الله الله ويصف الشعراء الصعاليك أسلحهم المختلفة وصف المفتون بها الذي يهم بكل أجزائها ، ويحرص على أن يسجل في سعديثه عنها كل شيء فيها : لونها ، وشكلها ، وصوتها ، وطريقة صنعها ، وطريقة استخدامها ، وقيمتها في سحياته ، وفعلها في أعدائه .

قالسيف عند عمرو بن براقة وجل ماله و لا يفارق يمينه ، بل هو طوع أمرها ، ولكن لحمله تقاليد ، فصاحبه يجب أن لا ينام الليل ، إذ أن من تقاليد صمله أن يكون صاحبه من و أبناء الليل ، الذين يرعون حق و أبوته و :

وكيف ينامُ الليلَ من جل ماله حسامٌ كلون الملح أبيضُ صارمُ غموض إذا عض الكرسة لم يدَع له طمعاً ، طوعُ اليمين ملازمُ (٢) وهو عنده أحد أركان ثلاثة يعتمد عليها من يريد أن تجتنبه المظالم في ذلك المجتمع الذي يدين بشريعة القوة :

متى تجمع القلبَ الذكى وصارمًا وأَنفا حمِيًّا تجتنبكَ المظالمُ (٣) وهو عند عمرو ذي الكلب الهذلي وشاحٌ لصدره :

تمنّانى وأبيض مشرفيّا وشاح الصدر أخلِصَ بالصّقال (1) وصخر الغى الهذلى حريص على أن يرسم لسيفه صورة دقيقة ، فهوسيف ماض من حديد جيد أصيل ، رقيق الشفرتين ، يجرى الفرند فى متنه ، ثم هو سيف متنى ، فكلاً عنه سيوف أربح حتى أخرجه من بينها سيفاً معدوم النظير ، لا تقوى أشد العظام على ضربته ، وإنما تتكسر تحنها قطعاً :

وصارمٌ أَخلِصَتْ خشِيبتُهُ أَبيضُ مَهُو في متنه رُبَدُ

<sup>(</sup>١) المصدر السابق /٦٣ .

 <sup>(</sup>۲) القالى: الأمالى ۲/۲۲، والأغانى ۲۱/۹۷،ونيه و صموت و مكان وغموض»
 و و مكارم و مكان و ملازم و . والميف النموض : الذي يغيب في الحم .

<sup>(</sup>٣) المعدران السابقان : الأمثل الصفحة نفسها ، والأغاق (٢٧١ :

<sup>(1)</sup> شرح أشعار الحذليين ١/٥٣٥ .

فَلُوْتُ عنه سيوفَ أَرْبِحَ إِذَ بِاءَ بِكُنَى وَلَمَ أَكِدُ أَجِدُ فَهُو حَسَامُ تُبَرُّ ضَرِبَتُهُ سَاقَ المذكيِّ فَعَظْمِهَا قِصَدُ (۱) أنه أما تأبط شرا فيعرض علينا صورة طريفة لسيفه ، فهو \_ إلى جانب أنه حاد ثقيل لا يفارقه حتى أبلي محمله \_ سيف أصيل إذا كل لا يحتاج إلى صيقل ، وإنما حسبه أن يحده صاحبه على الصخر فإذا هو حادكا كان : فطارَ بقَحْف ابنة المجن ذو سفاسِقَ قد أخلق المحملا فطارَ بقَحْف ابنة المجن ذو سفاسِقَ قد أخلق المحملا إذا كلَّ أمهيته بالصفا فحدَّ ولم أره صَيقلاً ١١ وأما الشفرى فيهم بأثر سيفه في أعدائه ، وبالحديث عن براعته في استخدامه ، فهو يقصد به أطراف سواعدهم ، أيعجزهم بذلك عن العمل :

وأبيضُ من ماء الحديد مهند مِجدُ الأطراف السواعد مِقطفُ (٢) وهو حريص على أن يصور رفاقه ونفسه في غاراتهم وهم يستخدمون سيوفهم

في الهجوم والدفاع حتى ينهزم أعدارُهم :

فشن عليهم هِزَّة السيف ثابت وصمم فيهم بالحسام السيّب وظلت بفتيسان معى أتقيهم بهن قليلا ساعة ثم خيبوا الله وظلت بعدل وصف السيف عند الشعراء الصعاليك إلا وصفهم القوس والسهام . وأكثر من اهم بوصفها منهم الشنفرى والهذليون . ويبدو أن مرد هذه الظاهرة الفنية إلى ظواهر اجهاعية خاصة في حياتهم ، فقد كان الشنفرى . كما يصوره الرواة مفتوناً بسهامه ، حريصاً على أن تكون معلمة يعرفها الناس ،

<sup>(</sup>۱) المصدر السابق /۱۲ - خشيبته : طبيعته . مهو ؛ رقيق الشفرتين . ربه ؛ أى لمع تخالف لونه ، يربه الفرند . فلا : بحث . أربح : قرية بالشام . باء بكن : أى صار بكن . تَر : تَبرى . المذكى : المسن أو البدين . القصد : الكمر ، أو القطم فيها منع .

<sup>(</sup>٢) ابن قتيبة: الشعر والشعراء /١٧٦ – سفاسق السيف: طرائقه . أمهى السيف: أحده.

 <sup>(</sup>٣) ديوانه في الطرائف الأدبية / ٣٨ , وديوانه المصور لوحة رقم ٥٠ , والأغانى ٢١ / ٢١ وفيه و فحد لأطراف السواعد معطف ع , والتحريف فيه واضح .

 <sup>(</sup>٤) الأغان ١٨ / ٢١٦ ، وديوان الشنفرى في الطرائف الأدبية / ٣٢ - الضمير في « بهن ه يعرد على السيوف المفهومة من السياق .

فكان يميزها بعلامة خاصة حتى تعرف ، ويحدثنا الرواة أنه كان و يصنع النبل و يجعل أفواقهم من القرون والعظام ، فكان أعداؤه إذا رماهم و يعرفون نبله بأفواقها في قتلاهم الله أم وأما الهذليون فقد عرف عنهم الرى من بين ثلاث صفات مميزة سجلها لهم القدماء (١) .

وهم يصفون السهام فى جميع أطوارها ، منذ بريها ، وتركيب الريش فيها ، حتى استخدامها ، فى الرمى، كما يصفون نصالها وأفواقها . ويتحدث الشنفرى فى بعض شعره عن سهامه وكيف يتخيرها ، وكيف يركب فى قداحها الريش ، وكيف يتابع فيها البرى حتى تصير صالحة للاستعمال ، ثم يتحدث عن قيمة هذه السهام التى أعدها هدية لأعدائه الذين يبغضهم :

وَرَدْتُ بِمَاثُورِ بَمَانُ وَضَالَةً تَخْيِرَهَا مَمَا أَرْيِشُ وَأَرْضُفُ أَرْكِبِهَا فِي كُلِّ أَحْمَرُ غَاثَرٍ وَأَنْسِجُ لِلولدانُ مَا هُو مُقْرِفُ وتابعتُ فيه البَّرِيَ حَيْ تَركته يرنَّ إِذَا أَنزَفته ويزَفزفُ يكفي منها للبغيض عُرَاضَةً إِذَا بعتُ خَلاَّمَا له متعرَّفُ (٣)

ويتحدث فى مقطوعة أخرى عن رميه أحد أعدائه بسهم قوى لا عوج فيه ، ثم يصف أجزاء هذا السهم ، فهو عود من نبع عليه ريش من ريش العقاب ، وله فوق كأنه عرقوب القطاة :

ومستبسل ضافى القميص ضممته بأزرق لا نيكس ولا متعوَّج

 <sup>(</sup>١) الأغانى ٢١/٢١ - و أفواقهم و كذا في المصدر ، ومن الواضح أنه خطأ صوابه
 و أفواقها و . وأفواق جمع فوقي وهو موضع الوتر من السهم .

 <sup>(</sup> ۲ ) يقول الأصمى : وإذا قاتك الهذل أن يكون شاعراً أو ساعياً أو رامياً فلا خبر فيه ي .
 ( المصدر السابق / ۷ ه ) .

<sup>(</sup>٣) ديوانه في الطرائف الأدبية /٣٦ . والأغاني ٢١ / ٢٤١ . وديوانه المسور ، اوحة رقم ٢٥ . مع اختلاف في الروايات ، والذي هذا رواية المسدر الأول - المأثور : السيف . الضالة : يريد بها هذا السيام . الفرة : غيرة إلى خضرة . المقرف : الداني . أرفته : كذا تي نسخي الديوان ، وأظها تحريفاً صوابه ما في الأغاني و أنفذته ه . الزفزة : صوت القدح حين يدار على النفر . المراضة : الهدية . الحل : الطريق في الرمل .

عليه نسارى على خُوط. نبعة وفُوق كعرقوب القطاة مُدخَرَج (١) وأما عمرو ذو الكلب فيعنى بوصف نصاًل سهامه لأنها التي يكمن في سنانها الموت ، فهي حيناً رماح طائرة يكسوها ريش منسول :

وَتُجْرًا كَالْرِمَاحِ مُسْبِيْرَاتِ كُسَيْنَ دُوَاخِلُ الْرِيشِ النَّسَالِ<sup>(۱)</sup> وهي حيثاً آخر كأنها شوك العضاء:

وفى قعر الكنانة مرهفات كأن ظباتها شوك السيال (٣) وهم يتحدثون أحياناً عن عددها ، فهذا الشنفرى يصف تأبط شرا أو وأم العيال و كما كان يسميه مداعباً ، ويذكر عدد مهامه التي بحملها في جعبته :

لها وَفضَةُ فيها ثلاثون سَيْحَفا إذا آنست أولى العدى اقشعرت الما أما حين ينبضُون فيها ، أما حين ينبضُون فيها ، أما حين ينبضُون فيها ، أو حين ينبيثون الرى ، فهو صوت يفتنهم فتنة شديدة تبدو فى ذلك الإلحاح الشديد على تسجيله فى شعرهم ، وليس فى هذا غرابة فإن هذا الصوت إيذان ببدء عملهم الذى وهبوا حياتهم له . وصوت القوس فى سمع صخر الغى عندما ينبض فيها كأنه أصوات قوم يبحثون عن شىء فقدوه :

وسَمْحةٌ من قِسِي زَارَةً صف راء متوف عِدَادُها غرِدُ

(٣) شرح أشعار الحذليين ١/٥٣٥ - الشجر : جسع أشجر وهو النصل العويض الوسط .
 التسائل : ما تساقط من الريش .

<sup>(1)</sup> ديوانه المطبوع / 71. والأغانى ٢١ / ١٤١ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ٥٢ . مع اختلاف في رواية البيتين – الأزرق يريد به السهم . المنكس : السهم ينكسر فوقه فيجعل أعلاه أسفله . النساري : ريش النسارية وهي العقاب ، ويذكر الميمني في تعليقاته على الديوان أنه لم يجدها في المساج ، وقد على أنها من ريش النسر . المدحوج : المدور .

 <sup>(</sup>٣) شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٣٥ - السيال : قيات له شوك أبيض طويل ، أو ما طال
 من السمر .

كأن إرنائها إذا رُدمت هزمُ بُغاة في إثر ما فقلوا(١١ ولكنه في سمع عمرو ذي الكلب عجيج ، كأنه حنين ناقة مسنة تسبقها إبل شابة فتية ، فهي عاجزة عن مسايرتها وهي لهذا دائمة الحنين :

وفى الشمال سمحة من النشَم صفراء من أقواس شيبان القدُم تَعِجُ في الكف إذا الرامياعتزم ترتم الشارف في أخرى النَّعم (٢) وهو في سمع الشنفري رنبن وهتاف ، ولكنه رنبن حزين كصوت الشجى أثقلته شجونه وأحزانه :

وَصَفَرَاءُ مِن نَبِع أَبِي ظهِيرة نُرُنُ كَإِرَنانِ الشَّجِيِّ وَبَهَ فَ " وَصَفَرَاءُ مِن نَبِع أَبِي ظهِيرة نُرُنُ كَإِرَنانِ الشَّجِيِّ وَبَهَ فَ السَّهِم فَي وَلَكَنَ هَذَا الصَوتِ الحَرِينِ الحافتِ ينقلبِ عندما تأخذ السهام في الانطلاق إلى صوت نشط مدو كأنه دوى نحل عائد إلى غاره ، فهو ملتف حوله مطيف به ، يبحث عن منفذ إلى داخله في نشاط ودوى :

إذا طال فيها النزع تأبى بعَجْسها وترى بذَرُوَبها بهن فتقذفُ كأن حفيفَ النبل من فوق عجسها عوازبُ نحل أخطأ الغار مُطنِفُ أنا والشنفرى لا يكتنى بهذا ، بل يأبى إلا أن يكون دقيقاً فى وصفه ، فهو يلاحظ أن للقوس عند الرى صوتين : صوتاً عند بدء الرى ، وصوتاً بعد الانهاء منه ، فانطلاق السهم يبدأ بصوت عال صارخ ، ثم ما إن ينطلق السهم حتى بهذا رئين القوس ، ويتحول إلى صوت ضعيف خافت نتيجة لاهتزازات وترها ، فهما صوتان مختلفان ، أما أولهما فهو عنده صياح ، وأما الآخر فأنين كأنين الجريح :

(٤) الأغانى ١٤١/٢١ . وديوانه المطبوع ٢٨/ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ٥١ ، مع اختلاف فيالروايات - العجس ، مثلثة للعين ، مقيض القبوس . والقروان: طوفاها ـ والمطنف : الله من الدين من المسلمان المسلمان العين ، مقيض القبوس . والقروان: طوفاها ـ والمطنف :

الَّذِي يَمَانِ الطَّنْفُ وَهُو رَأْسُ أَلِحُيلُ .

<sup>(</sup>١) شرح أشمار الهذليين ١٣/١.وديوان الهذليين٢/١٠-السمحة: القوس المواتية . زارة : حى من أزد السراة . عدادها : صوبّها . غرد : شديد الصوت . ردمت : أذبض فيها . الهزم : الصوت .

 <sup>(</sup>۲) شرح أشعاد الهذليين ۱/۲۲۹، ۲۶۰ - النشم : شجر . الشارف : الناقة المسنة .
 (۲) الأغانى ۲۱/۲۱ . وديوانه المطبوع / ۳۸ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ٥٠ ،
 وفيهما و وحمراء يا يدلا من و وصفراء ي - الظهيرة : القوية الظهر .

وقاربتُ من كنى ثم فرَجتها بنزع إذا ما استكرة النزعُ مخلج فصاحت بكنى صيحةً راجعت ما أنينَ الأَميرذي الجراح المشجّج (١)

وكما يهم الشعراء الصعاليك يصوت القوس ، يهتمون أيضاً بلوبها ، وهي عند الهذليين في ضوء ما وصل إلينا من شعرهم صفراء دائماً :

وَسَمِحةً مِن قَسَى زَارَةً صَفَ رَاء هَتُوفٌ عَدَادها غِرِدُ<sup>(۱)</sup> وصفراء البُرَاية عود نبع كوقف العاج في ورد حُدَال<sup>(۱)</sup> وفي الشيال سمحة من النشم صفراء من أقواس شيبان القدّم أنا ولكنها عند الشنفرى أحياناً صفراء وأحياناً حمراء ، ويبدو أن مرد هذا إلى دقة ملاحظة الشنفرى ، وصدق تعبيره عن تجاربه ، فالقوس تكون صفراء في أول أمرها ، فإذا ما كثر استعمالها وتعرضت للشمس والمطر والتقلبات الجوية صارت حمراء . يقول في تاثيته منحدثاً عن أصحابه في بعض غزواته بهم :

وباضعة حسر القسى بعثتها ومَنْ يغُز يغم مرة وَيشمَّتِ<sup>(٥)</sup> ويقُول في قصيدة أخرى :

وصفراء من نبع أبى ظهيرة تُرِنُّ كإِرنان الشجى وتهنفُ<sup>(١١)</sup> ومن هنا اختلف الرواة في هذا البيت ، فبعضهم يرويه ووحمراء من

<sup>(</sup>١) الأغانى ٢١/ ١٤١، ١٤٣ . وديوانه المطبوع /٣٤ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ٢٥، مع اختلاف في الروايات – النفرع : مد القوس . مخلج : من خلج بمعنى جذب وغمز وانتزع ، وفي نسخي الديوان ۽ محلج ، من حلج النداف . الأميم : المشجوج على أم رأت .

<sup>(</sup>٢) أَفَارَ صَ ٢٠٠ مِنْ هَذَا الْبِحِثُ ، الْحَامِثُ رَقِمِ ٢ .

 <sup>(</sup>٣) شرح أشعار الحذايين ١/ ٢٣٥-الوقف : السوار . الورك : جاذب القوس ، ومجرى الورّ منها ، والقوس المصنوعة من ورك الشجرة أى عجزها . القوس الحدال : الى مال عنقها ، وتطامنت إحدى سيتها .

<sup>( \$ )</sup> أنظر ص ٢٠٠ من هذا البحث ، الحامش رقم ٢ .

<sup>(</sup>ه) المفضليات /٢٠٢ - الباضعة : القاطعة ، ويرأيد بها قوما غزاة . حمر القسى : يقول ابن الأنبارى فى شرحه على المفضليات /٢٠٢ ه غزوا مرة بعد مرة فاحمرت قسيهم للشمس والمطر ، والقمى تحمر على القدم م . يشمت : يخيب ولا يغنم .

<sup>(</sup>٦) أنظر ص٢٠٠٠ من هذا البحث ، الحامش رقم ٣ .

نبع ه ١١٠ ، ولكن من الطريف أن تأبط شرا في رئاته له يصف قوسه بأنها صفراء :

يُعْرِّ ج عنه غُمَّة الروع عزمة وصفراء مرنان وأبيض باتر ١٦٠ أما وصف الصعاليك الرماح فهو قليل ، ولعل السبب في هذا قلة اعيادهم عليها في مغامراتهم ، وذلك الآنها من الأصلحة التي يستخلمها القرسان أكثر الما يستخلمها الرجالة ، ومن هنا كان أشهر من تحلث عنها من الشعراء الصعاليك عروة بن الورد وهو من الصعاليك الفرسان (١٦) ، وهو يرسم في رائيته المشهورة صورة راثعة له والمصحابه ، وهم على خيلهم يطاردون إبلا نهبوها ، وقد أشرعوا رماحهم وسيوفهم ليدفعوا عنها أصحابها الذين خرجوا خلفهم ليستردوها : منهزع بعد اليأس من الإيخافنا كواسع في أخرى السوام المنفر نطاعن عنها أول القوم بالقنا وبيض خفاف ذات لون مشهر الله وهي صورة تستمد روعتها من صلقها وحيويتها ، فهذه الخيل القوية السريعة وهي صورة تستمد روعتها من صلقها وحيويتها ، فهذه الخيل القوية السريعة التي يمتطيها الفرسان الصعاليك مشغولة بمطاردة أخريات الإيل المهوية ، أما فرسانها أنفسهم فشغولون بمقاتلة طلائع القوات المهاجمة من أصحاب الإيل . وقد مر بنا أن عروة ذكر رحه من بين الأسلحة التي هي كل ما سيخلفه لورثته

مقوم معتمل :
وأسمرُ خطى القناة مثقّف وأجردُ عربانُ السراة طويلُ (٥)
والطريف في حديث عروة عن رمحه أنه لا يذكره إلا مقترناً بجواده ،
كما نرى في هذين المثلين ، مما يؤيد تعليلنا لقلة وصف الشعراء الصعاليك للرماح
بأنها من أسلحة القرسان .

من بعده ، وهو يذكر أنه رمح أسمر، قناته من الخطى المشهور، ثم هو رمح

<sup>(</sup>١) انظر المرضع السابق ، الحامش نفسه .

<sup>(</sup> ٢ ) ديوان الشنفري المطبوع / ٧٨ . وجامة الخالديين ( مخطوطة ) ، ورقة رقم ١١٧ .

<sup>(</sup>٣) الأغاني ٢/٣٧ .

<sup>(</sup>ع) ديوانه /٢٨ ، ٨٤ .

<sup>(</sup>ه) افظر من وه من هذا البحث ـ

ومع ذلك نجد عند بعض الصعاليك السرويين آثاراً ضئيلة من أحاديث الرماح . يتحدث تأبط شرا ، في رئائه لصاحبين له قتلا في بعض غزوهما ، عن مغامراته بفتيان من الصعاليك يحملون في أيمانهم نوعين من الأسلحة ، ماحاً سمراً ونصالا ذات شعبتين :

لأطرُدَ نَهِباً أَو نَرُودَ يَفَتَيةَ بَأَيَانَهُم مَمْرَ القَمْا والفَتَائَقُ<sup>(1)</sup> ويتحدث الشنفرى عن طعنه قتلة َ أبيه طعنة مامة تمج من حولها مم ثعبان خطر :

فإن تطعنوا الشيخ الذي لم تُفَوَّقوا منيته ، وغبتُ إذْ لم أشهدِ فطعنةُ خلس منكمُ قد تركتها تمج على أقطارها شمَّ أسودِ ألله ويتحدث أبو الطمحان عن ضرب يزيل الرءوس عن الأعناق ، وطعن شديد يحدث صوتاً كأنه تشهاق ولد الحمار حين يهم بالنهق :

بضرب يزبل الهام عن سكناته وطعن كتشهاق العفاهم بالنّهق ("") وهي جميعاً ــ ما عدا بيت تأبط شرا ــ حديث عن آثار استخدام الرماح في الطعن ، وليست وصفاً صربحاً لها .

ومن الطريف أننا لا نجد حديثاً عن الرماح فى شعر صعاليك هذيل ، ما عدا بيتاً واحداً لأبى خراش ، وهو مع ذلك ليس فى مقام الحديث عن

<sup>(</sup>١) الأغافي ١٨ / ٢١٤ - النهب : الغنيمة . والفتيق : النصل له شعبتان .

<sup>(</sup>٢) ديوانه المطبوع / ٣٥ . وشرح ابن الأنبارى على المغضليات / ١٩٨ – لم تغوقوا : وي الميمى في تعليقاته على الديوان أنه تحريف و ولعل صوابه لم تفوتوا من الغوت ، ويرى Bevan وي الميمى في تعليقاته على الديوان أنه تحريف و ولعل صوابه لم تفوتوا من الغوت ، ويرى ١٩٨ ) ، أن صوابه و لم تعوقوا ، (انظر تعليقات ١٩٨١) ، وأنها من فوق الفصيل إذا سقاه المين قواقا قواقا ، والغواق ما بين الحلبتين من الوقت ، والمفوق ما يؤخذ قليلا قليلا من مأكول ومشروب، و يكون المعنى على هذا ، أنكم طعنتموه طعنة قائلة لم تدع له فرصة النجاة ، والعلمن خاص بالرماح (انظر الثمالي : فقه النه / ٣٠١) .

 <sup>(</sup>٣) لسان العرب : مادة (شهق) . والسيوطى : المزهر ٢/٤/٢ ، وفيه ، بضرب كآذان
 الفراء فضوله ، -- السكنة : مقر الرأس من العنق . التشهاق : الشهيق . العقا : ولد الحمار .

استخدامه لها ، وإنما في مقام تشبيه إخوته الذين يرثيهم بها (١) .

وكما يتحدثالشعراء الصعاليك عن أسلحة الهجوم ، يتحدثون عن أسلحة اللغاع : الدرع والترس والمغفر ، ولكنه حديث خافت الأنغام . وهذا طبيعي لأن الصعاليك ليسوا في حاجة إلى أسلحة للدفاع لأن سلاحهم الدفاعي الأول --أو بتعبير أدق -- سلاح أكثرهم سرعة العدو آلحارقة للعادة ، وهو سلاح طالما استخدموه فأنجاهم . ولهذا كان طبيعيًّا أن يتحدث عروة عن درعه ومغفره كما نرى فى أبياته التي أشرنا إليها والتي يتحدث فيها عما سيخلفه أورثته من بعده ، فإن عروة كما نعرف عنه لم يكن من العدائين ، ومع ذلك لم يتحدث عن هذه الأسلحة الدفاعية إلا في هذا الموضع ، إلا إذا كان شعر عروة الذي بين أيدينا ليس كل شعره ، وكان في شعره المفقود حديث عن هذه الأسلحة الدفاعية . ولكن الغريب حقيًّا أن يردَ ذكر هذه الأسلحة الدفاعية في شعر صعاليك هذيل ، ووجه الغرابة أن الهذليين مشهورون بالعدو ، فهم ليسوا فى حاجة إلى هذه الأسلحة الدفاعية لأن سلاحهم معهم داعاً. ومع ذلك فالمسألة لا تصل إلى درجة المشكلة لأن حديث صعاليك هذيل عن هذه الأسلحة لم يتجاوز حديثهم عن الترس فقط، وهو مع هذا حديث خافت الأنغام لا يعلمو حالتين : إما إشارة سريعة له ، وإماً وصفاً لصنعه ، فصخر الغيّ يشبر إلى ترسه ، عند ذكره لمجموعة أسلحته، أو ﴿ بِرَزُّه ﴾ كما يسميها ، إشارة سريعة لا تتجاوز جزءاً من شطر يصفه فيه بأنه مقبب موثق :

إنى سينهى على وعيدهم بيض رهاب ومُجْنَأ أَجُدُ<sup>(٢)</sup>
وقد يكون عمرو ذو الكلب أشد عناية بترسه من صخر الغي ، فهو يفرد
له بيتاً في إحدى قصائده يصفه فيه بخمس صفات : فهو أسمر ، مقبب ،
مصنوع من جلد ثور ، أصم لا خلل فيه ، تصيبه النصال فترتد عنه وقد
تكسرت ظباتها :

<sup>(</sup>١) ديوان الهذليين ٣/١٧٤ (البيت الأول) .

 <sup>(</sup>۲) شرح أشعار الهذايين ۱۳/۱ - رهاب أي رقاق . مجنأ أي مقيب . أجد أي موثق
 أوي .

وأسمرَ مُجْناً من جلد ثور أصم مفلّلا ظُبّة النصال(١) أما أبو خراش ، ثالث الصعاليك الهذليين الذين وصفوا الترس، فقد وصف ترمه بأنه موثق ، مصنوع من جلد ثور ، ولكن وقفته طالت عند هذه الصفة الثانية ، إذ مضى يصف هذا الثور ، وكيف نشأ في واد خصيب مطير ، حتى شب قوياً يطعن الثيران المتصدية له، فترند دامية من طعناته ، ضخماً كأنه خيمة كبيرة:

وجلد أبي عجل وثيق القبائل فروعُ الأباء في عميم السوائل تصدّعن عنه داميات الشواكل

أُواقد ، لا آلُوكَ إلا مهنّدا غذاه من السُّرين أو بطن حَلْية مِشَبُّ إذا النيران صدت طريقه يظل على البَرْز اليفاع كأنه طِرَافٌ رَستُ أوتادُه عند فازل (٢)

وهكذا نستطيع أن نقرر ، في ضوء ما بين أيدينا من شعر الصعاليك ، أنهم بقلر ما كانوا حريصين على ذكر أسلحة الهجوم، مفتونين بوصفها ، كانوا نفورين من ذكر أسلحة الدفاع ، مقلين من وصفها .

## الحديث عن انرفاق :

كما يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحتهم التي يستخدمونها في مغامراتهم ، يتحدثون عن رفاقهم الذين برافقونهم فيها ، ودور كل واحد منهم . وما أكثر ما نجد في شعرهم ألفاظ الرَّجيل، والمَنسير، والسَّرْبِيَّة، والمُقِّنبَب، والفتيان، والأصحاب ، والصحب ، والقوم ، وأمثال هذه الألفاظ التي تدل على الجماعة ،

<sup>(</sup>۱) شرح أشعار الهذلينين ۱/۲۳۵.

<sup>. ﴿</sup> ٣ ﴾ ديوان الهذارين؟ / ١٣٩ – لا آ لوك : أي لا أدع جهدا في أمرك . أبو عجل هو الثور . السرين : هي رَبُّقة السرين بلدة على الساحل قريبة من مكة بين حلى وجدة . الأباء : القصب . العميم : ما أعم من النبت في سوائل المطر ، والسوائل الأماكن التي تسيل بالماء . المشب : الشاب من الثيران أو المسن . الشواكل : كل لحم مضطرب بين الجنب والودك . الطراف : الحيمة .

وما أكثر ما نجد في شعرهم استخدام ضمير الجماعة، يعبرون به عنرفاقهم لا عن قبائلهم .

وقد مر بنا فى صدر هذا الفصل (١) حديث الشنفرى فى باثبته عن رفاقه الذين خرج معهم ليغزوا العوص ، أولئك الرفاق الثمانية الذين يعتز بهم ، و يملأ الإعجاب بهم نفسه ، حتى ليصفهم بأنهم :

مراحين فتيان كأن وجوههم مصابيح أو لون من الماء مذهب ورأينا كيف وصف خروجهم معه ، وسيرهم إلى العوص ثلاث ليال على الأقدام ، واللور الذي قام به كل واحد مهم في الغارة ، فمن مهاجم بسيفه لا يتثني ولا يلين ، ومن مدافع عن رفاقه يحمى ظهورهم ، حتى تم لهم النصر ، وعادوا بغنيمهم إلى قومهم الصعاليك .

وفى تائيته المفضلية المشهورة بحدثنا الشنفرى أيضاً عن غزوة له لبى سلامان أعدائه الألداء ، بل ألد أعدائه ، على رأس جماعة من رفاقه الصعاليك (٢) ، وبعو يبدأ الحديث برسم صورة لرفاقه ، صورة سريعة ولكنها قوية ومعبرة ، فهم جماعة من الغزاة المغامرين قد احمرت قسيهم لكثرة غزواتهم ، ويقدم نفسه لنا رئيساً عليهم ، يبعثهم للغزو وهو يعلم أن النصر والهزيمة أمران يتعرض لهما كل مغامر ، وما احبال الهزيمة بصارف له عن المغامرة ، فهذه طبيعة المغامرة ، ومن يغز يغنم مرة ويشمت مرة أخرى . ثم بعد أن ينهى من تقديم رفاقه وتقديم نفسه ، يأخذ فى وصف خروجهم ، فيحدد أولا الموضع الذى اجتمعوا فيه بأمره تحديداً جغرافياً دفيقاً ، ثم يذكر اللوافع الى دفعته الذى المغامرة ، ثم يهون على نفسه مشقة الطريق ، فستنهى هذه المشقة المغربه من هدف حيث يراوح أعداءه ويغاديهم بغاراته ، ثم يعود بعد هذا إلى رفاقه ليتحدث عنهم حديثاً طويلا ، وهو بخص أحدهم — وهو تأبط شرا الذى كان يقوم على زادهم فى غزواتهم ، ويتولى أمر و التموين ه فيها — بحديث مرح

<sup>(</sup>١) افظر : ص ١٨٦ من هذا البحث .

<sup>(</sup>٧) المفضليات /٢٠٢ - ٢٠٠٠ وانظر أيضاً من ٥٠ من هذا البحث .

يداعبه فيه مداعبة طريفة ، فهو وأمهم ، التى تقوم على قوبهم ، وتقتر عليهم مخافة أن تطول الغزاة بهم فيموتوا جوعاً ، يعلن أنه غير راض عن هذه السياسة التى تنتهجها وأمهم ، لأن وعيالها ، جياع من تقتيرها ، فما تخشاه عليهم توقعهم فيه ، ولكنها لا تؤثر نفسها بشىء عليهم ، حتى لقد أصبحت نحيلة دقيقة ، وهي وأم ، ليست كسائر الأمهات ، إنها غير محجبة ، لا محجبها ستر ، ولا يضمها بيت ، تحمل جعبة فيها ثلاثون مهماً عريضة النصال ، وتعلو في مرعة فائقة وفي بمينها ميض صارم بتار :

وأمَّ عيالِ قد شهدتُ تقويهم إذا أطعمتهم أوتحت وأقلتو ونحن جياع ، أيَّ آلِ تألُّتِ تمخاف علينا العيل إن هي أكثرت ولا تُرتجَى للبيت إن لم تُبَيِّت مصعلكة لا يقصر الستردونها إذا آنست أولى العدى اقشعرت لها وَفضَة فيها ثلاثون سيحفا تجول كعير العانة المتلفت وتأتى العدى بارزا نصف ساقها إذا فزعوا طارت بأبيض صارم ورامت عا في جَفْرها ثم سَلَّت جُرَاز كَأَقطاع الغدير المنعَّت حسام كلون الملح صاف حديدُه وقد نهلت من الدماء وعلَّت (١) تراها كأذناب الحسيل صوادرا

ويتحدث عروة كثيراً عن أصحابه ، ولكنه حديث الزعيم أو القائد ، لا حديث الرفيق أو الزميل ، فهو يدعوهم إلى الحروج معه للغزو والغارة :

أقيموا بني لبني صدور مطبكم فإن منايا القوم خيرٌ من الهزَّل

<sup>(</sup>١) أو تحت : أقلت . العيل : الفقر . قوله و أي آل تألت و يعني أي سيامة ماست ، يقال آله أولا إذا مامه . مصعلكة بكمر اللام : صاحبة صعاليك ، وبفتحها : نحيفة . الوفضة : الحمية ، والسيحف : السهم العريض النصل . العلى : القوم من الرجالة . أقشعرت : تهيأت القتال . المتلفت : أي الذي يتلفت إلى الحمر يطردها عن أتنه ، وروى و المتفلت و أي الذي يتفلت إلى قتال الحمر عن عافته ، والعافة : مهاعة الأتن الوحشية . الحفر : الكتافة . الحراز : السيف القاطع . الحسيل : جمع حسيلة وهي أولاد البقر ، شبه السيوف بأذفاب الحسيل إذا رأت أمهاتها فبسلت تحرك أذفابها .

فإنكم لن تبلغوا كل همتى ولا أربنى حتى تروا منبت الأثل الم وهو يصرح بأنه سيغزو بهم – لا معهم ليحقق أهدافه ، أو يرضى نفسه

فإنى لمستاف البلاد بسرية فمبلغ نفسي عدر الومطوف (١) وهو قائد بارع ، يجمع جنوده، ويحرج بهم فرساناً ورجالة ليغيروا ، حتى إذا ما انهت الغارة ، وأخلوا طريق العودة ، ونزلوا عند بعض المياه لينحروا مما نهوه ، حتى ينالوا حظهم من الطعام والراحة ، تحول القائد البارع إلى قائد حقد ، يبعث ربيئاً مهم فوق شرف عال ، ليراقب لمم الطريق حتى لا يفجأهم علو وهم غافلون :

لعل انطلاق في البلاد ورحلتي ميدفعني يوماً إلى رَبِّ هَجْمة قليل تواليها وطالب وترها إذا ما هبطنا منهلافي مخوفة يقلب في الأرض الفضاء بطرفه يقلب في الأرض الفضاء بطرفه

وشدى حيازيم المطية بالرّحل يدافع عنها بالعقوق وبالبخل إذا صحت فيها بالفوارس والرجل بعثنا رُبيئاً في المرابئ كالجذل وهن مناخات، ومرّجلنا يغلى اللها يغلى المرابئ

ولعل أطرف ما فى حديث عروة عن أصحابه حديثه عن مضابقاتهم له ، وشكواه من بعض تصرفاتهم التى يضيق صدره بها ، وبحاصة تنكرهم له بعد أن يخصبوا ويستغنوا ويصبحوا كالأغنياء المتمولين ، ولكنه مع هذا كله مد يغفر لهم ، لأنهم عياله وأبناؤه ، وهو أبوهم الذى يتقبل منهم ما يرتكبونه فى حقه ، ثم لأنه يقوم منهم مقام السيد الذى تفرض عليه سيادته أن يتحمل ما يصدو عهم ، فيعفو عن جاهلهم ، ويغفر لمسيهم ، ثم لأنه أخيراً يقف ما يصدو عهم ، فيعفو عن جاهلهم ، ويغفر لمسيهم ، ثم لأنه أخيراً يقف

<sup>(</sup>۱) دیوانه /۱۰۱ ـ وشرح آلتبریزی علی سیاسة آبی تمام ۱۹۸۸ . مع اختلاف لفظی

<sup>(</sup>۲) ديوانه /۹۴.

<sup>(</sup>٣) ديوانه /١٠٨ – ١١٢ . الحبية : الحاجة من الإبل عد أولها أربسون إلى ما زادت ، أو ما بين السيمين إلى المائة ، أو إلى دويتها .

مَهُم مُوقِفَ الرَّعِيمِ النَّفِيرِ بنفسية جماهيره (١) :

ويتحدث تأبط شرا عن رفاقه حديث المعجب بهم ، المعتز برفقهم ، المقدر لقيمهم في حياته المغامرة ، تلك الحياة التي يحياها وحيداً إلا مهم ، فهم عونه على هذه الحياة ، يستعين بهم عليها ، ويستغيث بهم إذا أفزعه أمر . وهم دائماً أبطال شجعان شعث ، لكثرة اشتغالم بالغزو والكفاح ، والضرب في أعماق الصحراء ، وجوب آفاهها ، عيوبهم نفاذة تتوقد بنار الحماسة والحرأة والإقدام كأنها نار الغضا المتأججة :

مساعرة شُغْتُ كأن عيونهم حريقُ غضاً تُلْقى عليه الشقائقُ (١١) وهو لهذا لا ينسى أبداً فضلهم وقيمتهم في مغامراته ، وهو يسأل الله أن يتولى عنه جزاءهم ، لأنه عاجز عن جزائهم :

جزَى الله فتياناً على العوص أمطرَت سياؤهم تحت العجاجة بالدَّم (٣٠) فإذا ما سقط أحدهم صريعاً اشتد جزعه عليه ، فإذا مصابه فيه لا يعدله مصاب ، وإذا آماله في الحياة تنهار :

أبعد قتيل العوص آمى على فتى وصاحبه أو يأمل الزاد طارق (1) وهو يرى أن فقد أحدهم خسارة لا تعوض ، وإضعاف الجماعة التي تشق طريقها في الحياة بقوة أبنائها ، وكسر لسلاح من أسلحتها يستحق الأسف ، بل يستحق الأميى والحزن والبكاء ، وهو – على قلة دموعه – لا يبخل بها على من تفقده هذه الحماعة من أبنائها الممتازين ، أولتك الذين يمتازون بما يجب أن يمتاز به كل صعلوك عامل : من بصر بكسب المحامد ، وسبق إلى غايات المجد ، وقوة وزعامة بين الرفاق ، وخفة في الحسم ، وجرأة على اقتحام الأهوال

 <sup>(</sup>١) انظر أبياته اللامية التي يقص فيها قصة من هذه المضايقات في ديوانه من ص١١٢ -- إلى
 ص ١١٨ ، ومن ص ١٢٣ - إلى ص ١٢٥ .

 <sup>(</sup>٢) الأغانى ١٨ / ٢١٤ ~ مساعرة ، جبع مسعر وهو موقد ذار الحرب ، والشقائق هذا
 المراد بها أعشاب الجيال .

<sup>(</sup>٣) الأغاني ١٨ /٢١٥ .

<sup>(</sup> ٤ ) المصدر السابق ( ٢١٤ ـ

والسرى فى الليل البهم للظلم ، وشجاعة فاتقة ، ورأى صائب ، وكرم واسع ، وفصل في الأمور ، وحب الحركة والغزو ، وبغض للدعة والإقامة والاستقرار :

على بصير بكسب الحمد سباق مرَجْم الصوت هذا بين أرفاق مدلاج أدهم واهي الماء غساق قوال محكمة ، جواب آفاق فذاك همى وغزوى أمتغيث به إذا استغنت بضاف الرأس نَغَاق (١)

لكمًا عوك إن كنتُ ذاعول سباق عَاياتِ مجَّدِ في عشيرته عارى الظنابيب ممتد نواشرًه حمال ألوية ، شهاد أنلية

ومن هنا كثر رثاؤه لأصحابه ، فهو رفى لمم ولذكراهم ، لا تنسبه إياهم شواغل حياته . وهو يرثى صديقه الأعز ، وتلميذه النابغة ، الشنفرى ، رثاء حاراً تتجلى فيه تلك اللوعة التي أصابته بعده، وتلك الحسرة التي استشعرها لفقده ، وتِلك الفجيعة التي لا يجد لها دفعاً ، وهو يأسف لأنه لم يكن معه في ساعة الشدة حين قتل ، إذن لوقف إلى جانبه أخاً ناصراً معيناً :

فلو نبَّأَتني الطيرُ أو كنت شاهدًا ﴿ لآمالُهُ فِي البِلْوَي أَخَّ لِكُ نَاصِرُ (١٠

وهو لا ينسي في غمرة هذا الأسي أن يسجل تعاونهما معاً في ساعات الشدة ، وأوقات الكفاح :

حدی معه حر کریم مصابر (۱۲) إِذَا رَاعَ رَوْعَ المُوتَرَاعَ ،وإِنَّ حمى

<sup>(</sup>١) المفضليات /١٣ - ١٥ . العول : الإعوال . مرجع الصوت : يريد أنه يعيج بأصحابه آمراً وناهياً . الهد : العموت الفليظ . الغلنابيب : جسع غلنبوب وهو حرف عثم الساق ، و بريد بقوله ي عارى التلنابيب ۽ أنه خفيف المحم ، والمرب تماح الهزال وتذم السن . النواشر : عروق ظاهر الذراع ، ويريد بقوله ، محد نواشره ، أنه طويل الذراعين دلالة على تمام خلقه . الأدهم هذا : الليل، والنساق : الشديد الطلمة . المحكة : الكلمه الفاصلة القاطمة للأمور. ضافي الرأس : رجل كتير شعر الرأس لكثرة اشتغالهما لمنزو فهو لا يتعاهد شعره . النفاق : الذي يصبيح في إثر الطرائد .

<sup>(</sup> ۲ ) ديوان آلشنفري المطبوع / ۲۹ .

<sup>(</sup>٣) المعدر المابق /٣٩ .

# أحاديث الفرار

كما يتحدث الشعراء الصعاليك عن مغامراتهم وانتصارهم فيها ، وفوزهم على أعدائهم ، يتحدثون أيضاً عن فرارهم وهربهم ، دون أن بجلوا فى هذه الأحاديث غضاضة ، أو أمراً بدعو إلى الحجل والمداراة . وفيم الحجل ما دام الفرار أمراً طبيعيناً من قوم عدائين ، أو - بعبارة أخرى - سلاحاً من أسلحهم يضمن لم النجاة لبعيدوا الكرة من جديد ليحققوا أهدافهم الاجتاعية والاقتصادية ؟ فإذا لاحظنا -إلى جانب هذا - أن الفرار فرصة تنيح لم إظهار تلك الميزة التي يفخرون بها دائماً، وهي مرعة العدو ، أدركنا مر حرصهم على أحاديث الغيرة القرار في شعرهم ، لأنها أحاديث تنبح لم مجال الفخر بهذه الميزة .

وقد اشهر بعض الصعاليك بفرارهم ، وبخاصة صعاليك الحجاز ومنطقة ، جبال السراة ، وبالذات صعاليك هذيل التي كانت تنزل في هذه المنطقة ، وقد رأينا من قبل (۱) ما يذكره الأصمعي من كثرة انتشار العد اثين في الحجاز والسراة ، أولئك الذين كانوا ويعدون على أرجلهم وبختلسون ، وما يذكره من وأن بهذيل وحدها منهم أربعين ، ويصف الرواة حاجزا الأزدي بأنه وكان مع غاراته كثير الفرار ه (۱). ويفرد البحتري في حمامته باباً و فيا قبل في الفرار على الأرجل (۱)، يروى فيه اثني عشرة مقطوعة لثمانية من الشعراء ، من الفرار على الأرجل (۱)، يروى فيه اثني عشرة مقطوعة لثمانية من الشعراء ، من الصعاليك (۱) ، أي أن ثلثي المقطوعات من شعر الصعاليك ، ونصف الشعراء من الصعاليك ، فإذا لاحظنا أن من هذه المقطوعات الثماني ثلاثاً لحاجز وحده (۱) ، أدركنا أن الرواة كانوا على حق حين وصفوه بكثرة الفرار ، وإذا لاحظنا أيضاً أن من المقطوعات الاثني عشرة حين وصفوه بكثرة الفرار ، وإذا لاحظنا أيضاً أن من المقطوعات الاثني عشرة حين وصفوه بكثرة الفرار ، وإذا لاحظنا أيضاً أن من المقطوعات الاثني عشرة حين وصفوه بكثرة الفرار ، وإذا لاحظنا أيضاً أن من المقطوعات الاثني عشرة مقرة معرة المناه من المناه المن

<sup>(</sup>١) انظر : ص ٨٠ من هذا البحث (فصل التفسير الجغراق) .

<sup>(</sup>٢) الأغاني ١٢/٢٥ (بولاق) .

<sup>(</sup>٣) الباب الحامس وألعشرون من ص ٦٣ – إلى ص ٦٩ .

<sup>(</sup> ع ) أبو عراش الحفل ( س ٦٣ ، ٦٤ ) ، وحاجز الأزدى ( س ٦٤ ، ٦٥ ) ، والأعلم الحفل ( س ٦٤ ، ٦٥ ) ، والأعلم الحفل ( س ٦٩ ، ٦٩ ) .

<sup>(</sup>۵) س ۲۶ ، ۹۳ ،

التى يضمها الباب أربعاً لشعراء من هذيل (١) ، أى ثلث الباب كله أو ما يعادل نصف عدد مقطوعات الصماليك أدركنا دقة ملاحظة الأصمعى عن كثرة العدائين في هذيل .

والواقع أن أحاديث الفرار ظاهرة واضحة كل الوضوح فى أخبار الهذايين وأشعارهم حتى لتعد سمة من سمات الشعر الهذالى . وفى شعر الأعلم الهذالى قصيدة طويلة (١) يتحدث فيها عن فراره مع صاحب له من معامرة لهما فى بعض بلاد كنانة . وهو يبدؤها مباشرة بالحديث عن ذلك المأزق الحرج الذى وجد نفسه فيه حين رأى القوم يطاردونه هو وصاحبه ، وقد اقتر بوا منهما حتى لم يعد بينهما وبينهم إلا أقل من رمية منهم ، ثم يصور الفزع الذى انتابه فشل مقدرته على الرى ، وإن لم يشل تفكيره عن أن يحث صاحبه على العدو حتى ينجوا معا :

لل رأيتُ القوم بال علياء دون قِلَى المناصِبُ وَفرِيتُ من فزع فلا أرى ولا ودَّعتُ صاحبُ يغرُون صاحبه بنا جهدًا وأغرى غير كاذب يغرُون صاحبهم بنا جهدًا وأغرى غير كاذب أغرى أبا وهب ليه جزهم ومَلوا بالحلائبُ (١٦)

ثم يمضى فى وصف ثلث الجماعات التى تطاردهما ، وسرعة عدو أحد مطارديه ، ثم ينتقل إلى الاعتدار عن فراره بأنه خشى أن يقتل بسيوفهم فيصير طعاماً للذئاب والضباع والثعالب والطير الجارحة :

وخشيت وَقْعَ ضريبة قد جرّبت كلّ التجارب فأكون صَيدَهم بها وأصير للضّبع السواغب جزَراً وللطير المربّ ة والذئاب وللثعالب

<sup>(</sup>۱) ص ۱۲ ، ۱۲ ، ۲۵ ، ۲۲ .

<sup>(</sup>۲) شرح أشعار الخذليين ۱/٥٥ وما يستها ، وديوان المذليين ٢/٧٧ وما يعدها . وفي حامة البحتري / ٢٧ قطعة منها .

 <sup>(</sup>۲) القدى : القدر . المناصب : الراى الذي يناصبك الرى ، يرميك وترميه . فريت :
 تحيرت ودهشت . الحلائب : الجاءات بجيء بعضها في إثر بعض .

وتَجررُ مُجْرِية لها لحمى إلى أَجْرٍ حواشب (١) ثم يصف هذه الضباع وجراءها، وكيف تنزع جلد المرء نزعاً شديداً، ولا يكاد ينهى من رسم هذه الصورة المفزعة لمصبره لو قتل ، حتى يعود لذكر علموه فى شدة الحر ، ولكنه لا يبالى بشيء من هذا ، فقد اقترب من منطقة الأمان ، ولاحت لعينيه منازل السلامة، وهنا فقط يذكر أهله وفقرهم ، وأولاده الصغار وحاجتهم ، كأنما يؤنب نفسه التي أغرته بالفرار والهرب دون أن يحقق شيئاً من أهدافه :

حتى إذا انتصف النها رُ وقلت يوم حَقُّ ذائب رَفَّعتُ عيني العجا زَ إلى أناس بالمناقب وذكرتُ أهلى بالعرا ء وحاجة الشَّعْث التَّوالب المُصْرِمين من التلا د اللامحين إلى الأقارب (٢)

ولا يجد حاجز عضاضة من أن يتحدث عن فراره إلى صاحبته الحميلة المتأنقة ، وحسبه \_وحسبها أيضاً \_ أن نجا من أعدائه بعد أن كادوا يقتلونه :

أَلاَ هل أَتَى ذاتَ الخواتم فَرَتى عشية بين الجُرُف والبحر من بعر عشية بين الجُرُف والبحر من بعر عشية كادت عامر يقتلونني لدى طرَف السَّلماء راغية البكر (٣)

وهو ينتهزها فرصة كغيره من الشعراء الصعاليك العدائين ، ليتحدث عن سرعة عدوه التي تفوق سرعة الظبي الهارب من مطاردة طائر جارح له :

فما الظبي أخطت حلقة الظفررجلّه وقد كاد يلتي الموت في حلقة الظفر كمثلى أوانَ القوم بين مُعَيَّع وآخر كالنشوان مرتكز يغرى (٣)

<sup>(</sup>۱) الضريبة : السيف . جزرا : أي قطعا ، يقال : تركته جزرا للسباع . الطير المربة : المقيمة على لحم أبدا . مجرية : أي ضبع ذات جراء . الأجرى : الجراء الحواشب : المنتفخات البطون . (۲) يوم حق ذائب : أي شديد الحر . المناقب : أماكن . التوالب : الجحاش الصغار ، يريد مها هذا أولاده .

<sup>(</sup>٣) حاسة البحري /١٥٠. والأغانى ٢٠/١٢ه ( يولاق) ، والرواية فيه مضطربة لفظيا . عيم : عي عن أسرقصده ومرتكز أي معتمد على سية قومه . والجرف و بعر : موضعان . و راغية البكر : مثل في الشدة والشؤم ضرب في بكر ذاقة صالح. ( انظر أساس البلاغة مادة – رغو ~ ) .

ويدافع تأبط شرا في قصيدة له عن فراره ونركه رفيقاً له بأنه ما كان ليستطيع أن ينتظر حتى يدهمه مطاردوه الذين كانوا وراءه كالنحل ، ولا أن يبطئ في عدوه حتى تصيبه السهام التي كانوا يرسلونها خلفه فترديه صريعاً، وهو لهذا يثني جسده ، ويسرع بعيداً عن الشركأنه الظلم المذعور :

ولم أَكُ بالشدُّ الذليق مدَاينا وقلت تزَحزَح لا تكونن حائنا هِجَفُ رأى قصرًا مِسمالاً وداجنا(١)

ولم أنتظر أن يَدُهمُوني كأنهم ورائي نحلٌ في المخلية واكنا ولا أَن تُصيبَ النافذاتُ مقاتني فأرسلتُ مثنيًا عن الشرعاطفاً وحشحشتُ مشعوفَ النَّجاء كأُنني

وبعد أن يمضى في وصف سرعة الظلم ، على طريقة الهذليين في الإلحاح على أوصاف المشبه به ، ينتقل إلى الصورة التي رأيناها عند الأعلم ، صورة الفزع من الموت على أيدى الأعداء ، تلك الصورة التي تقرّن عادة بإلقاء الحسد لحيوان البادية الضارى ، وبخاصة الضباع ، تلك الفصيلة التي اشتهرت بوَلَعها بجيفَ الموتى كما يقرر علماء الحيوان(٢) ، فيحدثنا عن نجاته من مطاردیه ، ولو لم ينجُ منهم لأمسى قتيلا في صحراء غبراء ، أو بين برائن ضبع تنبش الأرض بحثاً عن الجيف :

فزُحزحتُ عنهم أُو تجئني منيتي يغيراء أو عرفاء تفرى اللفائنا كَأْنَى أَرَاها الموت ، لا دَرّ دَرها إذا أَمكنت أنيامها والبراثنا(٢) ويدافع أبو خراش عن فراره ، ويضني على دفاعه لوناً من و المذهبية ، ،

<sup>(</sup>١) الأغاني ٢١٢/١٨ – الشه : العدو . الذليق : الحاد . النجاء : الإسراع ، والمشموف هنا : من أصيب قلبه يذعر . الحيف : الظلم . والقصر هنا : اختلاط الظلام . والسهال : جسم سملة وهي بقية الماء في الحوض . والعاجن: لعل معناه هذا المعلم المطبق ، أو الصياد المتمود الغزو. ويكون الشاعر جذا يصور فزع الغللم حين أخذ الغلام يختلط ، والمطر يسقط ، أو حين رأى عند أختلاط الظلام ماه عنده صياد متربص .

<sup>(</sup>۲) للميري : حياة الحيوان ۲/۷۱ .

<sup>(</sup>٣) الأغاف ١٨/٢١٢ -- العرفاء : التميم .

فهو يقر لا لأنه جيان ، فهو إلى جانب فراره مقاتل شجاع ، ولكن لأنه يرى أحياناً أن قتاله لا يجديه شيئاً إلا أن يورد ه موارد الهلاك ، وهو مع ذلك لا يكف عن القتال إلا إذا لم يجد لنفسه مجالا فيه :

فإنْ تزعُمى أَنَى جبنتُ فإننى أَفر وأَرَّى مرة كلَّ ذلك أَقَاتلُ حتى لا أَرى لى مُقاتلًا وأنجو إذا ماخفتُ بعض المهالكِ(١)

ولكن الأعلم يعلن في منهى الصراحة والبساطة أنه حين تكاثر عليه أعداؤه فرمهم مسرعاً ، ولم يحاول قتالهم :

بذلت لهم بذي وَسُطانَ شُدُى عداتئذ ولم أَيذُلُ قتالَ الله

#### مرعة العلو :

ولا يكاد الشعراء الصعاليك يتحدثون عن شيء في مثل ذلك الإلحاح الذي نراه في محليثهم عن مغامراتهم كما يتحدثون عن سرعة عدوهم ، ويبلو أن مرد هذا إلى أمرين: أولهما شعورهم بأنها ميزة تفردوا بها من بين إخوانهم في البشرية ، وثانيهما إيمانهم بأنها من الأسباب الأساسية في نجاتهم من كثير من المأزق الحرجة . ومن هنا كان محليثهم عنها حديث المعجب بنفسه تارة ، والمعجب بها تارة أخرى : المعجب بنفسه لأنه تفرد بها من بين سائر الناس ، والمعجب بها لأنها كم أنقذته من أخطار أحدقت به .

وأحسب أننا لسنا في حاجة إلى القول بأن الشعراء الصعاليك الذين تحدثوا عن سرعة عدوهم هم أولئك الذين تحدثنا عهم في تفسيرنا الجغرافي لظاهرة الصعلكة وهم الصعاليك السرويون - كما يسميهم الأصمعي (٢) - وبخاصة صعاليك هذيل وفهم والأزد، أما أولئك الذين لم يعرفوا بالعدو كعروة بن الورد فن الطبيعي ألا يتحدثوا عن شيء لم يعرفوا به .

ويتحدث الصعاليك العداءون عن هذه الميزة حديث المعجبين بأنفسهم

<sup>(</sup>١) ديوان الهذليين ٢/١٦٩ ، وحاسة الخالديين ( مخطوطة ) ورقة ٣٩٧ .

<sup>(</sup>٢) شرح أشعار الهذليين ١/١٢ .

<sup>(</sup>٣) فعولة الشعراء (مخطوطة) ورقة رقم ١٥.

الذين يرون أنهم قادرون على شيء يعجز عنه يعض الناس، على نحو ما نرى في قول الأعلم :

فلا وأبيك لا ينجو نجائى غداة لقيتهم بعض الرجال(الا ولكن ذا الكلب لا يرضى بهذه والبعضية،، وإنما يوسع دائرة حكمه حتى تشمل كل ذى قدم :

فجئت کا پشتد شدی دو قدَم (۱۲)

بل إن أبا خراش لا يرضى بالبشر طرفاً ثانياً فى هذه المباراة كأنما يرى أن البشر أبطأ من أن يصلحوا لها ، وإنما يعقد المباراة بيته وببن حمار الوحش ، ذلك الحيوان المشهور بسرعة العدو ، ومع ذلك فحمار الوحش لا يستطيع أن يجاريه فى عدوه :

أُقبِلَتُ لا يشتد شدى واحد عِلْمِ أَقبُ مسيّرُ الأقرابِ الله وقد رأينا حاجزاً يتحدث إلى صاحبته الجميلة المتأنقة عن فرته دون أن يجد في هذا الحديث غضاضة ، وما من سبب لذلك سوى إعجابه بنفسه إذ استطاع النجاة من أعدائه عد وا على قدميه ، فهو في هذا الحديث كأنما يقلم إلى صاحبته لوناً من ألوان البطولة التي يراها جديرة بإعجابها ، حتى ليتساءل في أول حديثة في لهفة ظاهرة لا ألا هل أتى ذات الحواتم فرتى ؟ »

وهم يتحدثون عن هذه الميزة أيضاً حديث المعجبين بها ، المقلمين لقيمتها في حياتهم ـ يصرّح حاجز بأن الفضل الأكبر في نجاته من بعض مواقفه الضيقة لا يرجع إلى قتاله ، وإنما يرجع إلى عدوه ، وهو ــ لهذا ولشدة إعجابه برجليه اللتين أتاحتا له هذا العلو ــ لا يتورع عن أن يفليهما بأمه وخالته ، ومانا جني

<sup>(</sup>١) شرح أشعار الهذايين ١/٦٠.

 <sup>(</sup>٢) المصلر السابق / ٢٣٩، وتروى الآبى خراش، وقد قلمنا في الفصل السابق إن هذا الاختلاف لا يضيرنا في هذا الدراسة لأنه اختلاف داخلي.

 <sup>(</sup>٣) ديوان الهذليين ٢/١٦٩، وتروى لتأبط شرا وللأعلى، والقول في هذا كالقول في البيت السابق – والعلج : حمار الوحش السمين القوي . والأقب : الضامر البطن . ومسير الاقراب : أي محطط الحاصرة بن .

من أمه وتعالته غير ذلك السواد الذي صبغه بصبغة بغيضة كانت سبباً من أسباب تلك الحياة المتصعلكة التي يحياها ، والتي زجت به في هذا الموقف الضيق الذي لولا رجلاه لفقد حياته فيه :

فغير قتالى فى المضيق أغاثنى ولكنَّ بذلى الشدَّ غير الأكاذب فدًّا لكما رِجُلَّى أمى وخالتى بشدكما بين الصفا والأثائب (١١ ويصرح أبو خراش بأنه لولا سرعة عدوه فراراً من أعدائه لآمت امرأته وَيَتْمَ ابنه :

ولولا دِراكُ الشد قاظت حليلتي تخيرُ من خطَّابها وهي أيمُ فتقعد أو ترقَّى مكانى خليفة وكاد خراش يومَ ذلك يَيْتُم (٢٠) ويقص علينا تأبط شرا في قافيته المشهورة كيف أنجاه عد وُه من عد وه برغم ما أرسلوه خلفه من خيل سريعة :

ليلة صاحوا وأغروا بي سراعهم بالعيكتين لدى مَعْدَى ابن بَرَّاق كأَنما حَثْحثوا حصًّا قوادمه أو أم خِشف بذى شتُّ وطبَّاق لا شيءَ أسرعُ منى ، ليس ذا عذر وذا جناح بجنب الرَّيْد خفاق حتى نجوت ولما ينزعوا سَلَى بواله من قبيض الشد غَيْداق (٣)

وكما يتحدث الصعاليك العداءون عن شدة عدوهم ، يتحدثون عن شدة عدو رفاقهم ، ويصف تأبط شرا أحد أصحابه الصعاليك بأنه سريع العدو يسبق الربح :

<sup>(</sup>١) حاسة البحتري /٦٤ . والأغاني ١٢/٢٥ (بولاق) .

<sup>(</sup> ٢ ) ديوان الهذليين ٢ /١٤٨ . والأغانى ٢١ / ١٥ ، ٧٥ - قاظت : من القيظ ، أى أهركها القيظ ، رو الصيف .

<sup>(</sup>٣) المفضليات /٧ - ١١ . حصاة وادمه يريد به الظليم ، والأحص : الذي تناثر ريشه وتكسر ، والقوادم من ريش الجناح : ماول الرأس . وأم خشف يريد بها الظبية . والشث والطباق : من نبت السراة ، وإنما خصهما لأنهما يضمران ما يرعاهما من الحيوان ، ويشدان لحمه . وذا عذر يعني به قرسا ، والعذر : ما أقبل من شعر الناصية على الوجه . الريد : أعلى الجبل ، وإنما خص جارح الحيل لأنه أسرع طيرانا من جارح السهل ، الواله : الذاهب المقل . والقييض : السريع . والنبداق : الكثير الواسم .

ويسبق وكُفَّد الريح من حيثُ ينتحى المنخرق من شده المتدارك ١١٥ ويشبه الأعلم انقضاض جماعة من الصعاليك العدائين من كل ناحية على فريسة عرَّضَتُ لهم في أثناء تربصهم بالصحراء بتفجر الماء من حوض قديم منهام يحاول صاحبه أن يصلحه ولكن الماء يغلبه فيتفجر من شي نواحيه:

تخافُ لِزَامَ عادية نُعول كما يتفجّر الحوض اللَّقِيدُ (١) ويرسم أبو خراش صورة رائعة لجماعة من العدائين يحرص كل منهم على ألا يتخلف عن رقاقه حتى لا يفتضح بينهم ، وهم خارجون للغزو في ليلة ممطرة ، وقد ابتلت أقدامهم ، والشجر يتكسر من وقمها ، فيلتف تحمّها أكواماً كأنَّها أوساط الإبل السود :

وليلة دَجن من جمادَى سريتها إذا ما استهلت وهي ساجية تهمي وَشُوطَ فِضَاحٍ قِد شهدتُ مُشايحاً لأَدْرِكَ ذَحلاً أَو أَشِيفَ على عُنْم إذا ابتلت الأقدامُ والتغد تبحتها عثاء كأَجوَاز المقرَّنة الدُّهم (١١)

وكما بتحلثون عن شلة علو رفاقهم ، يتحدثون عن شلة علو أعدائهم أيضاً ، ليثبتوا لأنفسهم تلك الميزة عن طريق غير مباشر. ويرمم الأعلم في باثيته التي يتحدث فيها عن فراره هو وصاحب له من بعض أعدائهما صورة ً واتعة لمطاربتهم لهما ، يصف فيها خروجهم خلفهما ، وكيف يغرون أسرعهم ليدركهما ، بينا يغرى هو صاحبه ليفوتهم ، ثم يصف تلك الجماعات التي تطاردهم ، والتي يجيء بعضها في إثر بعض ، كما تدخع الرياح السحب فتجلجل بالرعود ، ثم يصف سرعة عدو أحد مطارديه الذي ينطلق خلفه كأنه حمار وحش ضامر يسرع ليود الماء :

<sup>(</sup>١) حاسة أبي تمام ١/٨٤.

<sup>(</sup>٢) شرح أشعار الخفليين ١٨/١ – الأزام : العقاب ، الصول : التي هَا زيادات عَمَوْلة الغرخ . المتنيف : التي أصلت صاحبه خليته يسواه من فواحيه \_

<sup>(</sup>٣) دروان المغليين ٣/ ١٣٠ – شوط فقماح : أن إن سبق فيه رجل اقتضح المشابيع : ألجاد في كلام عليلي . أشيف : أشرف .

يُغُرون صاحبهم بنا جهدًا وأغرى غيرَ كاذب أغرى غيرَ كاذب أغرى أبا وهب ليه جزهم وملوا بالحلائب مد المجلجل ذى العما ع إذا يَرَاحُ من الجنائب يُغرَى جسديمة والردا ع كأنه بأقب قارب(١)

ويرسم أبو خراش في ميميته التي يتحدث فيها عن فراره من خراعة صورة دقيقة لمطارديه ، وقد اقترب منه أحدهم حتى صار كأنه توأم له ، والسهام تنهال حوله ولكنها تخطئه ، وكيف زاد من سرعته حين رأى وراء ظهره أحد مطارديه مسرعاً وقد بسط ذراعيه ، ومد ساقيه الطويلتين ، وهو حريص على أن يدركه لأن له ثأراً عنده ، وأبو خراش حريص على أن ينجو منه لأنه شخص فاتك جرىء أثم :

سأسرعَ منى (١١ إِذ عرفتُ عَلِيهُمُ كأنى الأولاهم من القرب توأَمُ وأَجودَ منى يوم وافيتُ ساعيا وأخطأنى خلف الثنية أسهُمُ أُوائلُ بالشد الذليق وحثنى لدى المتن مشبوحُ الذراعين خَلْجَمُ أُوائلُ بالشد الذليق وحثنى من القوم يعرُوه اجتراءُ ومأثم (١) تذكر ذَحلاً عندنا وهو فاتكُ من القوم يعرُوه اجتراءُ ومأثم (١)

ومن أطرف الأشياء أن يحدثنا الأعلم عن كراهبته لمطارده ، لا لشيء الاكنه عداء سريع لا يألو جهداً في مطاردته :

كرهت جذيمة العبدى لما رأيت المرة يجهدُ غيرَ آلى(٤)
وأكثر ما يتحدث الصعاليك العداءون عن شدة عدوم مقرونة بموازنة
بينهم وبين الطير أو بعض حيوان الصحراء المشهور بسرعة العدو.

ويتردد ذكر حمار الوحش عند صعاليك هذيل ، ولا نعثر به عند غيرهم

<sup>( )</sup> شرح أشعار الهذليين ؟ / ٥٥ ، ٥٦ . وجاسة البحثرى / ٦٦ - العام : أرفع السحاب في السياد . يراح : تصيبه الربح . القارب : طالب الماء ليلا . أبو وهب صاحبه ، وجذيمة عدوه .

<sup>(</sup> ٧ ) متعلقة بوصفه ظبيا يطارده الصيادون يشبه به نفسه في شاء عدوه .

<sup>﴿</sup> ٣ ) ديوان الهذائين ٢ / ١٤٧ ـ وجامة البحترى / ٦٤ . والأغانى ٢١ / ٥٩ - والح : طلب النجاة . مثبوح اللواعين : عريضهما . الخليم : الطويل .

<sup>(</sup>٤) شرح أشعار الطلبين ١٠/١ .

من الشعراء الصعاليك فيا بين أيدينا من شعرهم ، فيا عدا مقطوعة تروى لأبى خراش أو للأعلم أو لتأبط شرا ، وهي تلك البائية التي أشرنا إليها (١١) على حتى ليصح أن نقول إن ذكر حمار الوحش في صدد الحديث عن العدو خاصة هذلية .

يصف صخر الغي صاحباً له بشدة العدو فيشبهه بحمار وحش ضامر تعضه الحمر فيفر منها هارباً :

معى صاحب داجن بالغزا ة لم يك في القوم وَغَلاً ضَعيفا ترى عدوه صُبح إقوائه إذا رَفع المَأْبِضَان الحَسْيفا كعدو أَقب رَبَاع ترى بفائله ونَسَسَاهُ نُسوفا(١١)

أما الأعلم فالصورة التي يرسمها لحمار الوحش أكثر خطوطاً وألواناً ، فهو عنده ضامر البطن ولكن في غير هزال كأنه عرق السدر في حمرته ، وهو مربع يسبق الإبل والحيل النجيبة ، خرج ليلا في طلب الماء ، فلاحت له أتان سمينة مكتنزة اللحم ، فهو حريص على إدراكها :

يغُرَى جَسَدَعة والردا ء كأنه بأقب قارب خاظ كعرق السلر يس بق غارة الخوص النجائب عَنْتُ لَكُ سَمِ بالبَضِيع لها الخَبَائب اللهُ عَنْتُ له سفعاء لكً سَ بالبَضِيع لها الخَبَائب اللهُ

وأما الظليم ، وهو من أسرع حيوان الصحراء عدوا<sup>(1)</sup> ، فقد ورد ذكره عند تأبط شرا والأعلم ، كما ورد ذكر النعامة عند أبى خراش . أما تأبط شرا

<sup>(</sup>١) انظر: ص ٢١٦ الهامش ٣.

 <sup>(</sup>۲) شرح أشمار الهذليين ۱/٤٨ - داجن : معاود مرة بعد مرة ، أو متعود للغزو .
 الوفل : النذل . الإقواء هذا : الغزول في الفغر من الأرض . المأبضان : باطن الركبة و باطن المرفق .
 الحشيف : الثوب الحلق . الرباع : الذي أثنى رباعيته وهي السن التي بين الثنية والناب . للفائل والنسا : عرقان . النسوف : آثار العض .

 <sup>(</sup>٣) شرح أشعار الهذليين ١/٥٥ – خاط أي مكتنز عتلى، لحمل مضماء : سوداء الوجه في حسرة . لكت : قذفت باللم . البضيع : اللحم ، الحبائب : طرائق اللجم . لها هذا بعني سنها .
 (٤) في أمثال العرب ، أعلى من الظلم ، (الميداني : مجمع الأمثال ١/٤٢٩) .

فالظليم عنده مذعور يقطع الصحراء وقد مد جناحيه ، وكل ما يحرص عليه تأبط شرا وصفه بالسرعة ، ومن هنا كثرت في أبياته تلك المترادفات التي تدل على السرعة ، ولكنه لا يكتني جذا بل يعقد بين هذا الظليم وبين الحيل السريعة مباراة ، فإذا هو أسرع منها :

وحثحثتُ مشعوفَ النَّجاء كأنى هِجَفَّ رأَى قصرا سِالا وداجنا من الحصَّ هُزْرُوفٌ كأن عِفاءَه إذا استدَّرَجَ الفيْفا ومدَّ المغابنا أزَجَّ زَلُوجٌ هَنْرَقُ زَفَازِفٌ هِزِفُ يبدَ الناجيات الصوافنا(۱) وأما الأعلم فالصورة عنده أكثر خطوطاً وألواناً ، فالظلم عنده سريع يعترض فراخه في وقت العشية ، وهو غليظ الساقين طويلهما ، وقد تساقط ريشه ، وهو مذعور قد اختباً بين أشجار طويلة ، فإذا عدا خفق جناحاه خفقان ريح جنوبية بثياب جديدة غير محزقة :

كأن ملاء قي على هِزُفُ يعن مع العشبة للرِّال على حت البراية زُمخري السواعد ظل في شُرْي طوال كأن جناحه خفقان ريح عانية برَيْط، غير بالي (٢)

وأما أبو خراش فهو يشير للنعامة فى صدد حديثه عن شدة عدوه إشارة سريعة (٣) ، كما يفعل مع حمار الوحش ، وهو لا يقف طويلا عندهما لأنه مشغول مجيوان آخر سريع هو الظبى .

<sup>(</sup>١) الأغانى ١٨/ ٢١٣ - الهزروف: الظليم السريع الحفيف. الحص: جمع أحص هو القليل شعر الرأس. المغابن: جمع مغبن وهو الإبط. الأزج من النعام. البعيد الحطو. الزلوج : الناجى من الغمرات. الهذرف: نسبة إلى الهذرفة وهي السرعة. زفازف: من الزفزفة وهي ري الطائر بنفسه أو بسط جناحيه. هزف: سريع.

<sup>(</sup> ۲ ) ديوان الهذليين ۲ / ۸۲ ، ۸۶ . وحاسة البحترى / ۲۱ . و روى البيت الأولى في لسان الموب مادة ( خرق ) وفيه و هجف و مكان و هزف و ، و روى البيت الثانى في مادة ( شرى ) ومادة ( حت ) – الرثال : جمع رأل وهو ولد النمام أو حوليه . الزنخرى : الأجوف ، وكان العرب يظنون أن النمام لامخ بساقيه . وقوله و على حت البراية ، يريه به أنه سريع حتى لا يبتى منه إلا براية . والشرى : شجر .

<sup>(</sup> ٢ ) ديوان المذليين ٢ / ١٤٥ - البيت الأول .

والمنظر الذي يتخيره أبو خراش للظبي حين يخرج الصيادون لصيده ، وقد بنوا حبالهم في مسارحه ليعلق فيها، ولكنه ينجو منها ، فلا يجد الصيادون مفرًّا من رميه بسهامهم وإطلاق كلابهم خلفه ، ولكنه يفوتها ، ومع ذلك يظل مذعوراً غير مطمئن يصغى إلى ناحيتهم وقد نصب أذنيه كأنهما قطعتا لعدم تحركهما ، فإذا ما سمع صوت ذباب يطوف حوله ذُعر وخيل إليه أنه صوت سهام الرماة، فانطلق كما ينطلق السهم مخلفاً وراءه غباراً مختلفاً ألوانه كأنه الملاء :

> فو الله ما ربداء أو علجُ عانة وبُثت حيالً في مرَاد برودُهُ يطيح إذا الشغراء صاتت بجنبه كأن الملاء المخضَ خلف ذراعه تراه وقد فات الرماة كأنه

أَقبُ وما إِنْ تيسُ رَبِل مصمّم فأخطأه منها كفاف مخَزَّم كما طاح قِدْحُ المستفيض المُوشمُ صرَاحيه والآخِي المتحم أمام الكلاب مضغى النخد أضلم بأسرع منى إذ عرفت عليهم كأنى الأولاهم من القراب توأم(١)

ويتردد ذكر الظبي أيضاً في شعر حاجز ، وهو حيناً يتخير منظر الظبي المذعور الهارب من جوارح الطير بعد أن كاد يلقي الموت في أظفارها ، كما رأينا فى أيياته الرائية من قبل ، وهو حيناً آخر يذكره مع حيوانين آخرين من حيوان الصحراء السريع : الأرنب ، والوعل ، وهو لهذا يكتني بأن يذكر آنه ظبی فی منطقة جبلیة ، فهو خفیف نشیط قوی ، أما الأرنب فهو يمو بِهَا مرآًا سريعاً ، وأما الوعل فيتخير له منظراً يكون فيه فى أقصى سرعته ، حين يحس الصيادين خلفه ومعهم كلابهم المدربة:

<sup>(</sup>١) المصدر السابق /١٤٥ ، ١٤٦ . والأغانى ٢١/٥، - الريداء : النعامة السوداء إلى غيرة . والتيس هذا للذكر من التلباء والربل : فيت ينبت في أول الشناء . وقوله : في مراد يروده أي في مساوح يسرح فيها . والكفاف : الحيالة يصيفون بها الطباء تبيس كالطوق . والمخزم : المنظم . يطيح : يسرع ، والشعراء : ذياب يلسع ، والمنتفيض : الذي يفيض بالقداح يضرب بها ، والموثم : للذي به علامات . وصراحيه : أبيضه . والآخي : نوع من قلتياب . والمتحم : الذي به خطوط عَصْر وحبر . والأصلح : المنتأصل الأذن .

وكأنما ابتعث القوارش أرنبا أو ظبى رابية خُفَافًا أشعبا وكأنما طردوا بجنبى عاقل صَدَعاً من الأروى أحس مكلّبا (١) وهذان البيتان هما الموضع الرحيد فيا بين أيدينا من شعر الصعاليك الذى ورد فيه ذكر للأرنب والوعل في صدد الحديث عن العدو.

وإذا كان حاجز يشبه نفسه بالظبى الهارب من جوارح الطبر فإن أبا خراش بعكس هذه الصورة فيشبه نفسه بالعقاب تطارد صيداً ، فهو يقلم لنا فى بعض قصائده صورة رائعة قوية لتلك المطاردة ، فهى عقاب كاسرة منقضة تطلب الصيد ، ولها فرخ فى رأس جبل ، تحمل له طعامه مما تصيد حتى امتلاً وكرها بعظامه ، وقد رأت على بعد صيداً فتحفزت له ثم انقضت فوقه في أرض فضاء ليس فيها ما يسره :

كأنى إذ علوا ضَمَّنتُ بزَّى من العقبسان خائنة طلُوبا جرعة ناهض في رأس نِين ترى لعظسام ما جمعتُ صليبا رأت قنصاً على قوْت فضَمتُ إلى حيزومها ريشًا رطيبا فلاقتسه يبلقعة برَاز فصادم بين عينيها الجَبُوبا(١) وهذا أيضاً الموضع الوحيد فياً بين أيدينا من شعر الصعاليك الذي ورد فيه ذكر العقاب في صدد الحديث عن شدة العدو .

ويشبه أبو خراش ابنه ، والقوم يطاردونه بعد غارة له عليهم ، يطائر خفيف العظم ، قليل اللحم ، عائد إلى وكره ، وقد دنا الليل ، فهو جاد فى طبرانه يبسط جناحيه ويقبضهما فى شدة وقوة :

<sup>(</sup>١) حياسة البحقى /٦٥ – الخفاف : الحفيف القلب المتوقد . الأشعب : ما كان بين قرنيه يعيدا جدا . الصدع بتحريك الدال وتسكينها : الفتى الشاب القوى . المكلب : معلم الكلاب الصيد . وانظر البيتين أيضاً في الأغاني ٢٠/٢٥ ( يولان ) مع اختلاف لفظى .

<sup>(</sup>٣) ديوان الهذليين ٢/١٣٤ ، ١٣٤ – الحائثة : العقاب تنقض على العبيد . الناهض هذا المراد به فرخها ، وقوله و جريمة فاهش و يريد به أنها تكسبه ، وجريمة القوم : كاسبهم . النبيق : التسراخ في الجبل . العمليب : الويك وهو اللسم ، يقال : صلب العظام إذا استخرج ودكها . على ضوت أبي على مبتى . البراز : الغضاء البارز . الجبويه : الأرض .

كَأَنّهمُ يَشَبُّون بطائر خفيف المُشَاش عظمه غير ذى نَحْضِ المُشَاش عظمه غير ذى نَحْضِ البادر قرب الليل فهو مُهَابِدَ يحث الجناح بالتيسط والقبض الوقد نساءل: أين الحيل بين هذه القصائل المختلفة من الحيوان السريع الماذا لم يذكرها الصعاليك العداءون فى مجال حديثهم عن العلو كما ذكروا هذه القصائل ؟

يبلو لى أن سبب ذلك أن الصعاليك العدائين كانوا ينظرون إلى الخيل على أنها أقل مهم سرعة ، وهى نظرة يؤيدها واقع حياتهم ، وقد رأينا في الفصل الأول من الباب الأول أن رواة الأدب العربي يذكرون عهم أنهم كانوا يسبقون الخيل ، ويروون عهم قصصاً في هذا الصدد ، ومهما يكن من مبالغة في هذه القصص فإنها تصور أصداء حقيقة واقعية ، وقد فسرنا هذه الظاهرة في حياة الصعاليك العدائين عند تفسيرنا الجغرافي لظاهرة التصعلك ، وانتهينا إلى أنها سياة الصعاليك العدائين عند تفسيرنا الجغرافي لظاهرة الواقعية . فإذا أضفنا الى هذا أن الصعاليك العدائين لم يكونوا على صلة دائمة بالخيل، وإنماكانت صلهم بها صلة عداوة ، وهي تلك الصلة بين المطارد والطريد ، مما جعل نقوسهم مشبعة بالسخط على ذلك الحيوان السريع الذي يستغله أعداؤهم في مطاردتهم ، استطعنا أن نجد تعليلا آخر لهذه المسألة .

ولهذا نلاحظ أن الصعاليك العدائين لا يذكرون الحيل فى صدد الحديث عن عدوهم إلا مقترنة بأنهم أسرع منها ، أو على الأقل بأنها ليست أسرع منها ، كما نوى عند تأبط شرا الذى يصرح بأنه يسبق الحيل عدواً على قلميه ، ويكسو طلائعها المتقدمة الغبار الثائر من عدوه :

يفوت الجياد بتقريبه ويكسو هواديها القسطلالالا

<sup>(</sup>١) ديوان الهذليين ٢/١٥٩. ولسان الموب : مادة (هبذ) ومادة (هذب) – المشاش : جمع مشاشة وهي رأس العظم الممكن المفخ . النخض : المحم أو المكتنز منه . المهابذ : الذي يسرع في طيرانه ، من المهابذة وهي الإسراع في الطيران .

 <sup>(</sup>۲) ابن قتیبة : الثمر والشعراء /۱۷۲ . وجامة ابن الشجری /۲۷ – التقریب : ضرب من العدو . القبطل : الغبار .

ويحرص الصعاليك العداءون على تسجيل ظاهرة طريفة فى حديثهم عن العدو ، وهى حركة ثيابهم عند عدوهم ، وما يفعلونه أو تفعله الرياح بها ، وهى ظاهرة تستمد طرافتها من صدقها وبساطتها وواقعيتها ، ومن أطرف الأشياء في هذا الصدد أنهم أكثر ما يذكرون ثيابهم يذكرون أنها بالية ممزقة .

يصف صخر الغي صاحباً له بأنه يعدو فيرفع باطن ُ ركبتيه ثوباً الحلق :

ترى عَدُوهُ صُبحَ إِقْوائه إِذَا رَفَعَ المَأْبِضَانَ الْحَشْيَفَا كعدو أَقبَّ رَباع ترى بفسائله وَنسَاه نُسوفًا (١) أما أبو خراش فثوبه الخلق البالي يهتز في أثناء عدوه كأنه ينتفض من حمى

تلازمه :

فَعدّيتُ شيئاً والدّريسُ كأنما يُزَعزَعُه ورْدٌ من المُوم مُرْدِمُ (٢) وهو أحياناً يضيق بثيابه لأنها تعوقه عن سرعة العدو فيطرحها عنه:
وَرَفَعتُ ساقًا لا يُحافُ عثارُها وَطَرحتُ عنى بالعرَاء ثيابى (٢) وفى قصيدة أخرى يصف جماعة من العدائين وقد ألقوا ثيابهم عنهم من شدة عدوهم:
وَعادية تُلقى الثيابِ وَزَعتها كرجُل الجراد ينتحى شَرَف الحزْم (١) ويتحدث تأبط شرا غن مطاردة حاجز الأزدى وأصحابه له، ويصفهم بأنهم قد ألقوا عن أجسادهم ثيابهم البالية ، وشمر واعن سيقائهم ليسهل عليهم إدراكه:
فَتَعْمَعْتُ حِضْنَى حَاجِز وصحابه وقد نَبذوا خلْقاتهم وتشنّعوا (٥)

<sup>(</sup>١) شرح أشمار الهذليين ١/٨٤. وانظر : ص ٢٣٠ من هذا البحث .

<sup>(</sup> ٢ ) ديوان الحذليين ٢ / ١٤٤ . والأغانى ٢١ / ٥٦ . وحماسة البحثرى / ٦٣ – الدريس : الثوب الحلق . الموم : الحمى . المردم : الملازم .

 <sup>(</sup>٣) ديوان الهذليين ٢/١٦٨، وتروى للأعلم ولتأبط شرا، وهذا الاختلاف لا يضيرنا في
 شيء فهم جميماً صماليك.

<sup>. (</sup> ع ) المصدر السابق / ١٣٢ – الرجل بالكسر : القطعة العظيمة من الجراد . الحزم : المكان المرتفع كالحزن .

<sup>(</sup>ه) اَلاَغَانَى ٢١٨/١٨ ، وفيه «تتعتمت » وواضح أنه تحريف – تعتمه : حركه بعنف . تشنموا : تهيأوا للقتال .

ومما يتصل بهذا حديثهم عن نعالهم ، ووصفها بأنها بالية ممزقة ، لكثرة سيرهم وعدوهم . يتحدث تأبط شرا عن صعوده إلى المرقبة بنعل بالية ممزقة قد تشدها بسيور بعد أن جعل تحمها نعلا أخرى :

بشَرْثة خَلَق يُوق البنانُ بِها شَددتُ فيها سَريحاً بعد إطراق(١١)

ويصف الشنفرى نعليه بأنهما ممزقتان كأنهما أشلاء السهانى ، وبأنه خلعهما في بعض طريقه إما ليسهل عليه عنوره، وإما لأنهما لم تعودا صالحتين للاستعمال للمؤقهما الشديد :

وَنعل كَأْشلاء السَّهَانَى تركتها على جنب مَوْر كَالنَّحيزة أَغبرا<sup>(۱۲)</sup> وهي صورة نجدها عند أبى خراش أيضاً :

ونعل كأشلاء السَّمَانَى نَبِذتها خلاف ندى من آخر الليل أورِهم (٣)

ومن الطريف أننا نجد لأبي خراش قصيدة نظمها في مدح رجل حذاه نعلين جديدتين (1) ، وهو فيها مقدر له هذا الصنيع تقديراً كبيراً ، معجب بنعليه الجديدتين ، يصفهما ، ويصف صنعهما ، ويتحدث عن قيمتهما في حياته ، إذ يروح بهما متأنقاً للهوه ، ويستخدمهما في سيره وعدوه ، ومن يدرى فلعل له فهما مآرب أخرى !!

وهنا نقف لنتساءل : أين شعر السليك في العدو ، وهو الصعلوك العداء الرجلي الذي يُضرب به المثل في سرعة العدو ، والذي تحدث عن سرعته رواة

<sup>(</sup>١) المفضليات /١٧ -- الشرثة : النعل البالية . والسريح : القد أو السيور التي تشديها النعال . والإطراق : أن يجعل تحت النعل مثلها .

<sup>(</sup> ٢ ) ديوانه المطبوع / ٣٥ . وديوانه المصور : لوحة رقم ١٠ ، وفيه ، وأشلاء نمل كالسهائي ، المور : الطريق الموطوء المستوى . والنحيزة : لمل أقرب معانيها إلى معنى البيت أنها نسيجة شهه الحزام تكون على الفسطاط .

<sup>(</sup>٣) ديوان الحذليين ٢ /١٣١ – الرهم : المطر الضميف الساكن اللين .

<sup>(</sup> ٤ ) انظرها في المصدر السابق / ١٤٠ ، ١٤١ . وفي الأغاني ٢١ / ٧ه ، ٨ه .

أخباره والشعراء المعاصرون له ، والذى اتخذه الشعراء من بعد ُ مادة طريفة لأحاديثهم عن السرعة ؟

الحق يقال إنها مسألة غريبة ألا نجد للسليك شعراً يتحدث فيه عن سرعة علوه ، ولكن يبلو أن أقرب الفروض لتعليل هذه المسألة هو أن شعر السليك فى علوه وسرعته قد فقد . وليس من شك عندى فى أن جانباً كبيراً من شعر السليك قد فقد ، فليس من المعقول أن كل ما نظمه السليك من شعر لا يعدو تلك الأبيات القليلة المتفرقة فى مصادر الأدب العربى المختلفة . وإذا كنا قد لاحظنا أن مجموعة السليك الفنية لا تضم حديثاً عن هذا الجانب من حياته ، فإننا نلاحظ أيضاً أنها لا تصور جوانب حياته الأخرى تصويراً كاملا أو شبه كامل ، وإنما هى مقطوعات قليلة لا تكاد تصور حياة صاحبها . أما صورة حياة السليك فصدرها الأول أخبار الرواة وأقاصيصهم عنه . ومع ذلك فشعر السليك حكا يبدو مما وصل إلينا – ليس من الجودة بحيث نأسف على ضياعه ، وقديماً سئل الأصمعى عنه فقال «ليس من الخودة بحيث نأسف على ضياعه ، وقديماً سئل الأصمعى عنه فقال «ليس من الفحول » (١).

#### الغزوات على الخيل:

ويتحدث الشعراء الصعاليك أيضاً عن غزواتهم على الحيل ، وليس هناك ما يمنع الصعاليك من استخدام الحيل فى غزواتهم إذا وجدت ، وليس فى هذا ما يطعن فى مقدرتهم على العدو ، فهى مقدرة معترف لهم بها . هذا إلى أن بعض الصعاليك لم يكونوا عدائين .

وقد عرفت أسماء خيل بعض الصعاليك، فَتَقرَّمُكَ فرسعروة بن الورد (٢٠)، والنَّحَام فرس عروة بن الورد (٢٠)، والنَّحَام فرس السليك (٢٠).

<sup>(</sup>١) فحولة الشعراء (نخطوطة) ورقة رقم ١٥.

<sup>(</sup> ٢ ) ديوانه / ١٣٠ . ولسان المرب : مادة (قرمل) .

<sup>(</sup>٣) القالى : النوادر /١٨٥ . ولسان العرب : مادة ( نحم ) .

<sup>(</sup> ٤ ) ديوانه المطبوع / ١٠ . وحمامة الحمالديين (مخطوطة) ورقة رقم ٤٠٠ .

ويتحدث الصعاليك أحياناً عن غزواتهم على الخيل مقترنة بغزواتهم على الخيل مقترنة بغزواتهم على الأقدام ، على نحو ما رأينا فى الفصل الأول من الباب الأول من أبيات تأبط شراً وعروة . ويتحدثون أحياناً أخرى عن غزواتهم على الحيل حديثاً مستقلا . وهي ظاهرة أكثر ما نجدها فى شعر عروة .

فهو يتوعد حيناً أولئك الأغنياء المطمئنين الذين حسبوا أن لن يجرؤ على غزوهم أحد ، وينذرهم بأنه سوف يفزعهم بخيل نشطة تطرد أمامها إبلهم المنفرة طرداً عنيفاً :

مَيْفُرع بعد اليأس مَنْ لا يخافنا كواسعُ فى أخرى السَّوَام المنفَّر (١) وحيناً آخر يصرح بأنه لن يكف عن المغامرة فى سبيل الغنى ومعه جماعة من الصعاليك الفرسان حيى يحقق أهدافه أو يعذر نفسه:

فإنى لمستاف البلاد بسربة فميلغ نفسى عُذرَها أو مطوف (٢) ويشير أحياناً أخرى إلى نجاته من مأزق حرج على ظهر جواده « قرمل » ، وهو يعد ذلك منة لهذا الجواد لا تنسى :

كليلة شيباء التي لستُ ناسيا وليلتنا إذ مَنَ ما مَن قَرْمل (٣) ويصرّح السليك ، ذلك الرجلي الذي يضرب به المثل في سرعة العدو ، بشدة حاجته إلى فرسه في أثناء غارات أصحابه الفرسان على أهدافهم :

وما يدريك ما فَقرى إليه إذا ما الركب في نهب أغاروا (١٤) وكذلك الشنفرى ، ذلك الرجلي "الآخر الذي يضرب به المثل أيضاً في سرعة العدو ، يتحدث عن فرسه حديثاً طريفاً ، ففرسه لا عيب فيه سوى هزاله ، ولكنه جرىء مقدام ، تطغى جرأته وإقدامه في أثناء القتال على هزاله ، بل إن الحيل السمينة لا تستطيع الوقوف أمامه :

<sup>(</sup>۱) ديرانه /۸۳ .

<sup>(</sup>۲) ديرانه /۹۳ .

۲۰/ دیوانه /۲۲۰ .

<sup>( ۽ )</sup> انسان العرب : مادة ( رکب ) .

ولاعيب في اليحموم غير هزاله على أنه يوم الهياج سمينُ وكم من عظيم الخلق عبل موثّق حواه ، وفيه بعدَ ذاك جنون(١١) وطرافة الصورة تأتى من أن الشنفرى يُضُّني صفات التصعلك على جواده ، فهو جواد هزيل كصاحبه ، جي علمهما الفقر والجوع ، ولكنه كصاحبه أيضاً جرىء مقدام ، كأنما يشعر كما يشعر صاحبه بأن الحق للقوة ، وأن الرزق فى الشجاعة، وأن الجواد الخامل كالصعلوك الخامل . وتأتى طرافة الصورة أيضاً من أن الشنفري يلوّن صورة جواده بألوان مغامراته هو ، فإذا جواده صورة منه ، كم حوى من خيل سمينة قوية موثقة ، كشأنه هو مع أفراد مجتمعه الأغنياء ، وهكذا يقدم لنا الشنفرى جواده على أنه « جواد ٌ صعلوك ٌ ، .

فإذا ما قتل الشنفرى ، وفزع صديقه الحميم وأستاذه نأبط شرا لأحزانه عليه يستمد منها رثاءه له ، لم ينس ذلك « الجواد الصعلوك » فخصه ببيتين رائعين من مرثبته ، عند حديثه عن الوسائل التي كان يعتمد علمها الشنفرى في قتاله ، عزمه ، وقوسه ، وسيفه ، وفرسه :

وأَشْقَرُ غَيداقُ الجراء كأنه عُقابُ تُدلَّى بين نيقَين كاسرُ يَجِم جُمُومَ البحر طال عُبابه إذا فاض منه أوّل جاش آخر (٢)

### الآراء الاجتماعية والاقتصادية:

من الطبيعي أن يعلل الشعراء الصعاليك لمغامراتهم الدامية التي وهبوا لها حياتهم ، وأن يفسروا الدوافع التي دفعتهم إلى تلك الثورة التي أشعلوها في وجه مجتمعهم ، حتى تكون حركتهم التي وصفها مجتمعهم بالشذوذ قائمةً على أساس معلل مسبب ، وحتى تكون إجاباتهم حاضرة لكل من يسألهم :

<sup>(</sup>١) ديوانه المطبوع /٠٠ . وحاسة الحالديين (مخطوطة) ورقة رقم ٠٠٠ .

<sup>(</sup> ٢ ) ديوان الشنفرى في الطرائف الأدبية / ٢٨ . وحماسة الحالديين ( مخطوطة ) ورقة رقم ١٧٤ – الغيداق : الطويل . والجراء : الجرى . والنبق : أرفع موضع في الجبل . وجم الماه : كثر واجتمع .

لم فعلم هذا ؟ وحتى يبيئوا للباحثين فى حركتهم أن يعرفوا أسبابها ودوافعها . وقد رأينا فى الباب الأول أن حركة الصعاليك قامت نتيجة لعوامل ثلاثة : عامل جغرافى ، وعامل اجتماعى ، وعامل اقتصادى ، وأن العامل الجغراف وإن يكن أول هذه العوامل – ليس العامل المباشر ، وإنما العامل الاجتماعى والعامل الاقتصادى هما العاملان المباشران فى قيام هذه الحركة . وليس من شك فى أن الشعراء الصعاليك كانوا يشعرون بهذه المعانى شعور المتصل بها الآخذ بأسبابها . وقد أدرك الشعراء الصعاليك عن طرينى هذا الشعور أن حديثهم عن العامل الجغرافى لن يجدى حركتهم شيئاً ، ولن يضيف إلى حيثيات الحكم فى قضيتهم ما يفيدها ، لأنه عامل عام يشترك فى التأثر به مجتمعهم كله ، وإنما الذى ينفع قضيتهم ، ويصلح مادة اللفاع عنها العاملان الآخران الاجتماعى والاقتصادى ، ومن هنا حرصوا كل الحرص على تسجيل آرائهم الاجتماعية والاقتصادية .

ومن الطبيعي أن يتحدث الصعاليك عن انقطاع الصلة بينهم وبين قبائلهم ، تلك الظاهرة التي كان لها أكبر الأثر في تصعلكهم ، والتي تُعد نقطة التحول أو الحد الفاصل بين حياتهم القبلية بما فيها من توافق اجتماعي ، وبين حياتهم المتصعلكة بما فيها من شدود .

يعلن حاجز فى صراحة أنه - وإن يكن أزديا من َسلامان – أصبح منتسباً إلى بنى مخزوم من قريش ففيهم حلفه ، وهم لا يخذلونه إذا استنصر بهم وإنما يسرعون شجعاناً إلى نجدته :

قومى سَلامَانُ إِذْ مَا كُنت سَائِلَةً وَفَى قريش كريم الحلْف والنَّسَبِ إِنْ مَنْ أَدْعُ مَخْزُومًا تَرَى عُنُقًا لايَرْ عَشُون لضرب القوم من كشب (١)

و يدعو قيس بن الحدادية أن يجزى الله عنه خيراً أولئك الذين حَمَوْه بعد أن خلعه قومه ، فما يملك شيئاً ليجزيهم به ، وهو الصعلوك الفقير ، سوى

<sup>(</sup>١) الأغانى ١٢/٤٩ ( يولاق) - العنق : الجاعة من الناس والرؤساء .

ذلك الدعاء الصادق الصادر من أعماق نفسه:

جُزَى الله خيرًا عن خليع مُطرَّد رجالا حموه آلَ عمرو بن خالد وماله لا يدعو لهم وقد آووه ، وعطفوا عليه ، ونصروه بعزهم وشرفهم وبأبنائهم الأبطال الأمجاد :

وقد حَدبت عمرو على بعزها وأبنائها من كل أروعَ ماجد وهو لهذا يعلن على الملا أن هؤلاء القوم الذين بلحاً إليهم ، إنما هم الأصحاب والأهل والثروة والنصر :

أولئك إخوانى وجل عشيرتى وثروتهم والنصرُ غير المحارد (١) بل إن أبا الطمحان يعلن أنه قد نسى أهله فى جوار من استجار بهم بعد خلعه ، وأصبح كأنه واحد منهم ، حتى لقد عرفت كلابهم ثيابه فما تهر عليه :

وقد عَرَفَتْ كلابهمُ ثياني كأنى منهمُ ونسيتُ أهلى (٢)
ولا يسى الصعاليك الحلعاء خلع قبائلهم لهم حتى في آخر لحظات حيابهم ،
حين بمر بهم ماضهم الحافل بالمعامرة والكفاح ، فإذا قصة الحلع هي الحد
الفاصل بين حياتين ، والسر الأول في تلك الحياة القاسية التي عاشوها ، والتي
يودعونها في هذه اللحظات . هذا قيس بن الحدادية يقاتل أعداءه الذين تكاثروا
عليه حتى تُقتل وهو يرتجز ذاكراً أول ما يذكر قصة خلعه وبغض أهله له .
أنا الذي تخلعه مواليه وكلهم بعد الصفا قاليه

وكلهم يقسم لا يباليه <sup>(۱)</sup>

وإذا كان الصعاليك الجلعاء والشداذ قد صوروا في شعرهم هذه العقد النفسية التي كان منشؤها انفطاع الصلة بينهم وبين قبائلهم ، فإن الصعاليك الأغربة لم يتحدثوا في شعرهم عن ظاهرة اللون التي كانت عقدة العقد في حباتهم، والتي كانت سبباً في انعدام التوافق الاجتماعي بينهم وبين قبائلهم ، وفيا عدا

<sup>(</sup>١) الأغانى ١٣/٥ (بولاق) – المحارد : من حاردت الناقة إذا انقطعت ألبانها أو قلت .

<sup>(</sup>٢) الجاحظ : الحيوان ١/٠٨٠ .

<sup>(</sup>٣) الأغاني ١٣/ ٨ ر يولاق) . وأين حبيب : من نسب إلى أمه من الشعراء /٦ .

تلك المقطوعة التى أشار فيها الشنفرى إلى أنه هجين (١) لا نكاد نعثر فيما بين أيدينا من شعر الصعاليك الأغربة على إشارة إلى هذه الظاهرة ذات الأثر البعيد فى حياتهم .

والذي يبدو لى تعليلا لهذا هو أن الصعاليك الأغربة كانوا يجدون غضاضة في الحديث عن هذه الظاهرة التي كانت مصدر احتقار المجتمع الجاهلي لهم ، حتى إن إشارة الشنفري إليها في تلك المقطوعة السابقة كانت إشارة ملتوية تبدو عليها محاولة التنصل منها ، أو على الأقل الدفاع عنها . كما أن حديثهم عنها لا يفيدهم شيئاً في قضيتهم ، لأنها ظاهرة خلقية لا يد لهم فيها ، ولا قدرة لهم على تغييرها ، وهذا عكس الفقر الذي كثر حديثهم عنه ، فهو ظاهرة على تغييرها ، وهذا عكس الفقر الذي كثر حديثهم عنه ، فهو ظاهرة يستطيعون دفعها وتغييرها ، والمقصر في هذا من الصعاليك الحاملين عليه وزره ، وعليه لعنة الصعاليك العاملين ، وهذا بيطبيعة الحال به إذا لم يكن فيا فقد من شعر الصعاليك الأغربة حديث عنها .

أما عقدة العقد التي اشترك فيها جميع الصعالبك ، وتحدث عنها جميع شعراتهم فهي الفقر ، تلك الظاهرة الاجتماعية الاقتصادية التي كانت السبب الأقوى في تصعلكهم .

ويتحدث الشعراء الصعاليك في أكثر من موضع من شعرهم عن فقرهم ، وأسبابه ، وتأثيره في أجسامهم ، وأثره في حياتهم الاجتماعية ، والوسائل التي يسلكونها للتخلص منه ، والأسباب التي يحرصون من أجلها على التخلص منه ، إلى غير ذلك من ألوان الحديث .

يصور الأعلم الهذل فقره فى صورة بدوية ساذجة ، ولكنها طريفة : زُعمت خَنَازِ بِأَن بُرْ مَننا تَغْلى بلحم غير ذى شحم (٢) والشاعر الصعلوك هنا قد سجل على نفسه الفقر . ولن تجديه شيئاً هذه

<sup>(</sup>١) ديوانه المطبوع /٠٠ قصيدة حرف (١١) ، وديوانه المصور لوحة رقم ٢ .

<sup>(</sup> ٢ ) شرح أشعار الهذليين ١ / ٦٥ ، ولسان العرب مادة ( خنز ) وقيه « تجرى « مكان « تغل » – وخناز : لقب امرأة ، والحناز في اللغة : المنتنة .

المحاولة « المكشوفة » لمداراة فقره حين ادعى أنه زعم من هذه المرأة التي يسبها ، ومع ذلك فهو يرد علمها في آخر مقطوعته بأنه يفخر بأكل هذا اللحم الهزيل ، ما دامت نفسه لم يمسمها عار ولا إثم :

إنا لنأكل لحمنا ،فاستيقنى فى غير مَنْقَصَة ولا إثم (١)
وفى قصيدته البائية المشهورة يرسم صورة إنسانية مؤثرة له ، وهو يفر من
أعداته بعد مغامرة من مغامراته فى سبيل العيش ، وقد ذكر أهله الفقراء فى
صحرائهم المجدبة ، وحاجة أولاده الصغار الشعث الذين خلفهم وراءه فى العراء
ولا شىء لهم سوى تلك الذلة التى تبدو عليهم كلما تظروا لمحا إلى أقاربهم فى
انتظار شىء يجودون به علهم :

وذُكرْتُ أَهلَى بالعرَا ء وحاجةً الشعث التوالبُ المصرمين من التسلا د اللامحين إلى الأقارب(٢)

ويتحدث الشعراء الصعاليك عن أسباب فقرهم ، وهم يردونه عادة إلى كرمهم وإسرافهم . فعروة أبو الصعاليك يرد فقره إلى بذله ماله للفقراء المحتاجين الذين يأتون إليه يشكون فقرهم وعوزهم وكثرة أولادهم :

إذا قلتُ قد جاء الغنى حالَ دونه أبو صبيّة يشكو المفاقر أعجفُ له خَلَّةً لا يدخل الحق دونها كريم أصابته خطوب تجرَّف الله ويسجل تأبط شرَّا فى قافيته المفضلية حواراً بينه وبين شخص يعذله على كرمه وإسرافه ، يصور نفسه فيه كريماً لا بيق على شيء عنده ، مغامراً فى سبيل الحصول على مزيد من المال ليرْضى به مطالب كرمه ، وماذا فى الحياة يدفعه إلى الحرص ما دام كل ما فيها فانياً مهما يحرص الإنسان عليه :

مِل مَنْ لَعَذَّالَة خَذَّالَة أَشْبَ حَرَّق بِاللَّوم جَلَدى أَى تحراق يقول أَهلكتَ مالا لو قَنعتَ به من ثوب صدقِ ومن بَرَ وأعلاق

<sup>(</sup>۱) شرح أشعار الهذليين ١/٢٦ .

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق / ١٨ . وانظر ص ٢١٣ من هذا البحث .

<sup>(</sup>٣) ديوانه /٩٢ . وحاسة أبي تمام ٤ / ١٣٣ .

عاذلتى إن بعض اللوم مَعْنَفَةً وهل متاع وإنَّ أَبقيتهُ باق<sup>(١)</sup> ويذكر أبوخواش أنه كريم يدعوامرأته دائماً إلى ألا تدخر شيئاً، ولا تبقى لغد شيئاً ، فإذا لم يجدا في غد بعض زادهما فسيحاول أن يحصل لها على زاد غيره ، أو فلتمسك فمها عن الطعام :

لقد علمت أم الأديبر أننى أقول لها: هَدَّى ولا تَذَخَرى لحمى فإن غدا إلاَّ نجِد بعض زادنا نُنيْ لك زادًا أو نُعَدُّك بالأَزْم (٢) ويتحدث الشعراء الصعاليك أيضاً عن أثر الفقر فى أجسامهم ، وما بحمله لم من جوع وهزال . وقد مر بنا (٣) حديث السليك عن فعل الجوع به فى أشهر الصيف المحرقة ، وما كان يصيبه من إغماء ودوار ، حتى لقد أوشك أن يفقد حياته صريع الفقر والجوع والهزال ، أو — بعبارة أخرى — صريع الصعلكة :

وما ناتبها حتى تَصَعلكتُ حقبةً وكدتُ لأَسبابِ المنية أعرف وحتى رأيتُ الجوع بالصيف ضرنى إذا قمت تغشانى ظلالُ فأُسدف ويرسم تأبط شرًا فى بعض شعره صورة لجسمه دقيقة كل الدقة ، صورة الشخص الذى لا يبقى من الزاد إلا ما يتعلل به ، حتى لقد تشزَت أضلاعه ، والتصق معاه :

قليل ادخار الزاد إلا تُعلة فقدنَشزَالشرْسُونُ والتصقالمعي<sup>(٤)</sup> وينظر بعض الشعراء الصعالبك إلى المسألة من زاوية أخرى ، فيتحدثون عن صبرهم على الجوع واحتمالهم له ، متخذين من هذا الحديث مجالا للفخر

<sup>(</sup>١) المفضليات /١٨ -- الخذالة : الذي يخذله في إرادته ويخالفه فيها . والأشب : المخلط عليه المعترض . والبيت الثانى معناه أنه يأمره أن يبخل ويمسك عليه ماله حتى يستغنى عن الغزو ولا يحتاج إلى طلب المال ( انظر شرح ابن الأفهاري ) .

<sup>(</sup> ٣ ) ديوان الهذليين ٣ / ١٢٥ – هدى : أى اقسمى هديتك وما عندك . الأزم : الإمساك وترك الأكل .

<sup>(</sup>٣) انظر الباب الأول : الفصل الأول (التمريف بالصعلكة) ص ٣٠.

<sup>﴿</sup> ٤ ﴾ حَيَاسَةً أَبِّي ثَمَامُ ٢٧/٢ ، وَالْأَغَانَى ١٨/٢١٧ .

بقوة نفوسهم وصدق عزائمهم ، ولكننا نلاحظ أن بين النظرتين فرقاً في المجال : فأما الذين يشكون من الجوع فإنهم يتحدثون عن ذلك في مجال حديثهم عن مغامراتهم المتمردة ، وأما الذين يتحدثون عن صبرهم عليه فإنهم يتحدثون عن ذلك في مجال محديثهم عن قوة نفوسهم .

ويقدم لنا أبو خراش صورة نبيلة لذلك الجوع . الذى يُطيل حبسه حنى يَمله فيمضى عنه دون أن يلحقه منه عار ، وهو يكتنى بالماء القراح فى حين يستمنع البخلاء الأشحاء بزادهم ، فإذا ما تلظى الجوع فى بطنه فإنه يرده ويغلبه على أمره ، وهو يؤثر عياله على نفسه بالطعام ، وهو يفعل ذلك كله حتى يعيش حياة كريمة مترفعة لا تسقط إلى مهاوى المذلة والهوان والعار حيث يكون الموت خيراً من الحياة :

وإنى لأثوى الجوع حتى يَملنى فيذهب لم يَدُنْسْ ثيابي ولاجِرْمى وأغتبتُ الماء القراح فأنتهى إذا الزاد أمسى للمزَلَّج ذا طعم أرد شُجاع البطن قد تعلمينه وأوثر غيرى من عيالك بالطَّعْم مخافة أن أحيا برغم وذلة وللموت خير من حياة على رغم(١)

ومن الطبيعى أن يتحدث الشعراء الصعاليك عن تلك السياط النفسية التي يصبها الفقر على نفوسهم ، والتي تحدثنا عنها في الفصل الأول من الباب الأول .

وفى شعر عروة أحاديث طويلة عن هوان منزلة الصعاليك الاجتماعية ، ومقامهم خلف أدبار البيوت ، وسوء منظرهم فى هذا المقام الذليل ، وعن تلك الغضاضة التى يراها عليهم ، وكيف يتوارون من الناس ، فلا يقيمون إلا سيث لا يراهم أحد ، وعن ضيق أقاربهم حتى ليوشكوا أن ينكروا قرابتهم لهم :

رأيتُ بنى لبنى عليهم غضاضة بيوتهم وسط الحلول التكنّف (١) ذرينى أطوّف في البلاد لعلنى أخليك أو أغنيك عن سوء مَحْضر فإن فاز سهم للمنية لم أكن جزوعاً ، وهل عن ذاك من متأخرً

<sup>(</sup>١) ديوان الهذليين ٢ /١٢٧ ، ١٢٨ ، والأغانى ٢١ / ٣٠ – المزلج : البخيل .

<sup>(</sup>۲) ديوانه / ۹۶ .

وإن فاز سهمى كفكم عن مقاعد إذا المرء لم يكلب معاشاً لنفسه وصارعلى الأدنين كلا عواوشكت

لكم خلف أدبار البيوت ومنظر (١) شكا الفقر أو لام الصديق فأكثرا صلات ذوي القربي له أن تَنكرا (٢)

ويرسم السليك صورة إنسانية مؤثرة لما تلاقيه خالاته الإماء السود من الضيم والهوان ، وهو عاجز لفقره عن أن يفعل من أجلهن شيئاً حتى ليشيب رأسه مما يقاسيه نفسيناً من أجلهن :

أشابَ الرأسُ أَنَى كل يوم أَرى لى خالةً وَسطَ. الرحال يَشُقُ على أَن يلقين ضيا ويعجز عن تخلصهن مالى(٢٠) والسليك في هذين البيتين لا يقصد خالاته القريبات شقيقات أمه بالذات ،

ولكنه يقصد بهن عامة الجنس ، فهو يصور فيهما هوان الجنس الأسود الذي تنتمى إليه خالاته ، ويقول المبرد « وإنما توجعً لحالاته لأنهن كن إماء ه (٤).

ومن الطبيعى أن يتحدث الشعراء الصعاليك ، بعد أن عرضوا لمشكلة الفقر وأثرها وأسبابها ، عن آرائهم فها ، وكيف يكون السبيل إلى حلها . والسبيل الوحيد إلى ذلك عندهم ، كما أسلفنا ، الثورة على المجتمع ، أو بالذات على طبقة المالة فيه ، واغتصاب حقوقهم منها، معتمدين على قوتهم، مهما يكلفهم ذلك من ثمن.

وقد صور الشعراء الصعاليك هذا كله فى شعرهم ، فكما تحدثوا عن مغامراتهم وهى الناحية العملية من حلهم للمشكلة ، تحدثوا عن الناحية النظرية فها ، فسجلوا آراءهم الاجماعية والاقتصادية تسجيلا صادقاً بارعاً .

فهم بحتقرون ثلث الطائفة الخاملة من الصعاليك الذين قبلوا وضعهم الاجتماعي الذليل وقنعوا به ، فعاشوا على هامش المجتمع ينتظرون من أفضلات

<sup>(</sup>۱) ديوانه /۱۷.

<sup>(</sup>٢) ديوانه /١٩٠ .

<sup>(</sup>٣) المبرد : الكامل /٢٩٩ . والبغدادى : خزانة الأدب ٢/ ١٢٨ وفيها « يعز « مكان « يثق » .

<sup>( ؛ )</sup> الكامل / ٢٩٩ .

الأغنياء ما يسلمون به رمقهم ، ويعلمون ذلك الغني كل الغني ، لا يفكرون إلا في أنفسهم يلتمسون لها ذلك الزاد القليل الذليل ، أما التفكير في أن يكون لهم منالثراء ما "يطعمون به غيرهم، ويسجلون به لأنفسهم أحاديث خالدة تتناقلها الأجيال من بعدهم ، فهذا أبعد الأشياء عن محيط نفوسهم الضعيفة التي تحيا حياة خاملة متكاسلة أقصى ما فيها من عمل خدمة النساء و الأرستقراطيات ، إذا احتجن إلهم .

أما الصورة التي يريدون أن يكون علما أفراد جماعة الصعاليك فهي صورة الصعلوك المغامر القوى النفس والجسد ، الذي يشرق وجهه في أوقات الشدة ، والذي بهب حياته للمغامرة ، ويبث الرعب في قلوب أعدائه حتى ليخشونه في وجوده وفي غيابه ، فإذا استغنى فإنه جدير بهذا الغني لأنه حصل عليه بقوته ، وإذا جاءه أجله في ميدان كفاحه فليمض إلى ربه حميداً مبرآ من العار والذم (١) .

وهم حريصون كل الحرص على أن يفرق المجتمع بين هاتين الطائفتين ، وكم يتمنون لو عرف لكل طائفة قيمتها ، فاحتفر الأولى ، وَقدرَ الأخرى حق قدرها . وهذا السليك يوضح ذلك الفرق لصاحبته حتى تكون على بينة من أمرها فلا تخلط بينه وبين صعاليك الطائفة الأولى الخاملة الضعيفة ، لعلها إن أدركت هذا الفرق كفت عن هجره ونال إعجابها:

ألا عَتبت على فَصَارمتني وأعجبها ذوو اللمم الطوال فإنى يا ابنة الأقوام أرى فلا تصلى بصعلوك نئوم ولكن كل صعلوك ضَروب

على فَضُل الوَضيء من الرجال إذا أمسى يُعد من العيسال بنصل السيف هامات الرجال<sup>(٢)</sup>

<sup>(</sup>١) أنظر الحديث عن هاتين الصورتين : صورت الصعلوك الحامل والصعلوك العامل في رائية عروة في ديوانه /٧٣ – ٨٧ والأصمعيات /٣٠ ، ٣٠ وجمهرة أشمار العرب /١١٥ ، وحماسة أبي تمام ١/٢١٩ ، ٢٢٠ . وانظر ص ٣٣٩ من هذا البحث .

<sup>(</sup>٢) ألمبرد: الكامل (٢٩٨.

وما دام الأمر كذلك فليرسموا لأولئك الذين آمنوا بدعوتهم خطة العمل ، وليحببوها إلى قلوبهم ، وليدافعوا عنها وعنهم كما دفعوهم إليها . وقد ترددت هذه المعانى كثيراً فى شعرهم ، ووقف عروة بن الورد بالذات — كما يقف صاحب المذهب سيدعو إلى مذهبه ويحببه إلى قلوب الناس ، ويدافع عنه . وليس فى هذا غرابة ، فلم يكن عروة يعد نفسه صعلوكاً من الصعاليك ، وإنما كان يعد نفسه زعيا للصعاليك ، أو داعية لفلسفة التصعلك ، إن صحت العبارة . وبهذه النظرة نظر إليه رفاقه ، وبحق سموه أبا الصعاليك ، أن .

والحطة العملية في فلسفتهم الغزو والإغارة ، وكما كثر في شعرهم الحديث عن الجانب التنفيذي من هذه الحطة ، كثر أيضاً حديثهم عن الجانب التشريعي منها ، أو بعبارة أخرى كثرت دعوتهم إلها . وأكثر من ظهر عنده هذا الجانب التشريعي عروة بحكم وضعه داعية لفلسفة الصعلكة . وأساس دعوتهم أن هذه الخطة هي السبيل الوحيدة للغني لمن هو في مثل حالتهم :

متى تَطلب المالَ المعنَّع بالقنا تَعثَّ ماجدًا أو تَعَثَّر مكالمخارم (٢) ويتحدث الشعراء الصعاليك أيضاً عن الأهداف التى يقصدونها بغزواتهم ، فيحددون تلك الطوائف من مجتمعهم التى يرون أن يوجهوا إليها رءوس حرابهم ، ومن الطبيعى أن تكون طبقة المالة أكثر طبقات مجتمعهم تعرضاً لغزواتهم ، لأنها الهدف الدسم الذى يسيل له لعابهم . ويتحدث تأبط شرا عن ثلاث طوائف من هزلاء المالة كان يوجه إليهم غزواته : أصحاب المواشى ، وأصحاب المزارع الحصبة ، وأصحاب النوق الحوامل :

فيوماً على أهل المواشى وتارة لأهل ركيب ذى ثميل وسنبل (١٦) ولكن أرباب المخاض يَشُفهم إذا اقتفروه واحدًا أو مشيّعًا (١٤)

<sup>(</sup>١) الأغاني ٢/١٨ .

<sup>(</sup>٢) عمرو بن براقة في الأمالي للقالي ٢/٢٢/٠.

<sup>(</sup>٣) لممان العرب : مادة ( ركب) ومادة ( ثمل) ~ الركيب : المزرعة . والتميل : الحب .

 <sup>(</sup>٤) سياسة أبى تمام ٢/٢١ ، والأغانى ١٨/١٨ -- يشفهم : يهزلهم ، ويك عيشهم .
 واقتفروه : تتبعوا أثره .

أما الأعلم فإنه يقصد أولئك السهان المترفين ضعاف القلوب ، وهو يرسم فى مقطوعة له صورة ساخرة طريفة لنموذج من أولئك الذين يجعل منهم أهدافاً لغزواته ، فهو رجل غنى سمين مترف ، يعيش بين الستائر والحظائر ، وجبهت امرأته إليه برها وعنايتها حتى سمّته فأصبح من صنعها ، ولكنه مع ذلك ضعيف القلب لو اخترق صحراء لفز عته شخوصها ، ولحسب كل شخص فيها فارسا ، الله خائف من أولئك الصعاليك المتربصين به وبأمثاله فى أرجابها ، الذين إذا رأوه انصبوا عليه كما تتفجر المياه من حوض متهدم يحاول صاحبه إصلاحه دون جدوى ، وعندئذ تضطرب نفسه ، وينهار كيانه ، ويفر هاربا ، ويذهب صنع امرأته فيه سدى :

أيسخط غزونا رجل سمين تُكنّنه السنارة والكنيفُ ولو رفّعت ثوبك في خروق تروعك في مهالكها الشّلوف تخاف لِزام عادِية ثُعول كما يتفجر الحوضُ اللقيفُ إذن لذكرت حالك غَير عصر وأفسدَصُنعَهافيك الوجيف (١)

أما أولئك الصعاليك الذين خلعتهم قبائلهم ، أو خلعوا هم أنفسهم منها ، فكما يشاركون غيرهم من الصعاليك في غزوهم أولئك الأغنياء ، يحرصون — إلى جانب ذلك — على الانتقام من أولئك الذين كانوا سبباً في صعلكتهم . ومن هنا نجد أن لهم أهدافاً أخرى غير هؤلاء الأغنياء . كما كان يفعل الشنفرى مع بني سلامان .

ويتحدث الشعراء الصعاليك أيضاً عن الغاية التي يريدون أن يصلوا إليها من وراء هذه الحطة الدامية التي يسلكونها في حياتهم ، وهي – بطبيعة الحال – الغني . ويسجل الأعلم في أبيات له الأسباب التي يحرص على الغني من أجلها

<sup>(</sup>۱) شرح أشعار الهذليين ۱/۲۱ ، ۲۹ - الحروق : جمع خرق وهو القفر والأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح . والشدوف : جمع شدف (بالتحريك) وهو الشخص . والحزام : العذاب . والثعول : التي لها زيادات بمنزلة الضرع . والقيف : الذي أصلحه صاحبه فعليته وسواء من فواحيه . والوجيف : ضرب من الدير ، أو هو الاضطراب .

فى ثلاثة : فأمواله 'تغنيه عن الناس من ناحية ، وهو 'يعين بها الداعين إذا حلت بهم عظيمة من ناحية ثانية ، ثم هو – من ناحية ثالثة – يعد ها للأضياف والمعوزين فى أيام الجدب والشدة التى لا يجد الناس فيها ما 'يطعمون به مَن 'بكرت بغلام ، ولا تجد الأم شيئاً 'تسكت به فطيمها عن البكاء والصراخ جوعاً :

أَحْبُشِي إِنَا قد يُمتعنا الغني بأموالنا نريحها ونسيمها ونحبسها على العظائم نَتَّق بها دعوة الداعين، إنا نقيمها إذا النفساء لم تخرَّش ببكرها غلامًا، ولم يَسكت بحَتْر فطيمها (۱)

ویذکر صخر الغی أنه قتل رجلا من مزینة وسلبه ماله ، لیقوی به مال رجل فقیر کریم لا یکاد یثبت له مال :

فى المزنى الذى حَشَشتُ به مَالَ ضَريك تلاده نَكِدُ<sup>(٢)</sup> أحاديث التشرد :

قلنا إن هذه الحياة الواقفة فى وجه المجتمع المتمردة عليه الحارجة على نظمه ، كان من أثرها أن فقد المجتمع اطمئنانه إلى أصحابها ، كما فقد هؤلاء طمأنينتهم فيه ، وقلنا إن النتيجة الطبيعية لهذا كانت هى التشرد .

وقد تحدث الشعراء الصعاليك عن تشردهم فى أرجاء الصحراء الموحشة ، ووديانها المخيفة ، وافتخروا باهتدائهم فيها دون دليل ، أو قيامهم بمهمة الدليل بلحماعة من رفاقهم ، واتخذوا من هذا مادة للفخر بأنفسهم ، أو لمدح رفاقهم الصعاليك . يفتخر تأبط شرا \_ فى حديثه إلى امرأة خطها فامتنعت عليه \_ بأنه لطول تشرده ألفته وحش الصحراء واطمأنت إليه ، حتى لتوشك أن تصافحه لو أن وحشاً تصافح إنساً :

يبيتُ بمغنى الوحش حتى ألفنه ويُصبح لا يحمِي لها الددر مرتعا

<sup>(</sup>١) شرح أشعار الهذليين ١/٧٧. و و جها به في البيت الثانى ساقطة ، ولا يستقيم الوزن بدونها . الحرسة : طعام الولادة . والحتر : الشيء القليل .

 <sup>(</sup>۲) المصدر السابق /۱۳ - حششت به : قویت به . ضریك : فقیر .

رأين فتى لا صيد وحش بهمه فلو صافحت إنساً لصافحنه ما الم يكفوا ويفتخر فى قافيته المشهورة بكرمه وتشرده ، ويتوعد عاذليه إن لم يكفوا عن عذله بترك ديارهم والمضى منشرداً فى الآفاق البعيدة حتى يختنى عنهم وما هم بقادرين على معرفة مكانه مهما يجدوا فى السؤال عنه :

إنى زعيم لئن لم تتركوا عَلْمَ أَنْ يَسَأَلُ اللَّحَى عَنَى أَهَلَ آفَاقَ أَن يَسَأَلُ القومُ عَنَى أَهل معرفة فلا يَخْبُرهم عَن ثابت لاق (١) ويمدح صديقاً له من الصعاليك ، فلا يجد خيراً من أن يبدأ مدحه بذكر تشرده :

قليل التشكى للمهم يصيبه كثير الهوى شَنى النوى والمسالك يظل بمَوْماة ويمسى بغيرها جَحِيشاً ويغرَوْرِى ظهورَ المهاالك "

ثم يمدحه بطائفة من المعانى الأخرى ، ولكنه لا ينسى أن يختم مقطوعته بذكر تشرده مرة أخرى ، كأنما هو حريص على أن يؤكد هذه الميزة لصاحبه الذى بلغ به تشرده أن أصبحت الوحشة أنسه الأنيس ، والصحراء الغامضة المجهولة كتاباً مفتوحاً بهتدى فيه كما تهتدى الشمس فى فلكها :

يَرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدى بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك أنه ويفتخر عروة بمقدرته على الاهتداء فى الفلاة الغامضة المخوفة التى يعرض سالكها نفسه للمهالك من غير أن يستشير أحداً أو يستعين بأحد:

وغبراء مخشى رَداها مَخوفة أَخوها بأُسباب المنايا مغَرَّرُ وَعَبراء مخشى المنايا مغَرَّرُ وَعَبراء مُخَسَّا بَا شُكُ الخِلاَج وِلمِ أَقل لَخيابة هَبَّابة كيف تـأمرُ (٥)

<sup>(</sup>١) الأغاني ٢١٧/١٨ .

<sup>(</sup> ٢ ) المفضليات / ١٨ . وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٧٥ ، ١٧٦ .

<sup>(</sup>٣) حاسة أبي تمام ١/٧١ - جحيشا : منفردا . يمروري : يركب .

<sup>( )</sup> المصدر السابق /٤٩ .

<sup>(</sup> ه ) ديوانه / ١٣٠ – غبراء : مظلمة ليست بمسفرة الطرق . وشك الخلاج : مايخالجه ويشككه.

وتأخذ الصورة عند أبي خراش وضعاً آخر ، فهو لايقنع باهتدائه في مجاهل الصحراء ، بل يذكر في مجال فخره أنه يهدى رفاقه في الليالي المظلمة :

وإنى لأهدِى القوم فى ليلة الدجى وأرمى إذا ما قيل هل مِنْ فتى يَرمى (١) ويتحدت الشعراء الصحراء ، ويتحدت الشعراء الصحراء ، ويعدها عن المناطق المأنوسة، وما يحيط بها من أهوال ، وما يكتنف الطريق إليها من مخاوف .

يتحدث تأبط شرا عن شعب من شعاب الصحراء ، فى جهة نائية مهجورة ، ضَرَبت حوله الجبال نطاقاً ، حتى غدا الطريق إليه وعراً ، وملأته الصخور ، وتجمعت فيه آثار من مياه قديمة لا تُعرف مصادرها ، ويفتخر بأنه اهتدى إليه دون دليل ، ودون أن يسأل أحداً عنه :

وشِعبِ كَشَلَّ النوب شَكْس طريقه مَجَامعُ صَوْحيه نطاقٌ مُحَاصرُ به من سيول الصيف بيض أقرها جُبارٌ ، لصُمَّ الصخر فيه قَراقرُ نبطنته بالقوم ، لم يَهدنى له دليلُ ، ولم يُثبتُ لى النعتَ خابرُ به سَمَلاتُ من مياه قديمة مواردها ما إنْ لهن مصادرُ (۱) ويتحدث الشنفرى عن واد بعيد فى أعماق الصحراء ملتف الشجر ، قد

ألفته الجن والآساد ، حتى بات يخشاه المغامرون الشجعان ، وكيف أقدم في جرأة وشجاعة على السير فيه فى وقت مبكر قبل أن يتطاير الندى عن أشجاره: ووَاد بعيد العَمْق ضَنك جماعه بواطنه للجن والأسد مَالُفُ تَعسَّفتُ منه بعد ما سَقط الندى غَماليل يَخشى غِيلها المتعسف (۱۳) وقد قلنا إنه نتيجة لهذا التشرد وردت فى أشعار الصعاليك أحاديث كثيرة

<sup>(</sup>١) ديوان الهذليين ٢/١٣١.

 <sup>(</sup>۲) الأصمعيات ١/٥٥. ويروى البيت الثانى فى لسان العرب مادة (جبر) و به من نجاء العميف و سائط : أن يصيب الثوب سواد ولا يذهب بفسله . الصوح : حائط الوادى وأسفل الجبل أو وجهه الفائم كأنه حائط . الجبار : السيل . السملة : الماء القليل .

<sup>(</sup>٣) الأغاني ٢١/٢١ - النهااييل : الرواق . والغيل : الشجر الكثير الملتف .

عن حيوان الصحراء ووحشها وطيرها وحشراتها وما "يخيل للسارى فيها من أشباح .

وحين نستعرض مجموعة شعر الصعاليك التي. بين أيدينا نجد أنهم تعرضوا بالذكر لسبعة وعشرين نوعاً من هذه الفصائل السابقة : الذئب ، والضبع ، والسبع ، والنمر ، والأسد ، والتعلب ، والضب ، ثم حمار الوحش ، والنعام ، والوعول ، والظباء ، والأرانب ، ثم الحيات ، والعظايا ، ثم النسر ، والصقر ، والعقاب ، والغراب ، والبوم ، والسمانى ، والقمرى ، والقطاة ، والهدهد ، ثم النحل ، والجراد ، ثم الجن ، والغيلان .

ومن الطبيعى ألا يتحدث الشعراء الصعاليك عن هذه الأنواع جميعاً بدرجة واحدة ، فإن بعضها أقرب إلى طبيعة حياتهم ، وأدل على تصويرها ، وأصلح للانتفاع به فى فنهم من بعضها. ومن همنا تفاوت اهمام الشعراء الصعاليك بهذه الانواع تفاوتاً كبيراً .

وقد رأينا كيف استغل العداءون منهم تلك المجموعة من الحيوان السريع العدو في حديثهم عن سرعة عدوهم استغلالا رائعاً ممتازاً ، ورأينا تأبط شرا يذكر في بعض شعره أن وحش الصحراء قد ألفته ولم تعد تخشاه أو تنفر منه ، كما رأينا الشنفرى ، وهو بصف الوادى البعيد الذى اعتسفه ، يذكر أنه موطن للجن والآساد .

ولكن الأمر لا يقف بالشعراء الصعاليك عند هذا الحد ، بل يتجاوز ذلك أحياناً إلى تعرضهم لبعض هذه الأنواع بالوصف الدقيق المفصل ، الأمر الذى لا ينهيأ إلا لمن اتصل بها اتصالا قريباً عرف منه طبائعها وعاداتها .

فنى شعر عروة وصف للأسد ، فهو عريض الساعدين عريض الصدر ، رابض فوق أجمة يتساقط تقصّبها فوق ظهره ، ولكن إذا بدت له فريسة فما هى إلا وثبة واحدة حتى يقتنصها ، أما زئيره فيشبه صوت الرعد :

تَبغانَى الأعداء أما إلى دم وإما عراض الساعدين مصدرًا بظل الأباء ساقطاً فوق منه له العدوة الأولى إذا القير نأصحوا

كأن خَوَاتَ الرعد رزُّ زئيره من اللاء يسكنُّ الغريف بَعثَّرا الله وسفها وصفاً دقيقاً ، وتستأثر الضباع بجزء كبير منشعر الأعلم ، وهو يصفها وصفاً دقيقاً ، ويصف جراءها ، وفعلهن بفريسهن ، فالضبع تخليظة لها ثمانى جَوَاعر ، خلف أظلافها شعرات مجتمعة ، وفويق هذه الشعرات دوائر مثل الخلاخيل يخالف لونها سائر لون الأرجل :

عَشَنْزَرَةً جواعرها ثمان فُوينَ زَمَاعها خَدمٌ حُجولُ (٢) ويصف جراءها ، وانتفاخ بطوبهن ، وسواد جلودهن كأنما ارتدين ثباب رهبان ، وقصر آذانهن العريضة التي تشبه المغارف ، وما يفعلنه بالفريسة المسكينة التي تجر أمهن إليهن لحمها ، وكيف ينزعن جلدها كما ينزع القيون بطائن الجفون البالية :

وتَجر مُجْسريةً لها لحمى إلى أجر حَوَاشبُ سُودِ سَحَالِيلِ كَأَن جلودهن ثياب راهبُ سُودِ سَحَالِيلِ كَأَن جلودهن ثياب راهبُ آذاً بهن إذا احتَضَر نَ فريسةً مثل المذانب يَنزعنَ جلدَ المرء نَزْ عَ القين أخلاق المذاهب (٢٠) وهي صورة يخشاها تأبط شرًّا أيضاً ، ويصورها في بعض قصائده ، فالضبع تنبش الأرض عن الجيف المدفونة ، ثم تنشب فها أنيابها وبراثها ، ثم تدعو رفيقانها وبنانها ، فيسارعن إليها ليشاركنها نهشها :

<sup>(</sup>۱) ديوانه /هه ، ٥٦ – العراض : العريض ، والمصاد : العريض الصاد . والأباه : القصب . وأصحر : برز إليه . وخوات الرعد : صوته . والرز : الصوت تسمعه من بعيد ولا ترى صاحبه . والغريف : الشجر الملتف . وعثر : أرض قبل تبائة تسكنها الأسود ، وتبائة بلدة من أرض تهامة جنوبي الطائف .

 <sup>(</sup>۲) شرح أشعار الجذاليين ١٤/١ - العشارة : الغليظة المسنة . والزماع : جمع زمعة ، وهي شعرات خلف ظلف الشاة فضر به مثلا . والخدم جمع خدمة وهي لون مخالف سائر لون رجلها مثل الخلمنال .

<sup>(</sup>٣) المصدر السابق ١ / ٥٥ ، ٥٥ – مجرية ؛ أى ضبع ذات جراء . والحواشب : المنتفخات الجنوب . والسحاليل : العظام البطون . والمذانب : المغارف التي يغرف بها . والمذاهب : بطائن مذهبة تغشى بها أجفان السيوف .

فزُحْرَحت عنهم أو تجثني منبي بغبراء أو عرفاء تفرى الدفائنا كأنى أراها الموت لادر درها إذا أمكنت أنيابها والبرائنا حُدوفٌ تنكفي مُخُّ من كان واهنا وقالت الأخرى خلفها وبناتها: أَخالِيجُ وُرَّادٌ على ذي محافل إذا نزعوا مَدوا الدلا والشواطنا(١)

أما الشنفرى فلا يخشى على جسده الضبع ، بل يحرص على أن بهي لها منه وليمة شهية ، وهو لهذا يبشرها بمقتله ، ويطلب إلى قاتليه ألا يدفنوه :

لا تَقْبرونى إِن قبرى مُعَرَّم عليكم ولكن أبشرى أم عامر (٢) ويرسم أبو خراش فى قصيدة له صورة طبيعية صادقة لحمار الوحش وأتنه التي استبان حملها ، وما يدور بينه وبينها ، فهي تتأتى عليه ، وهو يصاولها ويتبعها . ولكن هذا ليس كل شيء في حياة هذا الحيوان ، وإنما هناك جانب نفسى آخر فى حياته ، هو ذلك الذعر الذى يملأ نفسه تهمَّا من خشية الصيادين ، ويعبر الشاعر عن هذا الذعر بمنظر الحمار وقد اعتلى مرتفعاً من الأرض يشرف منه على الآفاق حوله ، وقد امتلأت نفسه خوفاً وهمًّا ، حتى إذا آذنت الشمس بالمغيب بعد يوم طويل شديد الحر تذكر إنائه ، فأخذ يطاردها مرة أخرى وهي تعدو أمامه فتثير غباراً ممتدًّا كأنه خيوط لم ُتبرم :

> أَبَنَ عِقَاقاً ثم يَرْمَحْن ظَلْمَهُ يظل على البراز اليَفاع كأنه وظل لها يوم كأن أوارَه فلما رأين الشمس صارت كأنها

أَرَى الدهرَ لا يُبْقى على حدَثانه أُقب تباريه جَدائد حُولُ إِباء وفيه صَوْلة وذميلُ من الغار والخوف المحِمُّ وبيل ذكاالنار من فُرح الفُروغ طويل فويق البكضيع في الشعاع خميل

<sup>(</sup>١) الأَعَانَى ١٨ /٣١٣ – الضمير في « عنهم » يعود على أعدائه الذين يطاردونه وهو يغر منهم . والأخاليج : جمع إتحليج وهو السريع ، أو من خلج بمعنى جذب وانتزع . الدلا : هي الدلاء جمع دلو . والشواطن : الحبال .

<sup>(</sup>٣) ديوانه في الطرائف الأدبية /٣٦ . والشعر والشعراء /١٩ – وأم عامر : الضبع .

فهيجها وانشام نَفعاً كأنه إذا لفها ثم استمر سَحيل (١) ويرمم أيضاً صورة طبيعية صادقة للون من ألوان الصراع الذي يدور في تلك الصحراء المقفرة بين كاثناتها الحية ، والصراع هنا بين صقر وأرنب ، فالصقر فوق مرتفع مشرف على الآفاق ، رأى على بعد أرنباً بين شقوق الأرض ، فهوى إليها ، ولكنها تسرع لتنجو منه ، فيزيد هو من سرعته حتى انقض عليها فانتظم قلبها:

على مُخْزَئِلات الإكام نصِيلُ بعيد عليهن السراب يزول بلاد وُحوش أَمرُعُ ومُحُول سَمَفَاةً لها فوق التراب زَليلُ ومنه بدُو تارة ومثول صَيود لحبات القلوب قتول (٢) ولعل أطرف ما في شعر الصعاليك من هذا الباب أحاديث الجن والغيلان .

ولا أمعرُ الساقين ظل كأنه رأى أرنباً من دونها غول أشر ج فضم جناحیه ومن دون ما یری تُوَائِلُ منه بالضّراء كأنها يقربه النهض النجيح لما يرى فأهوى لها في الجو فاختل قلبها

(١) ديوان ألهذليين ٢/١١٧ ~ ١١٩ . أقب : حار ضامر البطن . جدائد : جمع جدود وهي التي لا لبن لها . وحول : جمل حائل وهي التي لم تحمل من عامها . والعقاق : الحمل . والظلم : طلب السفاد في غير موضعه . والذميل : سير لين مع سرعة . والبرز : ما يبرز للشمس . واليفاع ؛ المرتفع من الأرض. وقوله الحوف الحم يريد به الحوف الذي يأخذه معه هم وحديث نفس. والوبيل : العصاً الغليظة الشديدة ، يريد أنه من الحوف ضمر حتى صار كالعصا . ذكا النار : اشتعالها . من فيح الفروغ : أى يفود ويهتاج من مجراء الذي يجري منه كمثل فرغ الدلو . البضيع : الجزيرة في البحر . والخميل : القطيفة لها أهداب ، يقول : صارت الشمس حين دنت للغروب فويق جزر البحر كأنها قطيفة لها أهداب يشبه بها أشعبها . وقوله : انشام نقعا أي دخل فيه، والنقع : الغيار. والسحيل : خيط لم يبرم يشبه به الغبار ، أى أن الحار دخل فى غبار كأنه هذا النسيج قبل أن

<sup>(</sup>٢) ديوان الهذليين ٢/١٢١ -- ١٢٣ . أمعر الساقين : لا ريش عليهما ، يريد به صقرا . المحرَّثل : المرتفع . النصيل : حجر ماويل أملس يجعل في البئر . الأشرج : شقوق تكون في الأرض بعيمة طوال . غول : أي ذات بعد . يزول : أي يتحرك . بلاد وحوش : أي بلاد واسعة تسكنها ألوحوش . تواثل : أي تتواري لتنجو منه . الضراء : ما واراك من الشجر . السفاة : الشوكة . وقوله لها فوق التراب زليل : أي من خفتها تزل فوق الأرض . اختل قلبها : أي انتظمه .

وأكثر ما يرد ذلك في شعر تأبط شراً ، وهي صورة - وإن تكن محاطة بإطار أسطوري - تصور ما كان يخيله الوهم لذلك الصعلوك المغامر المتشرد البعيد الآفاق في الليالي المظلمة بين أرجاء الصحراء الموحشة ، حيث تتجسم الرقى أشباحاً مخيفة ، وتختلط الأصوات في لحن غامض رهيب . ومع ذلك فقد يكون ما يقصده تأبط شراً من الغيلان تلك الفصيلة من الحيوان المعروفة باسم «الغورلا» (۱) ، ولكن هذا لا ينفي أن صورتها عنده محاطة بإطار أسطوري . وهو يصور لقاءه لها ، بعد أن يمهد لذلك بالحديث عن الليل ، ثم يصفها ، ويسجل ما دار بينه وبينها ، وتنهي القصيدة بينهما دائماً بقتلها :

وأدهم قد جُبت جلبابه كما اجتابت الكاعب الخيْعَلا إِلَى أَن حدا الصبيحُ أَثناءه ومزَّقَ جلبسابه الألْيلا على شيم نار تنوَّرَها فبت لها مدبرًا مقبلا فأصبحت والغولُ لي جارةٌ فيا جارتًا أَنت ما أَهولا بوجه تَغُوَّل فاستغولا وطالبتها بضعها فالتوت فقلت کھا یا انظری کی تری ا فَولت فكنتُ لها أَغُولا فطار بقَحُفِ ابنة الجن ذو سَفاسق قد أُخلق المحملا إذا كُلُّ أُمهيته بالصفا فحد ولم أره صَيْقلا عَظايةٌ قفر لها حُلتا ن من وَرَق الطلح لم تُغزَلا فَمنْ سالَ أَين ثُوَتْ جارتِي فإن لها باللوك منزلا(١) وهناك مقطتوعان أخريان تصوران قصتين أخريين مع الغول والجن (٣) ،

 <sup>(</sup>١) في القاموس المحيط: من مدانى الغول السعلاة ، والحية ، وساحرة الجن ، « أو دابة رأتها العرب وعرفتها ، وقتلها تأبط شرا » ( مادة غول ) .

 <sup>(</sup>۲) الشعر والشعراء /۱۷۱ ، ۱۷۷ . والأغانى ۱۸ / ۲۱۰ – الحيمل : ثوب تلبسه المرأة
 كالقميص ، أو قمرص لا كين له . العظاية : دويية كسام أبرص .

<sup>(</sup>٣) انظر الأغانى ١٨/ ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ والبندادى : خزانة الأدب ٢/٨٠٣ . والبكرى : معجم ما استعجم ٢/٧٥٧ . ولسان العرب : مادة (حد) .

ولكن الشك يحيط ينسبهما إلى تأبط شرا ، إذ أنهما كما تنسبان له تنسبان لغيره من الشعراء ، ولكن هذا يدل دلالة واضحة على شهرة تأبط شرًا بحديثه عن الجن والغيلان ، حتى ليختلط الأمر على الرواة فيما يروى من هذا الحديث أهو له أم لغيره من الشعراء .

# ٢ ــ الشعر خارج دائرة الصعلكة

## آثار القبلية في شعرهم:

الباحث في شعر الصعاليك يجد مجموعة من القصائد والمقطوعات قيلت في أغراض قبلية ، وتتسم بسهات الشعر الجاهلي القبلي ، وهي مجموعة – وإن تكن قليلة متضائلة -- تبدو للنظرة الأولى غريبة على شعر الصعاليك ، لأننا نعرف أن هؤلاء الصعاليك فد تحللوا من التزاماتهم القبلية ، فتحللت شخصياتهم الفنية من التأثر بها ، فكان طبيعياً أن يخلو شعرهم من تلك الأغراض القبلية التي فراها في ماثر الشعر الجاهلي .

ولكن المسألة لا تصل إلى درجة المشكلة ، فن الطبيعى أن حياة هؤلاء الصعاليك قد مرت بدورين اجتماعيين: الدور الأول وهو فترة ما قبل التصعلك، تلك الفترة التي كان الصعلوك فيها عضواً عاملا في المجتمع القبلي قبل أن يبلغ سوء توافقه الاجتماعي الذروة التي يبدأ من عندها الدور الثاني في حياته الاجتماعية، وهو فترة تصعلكه التي قد تستمر حتى مقتله أو موته . وليس يعنينا أن يقلع الصعلوك عن تصعلكه أ فهو في هذه الحالة لا يبدأ دوراً ثالثاً من حياته الاجتماعية ، وإنما يعود عودة اجتماعية لا عودة زمنية إلى الدور الأول . ومن الطبيعي أيضاً أن يكون بعض هؤلاء الصعاليك قد اكتملت مواهبهم الفنية في الدور الأول فشاركوا شعراء القبيلة في حياتهم الفنية ، وأيضاً قد يشاركونهم فيها إذا الأول فشاركوا شعراء القبيلة في حياتهم الفنية ، وأيضاً قد يشاركونهم فيها إذا ما أنهي الدور الثاني بالعودة إلى الحياة القبلية . ومعني هذا أن هذه المجموعة القبلية من شعر الصعاليك نتاج لفترتين تمثلان في الحقيقة دوراً اجتماعياً واحداً : فترة ما قبل التصعاك وفترة ما بعد التصعاك .

ولعروة بن الورد العبسى مجموعة قليلة من القصائد والمقطوعات في موضوعات قبلية (١)، كما نعثر برواسب ضئيلة جداً من الحياة القبلية عند صخر الغي الهذلي ، والسليك بن السلكة السعدى . أما صخر الغي فلا يتجاوز ما وصل إلينا من شعره القبلي أبياتاً قليلة في مقطوعتين يناقض فيهما شاعراً فيهدده بكثرة قومه ، وبأنهم ينصرونه ، ويأبون له الضيم :

وخَفِّضْ عليكَ القولَ واعلمُ بأننى من الأنس الطاحى الحُلول العرمْرَمِ أبتُ لَى عمرو أَن أَضَامَ ومَازِقٌ وقرْدٌ ولحْيانٌ وسَهم فَسلّم (٢) ويعلنه بأن قومه يلبون دعوته إذا دعاهم ، فيسرعون لنصرته كما تسيل الشعاب بالماء :

أبا المثلّم إنى غسير مُهْتضَم إذا دعوتُ تميا سالت المُسُلُ<sup>(٣)</sup> وأما السليك فكل ما وصل إلينا من شعره القبلي مقطوعة واحدة في ثلاثة أبيات يحدر فها قومه من مغيرين قابلهم في بعض تشرده مسرعين إليهم، ويذكر أن قومه يكذبونه ، ويؤكد لهم صدقه :

يُكذُّبنى العمران عمرو بن جندب وعمرو بن سعد والمكذّب أكْذَبُ ثكلتكما إن لم أكن قد رأيتها كراديسَ يَهْديها إلى الحي موكب كراديس فيها الحَوّفزَانُ وقومه فوارس هَمام متى يَدعُ يركبوا (١٤)

ومن مجموعة شعر حاجز القليلة التي وصلت إلينا خمس قطع من هذا الشعر القبلي قالها في ظروف قبلية معروفة يذكرها الرواة . وحاجز في هذه القطع مندمج في المجتمع القبلي اندماجاً واضحاً ، يعبر بلسان قومه كما يعبر أي شاعر جاهلي قبلي ، يفخر بهم فيذكر أنهم كرماء ، ويعتز بأبيه وعمه اللذين أسديا

<sup>(</sup>١) انظر ديوانه : القطمتين رقم ١٠ ورقم ٢٤ .

 <sup>(</sup>٣) شرح أشعار الهذليين ١/٢١ - الأنس: الحي. والطاحي: المتسع المنتشر. والأسماء
 ف البيت الثاني أسماء قبائل.

<sup>(</sup>٣) المصدر السابق /٢٤ – وتميم هذا من هذيل . والمسل : جمع مسل وهو مسيل الماء .

<sup>( £ )</sup> الأغانى ١٨ / ١٣٦ . والشعر والشعراء / ٢١٦ .

القبيلة يدين بيضاوين في يومين من أيامها . والطريف حقاً أن حاجزاً يبدأ إحدى هذه القصائد كما يبدأ الشعراء القبليون قصائدهم بالنسيب<sup>(۱)</sup>، فيحيي صاحبته ويدعولها بالسلامة، ثم يصفها ويتحدث عن صرمها له وبعدها عنه ، ثم ينتقل — كما يفعل الشعراء القبليون أيضاً — إلى الحديث عن ناقته ورحلته عليها ، ثم ينتقل انتقالا مفاجئاً — كعادة الشعراء القبليين أيضاً — إلى الحديث عن قومه .

وكما يفخر حاجز بقومه يذكر أيامهم التي انتصروا فيها :

إِنْ تذكروا يوم القرى فإنه بَواء بأيام كثير عليكها فنحن أبحنا بالنساء نقودها ويوم كِرَاء قدتكارك ركضنا بني مالك والخيل صُعر خدودها ويوم الأراكات اللواتي تأخرت سراة بني لهبان يدعو شريدها ونحن صبحنا الحي يوم تَنُومة علمومة يُهْوِي الشجاع وتيدها ويوم شَرُوم قد تَركنا عصابة لدى جانب الطرفاء حمر اجلودها فما رَغِمت حلفا لأمر يصيبها من الذل إلانحن رغمانزيدها الما

ويسجل شهاتته ، أو ــ بعبارة أدق ــ شهاتة قبيلته بأعدائهم ، ويعيرهم بما فعلوه بهم من قتل رجالهم وسبى نسائهم :

ياضَمرَ هل نلناكمُ بدمائنا أم هل حَذُونا نعلكم بمشال تبكى لقتلى من فُقَيم قُتُلوا فاليوم تبكى صادقاً لهلال ولقدشفانى أنَّ رأيت نساءً كم يبكين مُرَدفة على الأَكفال ياضمرَ إن الحرب أضحت بيننا لَقِحت على الدَّاء بعد حِيال (٣) ياضمرَ إن الحرب أضحت بيننا لَقِحت على الدَّاء بعد حِيال (٣) ويتوعد أعداء قبيلته ، ويهددهم بأبطال شجعان من قومه مسلحين

<sup>(</sup>١) (ميمويته) الأغانى ١٢/٠٥ (بولاق) .

<sup>(</sup>٧) المصدر السابق / ١٥. البواء: الكفء. والملمومة: الكتيبة.

<sup>(</sup>٣) المصدر السابق / ١٥ . الحيال : العقم .

بالسيوف والرماح قد عرفتهم القبائل من قبل:

سَتنمنعنا منكم ومن سوء صنعكم صفائح بيض أخلصتها الصياقل وأسعر خطى إذا هُز عاسل بأيدى كماة جرَّبتها القبائل(١) وأسعر خطى إذا هُز عاسل بأيدى كماة جرَّبتها القبائل(١) وأما قيس بن الحدادية فني مجموعة شعره القليلة أيضاً التي وصلت إلينا ، نعثر بثلاث قطع من الشعر القبلي ، إذا أخرجنا تلك القصيدة البائية المشكوك فيها ، والتي أشرنا إليها في الفصل السابق ٢٠٠ .

وشأن قيس في هذا الشعر شأن حاجز في شعره القبلي شأن سائر الشعراء القبليين، يفخر بانتصار قومه على أعدائهم، ويسجل أسماء من قتلوا مهم، ويذكر عودتهم بالإبل التي غنموها، والنساء اللائي سبوهن (١١)، ويعتز بقومه حين تغزوهم قبيلة أخرى فيثبتون لهم، ويردونهم على أعقابهم خاسرين، بعد أن أعمل فيهم فرسانهم الرماح والسيوف التي تنتزع سواعدهم (١)، ويهجو أعداء قومه ويرد عليهم دعواهم بالنصر بأنهم يفخر ون بيوم ليس لهم، ويعيرهم بفرارهم أمامهم، وأخيل تركض خلفهم، وقد تركوا وراءهم أسرى (٥). وقد يحرد من الطريف أن نلاحظ أن اثنتين من هذه القطع الثلاث نقيضتان بين قيس وبين شاعرين من أعداء قومه (١) يرد بهما عليهما، وهي صورة أدل على قبلية هذا الشعر، لأن قيساً حربص على أن يكون رده على هذين الشاعرين من جنس قولهما، وهما شاعران قبليان.

وعلى كل حال فهذه المجموعة من الشعر القبلى التى تقابلنا فى شعر الصعاليك قليلة ، كما أن عدد شعرائها قلبل أيضاً .

<sup>(</sup>١) ألمسار نقله (١٠ .

<sup>(</sup>٢) الأغاني ١٧٤ ( بولاق) . وأنظر ص ١٧٤ من هذا البحث .

<sup>(</sup>٣) انظر قصيدته الحائية في المصدر السابق / ٣

<sup>(</sup>٤) أنظر مقطوعته الدالية في المصدر نفسه / ه .

<sup>(</sup> ه ) انظر مقطوعته الميمية في المصدر نفسه / ع .

<sup>(</sup>٦) الحائية والميمية السابقتان .

# المجموعة الإسلامية في شعرهم:

حين ننظر فيا بين أيدينا من شعر الصعاليك نجد مجموعة أخرى قليلة نظمها المخضرمون منهم: أبو الطمحان القينى ، وأبو خراش الهذلى ، وأفضالة ابن شريك الأسدى ، بعد أن أشرقت الجزيرة العربية بنور ربها .

وقبل أن نمضى فى استعراض موضوعات هذه المجموعة التى يصح أن نطلق عليها والمجموعة الإسلامية فى شعر الصعاليك و نقف لنسجل ملاحظتين: أولاهما أن مجموعة شعر أبى الطمحان ليس من اليسير تمييز الجاهلي فيها من الإسلامى ، إذ أن كل ما يرويه الرواة حولها من أخبار لا يكني لتحديد الوقت الذي قيلت فيه ، كما أن هذه المجموعة خالية تماماً من الإشارات التى تحدد زمنها ، ما عدا ببتين يصف فيهما انحناء جسمه وتقارب خطوه (١١) ، مما يرجح أنه قالهما في شيخوخته المتأخرة ، وبيتين آخرين في مدح يزيد بن عبد الملك يذكر الأصمعي أنه أعطاهما مغنياً ليتغنى بهما في مجلس يزيد (١١) .

وأما الملاحظة الأخرى فهى أن كل ما وصل إلينا من شعر فضالة بن شريك إسلامى ، تؤكد ذلك أخباره والأسماء الإسلامية التى وردت فيه ، شريك إسلامى ، تؤكد ذلك أخباره والأسماء الإسلامية التى وردت فيه ، أما شعره الصعلكي فلم يصل إلينا شيء منه ، مع أنهم يذكرون عنه أنه «كان شاعراً فاتكا صعلوكا مخضرماً أدرك الجاهلية والإسلام »(") . وهي ظاهرة غريبة وقفت طويلا أمام تعليلها ، وانتهيت إلى فرضين : إما أن فضالة لم يكن قد نضج فنياً في الجاهلية ، ولم يتم نضجه إلا بعد الإسلام ، وإما أن يكون له شعر داخل دائرة التصعلك ولكن عملت ظروف خاصة على ضياعه ، وأنا أرجح هذا الفرض الأخير ، وأرجح أن أهم هذه الظروف المركز الاجتماعي لابنه فاتك ، فقد «كان سيداً جواداً »(أ) ، وكان كريماً على بني أمية ، وهو فاتك ، فقد «كان سيداً جواداً »(أ)

<sup>(</sup>١) السجستاني : كتاب المعمرين /٦٣ . والبغدادي : عزانة الأدب ٣/٢٦ . والأغاني

١١/ ١٢٠ ، (بولاق)وحماسة البحترى /٣٢٣ .

<sup>(</sup>٢) المقد الفريد ٦٧/٦ .

<sup>(</sup>٣) الأغاني ١٧١/١٠ (بولاق) .

<sup>(؛)</sup> المعدر المابق /١٧١ .

الوافد على عبد الملك بن مروان قبل أن ينهض إلى حرب ابن الزبير فضمن له على أهل العراق طاعتهم وتسليم بلادهم إليه ، وأن يُسلموا مصعباً إذا لقيه ويتفرقوا عنه ، وله يقول الأقيشر في هذه الوفادة :

وَفد الوفود فكنت أَفضل واقد يافاتك بن فضالة بن شريك(١)

وقد يؤيد هذا أن كل أخبار تصعلك فضالة قد ضاعت أيضاً ، والسبب هنا هو السبب هناك ، ولو قد وصل إلينا شيء منها لمقفنا من هذا الفرض موقف المتشكك .

ومهما يكن من أمر فإن موضوعات المجموعة الإسلامية في شعر الصعاليك الله خلت من تلك الموضوعات التي عرفناها في شعرهم داخل دائرة التصعلك ، وهذا طبيعي بعد أن غير الإسلام من أوضاع الحباة العربية الاجتماعية والاقتصادية ولم يعد للتصعلك مجال فيها . وتوشك موضوعات هذه المجموعة الإسلامية أن تنحصر في تلك الموضوعات العامة التي يعرفها الشعر العربي : المدح والهجاء والرثاء .

أما المدح والهجاء فيوشك فضآلة أن يستأثر بهما . ويبدو أن فضاله أدرك أن هذه وسيلة من وسائل العيش تغنيه عن التصعلك ، فاقلمج فى الوسط السياسي الأموى ، وشارك شعراءه ، وأصبح شاعراً أمويناً بمدح الأمويين ويهجو أعداءهم . وهو يؤثر بالمدح خاصة يزيد بن معاوية (١) ، وقد تبدو هذه الصلة بين يزيد وفضالة طبيعية ، فقد كان يزيد بما فيه من استهتار وجاهلية أقرب إلى نفس فضالة الصعلوك ، حتى ليجيره من عمرو بن سعيد بن العاص أمير المدينة يومئذ بعد أن هرب منها لهجائه عاصم بن عمر بن الحطاب ، واستعداء عاصم الأمير عليه (١) ، وهو — وإن يكن قد آثر يزيد بمدحه - لم ينس أن يمدح بنى أميه عامة (١) .

<sup>(</sup>١) الأغانى ٢٧١/١١ (دار الكتب) وانظر أيضاً ١٠/١٧١ (بولاق) .

<sup>(</sup>٢) الأغاني ١٠/١٠، ١٧٢ (بولاق).

۱۷۲ ( ۱۷۱ ) المصدر المابق / ۱۷۱ ، ۱۷۲ .

<sup>(</sup>٤) المصدر نفسه /١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ .

أما الهجاء فقد صبه مرة على عاصم بن عمر بن الخطاب ، كما رأينا ، لأنه ونزل به فلم يقره شيئاً ، ولم يبعث إليه ولا إلى أصحابه بشيء وقد عرّ فوو مكانهم ، وهو يعلن له فى بعض هجائه أنه لولافضل أبيه لقلده خزياً وعاراً: فلولا يكدُ الفاروق قَلَدت عاصها مُطَوَّقة يَخْزَى بها فى المواسم (۱۱ وصبه مرة ثانية على رجل من سُلسَم أودع عنده ناقة وخرج فى سفر فلما عاد وطلها منه ذكر السلمى أنها سرقت (۱).

وصبه مرة ثالثة على عبد الله بن مطيع والى عبد الله بن الزبير على الكوفة بعد أن طرده عنها المختار الثقني (٣) ، وعلى عبد الله بن الزبير نفسه فى قصيدة بنسبها بعض الرواة إليه ، وينسبها بعضهم إلى ابنه عبد الله (١) .

وصبه مرة رابعة على رجل من الكوفة تزوج امرأة فسأل في صداقها (°)، وهي مسألة مشينة وبخاصة في نفس صعلوك لم يرض أن يتخذ من السؤال وسيلة للعيش في يوم من الأيام.

وقد روی بیتان لأبی الطمحان بمدح بهما یزید بن عبد الملك وكان قد انتجعه :

يكاد الغمام الغُرُّ يُرعِدُ أَنْ رأَى مُحَيا ابن مروان وينهلُّ بارقُه يظل فتيتُ المسك في رونق الضحى تسيلُ به أصداغه ومَفارقه (١٦ أما الرثاء فقد اختص به أبو خراش ، شأنه في ذلك شأن سائر الشعراء

الهذلين الذين عرفوا بمقدرتهم الرثائية الفائقة . والطريف أن أبا خراش فى الإسلام يرثى أصدقاءه فى الجاهلية ، وبين أيدينا من شعره الإسلامي أربع قطع يرثى بها صديقين من أصدقاء الجاهلية : أخاه أو ابن عمه زهير بن

<sup>(</sup>١) المصدر نفسه /١٧١.

<sup>(</sup>٢) المصدر تقسه /١٧٢ ، ١٧٣ .

<sup>(</sup>٣) المصدر نفسه /١٧٢ .

<sup>(</sup>٤) المسدر نفسه /١٧١ ، ١٧٣ .

<sup>(</sup>ه) المصدر السابق /١٧٢.

<sup>(</sup>٦) ابن عبد ربه: المقد الفريد ٦ / ٢٧ ، ٣٨ .

العَهَجُوهُ (١) الذي يخصه بثلاث منها: قصيدتين ومقطوعة (١) ، ودُبيَّة سادن العزى الذي يرثيه بمقطوعة من أربعة أبيات (٣) . وتتجلى لوعته وفجيعته بالذات على زهير الذي يبدو من حديثه عنه أنه كان أيضاً رفيقا له في معامراته (٤)، أما دبية فلا يتحدث عنه حديث الملتاع المفجوع بقدر ما يتحدث عنه حديث الذاكر لأيامه الآسف على انقضائها ، ولعله وفاء بدين كان لدبية في عنق أبى خراش ، أو \_ بعبارة أدق \_ في قدمي أبي خداش منذ أيام تصعلكه ، فقد حذاه دبية مرة نعلين فرح بهما فرحاً شديداً ، ومدحه بمقطوعة يسجل فها هذه الهدية وقيمتها له (<sup>ه)</sup> . والأمر الذي لا شك فيه أن أبا خراش كان جريثاً حين وقف في الإسلام يرثى دبية سادن العزى الذي قتله خالد بن الوليد بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم (١١). ومع ذلك فمن المحتمل أن أبا خراش حين تتل دبية لم يكن قد أسلم بعد ، ولكن يبدو أنه احتمال ضعيف نظراً لطبيعة المرثية التي بين أيدينا ، فإن أبا خراش فيها لم يتعرض لقاتل دبية على الإطلاق ، ولو كان أبو خراش قالها قبل إسلامه لتعرض لخالد بن الوليد كما فعل مع قاتل زهير . ومع ذلك فقد يكون الرواة أسقطوا منها تعرضه لخالد ، وحتى مع هذا الاحتمال بأنه قالها قبل إسلامه فلا شك في أنه كان جريئاً حين وقف يرثى دبية في ذلك الوقت الذي أخذ فيه المسلمون يسيطرون على الموقف في جزيرة العرب ، إذ أن دبية لم يقتل إلا بعد فتح •كة (٧) .

ويرثى أبو خراش صديقيه بمعان مألوفة فى الشعر الجاهلي عامة : الكرم والشجاعة وعجز الإنسان أمام الموت الذى لا ينجو منه حى حتى الحيوان

. 77

<sup>(</sup>١) يقال إنه أخوه ، ريقال إنه ابن عمه ( انظر ابن الأثير : أسد الغابة ٥ / ١٧٨ ، ١٧٨ ).

۱۵۷ ، ۱٦٤ - ۱٦١ ، ۱٥٠ - ١٤٨ / ۲ ميوان الحذليين ٢ / ١٤٨ - ١٥٠ ، ١٦١ - ١٦١ ، ١٥٧ .

<sup>(</sup>٣) الممدر السابق / ١٥٥ ، ١٥١ .

<sup>( )</sup> انظر الأبيات السبعة في المصدر السابق / ١٥٠ .

<sup>(</sup> ه ) انظر مقطوعة اللامية في المصدر السابق / ١٤٠ ، ١٤١ . وانظر كتاب الأصنام /٢٢ ،

<sup>(</sup>٦) انظر كتاب الأصنام /٢٤ - ٢٦ .

<sup>(</sup>٧) المصدر السابق / ٢٤ ، ٢٥ -

الشارد في صحرائه ، ولكنا نقف أمام ظاهرتين طريفتين تستحقان التسجيل : أولاهما : رواسب الصعلكة في شعر ألى خراش الإسلامي .

والأخرى : تأثير الإسلام فيه .

فا زالت صورة الفقراء المهتلكين الجياع ذوى الثياب البالية ، والضباع التي تنتظر أجساد الفتلى في اشتهاء ظامئ ، والهثار الذي يملأ النفوس حقداً وغليلا ، وذكريات الماضى الذي لا ينساه أبو خراش ، تتردد في رثاثه لزهير ، وبخاصة في لاميتيه (١).

ومع هذه الصورة نعثر على صورة أخرى لتلك الحياة التى تغيرت ظروفها نتيجة لظهور الإسلام ، فقد أحاطت برقاب هؤلاء الصعاليك سلاسل الدين الجديد ، فلم يعودوا قادرين على أن يمضوا في حياتهم كما كانوا في الجاهلية ، وأصبح مقياس الأمور في هذه الحياة الإسلامية العدل والحق ، أما الظلم والباطل فقد مضى عهدهما الطائش الجاهل ، وأصبح فتيان الصعاليك وقد تفرقت جماعاتهم كأنما فرق بيهم الموت :

قليس كعهد الداريا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى العدل شيئاً فاستراح العواذل فأصبح إخوان الصفاء كأنما أهال عليهم جانب الترب هائل الواشد ما يملأ نفس أبي خراش غيظاً وغليلا أنه أصبح عاجزاً عن أن يئار لصاحبه من قائله ، وهو من قريش ، أولئك الذين صارت الإمارة والملك فهم ، ولولا ذلك ما كان ليخشاهم ، ولكن ماذا يفعل سوى أن يظل طول عمره مغيظاً محنقاً عليهم حتى بنُقتلوا بصاحبه :

فما كنتُ أَخشى أَن تنال دماءنا قريشٌ ولمَّا يُقْتلوا يقتيل وأبرحُ ما لم تُقْتلوا بغليل (٣) وأبرحُ ما لم تُقْتلوا بغليل (٣)

۱۵۷ ، ۱۵۰ – ۱٤۸/۲ ميوان الهذليين ۲/۱٤۸ – ۱۵۰ ، ۱۵۷ .

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق /١٥٠ .

<sup>(</sup>٣) المصدر نفسه /١٥٧ .

وهكذا تمتزج الصورتان في صورة رائعة طريفة لوناها التصعلك والإسلام. وبعد والطريف أيضاً أن أيا خراش بعد أن أسلم وحسن إسلامه (۱) ، وبعد أن عاش في الإسلام عمراً طويلا امند به حتى خلافة عمر بن الخطاب (۱) ، حين يقف على البرزخ الفاصل بين الحياة والموت ، لا يأسف على شيء كما يأسف على ساقه التي نهشتها حية ، والتي طالما أعانته في حياته وكان لها عليه فضل أي فضل :

لَعُمرُكَ والمنايا غالبسات على الإنسان تَطلعُ كلَّ نجْدِ لقد أَهلكتِ حَيةً بطن أَنف على الأُصحاب ساقا ذات فَقْدِ (٣) لقد أَهلكتِ حَيةً بطن أَنف على الأُصحاب ساقاً ذات فضْل لقد أَهلكتِ حيةً بطن أَنف على الأُصحاب ساقاً ذات فضْل فما تَرَكتْ عدُواً بين بصرى إلى صنعاء يطلبه بذَحْل (٤)

وهذه أيضاً من رواسب تلك الحياة المتصعلكة التي أخلص لها أبو خراش ف جاهليته إخلاصاً عميقاً ظلتآثاره تتسرب من حين إلى حين في شعره الإسلامي .

ولأبى خراش بعد ذلك قصيدة فى سبعة أبيات يصور فيها حزنه على هجرة ابنه خراش الذى كان قد حمد الله فى بعض أيام تصعلكه البعيدة على أن أنجاه له يوم قتل عروة أخوه (٥)، وكان خراش قد هاجر فى خلافة عمر وغزا مع المسلمين ، وكان أبوه بطبيعة الحال فى ذلك الوقت شيخاً كبيراً ، فهو يتحدث إلى ابنه فى نهاية الأبيات حديثاً تبدو فيه روح الإسلام واضحة ، فليس البر أن يهاجر خراش لينال أجر الشهادة مع المجاهدين مخلفاً أباه وراءه شيخاً كبيراً ضعيفاً فى أشد الحاجة إليه ، وإنما البر أن يرعى أباه الذى بلغ عنده الكر :

<sup>(</sup>١) ابن الأثير : أسد الغابة ٥/١٧٨ ، ١٧٩ .

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق / ١٧٩.

<sup>(</sup>٣) ديوان الهذايين ٢/ ١٧١ . والأغاني ٢١/ ١٩ .

<sup>(</sup>٤) الأغاني ٢١/٠٧.

<sup>(</sup> ٥ ) ديوان الهذليين ٢ /١٥٧ – ١٥٩ .

ألاً فَاعلم خراش بأن خير ال مهاجر بَعدَ هجرته زهيدً فإنك وابتغاء الخير بَعدى كمخضوب اللّبان ولا يصيدُ (۱) فإنك وابتغاء الخير بَعدى كمخضوب اللّبان ولا يصيدُ (۱) وكأنما نستشف من هذين البيتين الآيتين الكريمتين و وقضى رَبكَ ألا تعبد وا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدُ هما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهر هما وقل لهما قولا كريماً . واخفض لمما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارتجمهما كما رَبياني صَغيرا ، (۱) .

وبحق أمر عمر رضى الله عنه بعد أن استمع إلى هذه الأبيات بأن يعود خراش إلى أبيه ، وألا يغزو من كان له أب شيخ إلا بعد أن يأذن له (١٣) .

<sup>(</sup>١) المصدر السابق /١٧١ . والأغاني ٢١ / ٢٩ .

<sup>(</sup>٢) سورة الإسراء /٢٣ ، ٢٤ .

<sup>(</sup>٣) الأغافي ٢١/٢١ .

# *الفصل الثالث* الظواهر الفنية في شعر الصعاليك

١

#### شعر مقطوعات :

حين ننظر في شعر الصعاليات الذي بين أيدينا من الزاوية التي تظهرفا على بنائه الحارجي ، فأول ما يلفت نظرنا فيه أنه شعر مقطوعات . ولسنا نعني بهذا انعدام القصيدة فيه ، وإنما نعني ذيوع المقطوعة أكثر من ذيوع القصيدة . وإذا استثنينا تائية الشنفري المفضلية ذات الأبيات الأربعة والثلاثين في بعض المصادر (۱) ، والحمسة والثلاثين في بعض المصادر الأخرى (۱) ، والحمسة والثلاثين بيتاً (۱) ، وراثية عروة بن الورد المشهورة (۱) ، وفائة صخر الغي الهذل ذات الثلاثين بيتاً (۱) ، وراثية عروة بن الورد المشهورة (۱) ، وفائة صخر الغي الهذل (۱) ، وكل منهما في سبعة وعشرين بيتاً ، ثم تلك الأبيات المفرقة لتأبط شراً في رثاء الشفري التي جمعها ناشر ديوان الشنفري وتألفت منها قصيدة في سبعة وعشرين بيتاً (۱) ، وقافية تأبط شراً المفضلية ذات الأبيات الستة والعشرين (۱) ، وبائية الأعلم (۱) ، وميمية أبي خراش (۱۹) ، وكلتاهما في الستة والعشرين (۱) ، وبائية الأعلم (۱) ، وميمية أبي خراش (۱۹) ، وكلتاهما في

<sup>(</sup>١) المفضليات ١٩٤ - ٢٠٧ .

 <sup>(</sup>٢) انظر في المصدر السابق / ٢٠٧ تعليق Lyall على البيت الأخير من التائية .

<sup>(</sup>٣) شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٢ - ٢٣٧ .

 <sup>(</sup>٤) ديوانه /٢٣ - ٨٥.

<sup>(</sup> ه ) شرح أشعار الهذليين ١ /٢٤ – ٤٩ .

<sup>(</sup>٦) ديوان الشنفري في الطرائف الأدبية / ٢٨ - ٢٩ .

<sup>·</sup> ١٩ - ١/ المفضليات /١ - ١٩ .

<sup>(</sup>۸) شرح أشمار الهذليين ۱/٥٥ – ٦٠ .

<sup>(</sup>٩) ديوان الهذليين القسم الثانى /١٢٥ – ١٣٢ .

أربعة وعشرين ببتاً ، ودالية صخر الغي ذات الأبيات الثلاثة والعشرين (١١) إذا استثنينا هذه القصائد التسع ، واستثنينا معها تلك المجموعة القليلة من القصائد الطويلة التي قبلت في أغراض عامة ، والتي أخرجناها في الفصل السابق من دائرة شغر التصعلك ، فإننا نجد أنفسنا أمام مجموعة كبيرة من المقطوعات التي يتراوح عدد أبيات الواحدة منها بين البيتين والسبعة ، وأمام مجموعة أخرى من القصائد القصيرة التي توشك أن تكون مقطوعات لا تتجاوز أطواها ، وهي فائية الشنفرى ، عشرين بيتاً في بعض المصادر (١١) ، وتسعة عشر بيتاً في بعض المصادر الأخرى (١١) ، هذا إلى جانب مجموعة كبيرة من الأبيات المفردة التي يرجع جداً أنها أبيات من قصائد أو مقطوعات لم تصل إلينا .

وقد يكون من الطريف أن فلاحظ أن كل ما وصل إلينا من شعر أبى الطمحان مقطوعات قصيرة ، أطولها فى أربعة أبيات (٤) ، وأقصرها فى بيتين (٥) ، وأن كل ما وصل إلينا من شعر حاجز ، ما عدا قصيدة ميمية فى تسعة أبيات (١) ، مقطوعات قصيرة أقصرها فى بيتين (٧) ، وأطولها فى سبعة (٨) ، وأن كل ما وصل إلينا من شعر السليك مقطوعات أقصرها فى بيتين (١) وأطولها فى سنة أبيات (١٠) ، إلينا من شعر السليك مقطوعات أقصرها فى بيتين (١) وأطولها فى سنة أبيات (١٠) ، وإن تكن إحداها قد بلغت أربعة عشر بيتاً (١١) ، وكذلك قيس بن الحدادية ،

<sup>(</sup>١) شرح أشعار الهذليين ١٢/١ – ١٣ .

<sup>(</sup>٢) ديوانه في الطرائف الأدبية /٣٧ ~ ٢٩.

<sup>(</sup>٣) الأغاني ٢١/١٤٠ ، ١٤١ .

<sup>( )</sup> اللامية فى الحيوان للجاحظ ١ / ٣٨٠ ، والبيانُ والتبيين ٣ / ١٥٠ ، ١٥١ ، والأغانى الم / ١٥١ ، ١٥٢ ( بولاق ) ، ورواية الجاحظ أصح ، والبائية فى الأغانى ١٢١ / ١٣٢ ، ١٣٣ ( بولاق ) ، والقافية فى المصدر نفسه / ١٣٣ ، والرائية فى الحيوان للجاحظ ٣ / ١٦٣ .

<sup>(</sup> ٥ ) التونية في الأغاني ١١ / ١٣٤ ( بولاق) والقافية في البيان والتبيين ٣ / ٢٠٢ .

<sup>(</sup>٢) الأغاني ١٢/٠٥ (بولاق).

<sup>(</sup>٧) المصدر السابق / ١٥ ، ١٥ .

<sup>(</sup>٨) المصادر نفسه /١٥.

<sup>(</sup>٩) الأغاني ١٨/ ١٣٤ ، ١٣٧ . والشعر والشعراء / ٢١٥ .

<sup>(</sup>١٠) الأغاني ١٨/ ١٣٥. والميداني : مجمع الأمثال ١/ ٣٩٩.

<sup>(</sup>١١) الأغاني ١٨/٢٧٢ .

إذا استثنينا قصيدتين له في الغزل (١) لأنهما خارج دائرة التصعلك ، فإن كل ما لدينا من شعره بين الأبيات الثلاثة والتسعة ، بل إن تأبط شرا ، ومجموعته الشعرية أوفر عدداً من هؤلاء ، إذا استثنينا قصيدتيه اللتين ذكرناهما بين القصائد العشر المطولات ، واستثنينا خساً أخرى بين تسعة أبيات وستة عشر بيتاً (١)، فكل ما يتبنى أمامنا مجموعة بين بيت واحد وسته أبيات .

وهنا نقف لنتساءل : ما السر في هذا ؟

نعن بين أمرين : إما أن نفترض أن مجموعة شعر الصعاليك التي بين أيدينا ناقصة لامن حيث عدد قصائدها ومقطوعاتها فحسب، ولكن من حيث عدد أبياتها أيضاً . وهو فرض له إغراؤه لأنه مربح من ناحية ، ولأنه يتفق مع ما يذكره مؤرخو الأدب العربي من ضياع أكثر الشعر الجاهلي من ناحية ثانية ، ولأنه — من ناحية ثالثة — مقبول في مثل حالة الشعراء الصعاليك الذين رأينا أن قبائلهم لم تكن تحرص على شعرهم ، وحتى لو حرصت عليه فليست السبيل إليه ميسرة لهم .

وإما أن نقبل الحقيقة الماثلة أمامنا وهي أن مجموعة شعر الصعاليك في مجموعها - مقطوعات قصيرة ، ثم نتلمس العلة في ذلك . والعلة عندى هي طبيعة حياتهم نفسها ، تلك الحياة القلقة المشغولة بالكفاح في سبيل الهيش التي لا تكاد تفرغ للفن من حيث هو فن يفرغ صاحبه لتطويله وتجويده ، وإعادة النظر فيه ، كما كان يفعل الشعراء القبليون ، تلك الطائفة « الأرستقراطية » التي فرغت للفن فراغاً هيأته لها قبائلها لا من أجل الفن ولكن من أجل أنفسها . وإلا فما معنى تلك الفرحة التي كانت تعم أفراد القبيلة جميعاً حين ينبغ فها شاعر إن لم تعمل القبيلة على الاستفادة من شاعرها وتهيئ له أو - بتعبير شاعر إن لم تعمل القبيلة على الاستفادة من شاعرها وتهيئ له أو - بتعبير أدق - لها سبيل هذه ا ستفادة ؟

وهل نتصور مثلا أن يفرغ الشاعر الصعلوك لفنه كما كان يفرغ زهير

<sup>(</sup>١) الأغاني ١٣/٣، ٧، ٨ (بولاق).

<sup>(</sup>٢) حاسة أبي تمام ١/٢٤ ، ٢/٢٢ ، والأغانى ١٨/٢٢٢ ، ١١٤ ، ١٢٥ .

لحولياته ، أو امر و القيس في حياته اللاهية الفارغة المطمئنة التي ضمن له رغدها ملك أبيه ، أو النابغة في حياته المستقرة في بلاط المناذرة والغساسنة ؟ الأمر الذي لاشك فيه هو أن حياة الصعاليك كانت حياة قلقة مضطربة ، وأنهم جميعاً كانوا يشعرون شعوراً عميقاً بأنها حياة قصيرة ، وبأنهم دائماً على موهد مع الموت الذي يترصدهم ترصد الموتور ، حتى كثر ذكر الموت عندهم ، وتردد الحديث عنه في شعرهم ، صدى لما كان يجيش في نفوسهم من إحساس عميق بقصر حيانهم . وهل نظن شاعراً هذه طبيعة حياته يستطيع أن يفرغ لفنه بطيله ويجوده ويعيد النظر فيه المرة بعد المرة ؟ أظن أن الطبيعي أن مثل هذه الحياة التي لا يكاد الشاعر يفرغ فيها لنفسه لا تنتج إلا لوناً من الفن السريع الذي يسجل فيه الشاعر ما يضطرب في نفسه في مقطوعات قصيرة موجزة ، يسرع بعدها إلى كفاحه الذي لا ينظره ولا يمهله. أما تلك القصائد الطويلة القليلة فهي أصداء لفترات قليلة كانت تمر بحياة الشعراء الصعاليك يستربحون فها من الكفاح في سبيل العيش ، فيفرغون لأنفسهم يستخرجون من رواسها العميقة من الكفاح في سبيل العيش ، فيفرغون لأنفسهم يستخرجون من رواسها العميقة فناً متأنياً مطمئناً مطولا مجوداً رائعاً ممتازاً .

أما أنا فأميل كل الميل إلى هذا الرأى الثانى الذى يفسر الحقيقة الماثلة أمامنا تفسيراً واقعياً دون أن يتكلف في سبيل إنكارها الفروض النظرية التي إن جاز قبولها جاز رفضها.

ومع ذلك أليس من المحتمل أن يكون السبب في كثرة المقطوعات في شعر الصعاليك أنه وصل إلينا مفرةاً في مصادر مختلفة اقتصر كل منها على ما ما يستشهد به منه ، وأنه لو كان قد وصل إلينا مجموعاً في ديوان مفرد أو دواوين مفردة لكان من الجائز أن يكون قصائد طويلة ؟ وهو احتمال له وجاهته . وهنا لا يسعنا مرة أخرى إلا إبداء الأسف على عدم حصولنا على تلك المجموعة من أشعار اللصوص التي جمعها السكوى ، وعلى مخطوطة ديوان تأبطشراً اللي جمعه ابن جني . ولكن بين أيدينا مجموعة من اللواوين المفردة لطائفة من الشعراء الصحاليك : صخر الغي ، والأعلم ، وعمرو ذي الكلب ، وأبي خواش في

مجموعة أشعار الهذليين ، وعروة بن الورد ، والشنفرى في ديوانين مستقلبن . وحين ننظر في هذه الدواوين نجد أن ظاهرة انتشار المقطوعات فها واضحة كل الوضوح ، فليس في ديوان صخر الغي سوى ثلاث قصائد طويلة (١) من مجموعة شعره التي تبلغ ثلاث عشرة قطعة ، ومن هذه القصائد الثلاث واحدة خارج دائرة التصعلك (٢) ، وليس في ديوان الأعلم سوى قصيدتين طويلتين (٢)من مجموعة شعره التي تبلغ ست قطع ، وليس لأبي خراش سوى سبع قصائد طويلة (٤) ، منها اثنتان خارج دائرة التصعلك (٥) ، من مجموعة شعره الكبيرة التي تبلغ اثنتين وعشرين قطعة ، وكل ما سوى هذه القصائد السبع مقطوعات وقصائد قصيرة لا تتجاوز أطولها تسعة أبيات ، وأما ذو الكلب فله قطعتان : إحداهما قصيدة طويلة <sup>(٦)</sup> ، والأخرى أرجوزة قصيرة <sup>(٧)</sup> ، وأما عروة بن الورد فإذا أخرجنا من إحصائيتنا تلك المجموعة التي أضافها فاشر ديوانه مما عثر عليه في مصادر الأدب العربي المختلفة ، لأننا نبني حكمنا على ما جمعه القدماء من شعر هؤلاء الصعاليات في دواوين مفردة ، واقتصرنا على المجموعة التي رواها ابن السكيت وهي تبلغ إحدى وثلاثين قطعة ، فإننا لا نجد فها سوى سبع قصائد طويلة (٨) ، أقصرها في أحد عشر بيتاً (١٩) ، وأطولها في سبعة وعشرين (١٠)، وكل ما عدا ذلك مقطوعاتٌ لا تتجاوز أطولها ثمانية أبيات، وتنخفض مجموعة منها إلى بينين، وأما الشنفرى، فإذا استثنينا اللامية التي

 <sup>(</sup>١) شرح أشعار الهذليين ١/١١ ~ ١٣ ، ٢٣ – ٣٧ ، ٢٢ – ٤٩ .

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق /٢٦ - ٢٧ .

<sup>(</sup>٣) المصادر نفسه / ١٤ - ١٠ ، ١٠ - ١١ .

<sup>(</sup>٤) ديوان الهذليين القسم الثانى/١١٦ – ١٢٣ و ١٢٥ – ١٣٢ و ١٣٢ – ١٣٦ و ١٤٤ –

<sup>.</sup> ١٦٤ - ١٦١ و ١٥١ - ١٥١ و ١٦١ - ١٢٤ .

<sup>(</sup>ه) المصدر المايق /١١٦ -- ١٢٣ و ١٥١ -- ١٥٣ .

<sup>(</sup>٦) شرح أشعار الهذليين ١ /٢٣٢ – ٢٣٧ .

<sup>(</sup>٧) المصدر المابق / ٢٣٩ - ٢٤٠ .

<sup>(</sup>٨) ديوانه : القصائد ١ ، ٢ ، ٢ ، ٧ ، ٩ ، ٢٢ .

<sup>(</sup>٩) المصدر السابق : قصيدة رقم ٢ .

<sup>(</sup>١٠) الممدر نفسه : قصيدة رقم ٣ .

تُسَب إليه أحياناً، ويشك في نسبتها إليه أحياناً أخرى ، والتي بينا رأينا فها في الفصل الأول من هذا الباب الثاني ، فإننا لا نجد في ديوانه المخطوط \_ لأننا لا نجد أن نعتمد على ديوانه المطبوع الذي أضاف إليه ناشره طائفة من شعره من مصادر متفرقة \_ سوى قصيدتين طويلتين هما تائيته (١١) وفائيته (٢)، وما عداهما مقطوعات لا تتجاوز أطولها ستة أبيات (٣)

أليس فى هذا ما يجعلنا نقف من هذا الاحتمال موقف المتشكائ فى قبوله ، ونظل عند ميلنا إلى قبول الحقيقة الماثلة أمامنا ، وهى ظاهرة و انتشار المقطوعة فى شعر الصعاليك ، دون حاجة إلى تكلف فروض واحتمالات ؟

۲

## الوحدة الموضوعية:

وإذ انهينا إلى تسجيل هذه الظاهرة ننتقل إلى تسجيل ظاهرة أخرى تتصل بها ، وهي ظاهرة الوحدة الموضوعية في شعر الصعاليك الله . فالناظر في شعر الصعاليك تلفت نظره تلك الوحدة الموضوعية في مقطوعاته وأكثر قصائده ، بحيث يستطيع أن يضع لكل مقطوعة عنواناً خاصاً بها ، دالا على موضوعها . وهي ظاهرة لم تعرفها قصائد الشعر الجاهلي القبلي في مجموعه ، تلك القصائد التي تبدأ عادة مقدمة طللية ، ثم نظل تنتقل من موضوع إلى موضوع حتى تصل إلى نهايتها ، حتى لتصبح براعة الانتقال من المقاييس الفنية المعترف بها عند نقاد الشعر العربي القدماء .

ونستطيع أن نمضى مع مجموعة شعر الصعاليك فلا نكاد نخطئ الوحدة الموضوعية في كل مقطوعاتها وأكثر قصائدها ، سواء ما كان منها في وصف

<sup>(</sup>١) من لوحة رقم ٦٪ -- لوحة رقم ٥٠ .

<sup>(</sup>٢) من لوحة رقم ٥٠ -- لوحة رقم ٢٥ .

<sup>(</sup>٣) لوحة رقم ١٠.

المغامرات أو الحديث عن سرعة العدو أو الفرار أو تقرير فكرة اجهاعية أو اقتصادية أو غير ذلك من موضوعات شعر الصعائيك التي عرضنا لها في الفصل السابق . ولا نكاد نجد صعوبة في وضع العناوين المختلفة لها ، المعبرة عنها ، الدالة على موضوعاتها، فمثلا بائية الشنفري (۱) «غارة على العوص »، ورائية تأبط شراً (۱) «احتيال» ، وفائية السليك (۱) «العاشية المذعورة »، وبائية حاجز (۱) «نجاة »، ورائيته (۱) « فرار » ، ورائية أبي الطمحان (۱) « حنين »، وكافية تأبط شراً (۱) « الصديق الصعلوك » ، ورائية الشنفري التي أنشدها قبيل مقتله (۱) « نهاية الصعلوك » أو « وصية الصعلوك » أو « وصية الصعلوك » أو « وصية الصعلوك » أو « والية المنفري التي أنشدها قبيل مقتله (۱) « نهاية كان يطالب به بني سلامان (۱) « تهديد » ، وفائية الأعلم (۱) « الأرستقراطي كان يطالب به بني سلامان (۱) « تهديد » ، وفائية الأعلم (۱) « القير والغي » ، وفائية عروة (۱۲) « طواف الاستقرار » ورائيته (۱۵) « الفقير والغي » ، وفائية عروة (۱۲) « طواف الاستقرار » ورائيته (۱۵) « الفقير والغي » ، وفائية عروة (۱۲) « طواف الاستقرار » ورائيته (۱۵) « الفقير والغي » ، وفائية عروة (۱۳) « طواف الاستقرار » ورائيته (۱۵) « الفقير والغي » ، وفائية عروة (۱۳) « طواف الاستقرار » ورائيته (۱۵) « الفقير والغي » ، وفائية عروة (۱۳) « وهكذا نستطيع أن نفعل بسائر مقطوعات الاميته (۱۵) « تراث الصعلوك » ، وهكذا نستطيع أن نفعل بسائر مقطوعات

<sup>(</sup>١) الأغانى ١٨ /٢١٦ ، وديوانه في الطرائف الأدبية /٣٣ .

<sup>(</sup>٢) حياسة أبي تمام ١/٣٨ وما بعدها .

<sup>(</sup>٣) الأغاني ١٨/١٥٠ .

<sup>(</sup>٤) الأغاني ١٢/١٢ه (بولاق) ، وحماسة البحثري / ١٥.

<sup>(</sup> ٥ ) الأغاني ١٢ /٢٥ (بولاق) .

<sup>(</sup>٦) الأغاني ٢١/١١ ر ٢١/١٦ (بولاق) .

٤٦/١ حاسة أبى تمام ١/٢٤ .

<sup>(</sup> ٨ ) ديوانه المطبوع /٣٦ . وديوانه المصور : لوحة رقم ٦ .

<sup>(</sup>٩) المصدران السابقان : المطبوع /٣٥ ، ٣٦ ، والمصور /١٠ ، ١١ . والأغانى . ١٣ه/٢١ .

<sup>(</sup>۱۰) شرح أشعار الهذليين ١/ ٦٨ ، ٦٩ .

<sup>(</sup> ١١ ) ديوان الهذليين ٢ /١٥٧ . والمبرد: الكامل /٣٣٧ ، ٣٣٨ . وحياسة الخالديين

<sup>(</sup>مخطوطة) : ورقة رقم ١١٥ ، ١١٦ .

<sup>.</sup> ١٦١ - ١٥٩/٢ الهذليين ٢/١٥٩ - ١٦١ .

<sup>(</sup>۱۲) ديوانه / ۹۱ – ۹۹ ـ

<sup>(</sup> ۱۹ ) ديوانه / ۱۹۸ ، ۱۹۹.

<sup>(</sup> ۱۵ ) ديوانه /۲۰۷ .

شعر الصعاليك وقصائده القصيرة دون أن نشعر بأى تفاوت بينها وبين عناوينها.

ونتساءل: ما موقف القصائد الطويلة في مجموعة شعر الصعاليك من هذه الظاهرة ؟ وهل استجابت لها كما استجابت المقطوعات والقصائد القصيرة ؟

الأمر الذي لا شك فيه والذي يلاحظه كل ناظر في هذه القصائد الطويلة أول ما يلاحظ، أنها لم تقف عند غرض واحد، بل تناولت طائفة متعددة من الأغراض ، ولكن أيخرج بها هذا عن الوحدة الموضوعية أم لا يخرج ؟ هذه هي المسألة .

حين ندقق النظر في هذه الأغراض المتعددة نلاحظ أنها في القصيدة الواحدة ترجع عادة إلى أصل موضوعي واحد تتفرع منه كما تتفرغ أغصان الشجرة من جذعها، فليس التعدد هنا تعدداً في الموضوع، وإنما هو تفرع في أغراض الموضوع، فلامية ذي الكلب الهذلي (١) على كثرة ما تناوله فيها من أغراض فرعية من حديث إلى صاحبته عن غزواته، ومن حديث عن تربص أعدائه به ، وتربصه بهم وتهديده إياهم، ومن حديث عن رفاقه وعن أسلحته وعن المرقبة التي يتربص فوقها، ترجع في حقيقة الأمر إلى موضوع واحد هو ذلك الصراع بينه وبين أعدائه، حتى ليصح أن نسميها و صراع الصعلوك و .

وراثية عروة (٢٠ التي يتحدث فيها عن مذهبه في الغزو ودوافعه ، وعن الصعلوك الحامل والصعلوك العامل ، وعن كرمه وفقره ، ترجع في حقيقة الأمر إلى موضوع واحد هو فكرة التصعلك ، حتى ليصح أن نجعل « فلسفة الصعلكة » عنواناً لها .

وميمية أبى خواش (١٣ التى يتحدث فيها إلى امرأته عن فقره وكرم نفسه ، وشجاعته ، وصبره على الجوع ، ومغامراته ، وشدة عدوه ، ومقدرته على الاهتداء في الليالي المظلمة ، وبراعته في الري ، والتي دوازن فيها بينه وبين

<sup>(</sup>١) شرح أشمار الهذليين ١/٢٣٢ - ٢٣٧ .

<sup>(</sup>٢) ديوانه /٢٢ - ٨٥ .

<sup>(</sup>٣) ديوان الحذليين ٢/ ١٢٥ - ١٣٢ .

ذلك الرجل الغنى الذى تطمح امرأته إليه ، أليس من اليسير أن نردها إلى أصل موضوعى واحد نجعله عنواناً لها وهو «مفاخر الصعلوك» ؟

وهكذا نستطيع أن نمضى معكل قصيدة من تلك القصائد التسع المطولات فنرد أغراضها الفرعية إلى أصل موضوعي واحد يصلح أن يكون عنواناً لها .

ولكن يبدو أن في هذا الحكم بعض الإطلاق ، وأنه يجدر بنا أن نخفف قليلامن إطلاقه، فبين أيدينا بعض القصائد، وإن تكن قليلة جدًا ، لاتخضع لهذا الحكم : تائبة الشنفرى وقافية تأبط شرا المفضليتان ، وفائية صحر الغي وداليته ، فهذه القصائد الأربع لا تخضع للوحدة الموضوعية ، وإنما تتعدد موضوعاتها ، وهو ، وإن يكن تعدداً يسيراً لا يغير من الحقيقة التي نقررها كثيراً إذ أنه في كل منها لم يتجاوز الموضوعين ، فإنه على كل حال يجب أن يدعونا إلى وقفة قصيرة نحاول فيها أن نتبين السر فيه .

الذى يبدو لى تفسيراً لهذا أنه تقليد لنشعر القبلى الذى كان مسيطراً على الحياة الفنية فى المجتمع الجاهلى ، وهذا التقليد ليس من الصعب أن نتصوره فأظن أنه ليس من اليسبر أن نتصور أن الشعراء الصعاليات برغم ما كان بينهم وبين مجتمعهم من نفور - قد بعدوا كل البعد عن الحياة الفنية فى مجتمعهم أو نفروا كل النفور منها ، وإنما المعقول أن نتصور أنهم كانوا أحياناً يحاولون تقليد تلك النماذج الفنية التى كان مجتمعهم يقدرها كل التقدير ، لعلهم يظفرون بنوع من تقدير المجتمع فم ، ولو تقديراً فنينًا ، بعد أن يشوا من تقديره لم تقديراً اجتماعياً . ولن يضيرهم أن يقلدوا أحياناً تلك النماذج الفنية من الشعر القبلى فى صورتها الشكلية ، فلن يغير هذا شيئاً من طبيعة حياتهم الاجتماعية المتمردة على القبيلة ، ولن يغير كثيراً من تقاليدهم الفنية الأساسية .

وعلى كل حال فهذه الظاهرة ، ظاهرة تقليد الشعراء الصعاليك للشعر القبلى في صورته الشكلية ، ظاهرة قليلة الذوع في مطولات شعر الصعاليك ، ومنعدمة تماماً في مقطوعاته ، فليست من الحطر في شيء على فكرتنا التي نقررها ، فكرة « الوحدة الموضوعية في شعر الصعاليك » .

## التخلص من المقدمات الطللية:

إذا استئنينا هذه المجموعة التقليدية من شعر الصعاليك فإننا نصل إلى تسجيل ظاهرة ثالثة، وهي ظاهرة «التخلص من المقدمات الطللية ؛ . وهذا طبيعي ما دام الشعراء الصعاليك يحرصون على الوحدة الموضوعية في شعرهم، إذ أن المقدمات الطللية تخل ــ بطبيعة الحال ــ بهذه الوحدة الموضوعية . وفيها عدا تلك المجموعة التقليدية التي أشرنا إليها لا نعثر فيها بين أيدينا من شعر الصعاليك على مقطوعة أو قصيدة تبدأ بمقدمة غزلية ، وإنما أتخذ الشعراء الصعاليك لهم مذهباً آخر استعاضوا به عن هذه المقدمات ، وهو مذهب جعلوا محوره ٤ حواء الحالدة ٤ أيضاً ، ولكنها ليست المرأة المحبوبة التي عرفناها عند الشعراء القبليين ، تلك التي يتدله الشاعر في حبها ويبكي أيامه معها ، ويقف على أطلال ديارها ، ويدعو أصحابه إلى الوقوف معه ، ولكنها المرأة المحبة الحريصة على فارسها ، التي تدعوه دائماً إلى المحافظة على حياته ، إن لم يكن من أجل نفسه فمن أجلها هي . وليس من شك في أنها براعة ممتازة أن يضع الشعراء الصعاليك في مستهل قصائدهم صورة للأنثى الضعيفة التي يظهر صَاحبها إلىجوارها بطلا قويًّا مستهيناً بحياته من أجل فكرته، يرفض نصيحتها فى رفق وأدب ، ويقابل جزعها بابتسامة الوائق بنفسه ، المعتد بشخصيته ، ويحاول أن يقنعها في قوة و إيمان بسداد رأيه ، وسلامة مذهبه في الحياة . والبراعة هنا ترجع إلى وضع صورتين متقابلتين في معرض واحد مما يترتب عليه وضوح الألوان الفنية فى كلتيهما ، وهو وضع يذكرنا بما نعرفه من آداب فرسان أوربا فى العصور الوسطى ، حيث كانت لكل فارس سيدة يضع كل مفاخر حياته بين يديها . ومن هنا نستطيع أن نطلق على هذه المقدمات النسائية عند الشعراء الصعاليك و مقدمات الفروسية في شعر الصعاليك ، في مقابل « المقدمات الطللية في الشعر القبلي . . وقد رأينا الشنفرى فى قصيدته البائية التى جعلنا عنوانها و غارة على العوص ، يستهلها بحديث إلى صاحبته بأن تتركه وشأنه الذى هو ماض إليه ، ولا تثبط عز يمته ، ولتقل بعد مضيه ما تشاء ، فكل ما يعرفه هو أنه لن يموت إلا مرة واحدة .

ويستهل عمرو بن براقة قصيدته الميمية (١) بحديث بينه وبين صاحبته ، تنصحه فيه بألا يعرض نفسه للمخاطر ، وأن يجعل ليله سباناً يستريح فيه ، ولكنه يعجب من هذه النصيحة فكيف ينام الليل من وهب حياته للبطولة والمغامرة ؟ ألم تعلم بأنه أحد أفراد طائفة الصعاليك الذين لا ينامون من الليل الا قليلا ؟ وهل تريد منه أن يكون كأولئك الخليبن المسالمين الذين ينامون الليل كله ؟

تقولُ سُليمى لا تَعرَّضْ لتَلْفَةِ وليلك عن ليل الصعاليك نائم وكيف ينامُ الليلَ من يجُل ماله حُسامٌ كلون الملح أبيضُ صارم غَموضٌ إذا عَض الكربِهةَ لم يَدع له طَمعاً ، طَوْعُ اليمين مُلازم ألم تُعلمى أن الصحاليك نَوْمهم قليلٌ إذا نام الخلّ المسالمُ

ويستهل السليك مقطوعة له لم يصل إلينا منها - فيها بين أيدينا من مصادر -سوى بيتين يتحدث في أولهما عن تحذير صاحبته له ، ويطمئنها على نفسه لأنه واثق من شجاعته وقوة نفسه :

تُحذَّرنی أَنْ أَحذَرَ العام خَتْعماً وقد عَلمتُ أَنی امروُّ غیرُ مسلَم (۲۱) وأكثر ما نری هذه الظاهرة عند عروة بن الورد ، فكثیر من قصائده ومقطوعاته تبدأ بحوار بینه و بین صاحبته ، أو لعلها امرأته كما یقول رواة شعره ، وهی تلومه علی كرمه و إسرافه ، وتعاتبه علی مخاطرته بحیاته ، وتغریه علی

<sup>(</sup>۱) القالى : الأمالى ۲/۲۲، والأغانى ۲۱/۵۷، ١٧٥، والعينى : شرح الشواهد الكبرى (على هامش خزانة الأدب) ۳/۳۲/۳ ، ۳۳۳.

<sup>(</sup>۲) ابن حبیب : کتاب المغتالین (مصورة) لوحة رقم ۹۰ ، والتبریزی : شرح حاسة آبی تمام ۲/۲۹۲ . وقیه « القوم » مکان « المام » .

البقاء إلى جانبها ، تارة بمعسول القول :

تقول سُليمي لو أَقمتَ لَسرنا ولم تَدْر أَنَى للمقام أَطُوَّفُ 11 ولم تَدْر أَنَى للمقام أَطُوَّفُ 11 وتارة أخرى بحار الدمع الذي ينهل من عينها الجميلتين :

تقولُ أَلا أَقْصِرٌ عن الغزو،واشتكى لها القولَ طرفُ أَحورُ العيندامع (٢) وتارة غيرهما بتخويفه الأعداء الذين يتربصون به :

أرَى أم حَسانَ الغداةَ تلومنى تُخوفنى الأَعداء، والنفسُ أَخوف (١٠) أما هو فبجيبها فى رفق قوى ، أو فى قوة رفيقة ، بأنه لا يفعل هذا إلا من أجلها، ومن أجل من يغشاهما من الأهل، ومن ينزل بهما من الفقراء. يقول لها مرة: فرينى أطوَّفُ فى البلاد لعلنى أخليك أو أغنيك عن سوء مَخْضَرِ (١٠) ويقول أخرى :

أبي الخفض مَنْ يغشاك من ذى قرابة ومن كل سوداء المعاصم تُعترى (٥) وكل ما يطلبه أن تتركه ونفسه ليشترى بها المجد الحالد، والأحاديث الباقية، قبل أن تفلت منه الفرصة فإذا هو عاجز عن البيع والشراء، بيع النفس وشراء الأحاديث:

ذريني ونفسى أمَّ حسانَ إنني بها قبلَ أنْ لا أملك البيع مشترى أحاديثَ نَبقى والفتى غيرُ خالد إذا هو أمسى هامة فوق صَير تُجاوب أحجار الكِناس ،وتشتكى إلى كل معروف تراه ومنكر (١) وهو لا يجزع من الموت ، وهل بملك الإنسان تأخير ساعته إذا دنت ؟ إن لكل إنسان ساعة إذا حلت فلا متأخر عنها :

<sup>(</sup>١) ديوانه / ٢٢.

<sup>(</sup>۲) ديرانه /۱۷۱ .

<sup>(</sup>٣) ديوانه / ٩١ .

<sup>(</sup>٤) ديوانه /١٦ .

ه) ديوانه /٧١ .

<sup>(</sup>٦) ديوانه /٦٣-٦٥ .

فإن فاز سَهْمُ للمنية لم أكن جَزُوعاً، وهل عن ذاك مِنْ مَسَأَخُو<sup>(۱)</sup> وهل يضمن الإنسان إذا تخلف عن المغامرة والمخاطرة ألا يدركه الموت وهو في عقر داره ؟

لعل الذي خَوَقْتِنا مِنْ أَمامنا يُصَادفه في أَهله المتخلف (١) إنها مسألة مفروغ منها ، لا ينبغي لأحد أن تقعد به عن هدفه وغايته : ألم تَعلمي يا أم حسان أننا خليطا زيال ليس عن ذاك مَقْصَرُ وأن المنايا ثغر كل منية فهل ذاك عمايبتغي القوم مُحْصِر (١) والواقع أن عروة يُعد خير من يمثل هذه الظاهرة من بين الشعراء الصعاليك ، وفي كثير من قصائده ومقطوعاته نرى هذا اللون من أحاديث والفروسية ، (١) . وربحا كان السبب في هذا راجعاً إلى طبيعة مركز عروة في حركة الصعلكة الجاهلية زعيا لها ، ومشرعاً لفلسفتها ، وواضعاً لتقاليدها الاجتماعية والفنية .

وقد تنحرف هذه المقدمات أحياناً بعض الانحراف ، فلا تكون حديثاً بين الشاعر الصعلوك وصاحبته ، وإنما تصبح حديثاً من الشاعر الصعلوك إلى صاحبته ، بحدثها عن شيء سوف يفعله ، أو شيء قد فعله ، في اعتداد وثقة بنفسه ، أو في إعجاب وفخر بها :

كَأَنْ قَدْ فلا يَغرُركِ منى تَمكنى سَلكتُ طريقاً بينَ يَرْبَغَ فالسَّرْدِ وَإِنَى زَعِمَ أَن أَلفَّ عَجَاجتي على ذي كساء من سَلامان أو بُردُ<sup>(٥)</sup>

<sup>(</sup>۱) ديوانه /۲۷ .

<sup>(</sup>۲) ديوانه / ۹۱ .

<sup>(</sup>٣) ديولة /١٢٨ ، ١٢٩ .

<sup>(</sup> ٤ ) انظر على سبيل المثال في ديوانه: القصيدة الثالثة / ٦٣ ، والرابعة / ١٩١ والتاسعة / ١٢٧ ، والثالثة والعشرين / ٢٠٦ ، والثالثة عشرة من الزيادات / ٢٠٦ .

<sup>(</sup> د ) الشنفرى فى ديوانه فى الطرائف الأدبية / ٣٤ ، والبيت الأول غير مروى فى النسخة المصورة من ديوانه ، وإنما تبدأ المقطوعة هناك بالبيت الثانى ( لوحة رقم ١٠ ) ، و روايته ، إنى لأهوى أن ألف عجاجتي ، .

ألا هل أنى ذات القلائد فَرَّتى عشيةَ بين الجُرْف والبحْر من بَعْر وقد تنحرف هذه المقدمات انحرافاً آخر ، فلا تكون حديثاً من الش الصعلوك إلى صاحبته ، وإنما تصبح حديثاً من صاحبته عنه ، حديثاً ما تتمكم فيه ، فيرد عليها مفتخراً بنفسه :

تقول سُليمي لجاراتها أرى ثابتاً يَفِناً حَوْقَلاً لها الويلُ ما وَجَدَتُ ثابتاً أَلَفَّ اليدين ولا زُمُلاً الها الويلُ ما وَجَدَتُ ثابتاً أَلَفَّ اليدين ولا زُمُلاً الله عَتبتُ على فصارمتني وأعجبها ذوو اللمم الطوال فإنى يا ابنة الأقوام أربى على فعل الوضىء من الرجال (٣)

ومن اليسير أن نفهم هذين الانحرافين : أما الأول فمن الطبيعي جداً أد يتحدث الشاعر الصعلولة إلى صاحبته بمفاخره لعله يثير في نفسها إعجابه به وتقديرها له ، وأما الآخر فإن النساء مفتونات أبداً بالمال والحمال .

وهنا نقف أمام ملاحظتين متناقضتين كل التناقض: أما أولاهما فتؤيدنا فيا لاحظناه من تخلص الشعراء الصعاليك من المقدمات الطللية، وأما الأخرى فإنها تثير إشكالا على هذه الملاحظة .

ذلك أن السكرى فى شرحه لأشعار الهذليين يروى قصيدة لامية لعمرو ذى الكلب عن أبى عمرو وأبى عبد الله والأصمعى ، تبدأ ببيتين من الغزل فى رواية أبى عمرو وأبى عبد الله ، أما الأصمعى فلم يرو هذين البيتين . وإنما تبدأ القصيدة عنده بحوار بين الشاعر الصعلوك وصاحبته أو امرأته بعد أن رجع سالماً من بعض غزواته (٤) . والملاحظة التى نريد تسجيلها هنا هى عدم اتفاق رواة القصيدة على رواية هذه المقدمة الغزلية ، كأنما كان يرى بعض

<sup>(</sup>١) حاجز في الأغاني ١٢/٢٥ ( بولاق) ، وفي حاسة البحثري / ٦٥ ۽ ذات الخواتم ۽ .

 <sup>(</sup>۲) تأبط شرا في الشعر والشعراء لابن قتيبة / ۱۷٦ ، وحياسة ابن الشجرى / ٤٧ -- اليفن :
 الشيخ الكبير . والحوقل : الضعيف . والألف : الثقيل البطيء العبي بالأمور . والزمل : الجبان الضعيف .

<sup>(</sup>٣) السليك في الكامل المبرد /٢٩٨ .

<sup>( )</sup> شرح أشعار الحذليين ١ /٢٣٢ ، ٢٣٣ .

الرواة أن المقدمة الطبيعية فى شعر الصعاليك هى ذلك الحوار بين الشاعر وصاحبته حول مغامراته ، لا تلك المقدمة الغزلية التقليدية التى رأوا أنها غير مألوفة فى شعرهم .

واكن المشكلة تأخذ في الظهور إذ نعثر ببيتين مفردين أحدهما للسليك في لسان العرب (۱) والآخر لتأبط شرا في معجم البكري (۲). والبيتان يظهر عليهما طابع المقدمات الطللية التي نعرفها في الشعر التقليدي القدم ، فهما ... أولا ... مصرعان مما يشعر بأنهما مطلعا قصيدتين ، ثم هما ... ثانيا ... صورة من أسلوب المطالع الجاهلية ، ذلك الأسلوب الذي يحرص الشاعر فيه على ذكر أسماء المواضع ، ثم هما ... ثالثاً ... لمون من ألوان المطالع الجاهلية في حديثها عن الخيال الذي يُهم بالركب المسافر ، وعن عفاء الديار بعد رحيل الأحباب . وهنا تظهر المشكلة فكيف يتفق هذا مع ما لاحظناه من تخلص الشعراء الصعاليك من المقدمات الطالية ؟ لقد كانت المشكلة تكون أيسر حلا لو أن الصعاليك من المقدمات الطالية ؟ لقد كانت المشكلة تكون أيسر حلا لو أن داخلتان في دائرة شعر الصعلكة أم خارجتان عنها . وغن لم ننكر أن شعر الصعاليك الخارج عن دائرة الصعلكة قد قلد الشعر الجاهل القبلي في كثير من خصائصه ، ولكن المشكلة قد تعقدت بضياع هاتين القصيدتين من عجموعة شعر الصعاليك الذي بين أيدينا ، ثم بإمعان هذين المطلعين في تقليد الشعر الجاهل القبلي الذي بين أيدينا ، ثم بإمعان هذين المطلعين في تقليد الشعر الجاهل القبلي المناهل القبلي الشعر الجاهل القبلي الشعر المناهل القبلي المناهل القبلي الشعر المناهل القبلي الذي بين أيدينا ، ثم بإمعان هذين المطلعين في تقليد الشعر المناهل القبلي الذي بين أيدينا ، ثم بإمعان هذين المطلعين في تقليد الشعر المناهلي القبلي ...

وعلى كل حال فإذا صحت نسبة هذين المطلعين إلى السليك وتأبط شرًا ، ولم يكونا من صنع اللغويبن والجغرافيين العرب ، فإننا نضيفهما إلى تلك المجموعة التقليدية من شعر الصعاليك التي قلنا إنها تعد شذوذاً على خصائص

<sup>(</sup>١) مادة (نيل) :

ألم خيــال من أميمة بالركب وهن عجال عن نيال وعن فقب

<sup>(</sup> ٢ ) معجم ما استعجم ١ / ٢٣١ :

فأجراع مأثول خلاء فيسديد ه

عفا من سليمي ذو عنان قنشه

شعر الصعلكة وهما على كل حال لن يغير ا شيئاً من الحقيقة التي قررناها ، والتي نراها في أكثر نماذج شعر الصعلكة ، وهي تنخلصه من المقدمات الطللية .

٤

# عدم الحرص على التصريع:

وتتصل بهذه الظاهرة ظاهرة رابعة من حيث البناء الخارجي لشعر الصعاليك ، وهي عدم الحرص على التصريع في مطالع نماذجه الفنية . وقد كان يخيل إلى في أول الأمر أن هذه الظاهرة قد تكون خاصة بمجموعة الشعر داخل دائرة الصعلكة دون سائر شعر الصعاليك، أو بالمقطوعات منه بالذات، أو بالقصائد ذات الوحدة الموضوعية ، ولكني حين استعرضت مجموعة شعر الصعاليك كلها رأيت أن هذه الظاهرة توشك أن تكون مطردة في كل شعر الصعاليك سواء ما كان منه داخل دائرة الصعلكة وما كان خارجها ، وسواء ما كان مقطوعات أو قصائد ، وسواء ما كان خاضعاً للوحدة الموضوعية أو خارجاً علمها ، وأقول ؛ توشك ، لوجود مجموعة من نماذجه الفنية يظهر التصريع في مطالعها ، وهي مجموعة – وإن تكن قليلة – تَـَحُـُول دون إطلاق الحكم على كل شعر الصعاليك . ولكن الشيء الذي نحرص على تسجيله هو أن هذه الظاهرة لا تختص بمجموعة خاصة من شعرالصعاليك دون مجموعة ، ولو آنها كانت مختصة بمجموعة دون مجموعة لالتمسنا تعليلها في خصائص المجموعة التي تختص بها ، ولكن انتشارها بهذه الصورة و اللاقاعدية ، تجعلنا نلتمس لها تعليلا آخر . وتعليلها عندى يرجع إلى تلك الثورة التي كانت تجيش بها نفوس الصعاليك على أوضاع مجتمعهم ، وإلى تلك الحرية التي كانوا يعيشون فيها والتي كانت ترفض الخضوع لتقاليد مجتمعهم ، تلك الثورة وتلك الحرية ظهرت آثارهما عن طريق العقل الباطن في حياتهم الفنية ، فكان شعرهم ثاثراً على الأوضاع الفنية في الشعر الجاهلي القبلي ، حرًّا في أوضاعه الفنية . ولكنا قلنا إن الشعراء الصعاليك لم ينجوا في بعض الأحيان من التقليد الفني للشعر الجاهلي القبلي ، ومن هنا نجد تلك المطالع المصرعة في بعض نماذجهم الفنية . واستعراضنا نجموعة شعر الصعاليك مظهرنا على طائفة من الملاحظات الطريفة :

فكل شعر أبى خراش بدون استثناء قد تخلص من التصريع تخلصاً ثاماً . وكل شعر الأعلم بدون استثناء أيضاً قد تخلص من التصريع تخلصاً تاماً ؟ وكل شعر عمرو ذى الكلب ، إذا أخذنا برواية الأصعمى فى لاميته التى عرضنا لها منذ قليل ، قد تخلص أيضاً من التصريع تخلصاً تاماً .

وكل شعر الشنفرى ما عدا تائيته المفضلية ، وكل شعر تأبط شرا ما عدا قافيته المفضلية ، وكل شعر عروة بن الورد ما عدا رائيتين له (۱) ، وكل شعر صخر الغي ما عدا داليته (۲) ، وميميته التي قالها في رثاء ابنه (۲) قد تخلص من التصريع .

وكل شعر السليك ، ما عدا مقطوعة واحدة فى بيتين اثنين (<sup>٤)</sup> قد تخلص أيضاً من التصريع .

وكل شعر أبي الطمحان ، ما عدا مقطوعتين (٥) إحداهما في المدح فمن الطبيعي أن يلبس الشاعر فيها « الثياب الرسمية » التي يلبسها الشعراء المادحون حين يدخلون على من يمدحون ، كل شعره ما عدا هاتين المقطوعتين قد خلا من التصريع .

وكل شعرحاجز، ما عدا ثلاث قطع (<sup>٦)</sup> إحداها يفتخر فيها بقومه، قد خلا من التصريع .

<sup>(</sup>۱) ديوانه /۲۲ ، ۱۲۷ .

<sup>(</sup>۲) شرح أشعار الهذليين ۱۲/۱ .

<sup>(</sup>٣) المصدر المابق /٣٦ .

<sup>(</sup> ١) الأغانى ١٨ / ١٣٤ ، والشعر والشمراء / ٢١٥ .

<sup>(</sup> ٥ ) الأغان ١١ / ١٣٣ ( بولاق) ( القافية والحائية ) .

رُ ؟ ) الأغانى ١٧ / ٤٩ ( بُولاق ) ( البائية في رثاء نفسه ) ، ص ٥٠ ( الميمية في الافتخار بقويه ) ، ص ٢٥ ( البائية في وصف فراره ) .

وحين ننظر في هذه الملاحظات فإننا نقف متسائلين أمام ظاهرة غريبة وهي انتشار التصريع — انتشاراً نسبيًّا طبعاً — في مقطوعات شعر الصعاليك و بخاصة عند حاجز . وقد يكون من المفهوم أن ينتشر التصريع في القصائد الطويلة التي يحتفل لها الشاعر احتفالا فنبًّا خاصًّا ، أما أن ينتشر في المقطوعات القصيرة السريعة كما رأينا في مقطوعة السليك ذات البيتين ، فهنا وجه الغرابة .

لست أرى تعليلا قوياً لهذه الظاهرة الغريبة إلا أحد احتمالين: إما أن يكون هذا التصريع قد جاء عفواً دون أن يقصد إليه الشعراء الصعاليك قصداً ، وهو احتمال مقبول ، وإما أن تكون هذه المقطوعات، وبخاصة التي قيلت في موضوعات خارج دائرة الصعلكة ، أجزاء من قصائد طويلة لم تصل إلينا كاملة احتفالها أصحابها احتفالا فنينا خاصاً فصرعوا في مطالعها، وهو احتمال مقبول أيضاً .

٥

# التحلل من الشخصية القبلية:

وفترك هذه الظاهرة الفرعية لنسجل ظاهرة أساسية في و الشعر داخل دائرة الصعلكة وهي ظاهرة و التحلل من الشخصية القبلية و وهي ظاهرة ليست غريبة على شعر الصعاليك لأنها تتفق وما سجنناه من قبل في دراستنا الاجتماعة لظاهرة الصعلكة من فقد التوافق الاجتماعي بين الصعاليك وقبائلهم مما ترتب عليه فقد الإحساس بالعصبية القبلية في نفوسهم . ومن الطبيعي ألا تظهر شخصية القبيلة عند شاعر فقد إحساسه بالعصبية القبلية ، وما دامت الصلة بين الشعراء الصعاليك وبين قبائلهم قد انقطعت اجتماعياً فن الطبيعي أن تنقطع فنياً ، ونعني بانقطاعها فنيا تحلل الشاعر الصعلوك من ذلك و العقد الفني و الذي دراه بين الشاعر القبلي وقبيلته ، فلا يكون الشاعر الصعلوك و لسان عشيرته و لا يكون شعره و صحيفة

قبيلته و النه لم تعد له قبيلة ، وإنما يصبح شعره صورة صادقة كل الصدق من حياته هو ، يسجل فيه كل ما يدور فيها ، ويصبح ضمير الفرد و أنا و أداة التعبير فيه بدلا من ضمير الجماعة و نحن و الذي هو أداة التعبير في الشعر القبلي ، وتصبح المادة الفنية لشعره مشتقة من شخصيته هو لا من شخصية قبيلته . ومعنى هدا أن ظاهرة الفناء الفني لشخصية الشاعر القبلي في شخصية قبيلته التي نلاحظها بوضوح عند أصحاب المذهب القبلي في الشعر الجاهلي قد اختفت من مجموعة الشعر داخل دائرة الصعلكة ، وحلت محلها ظاهرة أخرى يصح أن نطلق عليها و ظاهرة الوضوح الفني لشخصية الشاعر الصعلوك و الحرى يصح أن نطلق عليها و ظاهرة الوضوح الفني لشخصية الشاعر الصعلوك و المناء الصعلوك و النها المناعر الصعلوك و الفني لشخصية الشاعر الصعلوك و المناء الصعلوك و الفني لشخصية الشاعر الصعلوك و الفني يسح أن نطلق عليها و ظاهرة الوضوح الفني لشخصية الشاعر الصعلوك و الفني يسح أن نطلق عليها و ظاهرة الوضوح الفني لشخصية الشاعر الصعلوك و الفني لشخصية الشاعر الصعلوك و الفني لشخصية الشاعر الصعلوك و الفني لشعر المعلوك و الفني لشخصية الشاعر الصعلوك و الفني لشعر المناء الشعر الصعلوك و الفني لشعر المناء المنا

ولكن شخصية الشاعر الصعاوك شخصية يشاركه فيها أفراد جماعته ، لأنهم جميعاً يؤمنون بمذهب واحد ، ويدينون بعصبية مذهبية واحدة . ومن هنا كانت شخصية الشاعر الصعلوك في جماعته فناء الشاعر القبلي في قبيلته ، وإنما نقصد بها ذلك التشابه في الشخصيات بين أفراد جماعة الصعاليك . ومع نقصد بها ذلك التشابه في الشخصيات بين أفراد جماعة الصعاليك . ومع أصبحت شخصية واحدة ، فإن أساس حركة الصعلكة اعتداد بالشخصية الفردية ، واعتزاز بمقدرة الفرد على الوقوف في وجه المجتمع . ومن هنا كانت لكل شاعر صعلوك – إلى جانب شخصيته الجماعية – شخصية فردية خاصة يتفرد بها بين جماعته . ولكنهم – مع اعتدادهم بشخصياتهم الفردية – كانوا حريصين على شخصيتهم الجماعية ، لأنهم – من غير شك – أقدر جماعة على تحقيق مذهبهم في الحياة منهم أفراداً . ولعل أصدق الأمثلة على هذا عروة وجماعته ، فقد كان عروة – مع اعتداده بشخصيته الفردية – يعبر عن جماعته ويتكلم بلسانها ، وكذلك جماعة تأبط شرًا التي كانت تدعوه ه أمهم ه (۱) لقيامه على شنوبهم ، وتنظيمه زادهم ، مما يشعر بقوة روح الجماعة بينهم .

<sup>(</sup>۱) ثاثية الشنفرى في المفضليات شرح ابن الأنبارى ، البيت ١٩ وشرحه /١٠٣ ، وابن دريد : جمهرة اللغة ١١/٢ ، والسيوطى : المزهر ٢/٢٠١ ، وتاج العروس (مادة أم ) .

والذى نريد أن نصل إليه من هذا هو تفسير ما نراه فى الشعر داخل دائرة الصعلكة من آثار الجماعة ، فضمير الجماعة و نحن و الذى يتردد أحياناً فيه ليس هو الضمير نفسه الذى نراه فى الشعر القبلى ، فنحن هنا تعبر عن الشخصية الجماعية ، ولكنها هناك تعبر عن الشخصية القبلية .

ومهما يكن من أمر، فالشيء الذي لا ريب فيه هوأن الشعراء الصعاليك قد تخلصوا من الشخصية القبلية في شعرهم داخل دائرة الصعلكة كما تخلصوا منها في حياتهم ، وأنهم أصبحوا شخصية فنية «شاذة» في الشعر الجاهلي كما كانوا شخصية اجتماعية «شاذة» في حياتهم ، وهذا والشذوذ» هو العامل المشترك بين شخصيتهم الفردية وشخصيتهم الجماعية ، حتى ليصح أن نطلق عليهم و أصحاب المذهب الشاذ في الشعر الجاهلي » .

وما أظن أننا فى حاجة إلى القول بأن الشخصية القبلية ظاهرة فى تلك المجموعة من شعر الصعاليك التى اصطلحنا على تسميتها و الشعر خارج دائرة الصعلكة ٤. ومن هنا نستطيع أن نقول إن هذه المجموعة \_ وإن تكن صورة من الفن الجاهلي \_ تمثل و شذوذا و فى مجموعة شعر الصعاليك و أصحاب المذهب الشاذ فى الشعر الجاهلي ٥.

٦

### القصصية:

وإذ قررنا أن شعر الصعاليك صورة صادقة كل الصدق من حياة أصحابه ، يسجلون فيه كل ما يدور فيها ، فإننا نصل إلى تقرير ظاهرة مترتبة على هذه الفكرة وهي ظاهرة و القصصية في شعر الصعاليك ، فشعر الصعاليك ... في مجموعه ... شعر قصصي يسجل فيه الشاعر الصعلوك كل ما يدور في حياته الحافلة بالحوادث المثيرة التي تصلح مادة طيبة للفن القصصي ، فحوادث مغامراتهم

الجريئة التي كانوا يقومون بها فرادى وجماعات وما كان يدور فيها من صراع دام مرير ، وأخبار فرارهم وعدوهم ، وتشردهم فى أرجاء الصحراء بين وحشها وأشباحها ، وتربصهم فوق المراقب فى انتظار ضحاياهم ، كل هذا وغيره من مظاهر حياتهم مادة صالحة للفن القصصى. وقد استغل الشعراء الصعاليك هذه المادة فى شعرهم استغلالا قصصباً رائعاً جمع فى صورة بسيطة عناصر الفن القصصى الأساسية من الإثارة والتشويق وتسلسل لأحداث حتى تصل إلى غايتها الطبيعية المحتومة .

وقد رأينا عند حديثنا عن « ظاهرة الوحدة الموضوعية في شعر الصعاليك » أن أكثر مقطوعاته وقصائده تقبل العناوين . ونظرة أخرى إلى هذه العناوين على ضوء هذه الظاهرة الجديدة ، ظاهرة القصصية ، ترينا أنها في مجموعها عناوين قصصية . وهل « غارة على العوص » ، أو « العاشية المذعورة » ، أو « احتيال » ، أو « نجاة » ، أو « فرار » إلا عناوين قصصية ؟ وهل بائية السليك (۱) إلا قصة بطلاها الشاعر وصاحبه ، ومسرحها تلك المهامه الرملية التي تصل بين ديارهما وديار أعدائهما في الفصل الأول منها ، ثم ديار الأعداء في الفصل الثاني ، وزمانها تلك الليلة التي خرجا فيها وذلك الصباح الذي بدآ فيه الصراع بينهما وبين أعدائهما ، وحوادثها خروجهما من ديارهما وجزع صاحبه في الطريق ، وتشجيع السليك له وبعث الطمأنينة والأمل في نفسه ، ثم ذلك الصراع بينهما وبين أعدائهما على الإبل ثم عودتهما بها؟ وهل لامية تأبط شراً (۱۲) بانتصار الصعلوكين واستيلائهما على الإبل ثم عودتهما بها؟ وهل لامية تأبط شراً (۱۲) إلا قصة تبدأ بحوار بين صاحبة الشاعر وجاراتها ، ثم تتابع أحداث القصة التي تدور بين بطلها وهو الشاعر الصعلوك في ليلة مظلمة حالكة وبين غول قابلها ، تم تتابع أحداث القصة التي حتى تصل القصة إلى نهاينها حين يقتل الشاعر الصعلوك هذه الغول و يخلفها على معلى الشعة الله ناه على اللهما عين يقتل الشاعر الصعلوك هذه الغول و يخلفها على تعمل القصة إلى نهاينها حين يقتل الشاعر الصعلوك هذه الغول و يخلفها عني تصل القصة إلى نهاينها حين يقتل الشاعر الصعلوك هذه الغول و يخلفها

<sup>(</sup>۱) بكى صرد كما رأى الحى أعرضت مهامه رمل دونهم وسهوب (الأغانى ۱۸/۱۳۱).

<sup>(</sup>۲) تقـُسول سـمليمي لحارثهـــا أرى ثنابتـــاً يفتاً حوقلا (الشمر والشعراء /۱۷۲، وحماسة ابن الشجري /٤٧).

صريعة ؟ وهل تائية الشنفرى المفضلية — إذا أخرجنا منها مقد منها الغولية — إلا قصة غزوة من غزواته مع جماعة من رفاقه يقص فيها استعدادهم للغزوة ، ثم خروجهم لها، ومضيم في طريقهم إليها ، ثم تربصهم بأعدائهم ، وانتظارهم الفرصة المواتية ، وما كانوا يفعلونه في هذه الفترة من الانتظار والتربص ، ثم تحقيق أهدافهم التي كانوا يسعون إليها ، ثم تعليق من الشاعر على هذه القصة ؟ وهل بائية الأعلم (1) إلا قصة نفسية دقيقة تبدأ مباشرة بمنظر الشاعر الصعلوك مع صاحب له وهما يفران من أعدائهما الذين يطاردونهما مطاردة عنيفة تستمر حي ينتصف النهار حين يصل الصعلوكان إلى منطقة الأمان ؟ وهي قصة وإن تكن أحداثها قليلة فإن أروع ما فيها ذلك التحليل النفسي الدقيق لنفسية الهارب المذعور والمطارد الطامع في إدراكه ، وذلك التصوير النفسي الرائع لحوف المارب المذعور من الموت وحرصه على الحياة حين يشتد من خلفه الحطر ، ثم طمأنينة نفسه بعد نجاته وتذكره تلك الهقد النفسية التي تدفع به إلى مثل هذه المآزق الحطرة : فقره ، وهوان أسرته ، وترف الأغنياء من حوله . والقصيدة ، أو القصة ، من هذه الناحية من المكن أن تسلك في عداد القصص النفسية أو التي يعرفها العصر الحديث .

وهكذا نستطيع أن نمضى مع مجموعة الشعر داخل دائرة الصعلكة فإذا نحن أمام مجموعة من الأقاصيص يصح أن نطلق عليها كما يفعل القصاص المحدثون « أقاصيص صعلكة » أو « مغامرات الصعاليك » أو «غزوات وقصص أخرى ».

بل إن الأمر ليتجاوز هذه المجموعة إلى الشعر خارج دائرة الصعلكة ، وبخاصة عند الهذليين في رثائهم ، فقد اتخذ الهذليون فيه مذهباً قصصيناً ، عماده حيوان الصحراء الشارد في أرجائها ، الممتنع فوق جبالها العالمية ، يضربون به المثل على أن الموت يدرك كل كائن حي مهما يكن بعده عن مواطن الحطر وامتناعه عليه . والصورة القصصية عندهم دائماً حيوان آمن في سربه أو في معقله

<sup>(</sup>١) لما رأيت القوم بالعليا ء دون قدى المناصب

<sup>(</sup>شرح أشعار الهذليين ١/٥٥ – ٦٠).

ثم يتبح له القدر صائداً ، تارة يكون إنساناً ، وتارة يكون جارحاً من الطير ، يتربص به حتى إذا أمكنته الفرصة انقض عليه فأورده موارد الهلاك . ولكن من الحق أن نسجل أن هذه الظاهرة ليست مقصورة على صعاليك هذيل ، ولكنها ظاهرة عامة عند الشعراء الهذليين ، وعند بعض الشعراء الجاهليين أيضاً .

وهنا نقف عند نص للأصمعي يرويه ابن دريد عن أبي حاتم عنه ، يقول فيه : ه ويقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه ه (١) لعلنا نصل عن طريقه إلى فكرة قد تكون جديدة في تاريخ الشعر العربي ، وقد تخالف ما قد تعارفنا عليه من أن امرأ القيس هو أول من اصطنع القصة في شعره ، وأن تاريخ القصة في الشعر العربي يبدأ بامرئ القيس .

ولن نقول مع الأصمعي إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه ، فتلك دعوى جريئة يعوزها الدليل ، ولا تستطيع الوقوف أمام الدراسة الفنية لمجموعة شعره ذات الطابع الفي الواحد ، والشخصيه الفنية الواحدة ، ولكننا نستطيع أن نقول إن هذا النص يشير إلى مسألة فنية مهمة أحسها القدماء وإكننا نستطيع أن نقول إن هذا النص يشير إلى مسألة فنية مهمة أحسها القدماء وإن ضلوا الطريق إليها ، وهي أثر الصعاليك في شعر امرئ القيس فن المعروف أن امرأ القيس في بعض فترات شبابه كان يتبع صعاليك العرب (١) ، ومن الطبيعي أن النفس الفنية في هذه السن المبكرة تكون قابلة للتأثر لأن نضجها الفني لم يكن قد اكتمل بعد وإذن فليس من البعيد أن يكون امرؤ القيس قد تأثر من الناحية الفنية بفن هؤلاء الصعاليك وهو يستمع إليهم بقصون أقاصيص مغامراتهم وحياتهم في قصائدهم ومقطوعاتهم ، وليس من البعيد أيضاً أن يكون امرؤ القيس قد فتنه ذلك الأسلوب القصصي في شعر هؤلاء الصعاليك ، مامرة القيس قد فتنه ذلك الأسلوب القصصي في شعر هؤلاء الصعاليك ، فيس من المرة القيس نقطة البدء في الشعر العربي بل هم الشعراء الصعاليك ، وليس شعر المرئ القيس نقطة البدء في تاريخ القصة الشعرية بل تسبق هذه مرحلة أوني امرئ القيس نقطة البدء في تاريخ القصة الشعرية بل تسبق هذه مرحلة أوني

<sup>(</sup>١) فحولة الشعراء (مخطوطة) ورقة رقم ٤.

<sup>(</sup>٢) الأغاق ١/١٨ .

هى مرحلة الشعراء الصعاليك ورواد القصة الشعرية فى الأدب العربي . . ومن يدرى ؟ فلعل تلك الألوان القصصية فى شعر امرى القيس هى التى أشكلت على صاحب هذا الرأى الذى يرويه الأصمعى فخيلت إليه أن جزءاً من شعر امرى القيس من صنع صعاليك كانوا معه .

٧

## الواقعية :

والظاهرة السابعة التي نلاحظها على شعر الصعاليك هي و الواقعية ۽ . وأول مظاهر هذه الواقعية انخاذهم الحياة بما فيها منخير وشر مادة لموضوعاتهم، و بعدهم عن الإمعان في الحيال إمعاناً ينقلهم من عالم الواقع إلى عالم الأوهام بسحبه العالمية وأبراجه العاجية . ونظرة إلى موضوعات شعرهم التي عرضنا لها في الفصل السابق ترينا هذا المظهر واضحاً جليًّا ، فقد صور الشعراء الصعاليك فى فنهم البيئة البدوية التي يعيشون فيها بكل مظاهرها : الصحراء القاسية بشعابها وجبالها وأغوارها، وصخورها ومياهها، وحرها و بردها، وليالها المظلمةالرهيبة، وحيوانها الشارد في آفاقها ، ووحشها الرابض في أرجائها ، وحشراتها المتوارية في جحورها والساربة فوق رمالها ، وصوروا مظاهر الطبيعة المختلفة كما شاهدوها : طلوع الفجر ، وغروب الشمس ، والندى المتساقط في أول الليل وفي آخره ، والبرق والرعد، والسحاب والمطر، وصوروا الحياة الواقعية التي يحيونها بكل ما فيها من واقع خيتر و واقع شرير: الكرم والمروءة ، والعطف على الفقراء والمرضى والضعفاء، والسلب والنهب وسفك الدماء ، و بكل ما فيها من محاسن وعيوب : الشجاعة والبطولة ، والقوة والمغامرة ، والهرب والفرار ، والفقر والجوع والهزال والهوان، وصوروا الشخصيات الإنسانية التي يتصلون بها كما يرونها في الواقع المحسوس بكل ما بينها من تباين واختلاف: الأعداء والأصدقاء ، والصعاليك العاملين والصعاليك الخاملين، والنساء المشجعات والنساء المثبطات، والنساء المعجبات والنساء المتهكمات، والأغنياء المترفين والصعاليك المعوزين، كل هذه الجوانب من الحياة الواقعية هي الأمس التي أقام عليها الشعراء الصعاليك بناءهم الفني .

والمظهر الثانى لهذه الواقعية صدق النقل عن الحياة ، ومطابقة الصورة للأصل ، بحيث لا يشعر الناظر فى شعر الصعاليك باختلاف بين الصورة الشعرية وأصلها فى الحياة ، أو بين ما يراه فى شعرهم وما يشاهده فى الحياة ، حتى ليخيل إليه أنه أمام مجموعه من الصور «الفوتوغرافية » . وهل صورة الفباع وجرائها عند الأعلم (١) ، وحمار الوحش وأننه عند أبى خراش (١) إلا صور « فوتوغرافية » سجلها « عدسات » الصعاليك لهذه النماذج من الطبيعة الحية ؟ وهل صورة المرقبة عند الشنفرى (١) ، وصورتها عند أبى خراش (١) ، وصورة الشعب عند تأبط شراً (٥) ، وصورة البرق والرعد والسحاب والمطر عند صحر الغي (١) ، إلا صور « فوتوغرافية » سجلها » عدسات » الصعاليك لهذه الجانب من الطبيعة الصامتة ؟

ومن مظاهر هذه الواقعية أيضاً استكمال الصورة العامة ، فحين ننظر مثلا في صورة حمار الوحش وأتنه عند أبي خراش تلاحظ أنها صورة واقعية كاملة استكملت كل عناصرها، بحيث نشعر بأننا أمام صورة طبيعية منقولة عن الواقع نقلا دقيقاً كاملا . فحمار الوحش أقب خميص البطن، عنيف نشيط ، وأتنه قد استبان حمم لها فهي متأبية عليه ، والمكان فوق مرتفع من الأرض يشرف منه حمار الوحش على الآفاق خائفاً يترقب ، والزمان يوم شديد الحر من أيام الصيف الطويلة ، ولكن المنظر يتغير حين تؤذن الشمس شديد الحر من أيام الصيف الطويلة ، ولكن المنظر يتغير حين تؤذن الشمس

<sup>(</sup>١) شرح أشعار الهذليين ١/٧٥ ، ٨٥ .

<sup>(</sup>٣) ديوان الهذليين القسم الشاف /١١٧ – ١٣١ .

<sup>(</sup>٣) ديوانه في الطرائف الأدبية /٣٧ ، ٣٨ ، وديوانه المصور لوحة رقم ٥٠ ، ١٥ .

<sup>(</sup>ع) ديوان الهذليين القسم الثاني /١٥٩ - ١٦١ .

<sup>(</sup>ه) الأصمعيات /٣٥٠.

<sup>(</sup>٦) شرح أشعار الهذليين ١/٢٤ ~ ٥٥.

بالمغيب ، ويحين موعد أوبة هذه الحمر إلى منازلها ، فترى حمار الوحش يترك موقبته ، ويهيج أتنه التى تسرع أمامه مثيرة خلفها حبلا طويلا من الغبار الممتد ، فيسرع خلفها وسط هذا الغبار ، ولكن الأتن تمحس خطراً يتربص بها ، ذلك أن صياداً فقيراً رث الحال يحمل سهامه الزرق في انتظارها ، فترهف الأتن السمع ، حتى إذا ما تأكلت من هذا الحطر أسرعت في قوة وشدة ، ويعترض طريقها ماء آجن يكسوه نبات طويل ، فتلتى ينفسها فيه ، وتفتح ما بين أيديها ، وتنطلق سابحة ، ولكن الصياد يرسل سهامه ، فأما الأتن فتنجو لأنها متقدمة ، وأما حمار الوحش فقد كان أقرب إلى الصياد منها ، فيخترق فؤاده مهم شخم عريض النصل .

وأظن أننا قد لاحظنا في هذه الصورة - إلى جانب استكمالها لكل عناصرها من الهيئة والمكان والزمان والحالة والفعل والنتيجة - حرصاً على التفاصيل واهتماماً بالجزئيات ، وهو المظهر الرابع من مظاهر هذه الواقعية . فأبو خراش حريص على تسجيل حمل هذه الأتن وحذر حمار الوحش ، ثم هذا الحبل من الغبار الذي يحترقه حمار الوحش خلف أتنه ، ثم رثائة حال الصياد ، وشدة عدو الأتن بعد إحساسها بالحطر ، وحركة أيديها وهي سابحة في الماء ، وهذا النبات الطويل الذي يكسو صفحة الماء الآجن ، ومركز حمار الوحش بين الأتن والصياد عما يستر إصابته ونجاتها .

وحين ننظر في تصوير الأعلم للضباع وجرائها نجد مثلاً آخر لهذا المظهر ، فالأعلم حريص على التفاصيل حرصاً شديداً ، معنى بالجزئيات عناية قوية ، لا ينسى حين يذكر الجراء انتفاخ بطونها ، وقصر قوائمها ، وسواد جلدها ، وقصر آذانها العريضة التي تنبسط حين تقبل على فريستها في نهم فتنتزع جلدها نزع القيون لبطائن الجغون ، ولا ينسى حين يذكر الضباع المسنة غلظها ، وجواعرها النماني ، بل إنه لا ينسى ثلك الشعرات المجتمعة خلف أظلافها ، ولا تلك الدوائر التي تشبه الحلاخيل التي تقع مُفويق هذه الشعرات ، والتي يخالف لونها سائر لون الأرجل .

وهنا نصل إلى مظهر آخر من مظاهر حرص الشعراء الصعاليك على التفاصيل ، وهو اهتمامهم « بظاهرة اللون » . وقد رأينا الأعلم حريصاً على تسجيل سواد الضياع ، وتلك الدوائر التي يخالف لونها سائر لون الأرجل ، كما رأينا في الفصل السابق اهتمام الشعراء الصعاليك بلون القوس . والحق أن الشعراء الصعاليك قد اهتموا بألوان كل أسلحتهم تقريباً ، وفرقوا بينها في دقة رائعة نستحق الإعجاب ، فالسيف أبيض (١) ، والقيد وأحمر (١) ، والسهم والنصل أزرقان (١) ، والرمح والترس أسمران (١) ، والقوس إما صفواء وإما حمراء . وإلى جانب هذا نجد الظباء البيض عند حاجز (١) ، والإبل الدهم عند أبي خراش (١) ، والحصان الأشقر عند تأبط شراً (١) ، والخيل الحو والكمت عند قيس بن الحدادية (٨) ، ونجد الدم الحالك عند أبي خراش (١) والعصابة الحمر قيس بن الحدادية (٨) ، ونجد الدم الحالك عند أبي خراش (١) والعصابة الحمر قيس بن الحدادية (٨) ، ونجد الدم الحالك عند أبي خراش (١) والعصابة الحمر

<sup>(</sup>۱) الحديث عن بياض السيف كثير جداً في شعر الصعاليك ، وفي الشعر العربي عامة ، وحسينا أن نشير هذا إلى بعض المواضع التي ورد فيها في شعر الصعاليك «حسام كلون الملح أبيض صارم » (عمرو بن براقة: أمالي القالي ۲/۱۲) . «طارت بأبيض صارم » ، «حسام كلون الملح كلون الملح صاف حديده » (الشنقري : المفضليات / ۲۰۵) . « بكني من المأثور كالملح لونه » (عروة : ديوانه / ۱۷۸) . « بيض خفاف ذات لون مشهر » (عروة : المصدر السابق / ۸٤) .

<sup>(</sup>٢) يَا أَرَكُهَا فَي كُلُ أَحْمَرُ عَاثَرُ يَا (الشَّنْفَرِيَّ : ديوانَه فِي الطَّرَائِفُ الأَدبية /٣٨) .

 <sup>(</sup>٣) ه بأزرق لا نكس ولا متعوج » (الشنفرى : المصدر السابق /٣٤ ، وديوانه المصور لوحة رقم ٢٥) . ه رماح من الحطى زرق نصالها » (أبو خراش : ديوان الهذايين ٢ /١٢٤) .

<sup>( ) ،</sup> وأسمر خطى ، (حاجز : الأغانى ١٢/٥٠ بولاق) . « سمر القنا ، ( تأبط : الأغانى ١٨ / ٢٠٤ ) . « وأسمر خطى القناة » ( عروة : ديوانه / ٢٠٧ ) . « وأسمر مجناً من جلد ثور » (ذو الكلب ؛ شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٣٥ ) .

<sup>(</sup>ه) ه ترى البيض يركضن الحجاسد بالضحى و (الأغانى ١٢/١٥ بولاق) .

<sup>(</sup>٦) ﴿ كَأَجُوازُ المُقْرَنَةُ الدَّمِ ﴾ (ديوان الحذليين القسم الثناني (١٣٠).

<sup>(</sup>٧) و وأشقر غيداق الحرام و (ديوان الشنفري في الطرائف الأدبية /٢٨) .

<sup>(</sup> ٨ ) و رميناهم بالحو والكمت » ( الأغانى ١٣ / ه بولاق) .

<sup>(</sup> ٩ ) ولا يطلبلا إذا الكساة تزينسوا لذى غرات الموت بالحالك الفدم

<sup>(</sup> ديوان الهذليين القسم الثانى /١٢٦) .

الجلود عند حاجز (۱) ، والوجوه المشرقة كلون الماء المذهب عند الشنفرى (۲) ، والنبت الأخضر فى الربيع (۳) ، واسوداد أنامل الفقراء فى الشتاء (۱) ، وسواد معاصم الفقيرات (۵) ، والقدر السوداء التى يجتمع حولها الفقراء الجياع (۱) ، عند عروة .

والمظهر الحامس من مظاهر هذه الواقعية الصراحة في التصوير ، وتسجيل الواقع كما هو دون محاولة لإخفائه ، أو تغيير حقيقته ، وقد رأينا في الفصل السابق أمثلة لهذه الصراحة التي تسجل الواقع كما هو في أحاديث الشعراء الصعاليك عن فرارهم وهربهم ، وعن فقرهم وجوعهم وهزالهم ، وهوان وضعهم الاجتماعي . ولا يجد الشاعر الصعلوك حرجاً من أن يتحدث عن فرحته بنعلين أهديتا له كما يفعل أبو خراش (٧) ، أو يتحدث عن نعليه الباليتين الممزقتين كما يفعل تأبط شرًا والشنفري وأبو خراش أيضاً (٨) ، أو عن ثيابه الأخلاق التي وإذا أنجمت من جانب لا تكفيف ، كما يقول الشنفري (١) ، أو عن حمله قربة الماء كما يذكر تأبط شرًا (١٠).

والمظهر السادس لهذه الواقعية الدقة في التعبير ، ثلك الدقة التي تحدد العبارة تحديداً واضحاً لا غموض فيه .

فحين يعتذر تأبط شراعن فراره من أعدائه مخلفاً صاحبه لهم يراه يضع

 <sup>(</sup>۱) ويوم شروم قد تركندا عصابة لدى جانب الطرفاء حدرا جلودها
 (الأغانى ۱/۱۲ه بولاق).

 <sup>(</sup>۲) سراحین فتیسان کأن وجسوههم مصابیح أو لون من الماء مذهب
 (دیوانه فی الطرائف /۳۲) .

<sup>(</sup>٣) وحتى يؤكل النبت أخضرا » (ديوانه /٦١).

<sup>(</sup>٤) و كريما إذا أسود الأذامل أزهرا به ( المصدر السابق /٦٩) .

<sup>(</sup>ه) يو ومن كل سوداء المعاصم تعاتري يه (المصدر نفسه /٧١) .

<sup>(</sup>٦) يو وإذ ما يريح ألحي صرماء جونة ٥ (المصدر نفسه /١١٤) .

١٤١ ، ١٤٠/٢ ، ١٤١ ، ١٤١ .

<sup>(</sup> ٨ ) المفضليات / ١٧ ، وديوان الشنفري ( المطبوع ) / ٣٥ ، وديوان الهذليين ٢ / ١٣١ .

<sup>(</sup>٩) ديوانه (المطبوع) /٣٧ ، والأغاني ٢١ / ١٤١ .

<sup>(</sup>١٠) البغدادى : خزانة الأدب ١/٥٠، ولسان العرب : مادة (عصم) . وقد رجحنا في الفصل الأول من هذا الباب أن هذه الأبيات لتأبط شرا .

المسألة وضعاً وحسابياً و ، فاذا يفعل وقد نظر فإذا هؤلاء الأعداء أكثر من ثلاثة ؟ ولو أنهم كانوا اثنين مثليهما أو حتى ثلاثة ما فر مخلفاً صاحبه لهم : تقولُ تَركت صاحباً لك ضائعاً وجئت إلينا فارقاً مُتباطنا إذا ما تركت صاحبي لثلاثة أو اثنين مثلينا فلا أبت آمنا (۱) وحين يتحدث الشنفرى عن غارته على العوص مع أصحابه نراه يحدد عددهم تحديداً وحسابياً وأيضاً ، فيذكر أنهم كانوا تمانية ، ويحدد الزمن الذي استغرقه طريقهم حتى وصلوا إلى العوص ، ثم يحدد أخيراً عدد من صرعوهم من أعدائهم (۱)

وحبن يتحدث عن صديقه تأبط شرًّا أو 1 أم العيال 1 كما يسميه، ويصف جعبة سهامه ، يحرص على أن يقدم لنا إحصائية دقيقة عن عدد هذه السهام فهى ثلاثون سهماً عراض النصال (٣) .

وإلى جانب هذا و التحديد الحسابي ، الذي يستمد دقته من لغة الأرقام نجد صورة أخرى تأتى من و التحديد الجغرافي ، الذي يستمد دقته من ذكر المواضع وتحديدها على نحو ما يفعل كتّاب الوثائق والعقود!!

فحين يصف الشنفرى خروجه مع أصحابه فى بعض غزواتهم يحدد مكان خروجهم تحديداً جغرافياً دقيقاً ، فيذكر أنهم خرجوا من الوادى الذي يقع بين مشعل وبين الجبالة ، وحين يهدد بنى سلامان ، أعداءه الألداء ، يحدد المواضع التى سيلاقهم بها تحديداً جغرافياً دقيقاً ، ويعددها موضعاً موضعاً ، وهو تحديد يضفى على تهديده لوناً من التحدى لهم والاستخفاف بهم ، لأنه به « يكشف أوراقه » ، كما يقال فى لغة « اللاعبين » (٥٠) . وحين بهدد عروة أعداءه من الأوس « يكشف لهم أوراقه » أيضاً ، فيحدد لهم بهدد عروة أعداءه من الأوس « يكشف لهم أوراقه » أيضاً ، فيحدد لهم

<sup>(</sup>١) الأغاني ١٨/١٢٢ .

<sup>(</sup> ۲ ) ديوانه ( المطبوع ) / ۲۲ .

<sup>(</sup>٣) المفضليات / ٢٠٤ – وديوانه المصور : لوحة رقم ٤٨ – والأغافي ٢١ / ١٤٠.

<sup>(</sup> ٤ ) المصادر السابقة : المفضليات /٢٠٣ ، والديوانُ /٤٨ ، والأغاني /١٣٩ .

<sup>(</sup> ه ) انظر رائيته في ديوانه المطبوع /٣٥ ، ٣٦ ، وديوانه المصور ؛ لوحة رقم ٢٠٠ .

الموضع الذي سيلاقيهم به تحديداً دقيقاً ، فيذكر أنه سيلاقيهم و بمنبطح الأوعال من ذي السلائل "(١) . وكذلك يفعل الأعلم الهذلي :

فلستُ لحاصن إِنْ لَم تَرَوْنى بِيطِن صَرِيحة ذات النجال وأَمى قَينةٌ إِن لَم ترونى بعورش وسط عَرْعَرها الطوال (٢) وإلى جانب هذا والتحديد الجغراف و نجد صورة أخرى من صور اللقة في التعبير يصبح أن نطلق عليها والتحديد التعبيري ، ونقصد به ذلك التحديد اللفظى الدقيق لمدلول العبارة الذي يأتي من طبيعة اللفظ أو النظم أو من طبيعتهما معاً . فحين يصف تأبط شرًا الحية يذكر أن خروجها يكون و بعيد غروب الشمس » :

أصم قُطَارِى يكون خروجه بُعيدغروب الشمس مختلف الرَّمْسِ<sup>(۱)</sup> والدقة هنا تأتى من ذلك التصغير لظرف الزمان ، وهو تصغير يحدد الوقت تحديداً دقيقاً .

وحين يصف غلاماً قابله فى بعض مغامراته ، وكادت الأعجوبة أن تحدث ويسقط تأبط شراً صريع سهم من سهامه ، لا يكتنى بأن يذكر أنه غلام ، ولكنه يحدد طوله وسنه تحديداً طريفاً ولكنه دقيق ، فهو غلام يزيد طوله على خمسة أشبار ، ولكنه لم يبلغ السن التى تشتهيه فيها النساء :

غُلامٌ نما فوق الخُماسيِّ قُدره ودونَ الذي قد ترتجيه النواكعُ (٤)

وحين يصف ثلث القلة البارزة التي تشبه سنان الرمح ، والتي يسرع إليها مع أصحابه ، يحرص على أن يسجل لنفسه سبقه إياهم في الوصول إليها ، ولكنه

<sup>(</sup>١) انظر لاميته في ديوانه /٢١٠ ـ وذو الشلائل فيه تصحيف صوابه ما أثبتناه هذا كما هو وارد في الأغاني ٣/٥٧ ، ومعجم البلدان لياقوت ه/ه١٠ .

<sup>(</sup>٢) شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٧.

 <sup>(</sup>٣) لسان المرب: مادة (قطر) ~ القطارى: الحية تأوى إلى قطر الجبل، أو مأخوذ من القطار وهو سمها الذى يقطر من كثرته.

<sup>( )</sup> الأغانى ١٨ /٢١٦ . وغلام خماسى : طوله خمسة أشبار ( انظر القاموس المحيط مادة و خس ») .

فى الوقت نفسه حريص على ألا يسىء إليهم ، أو أن يكون حديثه عن نفسه طمناً فيهم ، فنراه يعتمد على هذا والتحديد التعبيرى ، فيذكر أنه سبقهم إليها لا لأنهم كسالى ، فهم جميعاً صعاليك نشطون ، ولكن لأنه أسرع منهم : وقُلَّةً كسنان الرمح بارزة ضَحْيانة فى شهور الصيف مِحْراق بادرتُ قُنتها صحّبي وما كبيلوا حتى نَمَيْتُ إليها بعد إشراق (١)

وهى دقة فى التعبير يشبهها قوله فى القصيدة نفسها حين أراد أن يتحدث عن قوة نفسه وأنه حريص على رفاقه أكثر من حرصه على رفيقاته :

ولا أقول إذا ما خُلَّةً صَرَمت يا ويح نفسى من شوق وإشفاق لكنا عِوَل ، إِنْ كنتُ ذا عِوَل على بصيربكسب الحمد سباق (٢)

فهو لا يريد أن يسجل على نفسه ضعفاً سواء فى موقفه من رفيقته أو فى موقفه من رفيقه ، فحين أحس أنه قد ضعف فى مطلع البيت الثانى استدرك وحدد عبارته تحديداً دقيقاً أثبت به حرصه على رفيقه ، ونفى ما بدا من ضعف فى مطلع عبارته ، فالدقة هنا تأتى من هذه المقدرة البارعة على النفى والإثبات فى موضع واحد .

والمظهر السابع من مظاهر هذه الواقعية ظهور الخبرة العملية فى فنهم وهو مظهر يجعلنا نشعر بأننا أمام إنسان يعيش فى الواقع العملى لا أمام شاعر يعيش فى الحيال والأوهام . وقد رأينا أبا خراش فى حديثه عن حصر الوحش يذكر تمنع الأتن الحوامل على الذكر ، وهى ظاهرة مقررة عند علماء الحيوان . وحين يصف الأعلم الظليم يذكر من بين أوصافه أنه وزيخري السواعده (٢) أى أن عظامه مجوف لا منح فيها ، ويذكر مُشراحُ شعره أن والنعام جُوف

<sup>(</sup>١) المفضليات /١٦، ١٧، ولسان العرب مادة (ضحا) ١٩/ ١١٤، ومادة (نعم) ٢١/ ٦٣ وفيها قلّبها ، وفيل إشراق .

<sup>(</sup>٢) المفضليات /١١ ، ١٣ .

<sup>(</sup>٣) شرح أشعار الهذليين ١/٢١، وشرح المفضليات لابن الأنبارى / ٢٢٩، ولمان العرب مادة ( سمت ) ٢/٧٧ ومادة ( زنخر ) ه / ١٨ ، ومادة ( برى ) ١٨ / ٧٥ . المعرب مادة ( المعمول المعرب مادة ( المعمول ال

العظام لا منع فيها (١١) ، ويقول الجاحظ في حديثه عن النعام و ومن أعاجيبها أنها مع عظم عظامها وشدة عدوها لا منع لها (١) ، والطريف أن الجاحظ يستشهد على هذا ببيت الأعلم الذي نحن يصدده . وهكذا نرى شعر الصعاليك مصدراً من مصادر دراسة حيوان الصحراء يعتمد عليه الدارسون في تأييد آرائهم . وقد رأينا تأبط شراً حين يصف الحية يذكر أن خروجها يكون و بعيد غروب الشمس ، وهو تحديد دقيق لوقت خروج الأفاعي من جحورها ، تؤيده الخبرة العملية ، وليس غريباً على تأبط شرا أن يذكر ذلك ، لأنه يحكم طبيعة حياته مضطر إلى ملاحظة هذه الظواهر ، وقد قيل له : وهذه الرجال عليما ، فكيف لاتنهشك الحيات في سراك ؟ فقال : إنى لا أسرى البردين ، غلبها ، فكيف لاتنهشك الحيات في سراك ؟ فقال : إنى لا أسرى البردين ، يعني أول الليل لأنها تمور خارجة من جحرتها ، وآخر الليل تمور مقبلة إلها ه (١) وهكذا يكون هذا البيت صدى لتجربته العملية التي تصورها هذه العبارة .

ومن أدل الأمثلة على هذه الحبرة العملية التى تظهر فى شعر الصعاليك أنهم لا يكادون يذكرون الضباع إلا فى مجال الحديث عن الموت ، وقد رأينا ذلك الفزع الذى كان يسيطر على نفوس بعض الشعراء الصعاليك من أن تلقى أجسادهم بعد مقاتلهم إلى الضباع ، والذى ظهرت آثاره فى شعر الأعلم وتأبط شراً ، كما رأينا حديث تلك الوليمة التى يعدها الشنفرى للضبع من جسده بعد مقتله .

ومن المقرر عند علماء الحيوان أن الضبع و مولعة " بنبش القبور لكثرة شهوتها للحوم بني آدم (٤) ، وهذه الحقيقة العلمية القررة هي التي عرفها تأبط شرا الجاهلي ، وظهرت آثارها في شعره ، حين وصف الضبع في دقة رائعة بأنها و تفرى الدفائنا ء (٥). ومن الطريف أن الجاحظ عند حديثه عن الضباغ وولعها بنبش القبور و و فرط طلبها للحوم الناس و يستشهد بأبيات

<sup>(</sup>١) شرح أشمار الحذليين ١١/٦ س ١١، ١٢.

<sup>(</sup>٢) الحيوان ٤/٢٦ .

<sup>(</sup>٣) الأغاني ١٨ /٢١٠ .

<sup>(</sup>٤) اللميرى : حياة الحيوان ٢/٧٧.

<sup>( • )</sup> الأغاني ١٨ /٢١٣ .

الشنفرى التى يبشر فيها الضبع بجسده بعد مقتله ولكنه ينسبها لتأبط شراً (١)، وهو اختلاف لا يضير قضيتنا شيئاً فكلا الشاعرين صعلوك .

ولعل أكثر الأمثلة على خبرة الشعراء الصعاليك العملية دوراناً في شعرهم تلك الموازنات التي يعقدها العداءون منهم بينهم وبين مجموعة حيوان الصحراء المشهور بشدة العدو ، فإن اختيار هذه المجموعة دليل على خبرتهم العملية بها . وكذلك تلك الأمثال التي يضربها الهذليون بطائفة من حيوان الصحراء الشارد الممتنع عند حديثهم عن الموت ، فإن الإلحاح على ذكر أحوال هذا الحيوان وطباعه وخصاله دليل على خبرتهم العملية به .

ومهما يكن من أمر هذه الحقائق التي يذكرها الشعراء الصعاليك فليس مما يعنينا هنا مطابقتها أوعدم مطابقتها لما يقرره العلم الحديث الآن ، إذ ليس من الإنصاف أن نتخذ ما وصل إليه العلم التجريبي الحديث من حقائق علمية مقياساً لما يذكره هؤلاء الشعراء القدماء ، وإنما حسبنا أن ما يذكرونه كان صدى صادقاً لمشاهدتهم العملية في حياتهم الواقعية ، أو لما كان يدور في مجتمعهم من معلومات .

٨

#### السرعة الفنية:

وإذ كانت حياة الشعراء الصعاليك قلقة مضطربة لا تكاد تعرف للاستقرار أو الطمأنينة طعماً ، فهم دائماً مشغولون بكفاحهم من أجل العيش ، ذلك الكفاح الدامى المرير الذى فرغوا له فراغاً تاماً ، والذى وهبوا له حياتهم ، وجعلوه مذهباً لهم يعيشون له ويموتون فى سبيله ، وإذ كان شعر الصعاليك صورة صادقة لحياتهم ، كانت النتيجة الفنية لهذا أن اتسم شعرهم بالسرعة الفنية ، فالعمل الفنى عند الشعراء الصعاليك أشبه الأشياء بشوط من أشواط تحد وهم ، يندفعون فيه ولا يتوقفون حتى يصلوا إلى غايتهم . وليس من البعيد أن تكون هذه السرعة الفنية التي وسمت شعرهم صدى نفسياً لتلك

<sup>(</sup>١) الحيوان ٦/٠٥٠.

السرعة التى اعتمدت عليها حياتهم ، منبعثاً من أعماق و اللاشعور » . ولست أدرى فقد يؤيد هذا ما فلاحظه من أن الصنعة الفنية فى شعر عروة أبطأ وأشد أناة وإحكاماً منها فى شعر صعاليك السراة ، ومن المعروف أن عروة لم يكن من العدائين وإنما الصعاليك العداءون — كما رأينا من قبل — هم أولئك الذين كافوا ينزلون منطقة السراة بين مكة والبمن (١).

وقد رأينا من مظاهر هذه السرعة الفنية انتشار المقطوعات والقصائد القصيرة في شعرهم ، وتخلصهم من المقدمات الطللية ، ومن التصريع ، وهي مظاهر ترجع إلى الشكل العام أو البناء الحارجي للعمل الفني .

وحين نمضى إلى داخل البناء الفنى لشعر الصعاليك نجد أن أقوى مظاهر هذه السرعة وخفوت الصنعة الفنية و في شعرهم بحيث لا يكاد الناظر فيه يلمح أثراً من آثار التجويد الفنى المتمهل الواضع الأناة ، وإنما هو حديث سريع يتدفق من نفس الشاعر دون أن يحرص على أن يتمهل هنا أو هناك لينمقه أو يوشيه بتلك الألوان الفنية المختلفة التى يحرص عليها الشعراء المحترفون والواقع أن حياة الشاعر الصعلوك لم تكن بالتى تتيح له من الفراغ والاطمئنان ما يجعله يتمهل فى عمله الفنى أو يتأنى فيه. وهل نستطيع مثلا أن نتصور أن السليك وقد مضى للغارة مع صعلوكين التي يهما فى طريقه ، ثم مضى وحده ليستكشف مضى للغارة مع صعلوكين التي بهما فى طريقه ، ثم مضى وحده ليستكشف لهما خبر نار لاحت لم ، حتى إذا ما بلغها ووجد أن ليس عندها سوى عبيد وإماء يسهل التغلب عليم ، رفع عقيرته متغنياً بهذين البيتين ليعلم صاحبيه أن الفرصة سانحة :

يا صاحبي ً ألا لا حي بالوادى إلا عبيد وآم بين أذواد أتنظران قليلا رَيثَ غفلتهم أم تعدوان فإن الربيح للعادى (٢) على في هذا الجو يستطيع أن يفرغ على في هذا الجو يستطيع أن يفرغ

<sup>(</sup>١) الباب الأول : الفصل الثاني (التفسير الجنرافي) ص ٨٦ .

لَّا ) ابْنَ قَتَيْبَةً : الشَّعْرُ وَالشَّعْرَاءُ / ٢١٥ . وَالْأَغَانِّى ١٨ / ١٣٤ . وَانْظَرُ البِيتَ الثَّاثَى فَى لَسَانَ العَرْبِ : مَادَةً (روح) .

لفنه مجوداً منعقاً موشياً ؟ أظن أن الشاعر لم يكن يبغى من وراء هذين البيتين سوى أن يسمعهما صاحباه فيفهما عنه ما يريد ، فالصنعة الفنية لم تكنهدفاً محرص عليه ، وإنما كل حرصه على أن يبلغ صاحبيه هذه الرسالة ، أو بتعبير أدق هذه و البرقية » في أسرع وقت حتى لا تفلت منهم الفرصة .

ومثل السليك كان أكثر الصعاليك ، وخاصة العدائين منهم ، لم تتعم للم من مع المعاليك ، وخاصة العدائين منهم ، لم تتعم للم حياة الكفاح وما تلقيه على كواهلهم من تبعات جسام فراغاً لفنهم بجودونه ويخرجونه إخراجاً متأنياً متمهلا .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الشعر عند الصعاليك لم يكن « حرفة » يقصد لذاتها ، ويفرغ صاحبها لتجويدها ، والوصول بها إلى المثل الأعلى الذي يستطيع معه أن يدخل حلبة المباراة الفنية ليقول لغيره من الشعراء : هأنذا ، وإنما كان الشعر عندهم وسيلة يسجلون بها مفاخرهم ، أو ينفسون بها عما تضيق به صدورهم من تلك « العقد النفسية » التي تمتل بها أعماق نفوسهم ، أو يدعون بها إلى مذهبهم في الحياة لعلهم يجدون من يؤمن به وينضم إليهم ، أما أن يرضى عنهم المجتمع الفني الذي يعيشون فيه فهذا أمر لم يكن في حسابهم ، فهم يعرفون أنهم يعيشون في مجتمعهم شذاذاً متمردين ليس بينهم وبينه إلا علم مورفون أنهم يعيشون في مجتمعهم لن يرضى عن فنهم كما لم يرض عنهم ، ولا تقيم ، ولن يحرص عليه كما لم يحرص عليهم ، ويعرفون أن القبائل لا تحرص عليم ، ولا تقيم وزناً إلا لم ، ولا تخص بالتقدير والإعجاب إلا شعرهم . وهكذا انصرف الشعراء الصعاليك عن احتراف الشعر ، ولو أنهم فكروا في احترافه لاتخذوا منه وسيلة يتكسبون بها كما يتكسب بها غيرهم من الشعراء المحرفة با كما يتكسب بها غيرهم من الشعراء المحرفة المحرفين .

ولعل والتشبيه و أقوى الألوان الفنية التى اعتمد عليها الشعراء الصعاليك في شعرهم ، وهو لون يتفق تماماً مع هذه السرعة الفنية التى لا حظناها ، إذ أن الصنعة الفنية في التشبيه صنعة سريعة لاتتجاوز عقد موازنة بين أمرين يشتركان في معنى ، وهو ــ من هذه الناحية ــ غير الاستعارة مثلا التى تعتمه على اون

من الصنعة الفنية العميقة المتأذية . وفي صنيع القدماء من علماء البلاغة ما يش بهذا ، فقد جعلوا التشبيه المرحلة الأولى التي نبني عليها الاستعارة ، ووب بنائها على التشبيه ... كما يقولون ... أن استعارة اللفظ إنما تكون بعد المبالغة و التشبيه ، وإدخال المشبه في جنس المشبه به ادعاء . ومن هنا دار بينهم كلا طويل حول جعله بابا مستقلا من أبواب البيان مع أنه مقدمة لها تتوقيق عليه ، وهل توقف بعض الأبواب على بعض يوجب كون المتوقف عليه مقدما للفن أولا يوجب (١) . ومعنى هذا بتعبير أيسر أن العملية الفنية في التشبيه عملية بسيطة من درجة واحدة ، ولكنها في الاستعارة عملية مركبة من درجةين .

وعلى كل حال ، وبدون الوقوف عند هذه التعليلات العقلية ، فالأمر الذى لاشك فيه أن الصنعة الفنية في التشبيه صنعة سريعة لا تحتاج إلى أكثر من وضع الأمرين المراد عقد الموازنة التشبيهية بينهما في معرض واحد حتى يتضح وجه الشبه بينهما .

وحين نظر فى شعر الصعاليك لنتبين كيف استخدموا هذا اللون الفنى فى صناعة تماذجهم فإن أول ما نقف عنده تلك العناصر التى استخدموها فى تأليف هذا اللون ، أو بعبارة أخرى نستأذن أصحاب الرسم فى استعارتها منهم و صندوق الأصباغ عند الشعراء الصعاليك ».

وصندوق الأصباغ عند الشعراء الصعاليك صندوق متعدد العناصر، ولكنها في مجموعها عناصر قاتمة قليلة الإشراق والتألق، مستمدة من تلك البيئة البدوية القاحلة التي يعيشون فيها، ومتأثرة بتلك الحياة الحشنة القاسية التي يحيونها، ومتسمة بتلك الواقعية التي تسيطر على تفكيرهم ومزاجهم.

والحق أن هذه العناصر أكثر من أن تتحصى ، لأنها – من ناحية به مستمدة من واقع الحياة بكل ما فيه من مظاهر متعددة ، ولأنها به من ناحية أخرى به منتشرة في شعرهم انتشاراً واسعاً . ولكنا مع ذلك سنحاول أن نردها إلى

 <sup>(</sup>١) أنظر شروح التلخيص عند قول صاحب التلخيص في مقدمة علم البيان \* ثم منه ما يبنى على التشبيه فتمين التعرض له \* ٢٨٩ وما بعدها ( العلبمة الثانية بمعلبمة السعادة بمصر سنة ٢٨٩ هـ).

ثلاثة منابع أساسية : عالم الحيوان أولا ، والحياة الإنسانية ثانياً ، ثم البيئة الطبيعية ثالثاً ، وهو ترتيب قائم على أساس و الكم » ، كما يقول المناطقة .

أما المنبع الأول فلعله أغزر المنابع التي اعتمد عليها الشعراء الصعاليك في تشبيها منهم ، فقد استغلوا حيوان الصحراء ووحشها وطيرها وحشراتها استغلالا واسعاً . ومرد ذلك من غير شك إلى حياتهم القريبة منها نتيجة لتشردهم في مواطنها الأصلية وبيئاتها الأولى . وقدر أينا في الفصل السابق أنهم تعرضوا بالذكر لسبعة وعشرين نوعاً منها ، وطبيعي أننا لم تلخل في ذلك الإحصاء تلك الأنواع الأليفة التي تعرضوا لها بالذكر كالإبل والحيل والغنم والبقر ، لأننا كنا بصدد الحديث عن تشردهم .

وقد رأينا فى الفصل السابق كيف استغل الشعراء الصعاليك الطير وحيوان الصحراء المشهور بالعدو فى حديثهم عن شدة عدوهم . وحين ننظر مرة أخرى فى هذه الظاهرة الموضوعية فى شعر الصعاليك من الزاوية الفنية التى ندرسها الآن نجد أن التشبيه هو أكثر الأساليب شيوعاً فى هذا الحديث .

أما ضوارى الصحراء ، وجوارح طيرها ، وأفاعيها ، فأكثر ما يستغلها الشعراء الصعاليك في تشبيه أنفسهم أو رفاقهم أو أعدائهم بها . فالشنفرى سمَّعُ أزل لا يبالى بشيء مهما يكن صعباً :

أنا السَّمْعُ الأَزْلُ فلا أبالى ولو صَعْبتُ شناخيبُ العِقَابِ(١) وبنو سلامان أعداؤه الألداء يعرفون بشائر عرامته منذ صغره يوم أن كان يمشى بينهم كالأسد الورَّد:

هُمُ عرفونى ناشئاً ذا مَخِيلَة أمشًى خلالَ الدار كالأَسد الورد (١) ويصف تربصه فوق المرقبة العالية المنيعة ، وكيف بات على حد ذراعيه • كما يَتطوى الأرقش المتقصّف ، (٣) ، أو « الأرقمُ المتعطّف ، في رواية

<sup>( 1 )</sup> ديوانه المطبوع / ٣٣ – والسمع فيها يرى العرب ولد الذَّتب من الخميع .

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق /٣٤ .

<sup>(</sup>٣) الأغاني ٢١/١٤٠.

أخرى (١١) . ويشبه قيس بن الحدادية قومه - فى بعض شعره القبلى- بالضراغ فيقول معيراً أعداءهم بالهزيمة :

غداةً توليَّتُم وأُدبر جَمْعكم وأَبْنَا بِأَسراكم كأنا ضراغم ( ويشبه صخر الغي وروده ماء مخوفاً على حذر بمشى النمر حين يستقبل ريح باردة تَدية ":

وماء وردت على زَوْرَة كمشى السَّبَنَّنَى يَرَاحُ الشفيفا<sup>٢١)</sup> ورفاق الشنفرى و سراحين فتيان<sup>(١)</sup> ، وصاحب أبى خراش وكالسُّرحان سُرْحوب (<sup>١)</sup> ، وعدو أبى خراش يسقط صريعاً كما يسقط نسر أكل لحماً مسموماً :

به نَدَعُ الكمى على يديه يَخِرُ تخاله نَسرًا قشيباً (٢)
وهى صورة قوية تستمد قوبها من عنصر ه الحركة الذى نتمثله فى سقوط
النسر صريعاً، ذلك السقوط العنيف المفاجئ الذى يمثل لنا سقوط العدو تمثيلا
قوياً بعد أن عبر عنه الشاعر بتلك اللفظة الموحية المعبرة ه يخر ه .

ولكن تأبط شرَّا يخرج على هذه القاعدة ، فيشبه حصان الشنفرى فى رثائه له بالعُنُقباب التي تنقض بين ذروتين شامختين :

وأشقرُ غَيْداقُ الجِرَاء كأنه عُقابُ تدلَّى بين نِيقَين كاسرُ (٧) ويستغل الشعراء الصعاليك النحل في صورتين: صورة تعتمد على الصوت، وصورة تعتمد على الهيئة. أما الأولى فهي صورة القوس حين تنظلق منها سهامها

<sup>(</sup>١) ديرانه المطبوع /٣٧.

 <sup>(</sup>٢) الأغانى ١٢/٤ (بولاق) .

<sup>(</sup>۳) شرح أشعار الهذلبين ۱/۲۱ ، وشرح المفضليات لابن الأنباری /۸۷۲ ، ولسان العرب مادة (روح) ۳/۲۸۲ ، ومادة (زور) ۳/۲۲۱ ، وورد الشطر الثانی فقط فی مادة (شغت) ۸۲/۱۱ .

<sup>(</sup>٤) ديوانه في الطرائف الأدبية /٣٢ ، والأغافي ١٨ /٢١٦ .

<sup>(</sup> ه ) ديران المذلين ، القسم الثاني / ١٦١ .

<sup>(</sup>٦) المصدر السابق /١٣٥ - القشيب هذا: المسموم.

<sup>(</sup>٧) ديوان الشنفري في الطرائف الأدبية / ٢٨ ، وحياسة الخالديين ( مخطوطة ) ورقة رقم ٢١٧ .

فتحدث حفيفاً مهماً غير واضح هو في سمع بعض الشعراء الصعاليات كصوت النحل ، وأما الأخرى فهى صورة الجماعات الكثيرة المتزاحمة سواء أكانوا أعداء يطاردونهم ، أم وفود المعوزين المحتاجين على أبواب الكرماء .

فحفيف النبل في سمع الشنفري حين ينطلق من قوسه كصوت النحل العائد إلى غاره وقد أخطأه فهو يُحوَّم حوله :

كأن حفيف النّبل من فوق عَجْسِها عَوَازبُ نحل أَخطأ الغارَ مُطْنِف (١) وأعداء تأبط شراً من خلفه وهم يطاردونه كالنحل الكثير الذي يتجمع في خليته :

ولم أنتظر أنْ يَدهمُونى كأنهم ورائى نَحلُ فى الخلية واكنا<sup>(۱)</sup> وطالبو الحاجات الذين يغشون باب بعض الكرماء الذين يملحهم أبوخراش يشهون النحل الذي يهوى إلى غاره:

ترى طالبى الحاجات يَغْشُوْن بابه سراعاً كما تَهْوِى إِلَى أَدَى النحل (٣) وكما استغل الشنفرى النحل فى تصوير حفيف سهامه استغل القطاة فى تصوير أفواقها ، ففُوق سهمه مدور كعرقوب القطاة :

عليه نُسَارِى على خُوط. نبعة وفُوق كعرقوب القطاة مُدَخَرج (\*) وإذا كان المطاردون عند تأبط شرًّا كالنحُل فإن العدائين عند أبي خراش كأرجال الجراد الذي يقصد إلى الأماكن الغليظة المرتفعة :

وعادِية تُلقى الثيابَ وَزَعتُها كرِجَل الجرادينتحى شُرَفَ الحَزْمِ (٥) ويستغل الشعراء الصعاليك من الغريان جانبين متناقضين : سوادها الحالك ، وصفاء عيونها الشديد . فقطعان السوام عند صخر الغي كجماعات الأغرية في سوادها :

<sup>(</sup>١) الأغاني ٢١/ ١٤١ .

<sup>(</sup>٢) الأغاني ١٨/٢١٢ .

<sup>(</sup>٣) ديوان الهذليين ٢ /١٦٦ – أدى : موضع .

<sup>(</sup> ٤ ) ديوانه المطبوع / ٣٤ . والمصور : لوحة ٢٥ . والأغانى ٢١ / ١٤١ .

<sup>(</sup> ه ) ديوان الهذايين ٢ / ١٣٢ .

فأرسلوهن يه تلكن بهم شطرَ سَوَام كأنها العَجَدُ<sup>(1)</sup> أما عيون الماء في ديار أبي الطمحان التي يحن إليها وهو خليع مجاور في مكة فهي في صفائها كعين الغراب :

إذا شاء راعيها استقى من وقيعة كعين الغراب صَفُوُها لَمْ يُكَدِّرُ<sup>(۲)</sup> ويستغل الشعراء الصعائيك السهانى استغلالاطريفاً، فهم يشهون بأشلاتها نعالم الممزقة، وهى طرافة تأتى من تلك المفارقة الغريبة بين طرفى التشبيه:

ونعل كأشلاء السّمانَى تركتُها على جنب مَوْر كالنحيزة أغبرا(١)

ونُعل كأشلاء السانى نُبذتها خِلافَ نُدى منْ آخر الليل أورِهم (١)

ويستغل الشعراء الصعاليك الإبل فى تشبياتهم على صورة واسعة ، ولكنها لا تصل إلى الدرجة الني نراها فى استغلالهم لحيوان الصحراء السريع أو ضواريها . ومرد ذلك - فيا يبدو - إلى قلة اتصالهم بتلك القصيلة من الحيوان التي هي أول ستات و الرأسمالية ، العربية . وقد يؤيد هذا ما فلاحظه من أن أكثر الأوضاع التي يتخيرونها فلإبل فى تشبيهاتهم تعد من الناحية النفسية أصداء لذلك الحقد الذي كان علا فقوسهم عليها ، فالصعلوك الحامل المذموم عند عروة :

يُعينُ نساءَ المحى أَ يُسْتُعِنَّه فيمسى طليحاً كالبعير المُحَسَّر (٥) والجبل بعد أن غسله المطر وصقله عند صخر الغي كالبعير الأجرب الذي مُطلى ونتف:

فَذَاكُ السَّطَاعُ خِلافَ النَّجَا ء تحسبه ذا طلاء نَتِيفًا (١) وحبن يسخر أبو خراش من امرأته التي لا تستطيع صبراً على الجوع يذكر

<sup>(</sup>١) شرح أشمار الحذليين ١٣/١ – والحديث في البيت عن الفرسان والحيل. الاهتلاك: رمى النفس في تهلكة . والعجد : الغربان .

 <sup>(</sup>٢) الأغانى ١١ / ١٢٤ (بولاق) . والحيوان الجاحظ ٢/ ٤٢١ -- الوقيعة : المكان الصلب يمسك الماء . وفي الأمثال و أصلى عيناً من الغراب و ( المصدر الأخير / ٢١٤ ) .

<sup>(</sup>٣) الشنفري في ديوانه المطبوع /٣٥ . وانظر : ص ٢٣٦ من هذا البحث .

<sup>(</sup> ٤ ) أبو خراش في ديوان الهذليين ٢ / ١٣١ . وانظر : ص ٢٢٦ من هذا البحث .

<sup>(</sup> ه ) ديوانه /٧٧ .

<sup>(</sup>٦) شرح أشعار الهَدُليين ١ / ٤٤ – السطاع : جبل . خلاف النجاء أي بعد المطر .

أن جوفها كجوف البعير :

إذا هي حنت للهوى حن جوفها كجوف البعير، قلبُهاغير ذي عزم (١١) والقبر عنده في احديدابه ومنظره العام كالبعبر:

إذا راحوا سواى وأسلمونى لخشناء الحجسارة كالبعيرا") ومع ذلك فلا يخلو الأمر من بعض الصور الطريفة التي أحسن الشعراء الصعاليك اختيار أوضاعها وألوانها، فحين يصف أبو خراش عدوه هو ورفاقه في ليلة ممطرة من ليالي جمادي الباردة ، يشبه الغثاء الكثيف الملتف تحت أقدامهم بأوساط الإبل الدهم التي قدرن بعضها ببعض :

إذا ابتلت الأقدامُ والتف تحتها غُثاءً كأجواز المقرَّنة الدَّهم (٣) وصوت القوس عند عمرو ذي الكلب كحنين الناقة المسنّة المتخلفة عن الإبل الفتية لأنها لا تستطيع مسايرتها:

تعجُّ فى الكف إذا الرامى اعتزمٌ تَرَسَمَ الشارف فى أخرى النَّعم (1) أما الحيلُ فهى قليلة الدوران فى تشبيهات الشعراء الصعاليك لدرجة كبيرة . ويبدو أن السبب فى هذا قلة اعتمادهم عليها فى حياتهم . ولكن الصور التى وردت \_ على قلبها \_ مشرقة زاهية . ولعل أطرف هذه الصور على الإطلاق صورتان : صورة الفجر عند تأبط شرا حين لاح ضوؤه كأنه تلك الحطوط البيض فى جواد أدهم :

وقد لاح ضوء الفجر عَرْضاً كأنه بلمْحته أقراب أبلق أدهم (٥) وصورة البرق الذي يلمع بين السحاب الأسود عند عروة كأنه فرس بلُقاء حديثة النتاج تنحى برجلها ذكور الحيل عن ولدها فيبدو بياض بطنها: إذا قلت استهل على قُدُيْد يكور كرور ربابه حَوْرَ الكسير

<sup>(</sup>١) ديوان الحذليين القسم الثاني /١٢٦ .

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق /١٣٦ .

<sup>(</sup>٣) المصدر نفسه /١٣٠ .

<sup>(</sup>٤) شرح أشعار الهذليين ١/٢٤٠.

<sup>(</sup> ه ) الأغاق ١٨ /١١٥ .

ثَكَشُّنَ عَائِدَ بِلْقُسَاءَ تَنْفَى ذَكُورُ الخَيْلِ عَنَ وَلَدَ، شَغُورُ الْ ويستغل تأبط شرَّا جَبْنَ الْغُنَم وَخُوفُهَا فَى رَثَاتُه لَلْشَنْفَرَى ، فَيَشْبَه أَعْدَاءُهُ وهو يجيل فيهم سلاح الموت بالغنم المذعورة :

تجيلُ سلاحَ الموت فيهم كأنهم الشوكة كالحُدَّى ضَمْينُ نوافر (٢١)

أما الشنفرى فيستغل أولاد البقر فى رسم صورة غريبة ، فهو يشبه سيوف رفاقه الصعاليك مشرعة فى أيديهم وهى تنهل من دماء أعدائهم وتعل بأولاد البقر الصغار إذا رأت أمهاتها فجعلت تحرك أذنابها :

تراها كأَذناب المحسِيل صوادرًا وقد نَه لِلتُّ من الدماء وعَلَّت (٣)

وهى صورة تستمد غرابتها من هذه المفارقة بين طرفى التشبيه : أولاد البقر الصغيرة المسالمة ، وسيوف الصعاليك المخضبة باللماء .

أما المنبع الثانى لأصباغ لون التشبيه عند الشعراء الصعاليات ، وهو الحياة الإنسانية ، فمن الممكن أن نرده إلى أربعة مظاهر من مظاهر هذه الحياة : الحياة الاجتماعية ، والحياة الاقتصادية ، والحياة الحسدية .

وقد استخدم الشعراء الصعاليك عناصر هذا المنبع الإنساني استخداماً طريفاً ، ولعل أطرف ما فيه أنه يصور كيف كان تأثر هؤلاء الصعاليك بالحياة التي كانت تدور حولهم أو التي كانوا يدورون فيها .

فحين يرى صخر الغى السُحاب الثقيل وهو مقبل فى بطء لاتتراءى أمامه إلا صورة الأسير الذى يُساق فى قبوده فهو بطىء الخطو متثاقله:

وأقبلَ مَرُّا إِلَى مَجْدَل سياقَ المقيد بمشى رَسِيفًا (١٤) وهي صورة من الطبيعي أن تتراءى لهذا الصعلوك الهذلي الذي كان

 <sup>(</sup>١) ديوانه / ٢٤ -- العائذ : الحديثة النتاج . وشغور صفة لعائذ ، وهي التي ترفع رجليها .
 (٢) ديوان الشنفري المطبوع / ٢٨ . وشرح المفضليات / ١٩٩ . مع اختلاف في ألفاظ

الشطر الأول - الحدى : الحادة ، مؤنَّث أفعل التفضيل .

۲۰۰/ المفضليات (۳)

<sup>(</sup>٤) شرح أشمار الهذليين ١ /٢٤.

يعيش قريباً من مكة حيث سوق الرقيق يساق إليها الأسرى الذين لا يفتديهم أهلهم حيث يباعون .

وحين أيفرغ هذا السحاب مطره بعد ما تكاثفت أواخره ، ويهدأ ذلك اللدى الذى كانت تثيره رعوده ، يرى الشاعر أن أقرب صورة لهذا المنظر صورة جماعة من النصارى مجتمعين فى عيد من أعيادهم يستى بعضهم بعضاً ، وهم من مرحهم ولهوهم فى ضجة وصخب ، ولكنهم ينظرون فإذا أمامهم رجل من غير دينهم ، فإذا ضجتهم تهدأ، وصخهم ينقطع ، حتى يتبينوا أمر هذا الغريب: كأن تواليسه بالملا نصارى يُساقون لاقوا حنيفا (الكان تواليسه بالملا نصارى يُساقون لاقوا حنيفا (الكان وهى صورة ترسم فى براعة ممتازة جانباً دقيقاً من الحياة الدينية فى العصر الحاهلى . ومن الطبيعى أن يعرف صخر الغى هذا الجانب معرفة دقيقة ، فقد الجاهلى . ومن الطبيعى أن يعرف صخر الغى هذا الجانب معرفة دقيقة ، فقد كانت هذيل تنزل فى تلك المنطقة التى تقع فيها مكة المركز الديني الأول فى جزيرة العرب ، والتى تقام فيها أشهر الأسواق التى كان القسس والرهبان يردونها فيعظون ويبشرون ، ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار .

ومن هنا أيضاً نستطيع أن نكشف الستار عن تشبيه الأعلم الهذلي لجلود جراء الضباع السود بثياب الرهبان :

مُبود سحاليل كأن جلودهن ثيابُ راهب (٢) ولكنًا مع ذلك تحسَّ شيئاً من السخرية الماكرة من هذه التقاليد الكهنوتية في عقد الصلة بين جراء الضباع وبين الرهبان، وهي سخرية ليست غريبة على هؤلاء الصعاليك المتمردين على كثير من تقاليد مجتمعهم.

وحين يلمع البرق فإن الصورة التي تتراءى لصخر الغي هي صورة ذلك البشير الذي أقبل بعد غزوة فاجحة وهو بحرك ترسه في كفة ليعلم أصحابه أنه قد عاد غانماً:

<sup>(</sup>۱) شرح أشعار الهذليين ۱/ه٤ . وديوان الهذايين القسم الثانى / ۲۱ – وقد اختلمى المفسرون فى معنى هذا البيت اختلافا عريضا ، ولكنى أظن أن هذه الصورة التى رسمتها للبيت هذا هى أقرب الصور إلى معناء .

<sup>(</sup>۲) شرح أشعار الهذليين ١/٧٥.

أَرقتُ له مثلَ لمع البشير يُقلُّب بالكف فَرْضاً خفيفا (١) وهي صورة -- كما نرى -- تستمد أصباغها من ذلك اللون المشرق من حياة المغامرة التي بحياها هؤلاء الصعاليك ، ومن هنا جاءت طرافتها .

وحين يرسم أبو الطمحان صورة لشيخوخته ، يستخدم لونين من ألوان الحياة الاجماعية التي عاشها وتركت رواسبها فى تفكيره ، فالدهر قد حناه حتى صار كالصياد الماكر الذى يحنى قامته ليخنى شخصه عن صيد يدنو منه ، وهو قد أصبح قريب الخطو متثاقلا كالأسير المقيد :

حَنَتْنَى حانياتُ الدهرحتى كأنى خاتلُ يدنو لصَيْدِ قريبُ الخطويحسب من رآنى ولستُ مقيدًا أنى بقيد (١١ وهذان اللونان اللذان استخدمهما أبو الطمحان عاش فى جوهما زمناً طويلا، فليس من شك فى أن حياته صعلوكاً اتصلت بالصيد اتصالاً قريباً ، وليس من شك أيضاً فى أن حياته مستجيراً فى مكة بعد خلعه جعلته قريباً من تلك الأسواق التى تستقبل الأسرى لتنقلهم من قيود الأسر إلى قيود العبودية .

ويستخدم الشعراء الصعاليك ألوان المقامرة كثيراً في رسم صورهم التشبيهية . فالظبى المفزَّع عند أبي خراش ينطلق مسرعاً كما ينطلق القيد ح المعلم برسله الضارب بالقداح :

يَطيحُ إِذَا الشَّعْرَاء صادّت بحنبه كما طاح قِدْحُ المستفيض الموشَّمُ (٣) وصاحبه في المرقبة يظل متربصاً فوقها كأنه قدحٌ كثير الفوز قد جعل صاحبه فيه علامة لشدة اعتزازه به وحرصه عليه :

يَظل في رأسها كأنه زُلَم من القداح به ضَرْسُ وتعقيبُ (١) والصعلوك العامل الذي يمدحه عروة يظل مصدر تهديد الأعدائه مطلا

<sup>(</sup>١) ديوان الهذليين القسم الثانى /٢٩ ، وشرح أشعار الهذليين ٢/١ وقد آثرت معنى البيت كما ورد فى المصدر الأول – والفرض هنا الترس .

<sup>(</sup>٢) الأغانى ١١/١١ (بولاق) ، والسجستانى : كتاب الممرين /٦٣.

<sup>(</sup>٣) ديوان الحدليين القسم الثاني / ١٤٦.

<sup>(</sup>٤) المصدر السابق / ١٦١.

عليهم وهم يزجرونه كما يزجر المقامرون بعض قداحهم الحاسرة إذا ضربوا بها :
مُطلا على أعددانه يزجرونه بساحتهم زجر المنبيح المشهر(1)
ومن أطرف الصور التي نراها عند الشعراء الصعاليك تلك الصور التي
استخدموا في رسمها ألواناً من الحياة الاقتصادية . ووجه الطرافة في هذه الصور
هو أنها مرسومة بريشة أولئك الصعاليك الفقراء الذين ارتبطت حياتهم بهذه
الحياة ارتباطاً وثيقاً .

ولعل أطرف هذه الصور على الإطلاق ثلاث صور يرسمها صفر الغى ، بشبه فى إحداها أواخر السحب المتراكمة الثقيلة التى يتوالى بعضها فى إثر بعض بسفائن أعجمي رَست إلى بعض السواحل فأوقرَتُ من صادراته :

كأن تُوَاليَسه بالمستلا سفائنُ أُعجمَ مَا يَحْنَ ريفًا (٢) ويتصور في الثانية هذه السحب أيضاً وقد حملت من الماء ما أثقلها كأنها مقبلة من تجارة وقد حملت بضائع كثيرة اشتريت بغير حساب :

فَأَقبل منه طوالُ الذرى كأن عليهن بيعاً جزيفاً (١) ويدعو في الثالثة أصحابه إلى أن يثبتوا في القتال، ويمشوا إلى أعدائهم كما نمشى جعال الحيرة المثقلة بالبضائع التي تحملها من تلك المنطقة التجارية الغنبة:

يا قوم ليست فيهم غَفِيرَه فامشوا كما تمشى جمالُ الحِيرَه (\*) ويستغل الشعراء الصعاليك أيضاً بعض مظاهر الحياة النفسية في تشبهاتهم، على نحو ما رأينا عند الشنفرى الذي يشبه صوت قوسه بصوت الشجي الذي أثقلته همومه وأحزانه:

<sup>(</sup>١) ديوانه /٧٨ – المنيح هذا هو القلح الذي لا نصيب له .

<sup>(</sup> ٢ ) شرح أشعار الهذليين ٢ / ٤٣ ، وديوان الهذليين القسم الثانى /٦٩ ~ ما يحن أى خالطن .

<sup>(</sup>٣) المصدران السابقان : المواضع نفسها .

<sup>( )</sup> شرح أشعار الهذليين ١/٣٣ .

وصفراً من نَبع أَبِي ظهيرةً تُرن كإرنان الشجى ونهتف (١) وهي صورة نفسية معبرة برغم إنجازها وتركيز ألوانها .

ولعل أطرف هذه الصور النفسية في شعر الصعاليك تلك المصورة التي يرسمها عروة لموقف صعاليكه منه بعد أن تعهدهم حتى و أخصبوا وتمولوا فإذاهم يلتوون عليه و يتنكرون له. وهو يستخدم في رسم هذه الصورة لونا من ألوان الحياة النفسية التي تعرفها الحياة الإنسانية في مختلف عصورها : تلك الأم التي تعهدت وليدها الصغير متحملة في سبيله كل تعب وجهد ، حتى إذا تم شبابه ، وراحت تنتظر خيره ، وترتجى نفعه ، تزوج فغلبت الزوجة الأم على ابنها ، وأخذته منها تاركا أمه العجوز مكبة على حد مرفقها تشكو وتولول مما فزل بها ، وهي حائرة ماذا تفعل ، ولكنها لا تملك في النهاية إلا أن ترجع صابرة متجملة . يقول عروة مخاطباً صعاليكه :

فإنى وإياكم كذى الأم أرهنت له ماء عينيها تفدّى وتُحول فلما ترَجت نفعه وشبابه أتت دونها أخرى جديد تكحّل فلما ترَجت نفعه وشبابه تُوحوح مسا ناما وتوكول فبانت لحد المرفقين كليهما تُوحوح مسا ناما وتوكول تخير من أمرين ليسا بغبطة هوالتكل، إلا أنها قد تَجَمّل (١)

والصورة هنا صورة نفسية متكاملة الحطوط والأاوان ، دقيقة التاوين والتظليل إلى حدكبير ، ألح الشاعر فيها على المشبه به فجاءت تشبيها تمثيلينا رائعاً على حد الاصطلاح البلاغي . وقد يكون طبيعينا أن تتراءى هذه الصورة من الحياة الإنسانية لعروة ، وهو الإنسان الذي وهب حياته للعمل من أجل تلك العناصر الضعيفة في مجمتعه ، وجعل من نفسه أباً للصعاليك .

ويستخدم الشعراء الصعاليك بعض المظاهر الجسدية فى رسم صورهم التشبهية . فالمأزق الحرج الذى تسد أمام المرء جميع منافذه حتى لا يعرف له مخرجاً منه يشبه تأبط شرا بسد المنخرين . يقول فى رثاء الشنفرى:

<sup>(</sup>١) ديوانه المطبوع / ٣٨.

<sup>(</sup>۲) ديوانه /۱۱۷ ، ۱۱۸ .

وأمر كسدً المنخرين اعتليته فنفست منه والمنابا حواضر (1) وهي صورة -- على بساطتها - قوية تستمد قوتها من معرفة كل إنسان يها معرفة عملية، وتسليمه بها تسليما تجريبيًّا الأجمال المتفكير النظرى فيه، وهل يختلف اثنان في أن أشد ما يقع فيه إنسان أن تكتم أنفاسه حتى يشعر كأن صدره يوشك أن يتمزق ؟

ويشبه أبو خراش اهتزاز ثوبه البالى فى أثناء عدوه بانتفاضة الحمى:

فَعدّيتُ شيئاً والدريسُ كأنما يُزَعزعه ورْدٌ من المُوم مُرْدِمُ (٢)

وهى صورة تستمد قوتها من تلك الدقة فى اختيار المشبه به ، ومن ذلك القرب بينه و بين المشبه ، وهل هناك أقرب إلى اهتزاز الثوب وقد أخذت بصاحبه حمى العدو من انتفاضته وقد أخذت بصاحبه حمى المرض ؟

ولا يجد الشنفرى ما يشبه به رهبة الماء المخوف الذى يفتخر بوروده فى مغامراته الرهيبة مثل داء البطن الذي يخافه كل الحوف ، ويخشاه كل الحشية . يقول مخاطباً صاحبته :

وإنك لو تدرين أنْ رُبَّ مَشْرَب مَخُوف كداء البطن أو هوأخوف وردت مأثور يمان وضالة تخبَّرتها مما أريش وأرْصُف (١٣) وهي صورة نستطيع أن نشعر بما فيها من قوة وصدق في الإحساس إذا تذكرنا أن حياة الصعاليك كانت تعتمد أكثر ما تعتمد على سلامة الجسد وقوته وأنهم كانوا يفخرون بأنهم ضامرو البطون مهازيل قد نشرت أضلاعهم والتصقت أمعاؤهم ، لإيئارهم غيرهم على أنفسهم بالزاد ، ومن هنا كان أخوف ما يخافه أحدهم أي يصاب بمرض يضعفه ، ويقعد به عن تحقيق وسالته في الحباة ، وبخاصة أمراض البطن التي يصاب بها المتخمون النهمون ، والتي تعد بالنسبة لهم اتهاماً صارخاً بالتذكر لهذه الرسالة وخيانتها .

<sup>(</sup>١) ديوان الشنفري في الطرأئف الأدبية / ٢٨ .

 <sup>(</sup> ۲ ) ديوان الهذليين القسم الثانى / ۱٤٤ .

<sup>(</sup>٣) ديوانه المطبوع / ٣٨.

موضعه :

أما المنبع الثالث لأصباغ لون النشبيه عند الشعراء الصعاليك ، وهو البيئة الطبيعية ، فلعله أقل المنابع الئلائة تدفقاً فى شعر الصعاليك . ولست أرى سبباً لهذا سوى شغل الصعاليك بكفاحهم فى الحياة من أجل العيش عن التأمل فى الطبيعة ، واستغلال مظاهرها فى فنهم . وسنرى أن أصباغ هذا المنبع أقل طرافة من أصباغ المنبعين السابقين ، وأن الصور الطريفة فيه أقل منها فيهما . فظبات السهام عند عمرو ذى الكلب كشوك شجر السيال (1) ، والربئ فظبات السهام عند عمرو ذى الكلب كشوك شجر السيال (1) ، والربئ الذى يبعثه عروة ليرقب لهم الطريق يقوم فوق المربأة كأنه أصل شجرة لا يبرح

إذا ما هبطنا مَنهلا فى مَخوفة بعثنا ربيئاً فى المرابى كالعذل (٢١) وعيون رفاق تأبط شراً ، أولئك الرفاق الأبطال الشعث، كأنها نار الغضا التى تتأجيج بما يلتى عليها من أعشاب الجبال الجافة :

مساعرةً شُعثُ كأن عيونهم حريقُ الغضَا تُلقَى عليها الشقائق (٣) ويتحدث تأبط شرًا عن رجل كثير شعر الرأس متلبده لعدم عنايته به ، فيشهه بحقف الرمل الذي كثر صعود الناس عليه حتى أصبح صلباً متاسكاً: فذاك همى وغُزُوى أستغيثُ به إذا استغثتُ بضافى الرأس نَعًاق كالحقف حدًا النامون قلتُ له ذو ثَلَّتين وذو بَهم وأرباق (١) وحين يصف عروة الأسد يشبه زئيره بصوت الرعد ، ولكنه يشعر أنه تشبيه عادى مألوف ليست فيه براعة ممتازة ، فيحتال بعض الاحتيال ليضنى تشبيه عادى مألوف ليست فيه براعة ممتازة ، فيحتال بعض الاحتيال ليضنى

<sup>(</sup>١) شرح أشمار الهذليين ١/٢٥٥ بيت رقم ٢٠ وانظر / ١٩٩ من هذا البحث.

<sup>(</sup>۲) ديوانه /١١١ .

<sup>(</sup>٣) الأغاني ١٨/١٢٢ .

<sup>(</sup>ع) المفضليات / 10 - النفاق: الذي يصبح في إثر الطرائد. والحقف: المجتمع من الرمل. النامون: الذين يرتفعون إليه ويدوسونه. وحداً النامون أي داسوه وصلبوه بدوسهم إياه وصعودهم عليه. النلة: القطعة من الغنم. والبهم: أولاد الشاء. والأرباق: جمع ربق وهو حيل يجعل منه مثل الحلق تشد فيه البهم. ويقال في شرح البيتين أيضاً إنه يصف بهما قرسه. وعلى كلا المعنيين فالفكرة التي نقر رها هنا واحدة.

عليه شيئاً من الغرابة والبراعة فيقلبه ، فإذا صؤت الرعد كأنه زئير الأسد:

كأنَّ خُواتَ الرعد رزَّ زئيره من اللاه يَسكنَّ الغَريفَ بعشوالا ولعل أطرف الصور التي رسمها الشعراء الصعاليك مستخدمين أصباغ هذا المنبع تلك الصورة التي رسمها الشنفري بعموعة من الألوان المتناسئةة الزاهية ، وأجاد مزجها وعرضها إجادة رائعة ، فصاحبته طيبة الرائحة تملاً البيت عطراً ، كأن البيت أغلق على ريحانة مطلولة ، سرت إليها تسمات باردة في وقت العشاء ، فجاءت بأربجها المعطر ، وهذه الريحانة نبتت في ربوة فهي لهذا قوية الرائحة ، ثم هي ريحانة ناضجة قد خرج دَوْرُها ، وانتشر عطرها في كل جانب ، ثم هي فوق ذلك كله في بقعة خصبة كل ما حولها خصب غير مجلب :

فبننا كأن البيت حُجِّر فَوقنا برَيحانة ريحَتْ عشاء وطُلَّتِ بريحانة من بطن حَلْية نَوَّرت لها أَرجٌ ، ماحولها غير مُسْنِتِ (٢٠ على هذا النحو استغل الشعراء الصعاليك هذه المنابع الثلاثة في تأليف أصباغهم التي استخدموها في رسم لوحاتهم التشبهية .

٩

# آثار من الصنعة المتأنية :

إذا كان لون التشبيه هو أقوى الألوان التى اعتمد عليها الشعراء الصعاليك في صنعتهم الفنية ، وإذا كان هذا اللون يتفق والسرعة الفنية في شعرهم ، فإننا لا نعدم في شعر الصعاليك آثاراً من الصنعة الفنية المتمهلة المتأنية .

ولننظر فى هذه القطعة من شعر تأبط شرًّا التى سجل فيها نجاته من لحيان الذين حاصروه وهو فى غار لهم يشتار عسلا ، وهى قطعة يبدو أن الشاعر

<sup>(</sup> ١ ) ديوانه / ٥٦ .

<sup>(</sup>٣) المفضليات /٣٠٢ – ريحت : أصابتها ريح فجامت بنسيمها . وطلت : أصابها الطل . والمسنت : المجلب .

قد فرغ فيها لصنعته الفنية متمهلاً متأنياً ، والدليل الفنى على هذا أنه يبدؤها (١) أو يختمها (٢) بأبيات من الحكمة يبدو عليها أثر التفكير العقلى الهادئ الذي وعي التجربة ثم فلسفتها ، أما الدليل الواقعي فواضع من أن الشاعر قد نظم هذه القطعة بعد أن نجا من أعدائه ، وعاد إلى قومه ، واطمأنت نفسه ، ثم فرغ لفنه يسجل فيه قصته وفلسفته لها .

فحين ننظر في هذه القطعة نلاحظ أن الشاعر يستخدم في البيت الأول (٣) لوناً من ألوان المقابلة المعنوية الدقيقة الصنعة بين قوله و وقد تجد جده و وقوله و وهو مقبل و أو - كما وقوله و وهو مقبل و أو - كما يقول البلاغيون في تعييراتهم - إن الجد في الأمر مسبب عن الإقبال عليه و مناظر إلى هذه الألوان الفنية الكثيرة التي تحشدها الشاعر في هذه الأبيات الثلاثة المتتالية :

فذاك قريع الدهر ما عاش حُول إذا شد منه مَنخر جاش مَنخر أول مُعور أول للحيان وقد صَفرت لهم وطابى ، ويوى ضَيق الجحر معور أجدر هما خُطنا إما إسار ومنة وإما دم ، والقتل بالحر أجدر أجدر انظر كيف جسم الدهر فجعله جباراً لا يزال يقرع المرء بنوائبه حتى يصبره مجرباً بصبراً حازماً ، وكيف مثل براعة المرء فى الاحتيال إذا أخذ عليه طريق نفذ إلى آخر بتلك الصورة الحسية ، صورة المرء و إذا سد منه منخر جاش منخر و وكيف مثل إشرافه على الهلاك بقراغ وطابه ، وكيف جعل يومه الحرج ضيق الجحر معورا ، ثم كيف خم هذه الألوان الفنية المحتشدة بهذا التذبيل الذي يجرى بجرى المثل ، كما يقول البلاغيون في اصطلاحاتهم في باب الإطناب ، ثم يمضى الشاعر في أبياته مستخدماً لون المطابقة مرة أخرى بين و مورد ومصدر و ، ولكنها مطابقة لفظية مألوفة في الأساليب الجاهلية بين و مورد ومصدر و ، ولكنها مطابقة لفظية مألوفة في الأساليب الجاهلية

<sup>(</sup>١) في رواية الحاسة ١/٢٨ .

<sup>(</sup>٢) في رواية الأغاني ١٨ / ٢١٥ .

<sup>(</sup> ٣ ) فضلنا ترتيب الجامة على ترتيب الأغانى لأنه أقرب إلى طبيعة فكرة القصيدة .

حتى لتوشك أن تكون روسهما (١١ يطبعه الشاعر في كل مناسبة يحتاج فيها إليه. ولكنه يعود إلى صنعته الفنية الدقيقة فإذا هو يفرش صدره لخطته التي استقر عليها ، وإذا الموت ينظر إليه خزيان من عجزه عنه ، وإذا القبائل التي يفارقها تصفر أسفاً على إفلاته منها . وهكذا يفرُغ الشاعر من رسم لوحته التي استخدم في تلوينها أكثر ما استخدم ذلك اللون العميق من ألوان الصنعة الفنية المتمهلة المتأنية ، وهو الاستعارة .

وهذه الآثار من الصنعة الفنية المتمهلة المتأنية تتردد من حين إلى حين فى غاذج شعر الصعاليك. فالمنية فى ذهن أبى الطمحان ناقة يسوقها إلى الإنسان دليل بارع لا يضل ، ولكن أبا الطمحان لا يرسم لوحته بهذه الألوان الواضحة، وإنما يعتمد على والتظليل ، فى إخفاء بعض جوانبها إخفاء فنياً رائعاً ، فإذا المشبه به قد أخنى وراء هذه الظلال الفنية الجميلة ، ولكن الشاعر يشير إليه ببعض خصائصه ، أو - كما يقول البلاغيون - و بشيء من لوازمه ، وإذا الموحة التي يرسمها لفكرته تعتمد على الظل أكثر مما تعتمد على النور - كما يقول أصحاب الرسم - أو تعتمد على الاستعارة المكنية - كما يقول أصحاب الرسم - أو تعتمد على الاستعارة المكنية - كما يقول أصحاب الرسم - أو تعتمد على الاستعارة المكنية - كما يقول أصحاب الرسم المناه الرسم المناه المناه

لو كنتُ فى رَعَانَ تَحرُّسُ بابه أَراجِيلُ أَحبوشٌ وأَغضفُ آلفُ إِذَنْ لأَنتنى حيثُ كنتُ منينى يَخب بها هاد بأَمرى قَائف (١) وصديق تأبط شرَّا إذا هر سيفه فى عظام أعدائه ضحك الموت سروراً عما تحصل عليه من أرواح ، حتى لتبرق أسنانه من شدة ضحكه :

إذا هَزه فى عَظْم قِرْن تَهللت نواجذُ أَفواه المنايا الضواحِك (٣) والعملية الفنية هنا عملية مركبة معقدة تقوم على استعارتين: استعارة فى • تهللت ، تقوم على تشبيه بريق الأسنان عند الضحك بلمعان البرق ، واستعارة

<sup>(</sup>١) الروسم : الطابع يطبع به ( انظر القاموس المحيط : مادة – رسم --) .

<sup>(</sup>٢) الأغانى ١١/١١ (بولاق).

<sup>(</sup>٣) حاسة أبي تمام ١ /٤٩ .

في ﴿ المنايا ﴾ تقوم على تشبيهها بإنسان يضحك .

وأحكام الإسلام وقيوده عند أبى خراش سلاسل تطوق رقاب الصعاليك الذين أسلموا ، ولكن أبا خراش يريد أن يكون مهذباً فى تعبيره ، فيخنى لفظة الإسلام وراء ظلاله الفنية ، ويركز الضوء على المشبه به وهى السلاسل على طريقة الاستعارة التصريحية التى يرشح لها ببعض خصائص المشبه به وهى الإحاطة بالرقاب :

فليس كعهد الداريا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل<sup>(۱)</sup> ولكن هذه الصنعة الفنية المتمهلة المتأنية برغم قوة أنغامها ورنين أصدائها — قليلة لا تكفي لتكوين مذهب فني خاص نبيح لأنفسنا أن نجعله من خصائص شعر الصعاليك .

و إلى جانب هذه الصنعة الفنية العميقة الدقيقة نجد آثاراً ضئيلة لصنعة فنية بسيطة زاهية ، هي بعض الألوان البديعية.

وقد رأینا أمثلة من الطباق فی رائیة تأبط شرا النی عرضنا لها منذ قلیل ، وحین ننظر فی سائر شعره نجد أمثلة أخری ، فنی قوله :

قليلُ التشكى للمهمَّ يصيبه كثيرُ الهوى شتى النوى والمسالكُو<sup>(١)</sup> نجد طباقاً لفظيًّا ساذجاً بين وقليل، و وكثير،

وى قوله من القصيدة نفسها:

يَرَى الوحشةَ الأنسَ الأنيس ويهتدى بحيثُ اهتدت أمالنجوم الشوابك (٣) نجد طباقاً لفظينًا آخر بين و الوحشة ، و و الأنس .

وفي قول أبي الطمحان :

نَمتُ بكُ من بني شُمّخ إزياد لها ما شئت من فرع وأصل(1)

<sup>(</sup>١) ديوان الهذليين القسم الثاني /١٥٠ .

٤٧/١ حاسة أبى تمام ٢/١٤ .

<sup>(</sup>٣) المصادر السابق / ٤٩ .

<sup>(</sup>٤) الحاحظ : الحيوان ١/ ٢٨٠ .

نجد ذلك الطباق اللفظى الذى تبدو عليه الصبغة العقلية بين « فرع » و « أصل » .

وفی تائیة الشنفری المشهورة نجد أمثلة أخری من الطباق ، مثل و دقت و و وجلت »(۱) ، و وحلو » و و مر ه<sup>(۲)</sup> .

وليس الطباق هو اللون البديعي الوحيد في شعر الصعاليك ، بل هناك ألوان أخرى كالجناس الذي نرى مثلا منه في بيت تأبط شرا السابق و قايل التشكي » بين و الهوى ، و و النوى ، و بين قافية هذا البيت وقافية البيت الذي يليه ، و المسالك ، و و المهالك ، و بين و نحيضا ، و و نحيفا ، في قول الأعلم :

وقد ح يخور خوار الغزا ل ركبت فيه نَجِيضاً نحيفا (١٦) كما نرى أمثلة أخرى في قوافي لامية أبي خراش حيث تنتابع أبياتها الأولى هكذا: قليل . جليل ، جميل ، عقيل ، مقيل ، ثقبل (١٤) ، مؤلفة أمثلة منتابعة من الجناس اللفظى الناقص ، بين قوافي البيتين الأول والثاني ، ثم الثاني والثالث ، ثم الرابع والخامس والسادس .

كما نرى أمثلة غيرها فى شعر أبى خراش أيضاً بين « العقم » و « الرقم » و بين « جاجة » و « عاجة » فى بيتين متناليين من ميمية له (٥) .

كما فلاحظ مثلا من جناس الاشتقاق في قول الأعلم يصف الرعد:

أَجشَّ ربَحُلاً له هيدَبُّ يكشَّفُ للخال رَيطاً كَشيفاً (١٦) والشيء الذي لا شك فيه هو أن أكثر هذه الألوان البديعية لم يقصد إليها

<sup>(</sup>١) البيت ١٢ من القصيدة في المفضليات / ٢٠٢ .

<sup>(</sup>٢) البيت ٢٣ من القصيدة في المصدر نفسه /٢٠٧

 <sup>(</sup>٣) شرح أشمار الهذايين ١/٤٩ - التحيض هذا : السنان الوقيق ، من تحض السنان
 إذا رقفه .

<sup>(</sup>٤) ديوان الحَدُليين القسم الثاني /١١٦ ، ١١٧ .

<sup>(</sup> ه ) ديران المذابين القسم الثاني / ١٢٩ .

<sup>(</sup>٦) شرح أشعار الهذليين ٢/١٤ - الربحل : الضخم الطويل . والحال هذا : السحاب لا يخلف مطره أو البرق . والريط : جمع ريطة وهي الملاءة من نسج واحد وقطعة وأحدة ، أو كل ثوب لين رقيق .

الشعراء الصعاليك قصداً ، وإنما جاءت عفواً فى أثناء تعبيراتهم ، إذ أن هذه الألوان التي تعتمد على نوع من التلاعب اللفظى لم تكن بالألوان الفنية التي يحرص عليها الشعراء الجاهليون ، أو التي يقصدون إليها قصداً متعمداً ، أو التي يتخذون منها أسساً لمذاهبهم الفنية .

١٠

## الخصائص اللغوية :

حين تنظر في مجموعة شعر الصعاليك لنتين خصائصها الغوية فإن أول ما نلاحظه على لغتهم أنها هي اللغة الأدبية التي عرفها العصر الجاهلي بكل ما نعرفه عن هذه اللغة من خصائص ، وهذه ظاهرة طبيعية ليس من الصعب تعليلها ، فإن الشعراء الصعاليك ، مهما يبلغ بهم الأمر في الحروج على تقاليد عتمعهم الأدبي من ناحية موضوعات شعرهم ، أو معانيه ، أو خصائصه الفنية ، فما هم بقادرين على الحروج عليه من ناحية لغتهم ، لأن هذا الجانب اللغوى هو العامل المشترك بينهم وبينه ، والوسيلة الأساسية للتفاهم بينهم وبين أفراده ، أو بعبارة أخرى - هو و العملة » التي اتفق المجتمع الأدبي على أنها أساس التبادل الفكري بين أفراده جميعاً سواء منهم المتوافقون معه أو الحارجون عليه ، وبدون هذه و العملة » يصبح عمل الشعراء الصعاليك الفني عملا و مزيفاً » لا يصلح للتداول ، أما تلك الجوانب الأخرى من العمل الفني : الموضوعات والمعاني والحصائص الفنية فإنها الجوانب الشخصية فيه التي يستطيع كل أن أن يتصرف فيها كما يشاء .

ولكن يبدو أننا بجب أن نقيد هذا الكلام قليلا، فإن للمسألة جانباً آخر بجب ألا نغفله ، فنحن نعرف أن الشعراء الصعاليك قد خرجوا على مجتمعهم القبلى ، وانطلقوا إلى أعماق الصحراء النائية مشردين . ومعنى هذا أن صلة الشعراء الصعاليك بالمجتمع الأدبى من حولم لم تكن صلة دائمة مستمرة ، أو - بعبارة

أخرى - أن المجتمع الأدبى من حولهم لم يكن على صلة دائمة مستمرة بهم . ونتيجة هذا من الناحية اللغوية أمران :

الأول أن لغة الشعراء الصعاليك أقرب إلى فطرة اللغة العربية ، وأصدق تمثيلا لها ، إذ هي صادرة من منابعها الأولى قبل أن تؤثر فيها تلك التيارات الاجتماعية وغير الاجتماعية التي تؤثر في اللغات . ولسنا فدعى أن لغة سائر الشعراء الجاهليين لا تمثل فطرة اللغة العربية ، ولكن الذي فقرره هو أن لغة الشعراء الصعاليك أقرب إلى فطرة اللغة العربية ، وأصدق تمثيلا لها من ماثر الشعراء الجاهلين .

ولعل هذا هو السبب في كثرة ما يرد من شعر الصعاليك في المعاجم اللغوية ، وفي اللغوية ، واعتماد أصحاب هذه المعاجم عليه في تكوين مادتهم اللغوية ، وفي لسان العرب وتاج العروس مجموعة كبيرة من أبيات الشعراء الصعاليك ، وقد رأينا أن المجموعة اللغوية تعد من المصادر الأساسية لشعر الصعاليك ، أو بعبارة أخرى - أن شعر الصعاليك من المصادرالأساسية للمجموعة اللغوية .

والأمر الثانى كثرة الغريب فى شعرهم ، حتى ليشعر الناظر فيه أحياناً أنه أمام مجموعة من الطلاسم اللفظية ، يضطر أمام كل لفظ منها إلى الرجوع إلى المعاجم المطوّلة ، لأن المعاجم المختصرة لا تسعفه ، ويكفى أن نقرأ هذه الأبيات لتأبط شرا :

وحَثَحَثْتُ مَشْعُوفُ النَّجَاءُ كَأَنَى مِنَ الحُصُّ هُزْرُوفُ كَأَنَ عَفَاءَهُ أَزَجُ ذَلُوجٌ هَذْرُقُ كَأَنْ عَفَاءَهُ أَزْجُ ذَلُوجٌ هَذْرُقُ زَفَازُفُ أَزْجُ ذَفَازُفُ أَوْجُ هَذْرُقُ لَوْ أَيْضًا :

وشِعْبِ كَشَلَ الثوب شَكْس طريقه به من سيول الصيف بيض أقرها

هَجَفُّ رأَى قصرًا سِمَالاً وداجنا إذا استندر جَ الفيفا ومد المغابنا هِزَفُ يبذ الناجيات الصوافنا(١)

مجامع صُوْحيه نطاق محاصر مُجاد له م الصخر فيه قَرَاقر(٢)

<sup>(</sup>١) أَلَاعَانَى ١٨/٢٨ وَأَنْظُر صَ ٢٢١ مِنْ هَذَا البِحْثُ .

 <sup>(</sup>۲) الأصمعيات /۳۵. والبيت الثانى في لمان العرب مادة (جبر) وفيه و به من فيجاء الصيف و وانظر: من ٢٤٢ من هذا البحث.

أو هذه الأبيات للأعلم :

فشايعٌ وَسطَ، ذُودك مستقنًّا عشنزرة جواعرهسا ثمان تراهسا الضبع أعظمهن رأسا أو هذه الأبيات لأبي الطمحان :

مْأُصِحِن قدأَقْهَيْنَ عَني كما أبت

أو هذا البيت لحاجز :

خُضَاخِضَةً بخَضِيع السيو

لتحسب سيدًا ضَبعاً تنولُ فويى زُمَاعها خَدَم حُجول جُراهمة لها جِرةً وثيل(١)

حياض الإمدان الهجان القوامح (٢)

ل قد بلغ الماء حِذْفارها<sup>(٣)</sup>

أو هذا البيت للأعلم : والحنطى الحِنطي يُم شَجُ بالعظيمة والرغائب(١)

يكني أن نقرأ هذه الأبيات، وأمثالها كثير في شعر الصعاليك، لتبدو لنا هذه الغرابة اللفظية التي انبعثت من أعماق الصحراء حيث كان يعيش هؤلاء الصعاليك مشردين .

والحق أن هذه الُغرابة قد شعر بها رُواة شعر الصعاليك وشراحه ، كما شعر بها اللغويون أيضاً ، فصرحوا بأنهم لا يعرفون طائفة من ألفاظه ، أو بأنها لم ترد إلا فيه ، أو بأنها ألفاظ نادرة . ويصرح الأصمعي بأنه لا يعرف و سحاليل ، في قول الأعلم يصف جراء الضباع:

سسود سحساليل كأن جلودهن ثياب راهب (٥) ويذكر السكرى عند تفسيره لقول صخر الغي :

<sup>(</sup>١) شرح أشعار الهذليين ١/٩٣، ٦٤. ولسان العرب : مادة (قنن) ومادة (جمر) ومادة (عشزر) .

<sup>(</sup> ٢ ) لسان العرب: مادة (قها) .

<sup>(</sup>٣) ابن درید : جمهرة اللغة ١/٠٤٠ .

<sup>( 2 )</sup> شرح أشعار الهذليين ١ /٥٩ . ولسان العرب مادة ( حنطاً ) وفيه و يمنح يه مكان و پخج ۽ .

<sup>(</sup> ٥ ) شرح أشمار الهذليين ١ / ٧٥ . وديوان الهذليين القسم الثاني / ٨٠ .

فلا. تقعدَنَ على زُخَّة وتضمر فى القلب وَجدًا وخيفا أنه لم يسمع وزخة ، فى شيء من كلام العرب ولا فى أشعارها إلا فى هذا البيت (١) ، وكذلك يذكر الأضمعي عن هذه الكلمة (٢) .

ويروى صاحب لسان العرب أن « الخيعابة» بمعنى الردىء لم يسمع إلا فى قول تأبط شرا :

ولا خَرع خَيْعَابَة ذى غوائل هَيَام كَجَفَّر الأَبطح المتهيِّل اللهُ ولا خَرع خَيْعَابَة ذى غوائل هيام كَجَفَر الأَبطح المتهيِّل اللهُ ويذكر الأَزهرى أن والمكدل عمنى المكدر قد أهمله اللبث ، ثم يقول ووجدت أنا فيه بيتاً لتأبط شراه (٤) .

ویذکر ابن سیده أنه یقال رجل ترعیه لمن صناعته وصناعهٔ آبائه الرعایه ، أما تیرعی بغیر هاء فإنه نادر ، وقد ورد فی قول تأبط شرا :

ولستُ بنرُعى طويل عَشَاوَه يونفها مستأنف النبت مُبهل (٥) ومن الأدلة على هذه الغرابة أيضاً اختلاف اللغويين حول معانى بعض الألفاظ، فقد اختلفوا مثلا حول معنى والمسترعل ، في قول تأبط شرا:

متى تبغنى ما دمتُ حيا مسلَّما تجدنى مع المسترُّعِل المتَعَبِّهِل فقالوا إنه الذى ينهض فى الرعيل الأول ، وقيل هو الخارج فى الرعيل ، وقيل هو الخارج فى الرعيل ، وقيل هو قائد الفرسان كأنه يستحبُها ، وفسره ابن الإعرابي بأنه ذو الإبل ، ولكن ابن سيده يذكر أن هذا التفسير ليس يجيد (١) .

وقد اختلفوا أيضاً في معنى لفظة « زخة » التي وردت في بيت صخر الغي السابق ، فالسكري والأصمعي يذكران أنها الغيظ (٢)، واللحياني فيها يرويه

<sup>(</sup>١) شرح أشعار الهذليين ١/٢٦.

<sup>(</sup>٢) ديوان الهذليين القسم الثاني /٧٤.

<sup>(</sup>٣) لمان العرب: مادة (خعب) .

<sup>( 1 )</sup> لسان العرب: مادة ( كدل ) .

<sup>(</sup>ه) لسان العرب : مادة (رعي) .

<sup>(</sup>٦) لسان المرب : مادة (رعل) .

<sup>(</sup>٧) شرح أشعار الهذليين ١/٢٦. وديوان الهذليين ٧/٧٤.

صاحب الأمالي يذكر أنها الدفعة (١) .

ويذكر صاحب اللسان في قول تأبط شرا :

ولا حَوْقل خَطَّارة حول بيته إذا العِرْس آوى بينها كلَّ خَوْنَلِ وقل في تفسيره: المحوتل الظريف، ويجوز عندى أن يكون من المحتل الذي هو الحديمة بني منه فوعلا و (٢)، وعبارة صاحب اللسان الأخيرة تشعر بأن هذه الكلمة قد تكون من اشتقاق تأبط شرا.

ولعل عروة بن الورد أقل الشعراء الصعاليك إغراباً من الناحية اللغوية ه ولعل مبب هذا أن عروة كان يقوم في حركة الصعلكة بدور الزعيم الشعبي الوصاحب المذهب الذي يدعو الجماهير إلى اعتناق مذهبه ، فكان طبيعياً أن يتبسط في الحديث إلى جماهيره باللغة التي يألفونها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم يكن عروة بالصعلوك الذي اعتزل مجتمعه ، وعاش بين حيوان الصحراء ووحشها ، كما كان يفعل غيره من الصعاليك ، وإنما كان إنساني بكل ما في الإنسانية من معان ، يحرص على الاتصال بمجتمعه الإنساني والعمل من أجله ، ومن هنا خلصت لغته من تلك الحوشية البدوية التي نلاحظها عند غيره من الشعراء الصعاليك ، وبخاصة تأبط شراً والشنفرى .

11

### ظواهر عروضية :

إذا نظرتا بعد ذلك فى مجموعة شعر الصعاليك لنتبين خصائصها العروضية فإننا ثلاحظ أن الأوزان التى صاغ فيها الشعراء الصعاليك شعرهم هى الأوزان نفسها التى عرفها سائر الشعراء الجاهليين : الطويل ، والبسيط ، والوافر ، والكامل ، والمتقارب ، وأمثال هذه البحور التى ترددت فيها أنغام الشعر الجاهلي .

<sup>(</sup>١) القالى: الأمالى ١/٢٢٢ ، ٢١٣ .

<sup>(</sup>٢) لسان العرب : مادة (ختل) .

كما تلاحظ فى شعرهم الذى جاء من بحر الطويل ذلك الزحاف الشائع فى الشعر الجاهلي فى هذا البحر ، وهو حذف ياء ، مفاعيلن ، ونون ، فعولن ، وتحول التفعيلة إلى ، مفاعلن ، و « فعول ، وهو ما يسميه العروضيون ، القبض ، وذلك مثل قول تأبط شرا :

تقولُ تركت صاحباً لك ضائعاً وجئت إلينا فارقاً متباطنا إذا ما تركت صاحبى لثلاثة أو اثنين مثلينا فلا أبت آمنا(١) ومثل قول الشنفرى:

فواكبدًا على أميمة بعدما طمعتُ فهبهانعمةالعيش زَلَّت (٢) ومثل قول الأعلم :

أَحُبشِى إنا قد يمتعنا الغنى بأموالنا نريحها ونسيمها ونحبسها على العظائم نتقى بها دعوة الداعين، إنا نقيمها إذا النفساء لم تخرس ببكرها غلاماً ولم يسكت بحتر فطيمها (١٣) ومثل قول أبى خراش:

كأن النضى بعدما طاش مارقاً وراء يدّيه بالخلاء طَميل كأن النضى بعدما طاش مارقاً وراء يدّيه بالخلاء طميل والأمثلة على هذه الظاهرة العروضية أكثر من أن تعد ، فهى منتشرة فى شعرهم انتشاراً واسعاً ، ويكنى أن ننظر مثلا فى تائية الشنقرى المفضلية لنتبين مدى هذا الانتشار ، ففيا عدا أبياتاً قليلة منها تنتشر هذه الظاهرة فى كل بيت من أبياتها .

كما فلاحظ أيضاً انتشار تلك العلة الجارية مجرى الزحاف التي تنتشر أيضاً في سائر الشعر الجاهلي . وهي إسقاط أول الوند المجموع من « فعولن »

<sup>(</sup>١) الأغاني ١٨/٢٢٢ .

<sup>(</sup>٢) المفضليات / ٢٠٠٠ .

<sup>(</sup>٣) شرح أشعار الهذليين ١/٢٧. وانظر من ١٤٠ من هذا البحث.

<sup>( )</sup> ديوان الحذليين ٢ / ١٢١ - النضى : السهم بلا فصل ولا ريش . والطميل : السهم لطخه ألدم .

فى أول القصيدة أو المقطوعة فتتحول إلى و فعلن ، وهو ما يسميه العروضيون و الحرم و . وذلك مثل قول حاجز :

إِنْ تَذُكروا يوم الْقَرَى فَإِنْهِ بُوَاءٌ بِأَيَامِ كَثَيْرٍ عَدَيْدُهَا (١) وقول آبي الطمحان :

لو كنتُ فى رَبمان تحرُس بابَه أَراجيلُ أُحبوشُ وأَغضَفُ آلفُ (٢) وقول الشنفرى :

لا تقبُرونَى إن قبرى محرَّم عليكم ولكنْ أبشرى أم عامر (٣) وهى ظاهرة منتشرة أيضاً فى شعر الصعاليك انتشارها فى سائر الشعر الجاهلى .

ولكن هناك ظاهرة عروضية تلفت النظر فى شعر الصعاليك وتستحق التسجيل ، وهى انتشار الرجز قبيل مصارعهم ، ولعل السبب فى هذا سهولة هذا الوزن ، واتفاقه مع حركات القتال . وقد لتى كثير من الصعاليك مصارعهم فى أثناء قتالهم مع أعدائهم ، وسقطوا فى أثناء هذا القتال شهداء الفكرة التى عاشوا من أجلها .

وحين تنظر في شعر الصعاليك الذي قالوه قبيل مصارعهم نجد أن كثيراً منه كان رجزاً. فقيس بن الحدادية يقاتل أعداءه وهو يرتجز حتى يقتل (أ) ، والشنفرى في ساعته الأخيرة حين يضرب أعداؤه يده فيقطعونها يرثيها رجزاً (أ) ، وصخر الغي حين يحيط به أعداؤه في ساعته الأخيرة يرتجز حائباً أصحابه على الثبات معه وعدم الفرار حتى لتبلغ أراجيزه في هذه الفترة الحرجة من حياته خساً (۱).

<sup>(</sup>١) الأغانى ١٦/١٥ (بولاق) - البواء: السواء والكفء، من باء دمه بدمه إذا عدله .

<sup>(</sup>٢) الأغاني ١١/٢٢١ (بولاق).

<sup>(</sup>٣) الأغاني ٢١/٢١ .

<sup>( )</sup> الأغان ١٢ / ٨ ( بولال ) .

<sup>(</sup> ه ) الأغانى ٢١ / ٢٤ . وشرح ابن الأنباري على المفضليات/١٩٩ .

<sup>(</sup>٦) شرح أشعار الحذليين ١/٣٦-٣٣.

-

ومع ذلك فلعمرو ذى الكلب (١) أرجوزة طويلة يقص فيها قصة طريفة ، هى غارة ذئب فاتك على غنمه ، ورميه بسهم من سهامه يلقيه صريعاً وقد اختضب بعضه من بعض بدم ، كما يقول فى نهايتها (٢) . ولعلها رمز لذلك الصراع الدامى بين طبقة الصعاليك المظلومة وطبقة الرأسمالية الظالمة ، وانتصار الصعاليك فى النهاية فى هذا الصراع .

<sup>(</sup>۱) وَدُوى الْأَبِى خَرَاشَ ، وَدُوى لرجل من هَذَيَلَ غَيْرِ مسمى (شرح أَشَمَارِ الْهَذَلَيْيِنَ (۲۲۹/۱).

<sup>(</sup>٢) شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٩ ، ٢٤٠ .

# الفصل *الرابع* شخصيتان متميزتان

١

#### تشابه وتميز:

رأينا أن صعاليك العرب سلكوا جميعاً أسلوباً واحداً في الحياة ، آمنوا بأنه الأسلوب الوحيد الذي يستطيعون به أن يرفعوا عن كواهلهم ما وضعته فوقها ظروف مجتمعهم الجغرافية ، وتقاليده الاجتماعية ، وأوضاعه الاقتصادية ، من ضم وهوان ، وهو ذلك الأسلوب الذي جعلنا شعاره « الغزو والإغارة للسلب والنهب » .

ورأينا أن صعاليك العرب جميعاً ، سواء منهم الحلعاء أو الأغربة أو الفقراء المتمردون ، قد تخلصوا من فكرة • العصبية القبلية • وشقوا طريقهم فى الحياة دون تقيد بقبائلهم ، أو رجوع إليها ، أو حرص على رضاها ، حتى أولئك الذين ظلوا على صلة بقبائلهم ، أو بتعبير أدق \_ بمنازل قبائلهم ، لم تكن حركاتهم مرتبطة بالحياة الاجتماعية العامة فى قبائلهم .

ورأينا أن مرد هذا إلى إحساس هؤلاء الصعاليك بأنهنم مهضومو الحق ، مستضعفون فى الأرض ، وما نشأ عن هذا الإحساس بالضعة ، وعن هذه الرغبة فى التسامى ، من «مركب نفسى » ، اتجه بهم إلى التمرد .

وليس من الطبيعى أن تكون كل شخصيات صعاليك العرب قد فنيت في هذه و العصبية المذهبية ، التي استعاضوا بها عن و العصبية القبلية ، وإنما الطبيعى أنه برغم هذا التشابه في جماعة الصعاليك، يوجد تميز بين شخصياتهم ، ققد رأينا أن أساس حركة الصعلكة قوة النفس ، وأن قوامها مقدرة الفرد على الوقوف في وجه المجموع .

ومن الطبيعى تبعاً لهذا أن يختلف موقف الصعاليك من هذه الحركة التي وهبوا لها حياتهم . ونستطيع في مهولة أن نلحظ شخصيتين متميزين نرد إليهما جماعة الصعاليك : فهناك تلك الشخصية المتمردة التي رأت في هذه الحركة فرصة سانحة تظهر فيها بطولتها الفردية ، وتستغلها إلى أبعد حد في إرضاء ما في نفسها من نزعة شريرة ، تصبغ حياتها كلها بلون من الدم الأحمر القاني محبب البها ، لا يرضبها إلا أن ثرى تلك الرءوس اليانعة ، رءوس الأغنياء المترفين ، تتطاير تحت ضربات سيوفها ، وذلك المال الذي يملكونه ينهب ، بل هي لا تبالى في سبيل ذلك بأن توجه حركاتها المتمردة الشريرة ضد أية جماعة من الناس لا ترضى عنها . وإلى جانب هذه الشخصية التي رأت أن يكون تمردها وسيلة لغاية السانية معينة ، هي رفع الظلم عن المظلومين ، وحماية المستضعفين من ضيم السادة الأقوياء ، وتهيئة الفرصة للفقراء المهضومة حقوقهم ليشاركوا سائر أفراد عجمعهم في حياة اجتماعية كريمة عن طريق إحداث نوع من العدالة الاجتماعية وطبقة الصعاليك ، بما تنهه من الطبقة الأولى لتوزعه على الطبقة الأخرى . وطبقة الصعاليك ، بما تنهه من الطبقة الأولى لتوزعه على الطبقة الأخرى .

وحين ننظر في مجموعة صعاليك العرب نجد أن أشهر من يمثل هذه الشخصية الأخرى عروة بن الورد ، أبو الصعاليك ، الذي أخذ على عاتقه من الناحية الاجتماعية أن يحقق هذه العدالة الاجتماعية وهذا التوازنالاقتصادى، ومن الناحية الفنية أن يقف موقف الداعية صاحب المذهب الذي يتخذ من شعره وسيلة للدعاية إلى مذهبه .

أما الشخصية الأولى فإن أفرادها أكثر من أن يحصوا ، لأنها تمثل طائفة المتمردين من فتيان المجتمع الجاهلي ، وما أكثرهم ! ولعل الشنفوى من أصلح ممثلي هذه الشخصية للدراسة الاجتماعية ، نظراً لإمعانه في التمرد والشر ، حتى ليذكر الرواة أنه آلى على نفسه ليقتلن مائة من بني سلامان بسبب لطمة لطمتها له إحدى فتياتهم ، ولعله أصابح ممثلي هذه الشخصية للدراسة الفنية لأن له بين الدراسة الفنية لأن له بين الدراسة الفنية المناه السمالياك

أيدينا ديواناً مستقلا نستطيع أن نضعه في الكفة الأخرى من الميزان أمام ديوان عروة ت

۲

#### عروة بن الورد:

ینهی نسب عروة إلی قبیلة عبس ، فهو عروة بن الورد بن زید<sup>(۱)</sup> بن عبد الله بن ناشب بن هُرِیم بن لُدیم بن عوذ بن غالب بن قطیعة بن عبس (۲) ، فهو من هذه الناحیة فی شرف من قبیلته ، ولکن أباه کانت عبس تتشاءم به ، لانه هو الذی أوقع الحرب بینها و بین فزارة بمراهنته حذیفة (۱) .

أما أمه فليس فيا بين أيدينا من أخباره ما يشير إليها ، ولكن عروة نفسه قدكفانا مشقة البحث عنها ، فهو يذكر في شعره أنها من نهد<sup>(2)</sup> من قضاعة <sup>(6)</sup> ، ولكن الشيء الذي يلفت النظر في حديث عروة عن أمه أنه دائم السخط على هذه الصلة التي ربطت بين أبيه وأمه <sup>(1)</sup> ، بل إنه يهجو أخواله هجاء مراً <sup>(۷)</sup> ، ولعل من أسباب هذا أن قبيلة نهد كانت أقل شرفاً من عبس <sup>(۸)</sup> ، أو ربما كانت هناك أسباب أخرى لم تصل إلينا أخبارها .

<sup>(</sup>١) وقيل ابن عمرو بن زيد (الأغانى ٣/٣).

<sup>(</sup>۲) المصدر السابق : الصفحة نفسها . وفي شرح التبريزي على حماسة أبي تمام ه عروة ابن الورد بن حابس بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن سفيان بن هرم بن عوف بن غالب بن قطيعة ابن عبس ه (۸/۲) وفي تاريخ اليعقوبي و عروة بن الورد بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن سفيان ابن هرم بن عوف بن غالب بن قطيعة بن عبس ه (۲۰۹/۱).

<sup>(</sup>٣) الأغاني ٢/٨٨ .

<sup>( 1 )</sup> ديوانه /١٥٧ البيت الأول .

<sup>(</sup> ه ) المرد : رسالة عددان وقحطان / ٢٤ .

<sup>(</sup>١) دبرانه /١٥٨ ، ١٥٨ .

<sup>(</sup>٧) المعدر البابق /١٥٧ .

The Ency of Islam; art. Urwa b. al-Ward. (A)

ولعل هذا الإحساس الذي سيطر على نفس عروة بأن أمه أقل شرفاً من أبيه هو الذي جعله ينسب كل ما يحسه من عار إلى تلك الصلة التي تربطه بأخواله النهديين (١).

ومعنى هذا أن عروة قد وضع منذ نشأته الأولى بين شتى الرحى ، فأبوه تنشاءم منه قبيلته ، وأمه من قبيلة أقل شرفاً .

وليس لدينا عن نشأة عروة الأولى سوى خبر واحد ، ولكنه قوى الدلالة على تلك الظروف الأولى التى جعلته يشعر بالظلم شعوراً قويناً سيطر عليه فى كل مراحل حياته بعد ذلك ، كما أنه قوى الدلالة على قوة نفسه التى بدأت براعمها فى الظهور منذ وقت مبكر . فنى الأخبار أنه كان له أخ أكبر منه وكان أبوه يؤثره عليه فيا يعطيه ويقربه ، « فقيل له : أتؤثر الأكبر مع غناه عنك على الأصغر مع ضعفه ؟ قال : أترون هذا الأصغر ؟ لئن بتى مع ما أرى من شدة نفسه ليصيرن الأكبر عيالا عليه » (١) .

ومعنى هذا أن عروة تفتحت عيناه فى الحياة على صورة مختلة التوازن من صورها: صورة الأخ الأكبر الذى يؤثره أبوه مع غناه عنه ، وإلى جانبها عبورة الأخ الأصغر الذى يهمله أبوه مع ضعفه وساجته إليه . ألبست هذه الصورة هى التى شاهدها عروة بعد ذلك فى المجتمع الذى يعبش فيه فى مجال أوسع: الأغنياء الذين تؤثرهم الحياة بكل شىء مع غناهم ، وإلى جانبهم الفقراء الذين تحرمهم الحياة من كل شىء مع شدة ساجتهم وضعفهم ؟

وهكذا بدأت براعم فلسفة عروة الاجتماعية والاقتصادية في الظهور في هذه السن المبكرة .

وما إن تتقدم الآيام بعروة حتى تتفتح هذه البراعم عن فلسفة ناضجة ، يؤمن بها كل الإيمان ، ثم يأخذ في تنفيذها والدعوة إليها بكل قوة وحماسة .

 <sup>(</sup>۱) وما بى من عار إخال علمته سوى أن أخوالى إذا نسبوا تهد
 (ديوانه /۱۵۷).
 (۲) الأغانى ۲/۸۸.

ومن الطبيعي أن تجد دعوته آذاناً صاغية ، وقلوباً مؤمنة ، وأنصاراً مخلصين بين أولئك الفقراء المستضعفين الذين أجهدهم الفقر وأهزلم الجوع ، وأذلتهم الأوضاع الاجتماعية ، وسدت الحياة في وجوههم سبل العيش الحر الكريم ، فالتفت حوله طوائف من الصعاليك ، يخرج بأقويائهم فيغير ، ثم يوزع الغنائم على من أغار بهم ، وعلى من تخلف عنه من المرضى والضعفاء أيضاً ، فريما عاد كل منهم إلى أهله وقد استغنى (1) .

وقد عرف الصعاليك في عروة هذه النفس الإنسانية القوية فكانوا إذا أصابتهم السنة أتوه و فجلسوا أمام بيته حتى إذا بصروا به صرخوا وقالوا : يا أبا الصعاليك ، أغثنا ، فيخرج ليغزو بهم (٢).

وقد عرف عروة لهذه و الأبوة ، على حد تعبير هؤلاء الصعاليك الذين كان يسميهم وعياله ، (٢) ... أو لهذه و الزعامة » ... كما يصبح أن نطلق عليها .. حقوقها . فلم يكن يؤثر نفسه بشيء على صعاليكه ، وإنما وكان صعلوكاً فقيراً مثلهم ه (٤) ، وفي بعض غاراته ، وهو معقوم من هُلاك عشيرته في شتاء شديد ، قيض الله له رجلا و صاحب مائة من الإبل قد فر بها من حقوق قومه ، فقتله وأخذ إبله ثم أقبل بالإبل يقسمها بين صعاليكه ، وأخذ مثل نصيب أحدهم (٥) .

وعرف هذا و الزعيم الشعبى و و نفسية جماهيره و فكان يقبل منهم أحياناً التواءهم عليه إذا ما تحسنت حالبهم ، لأنه يعرف أنهم و كما الناس و على حد تعبيره (١) ، ولأنه يدرك أنهم و صنيعته و ، ولو أنه عاملهم كما يعاملونه لأفسد

<sup>(</sup>١) انظر الأغاني ٣/ ٧٨ ، ٧٩ ، والتبريزي : شرح حاسة أبي تمام ٢/ ٩ .

<sup>(</sup>٢) الأغاني ٣/٨٨.

<sup>(</sup>٣) ديوانه / ٩٩ ، وحياسة أبي تمام ٢/٧ البيت الأخير .

<sup>( ؛ )</sup> التبريزى : شرح حياسة أبي تمام ٢/٩ .

<sup>(</sup>ه) الأغافى ٧٩/٣ ، وانظر التبريزى : شرح حياسة أبى تمام ٩/٣ وابن السكيت : شرح ديوان عروة /١١٢ .

<sup>(</sup>٦) ديوانه /١١٣ البيت الأول ، وشرح التبريزي على حياسة أبي تمام ٢/٣ .

ما يصنع ، ولانفضت الجناهير من حوله ، وهو حريص عليهم لأنه حريص على تنفيذ مذهبه في الحياة . في أخباره أنه غنم في بعض غزواته إبلا وامرأة ، فلما أخذ في قسمة الإبل بين صعاليكه أخذ مثل نصيب أحدهم واستخلص المرأة لنفسه ، و فقالوا : لا واللات والعزى لا نرضى حتى تجعل المرأة نصيباً ، فن شاء أخذها ، فجعل يهم بأن يحمل عليهم فيقتلهم وينتزع الإبل منهم ، مم يذكر أنهم صنيعته ، وأنه إن فعل ذلك أفسد ما كان يصنع ، فأفكر طو يلا ، ثم أجابهم إلى أن يرد عليهم الإبل إلا راحلة يحمل عليها المرأة حتى يلحق بأهله ، فأبوا ذلك عليه ، حتى انتدب رجل منهم فجعل له راحلة من نصيبه » (١).

وهو إلى جانب هذه «الزعامة » الحكيمة «قائد » موفق يخرج « بجنوده » ويرسم لهم الخطط الدقيقة التى تضمن لهم الفوز . فنى أخباره أنه خرج بصعاليكه إلى أرض بنى القين ، فهبط أرضاً ذات حجارة كبيرة فبها ماء ، فرأى عليه آثاراً « فقال : هذه آثار من " يرد مدا الماء فا كمنوا ، فأحر أن يكون قد جاء كم رزق » ، فأقاموا يوماً « ثم ورد عليهم فصيل " ، فقالوا : دعنا فلنأخذه فلنأكل منه يوماً أو يومين ، فقال : إنكم إذن تنفرون أهله ، وإن بعده إبلا ، فتركوه فندموا وجعلوا يلومون عروة من الجوع الذي جهدهم ، ووردت ابل بعده بخمس فيها ظعينة و رجل معه السبف والرمح ، والإبل مائة متال ، فخرج بعده بخمس فيها ظعينة و رجل معه السبف والرمح ، والإبل مائة متال ، فخرج اليه عروة ، فرماه في ظهره يسهم أخرجه من صدره فخر ميتاً ، واستاق عروة الإبل والظعينة حتى أتى قومه » (١) . أرأيت إلى هذه القيادة الموفقة كيف الإبل والظعينة حتى أتى قومه » (١) . أرأيت إلى هذه القيادة الموفقة كيف الفرصة المناسبة ؟

ومن مظاهر هذه القيادة الموفقة الحذرُّ ، فقد كان عروة إذا نزل بصعاليكه

<sup>(</sup>١) الأغانى ٣/٧٩ ، ٨٠ . وانظر أيضاً شرح ابن السكيت على ديوانه /١١٢ . وشرح التبريزى على حياسة أبى تمام ٩/٢ .

ر ۲) شرح ابن السكيت على ديوانه /۱۰۳ ، ۱۰۵ . وشرح التبريزى على حياسة أبى تمام ۸/۲.

فى موطن من مواطن الخوف أخذ للأمر عدته فبعث أحد صعاليكه فوق مرقبة عالية يرقب لهم الطريق ، بيها يشتغل الباقون فى تهيئة طعام الجماعة أو فى غير ذلك من الأعمال (١) .

وقد رأينا في تفسيرنا الجغرافي لظاهرة الصعلكة أن حركات عروة وصعاليكه قد تركزت في شهالي الجزيرة العربية حول منطقة يثرب ، وأنها كانت تمتد إلى منطقة نجد أحياناً ، ومن هنا نشأت طائفة من الصلات الاقتصادية بينه وبين بني النضير الذين كانوا ينزلون في تلك المنطقة فكانوا « يقرضونه إن احتاج ويبايعهم إذا غنم (٢).

هكذا سلك عروة سبيله فى الحياة ، يسلب الأغنياء أموالهم ليوزعها على الفقراء ، وفقاً لفلسفة معينة عبر عنها فى شعره أصدق تعبير ، حتى أصبح شعره نبراساً بهندى به قومه ، أو يأتمون به - على حد تعبير الحطيثة فى حديثه مع عمر بن الحطاب (٢) .

وأماس فلسفة عروة أن « الغزو والإغارة للسلب والنهب » السبيل الوحيد للغني لمن هو في مثل حالته :

ومن يك مثلى ذا عيال ومُقترا من المال يطرَح نفسه كلَّ مَطْرح (٤) ومن عيال ومُقترا من المال يطرَح نفسه كلَّ مَطْرح (٤) وما صاحبُ المحاجات من كلوجهة من الناس إلا من أَجدُّ وشمَّرا (٥)

وليس وراء ذلك سوى إحدى نتائج ثلاث : نجاح الغزوة أو إخفاقها أو الموت في سبيلها ، أما إن كانت الأولى فقد حقق أهدافه وجاء الغني معها ، وأما إن كانت الثانية فقد أبلغ نفسه عذرها ، « ومبلغ نفس عذرها مثل منجح » ، وأما إن كانت الثالثة فالموت خير من حياة الفقر والجوع والذل والهوان :

<sup>(</sup>١) انظر أبياته التي يرمم فيها هذه الصورة في ديوانه /١١١ ، ١١٢ .

<sup>(</sup>Y) الأغاني ٣/٢٧.

<sup>(</sup>٣) المصدر السابق /٧٤ .

<sup>(</sup>٤) ديوانه /٩٩ . وحياسة أبي تمام ٢/٧ .

<sup>(</sup> ه ) ديوانه / ١٩١ .

ذرينى أطون في البلاد لعلى فإن فاز سهم للمنية لم أكن وإن فاز سهمي كفكم عن مقاعد أقيموا بني لبني صدور ركابكم فقلت له ألا احي وأنت حر فسر في بلاد الله والتمس الغني

أخليك أو أغنيك عن سوء مَحْضر جزُوعاً وهل عن ذاك من متأخر لكم خلف أدبار البيوت ومنظر (١) فإن منايا القوم خير من الهزل (١) منتشبع في حياتك أو تموت (٣) تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا(٤)

وهو يتمنى أن يصادف فى أثناء انطلاقه هو وصعاليكه فى البلاد غازين مغيرين بعض أولئك الأغنياء أصحاب الإبل الكثيرة الذين يحرصون على مالهم بالبخل والعقوق ، عقوق أفراد مجتمعهم الفقراء ، حتى يستردوا منهم بعض حقوقهم عليهم :

لعل انطلاقی فی البلاد و رحلتی وشدًی حیازیم المطیة بالرَّحْل سیدفعنی یوماً إلی رَب هَجْمة یدافع عنها بالعقوق و بالبخل (۵) ویعلل عروة لمغامراته بکثرة أضیافه وقلة ماله ، فاذا یفعل سوی آن یغامر فی سبیل الغنی حتی یهی نفسه شیئاً یقدمه لهم ، فیحقق حسن ظنهم فیه ، ویرضی نفسه الطموح إلی حسن الاً حدوثة وطیب الذکر ؟

يريخُ على الليلُ أضياف ماجد كريم ، ومالى سارحاً مالُ مقتر (١) ويتساءل : أيهلك أفراد من المجتمع لفقرهم وجوعهم فى حين يعيش إخوان لهم مترفين متخمين ، وهو قاعد لا يفعل شبئاً ، وهو الذى باع روحه للموت فى مخاطراته ومغامراته ؟

أَيْهَاكُ مَعْمُ وزيدٌ ولم أَقَمَ عَلَى نَدَب يُوماً ولى نَفْسُ مَخْطُر (٧)

<sup>(</sup>١) ديوانه /٦٦ ، ٦٧ . وجمهرة أشعار العرب /١١٤ . والأصمعيات /٢٩ .

<sup>(</sup>۲) ديوانه /۱۰۹ .

<sup>(</sup>٣) ديوانه /١٩٩ .

<sup>(</sup>٤) ديوانه /١٩١ .

<sup>(</sup>٥) ديوانه /١٠٨، ١٠٩. وحياسة أبي تمام / ٢٩.

<sup>(</sup>٦) ديوانه / ٨٥. والأصمعيات /٣٠.

۲۰/ ديوانه / ۸۲ . والأصمعيات / ۲۰ .

والغاية التي يريد أن يصل إليها - بطبيعة الحال - الغني ، ولكنه لا يريد الغني من حيث هو غاية يقف عندها ، وإنما يريده ليكون وسيلته للارتفاع بمنزلته الاجتماعية بين أفراد مجتمعه ، من حيث إنه يهيئ له الفرصة التي يشارك فيها السادة الأغنياء في البذل والكرم واكتساب المحامد والمفاخر :

دعينى أطوّف فى البلاد لعلنى أفيدُ غنى فيه لذى المحق محملُ البس عظيماً أن تلِم ملمة وليس علينا فى المحقوق مُعوّل فإن نحن لم نملك دفاعاً بحادث تُلمُ به الأيام فالموت أجمل (١)

والفقير في رأيه شر الناس ، وأحقرهم عندهم ، وأهونهم عليهم مهما يكن له من فضل ، يجافيه أهله ، وتزدريه امرأته ، حتى الصغير يستطيع أن يذله ، أما الغنى فمهما يفعل يقبل منه ، ومهما يخطئ يغفر له ، فللغنى رب يغفر الذنوب جميعاً :

ذَريني للغني أسعى ، فإنى رأيتُ الناس شرَّهم الفقير وأدْناهم ، وأهسونهم عليهم وإنْ أمسَى له حسبٌ وخِيرُ يباعده القريبُ ، وتزدريه حليلته ، ويقهره الصعغيرُ ويُلقى ذو الغنى ، وله جلال يكادُ فؤاد لاقيه يطيرُ قليل ذنبهُ ، والذنبُ جمَّ ولكنْ للغنى ربَّ غفور (١٢)

هكذا يسجل آبو الصعاليك فلسفته فى هذه المشكلة الاجتماعية الحطرة ، مشكلة الفقر والغنى ، فى هذا الأسلوب الممتاز الذى يستمد امتيازه من عنصرين أساسيين هما السخرية والبساطة : السخرية من ذلك المجتمع العجيب الذى يحتقر الفقير لا لشيء إلا لأنه فقير ، ويقدر الغنى لا لشيء إلا لأنه غنى ، والذى لا يهتم بغير المظاهر المادية ، أما جوهر النفس الكامن خلف هذه المظاهر فأمر وراء اهتمامه ، ثم البساطة التى فلمسها فى عرض الشاعر لمعانيه ذلك العرض

<sup>(</sup>١) ديوانه /٢٠٦.

<sup>(</sup>٢) ديوانه / ١٩٨، ١٩٩، وابن قتيبة : عيون الأخبار ١/٢١، ٢٤٢، وابن عبد ربه : العقد الفريد ٣/٣٪ .

السهل الذي لا يقبل معارضة ، أو يثير جدلا ، والذي ينقذ إلى النفس من أقرب السبل ، ذلك العرض الذي يصبح أن نطلق عليه و عرضاً شعبيا ، حتى لنسمع أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب يطلب إلى معلم أولاده ألا برويهم هذه القصيدة ، ويقول له : وإن هذا يدعوهم إلى الاغتراب عن أوطانهم و(١).

وأسوأ طوائف الصعاليك عند عروة هم أولئات الصعاليك الذين يقضون حياتهم فى خمول وهوان وتخاذل ، وقعود عن طلب الغنى ، وخدمة لنساء الحيى المترفات :

لحا الله صُعلوكاً إذا جَنَّ ليله مصَافِى المشاش آلفاكلَّ مجْزَر يعد الغنى من دهره كل ليلة أصابَ قراها من صديق ميسر يعد الغنى من دهره كل ليلة يحت الحصى عن جنبه المتعفر ينام عشاء ثم يصبح طاوياً يحت الحصى عن جنبه المتعفر قليلُ التماس الزاد إلا لنفسه إذا هو أمسى كالعريش المجوَّر يعين نساء الحى ما يَسْتعنَّه فيمسى طليحاً كالبعير المحسَّر (۱)

أما أولئك الصعاليك العاملون الذين يقضون حياتهم فى العمل والكفاح والمغامرة فإن عروة معجب بهم إعجاباً شديداً ، الأنهم الذين آمنوا بمذهبه فى الحياة ، وساكوا سبيله فيها ، فهو لهذا يكيل لهم مدحه ويضنى عابهم ثناءه :

ولكن صعلوكاً صَحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور مطلا على أعدائه يزجرونه بساحتهم زَجْرَ المنيح المشهر فإن بعدوا لا يأمنون اقترابه تشون أهل الغائب المتنظر فذلك إن يلق المنية يلقها حميدًا وإن يستغن يوماً فأجدر الله مكذا كان أبو الصعاليك ينادى بمذهبه فى أرجاء المجتمع الجاهلى. وليس

<sup>(</sup>١) الأغاني ٣/٧٠ .

<sup>(</sup>۲) ديوانه /۷۳ – ۷۷ .

<sup>(</sup> ۲ ) ديوانه /۷۸ – ۸۲ .

من شك فى أن دعوة عروة هذه قد لقيت إعجاباً من هذا المجتمع ظلت أصداؤه مدوية حتى بعد ظهور الإسلام فى البلاط الأموى نفسه، حتى لنسمع معاوية بقول ولا كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أنزوج إليهم والمراء وحتى ليستأذن بعض الناس عليه ويقول لآذنه: استأذن لى على أمير المؤمنين وقل ابن مانع الضيم ، فيقول معاوية : ويحك لا يكون هذا إلا ابن عروة بن الورد العبسى أو الحصين بن الحمام المرى (المحتى ليقول عبد الملك : من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد أن ما وحتى ليقول عبد الملك : من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد (المحتى العبسى أو الحسين بن المحمام المرى المحتى الورد المحتى المتحد الملك .

وأخص ما يتميز به أسلوب عروة فى شعره أنه و أسلوب شعبى ، فهو سهل اللفظ بالقياس إلى شعر سائر الصعاليك ، واضح المعنى ، قريب التعبير ، لا تكلف فيه ولا تصنع . وقد يكون هذا طبيعيًّا بعد أن قررنا أن عروة كان يقوم فى حركة الصعلكة بالداعية المذهبي أو الزعيم الشعبي الذي يحرص على استمالة الجماهير إليه .

ولعل عروة أكثر الشعراء الصعاليك استخداماً لتلك المقدمات النسائية التي اصطلحنا على تسمينها « مقدمات الفروسية في شعر الصعاليك » . وهذا أيضاً طبيعي فإن أخبار عروة مع نسائه السبايا تدل على احترام متغلغل في نفسه للمرأة ، ورواة الأدب العربي يصفونه بأنه كان لا يمس النساء (٤) .

٣

# الشُّنَّهُ رَى :

إذا كان عروة بمثل الجانب الإنساني في حركة صعاليك العرب ، فإن الشنفري ــ ولا شك ــ يمثل الجانب الشيطاني فيها .

واسم الشنفري، ونسبه ، ونشأته الأولى ، غامضة كل الغموض ، فكل

<sup>(</sup>١) الأغاني ٢/٧٣ .

<sup>(</sup>٢) الأغاني ١٢ / ١٢٣ (بولاق) .

<sup>(</sup>٣) الأغاني ٢/١٧ .

<sup>(</sup>٤) الأغاني ٢/٧٥.

ما يعرَف عن الجانبين الأولين أنه الشنفرى ، وأنه كان من الإو اس بن الحبيجير ابن الهنو بن الأزد<sup>(۱)</sup> ، وأن أباه كان فى موضع من أهله ولكنه كان فى قلة <sup>(۱)</sup> ، وأن أمه كانت سبية <sup>(۱)</sup> .

والشنفرى أحد أولئك الأغربة الذين رأينا أنهم كانوا يمدون حركة الصعلكة بجماعات كبيرة من الصعاليك ، ويضعه صاحب لسان العرب نقلا عن ابن سيده عن ابن الأعرابي بين « أغربة العرب » (٤) ، وكذلك يفعل صاحب تاج العروس نقلا عن التهذيب والمحكم ولسان العرب (٥) ، ويضعه ابن الأعرابي في نوادره بين أغربة الحاهلية (٦) ، والشنفرى نفسه يصرح في بعض شعره بأنه لا هجين ، (٧) .

ولكن يبدو أن الشنفرى يأبى إلا أن يوقعنا فى إشكال غامض ، فإنه بعد بيت واحد من تصريحه هذا يعود فيصرح بأن أمه هابنة الأحرار ، (^^) ، وهنا نقف لنتساءل : كيف يتفق التصريحان وبيهما هذا التناقض الظاهر ؟ ونعود إلى أخبار الشنفرى فى مصادرها المختلفة نسألها الإجابة عن هذا التساؤل ، ولكنا لا نظفر مع الأسف بشيء ، فإن رواة أخباره لم يقفوا عند هذا التناقض ، ولم يقدموا لنا الوسائل التي تعيننا على هذه الإجابة ، لأنهم لم يذكروا شيئاً له قيمة عن أسرة الشنفرى ، لا عن أبيه ولا عن أمه ، حتى ليلاحظ الأستاذ قيمة عن أسرة الشفرى ، لا عن أبيه ولا عن أمه ، حتى ليلاحظ الأستاذ

<sup>(</sup>١) كذا في الأغانى ٢١ / ١٣٤ ، والذي في خزانة الأدب للبغدادي (١٦/٢) الأواس بفتح الهمزة ، والحمحر بفتح الحاء المهملة وسكون الجيم ، والهنء بتثليث الهاء وسكون النون وبعلها همزة ، وهو الذي في ديوانه المطبوع /٢٧ .

<sup>(</sup>۲) ابن الأنبارى: شرح المفضليات /١٩٨.

<sup>(</sup>٣) المصدر السابق /١٩٥٠.

<sup>(</sup>٤) افظر مادة (غرب) .

<sup>(</sup> ه ) مادة يه غرب يه . ولكن الغريب أن يذكره هذان المصدران بين الأغربة الإسلاميين وهو خطأ فاحش ، فكل مصادر حياة الشنفري صريحة في أنه جاهلي ، والأغرب من هذا أن ينقل فاشرو يه الأغاني يه بدار الكتب المصرية فص الناج في أحد هوامشهم ( ١٤٠/٨) دون أية إشارة إلى ما فيه من خطأ .

<sup>(</sup>٦) السيوطي : المزهر ٢/٢٦٩ .

<sup>(</sup>٧) الأغاني ج ٢١ ص ١٣٤ س ٢٠ .

<sup>(</sup> ٨ ) المصدر المابق ص ١٣٤ س ٢٢ .

المعالم أن وأصل الشنفرى ونسبه مسألتان شديدتا الغموض الله والواقع أن أخبار الشنفرى كلها قليلة ومضطربة حتى ليعارض رُواتها بعضهم بعضاً ، ومن هنا ترددت كلمة ولا والنافية في أول كل خبر منها (١) ومن الحق ما يذكره Lyall من أن القصص التي تروّى حول الشنفرى لا تتفق دائماً مع قصائده ، وإنما هي أقرب إلى أن تكون صورة من الأساطير الشعبية التي كثرت حول أبطال العصر الجاهلي من أن تكون أخباراً حقيقية (١) .

ومع ذلك فلابد من محاولة للإجابة عن هذا التساؤل.

يرى Fresnei أنه من المحتمل أن تكون أم الشنفرى مولودة من أب حر وأم أمة ، وبهذا يكون الشنفرى من أولئك الذين يطلقون عليهم فى الولايات الأمريكية اسم Quarteron ، ولكن هذا الرأى لا يعلو أن يكون فرضا ، وصاحبه يصرّح بأنه شيء من المكن أن يفترض (٥) ، وهكذا تظل المشكلة وأنمة ، ويظل السؤال واردا .

أما أنا فيبدو لى أن المسألة أيسر من هذا ، وأنها لا تحتاج إلى تكلف مثل هذا الفرض الاحتمالى ، وأن وصف الشنفرى لأمه بأنها و ابنة الأحرار و لا يعدو أن يكون تعبيراً عاطفياً يتلاءم مع ذلك الجو العاطفى الشديد الحساسية الذي قيلت فيه الأبيات (٦) ، فهو صرخة من نفلس الشنفرى الحساسة في وجه ابنة سيده المتعجوفة ، يعلن لها فيها أن العبودية وضع اجتماعى خاطئ لا يعترف به ، لأن الله لم يخلق الناس عبيداً ، وأنه إذا كانت الأوضاع الظالمة قد جعلت به ، لأن الله لم يخلق الناس عبيداً ، وأنه إذا كانت الأوضاع الظالمة قد جعلت

The Mufaddaliyat, Vol. II (Translation and Notes), p. 73 (n. 28), Oxford, (1)

<sup>(</sup>٢) الأغانى ٢١/١٧١ - ١٤٢ .

The Mufaddaliyat, Vol. II (Translation and Notes), p. 68. (7)

Fulgence Fresnel; Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme, (t) (1re lettre); p, 93,

والكلمة معناها من أبوه أبيض وأمه من أبوين أحدهما أبيض والآخر أسود أى أن فيه الربع من دم زنجي .

Ibid.; p. 93. (4)

<sup>(</sup>٦) الأغاني ٢١/٢١ ، ١٤٢ .

من أمه أمة فإن هذا لا يغير من الوضع الإلهى الذى خلقها الله عليه ، فهى ابنة أحرار قبل أن تكون أمة ، ولو أن هذه الفتاة المتعجرفة عرفت أصلها لعرفت أنها ابنة أحرار مثلها ، ولهذا يعقب على قوله و وأى ابنة الأحرار ، بقوله و لو تعرفينها ، فكأنه يقول لها ذلك القول الذى قاله عمر بن الحطاب لعمرو ابن العاص فيا بعد : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ وكأن المسألة عنده مسألة نسبية ، فإذا كانت هذه الفتاة ترى أمه أمة فإنه يراها ابنة أحرار .

ومع ذلك فما زال فى المشكلة جانب يحتاج إلى تفسير ، وهو قول الشنفرى بعد ذلك :

إذا ما أروم الود بيني وبينها يوم بياض الوجه مني يمينها (١) والذي يبدو لى أن وصف الشنفري لوجهه بالبياض إما أن يكون على طريقة العرب في التعبير عن اللديغ بالسليم ، وإما أن يكون لونا من السخرية من اهتمام هؤلاء السادة بمسألة اللون . ومع ذلك فهذا البيت لم يرد إلا في رواية واحدة من روايات الأغاني المتعددة عن هذه القصة ، وهي رواية مجهولة الراوية ، فيها بعض تفصيلات غير معقولة (١) .

ومهما يكن من أمر فإن لفظة و الشنفرى و تحمل فى طياتها دليلا على أصل هذا الشاعر ، فن معانى هذه اللفظة الرجل الغليظ الشفتين (٣) ، وغلظ الشفتين - كما هو معروف ، وكما يقرر علماء الأجناس- من سمات الجنس الأسود . ويجعل Fresnel هذه الظاهرة من أدلته على أنه و من المؤكد أن أم الشنفرى كانت أمة سوداء أو من دم مختلط و(٤) ، كما يجعلها Lyall دليلا

<sup>(</sup>١) الأغاني ١٤٢/٢١ .

<sup>(</sup>٧) انظر المصدر نفسه الصفحة نفسها .

 <sup>(</sup>٣) الزنخشرى : أعجب العجب في شرح لامية العرب / ١١ ، والبندادى: خزانة الأدب
 ١٦/٢ .

Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme, (1re. lettre), p. 93. (1)

على أنه ه من المرجع أن دماً إفريقياً زنجياً أو حيشياً كان يجرى في عروقه ه ١١٠. أما عن بلدء تصعلكه فإنه غامض كل الغموض ، وتروى عنه ثلاث روايات : إحداها عن محمد بن هشام النمرى بسنده وتذكر أن الشنفرى أسرته بنوشبابة بن فهم فلم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان بن مُفرج (١) من الأزد رجلا من بنى شبابة ، ففدته بنو شبابة بالشنفرى ، فكان الشنفرى فى بنى سلامان لا تحسبه إلا أحدهم حتى نازعته بنت الرجل الذى كان فى حجره ، وكان السلامى اتخذه ولداً ، فقال لها الشنفرى : اغسلى رأسى يا أخية ، فأنكرت أن يكون أخاها ولطمته ، فذهب مغاضباً حتى أنى الذى اشتراه من فهم ، فقال له : اصدقنى ممن أنا ؟ قال : أنت من الإواس بن الحجر ، فقال : أما إنى لن أدعكم حتى أقتل منكم امائة بما استعبد تمونى (١) .

وأما الثانية فعن راوية مجهول يكذب فيها هذه الرواية ويقول إن الأزد قتلت الحارث بن السائب الفهمي، فأبوا أن يبوءوا بقتله، فباء بقتله رجل منهم يقال له حركم بن جابر، فلما ترعرع الشنفرى جعل يغير على الأزد مع فهم (1).

وأما الثالثة فعن راوية مجهول أيضاً يكذب فيها هاتين الروايتين ، ويقول : بل كان من سبب أمر الشنفرى أن بني سلامان بن مفرج سبت الشنفرى وهو غلام ، فجعله الذى سباه فى بهشمة يرعاها مع ابنة له ، فلما خلابها ذهب ليقبلها ، فصكت وجهه ، ثم سعت إلى أبيها فأخبرته ، فخرج إليه ليقبله ، فوجده ينشد أبياتاً يأسف فيها على أن هذه الفتاة لا تعرف نسبه ، فلما سمع الرجل قوله سأله : من هو ؟ فقال : أنا الشنفرى أخو بني الحارث بن ربيعة ، فقال له : : لولا أنى أخاف أن يقتلني بنو سلامان لأنكحتك ابني ، فقال :

The Mufaddaliyat, Vol. II, p. 68. (1)

<sup>(</sup>٢) ضبطت في هذا الموضع بتشديد الراء ، ولكن الذي في شعره « مفرج » يتخفيفها وكسرها ( انظر بيته رقم ٢٨ من تائيته في المفضليات / ٢٠٥ وفي الأغاني ٢١ / ٢١) وهو الصواب ( انظر القاموس المحيط : مادة فرج ) .

<sup>(</sup>٣) الأغاني ٢١/١٣٤ .

<sup>( ؛ )</sup> المصدر السابق / ١٣٧ – وباء بقتله أي أقر واعترف به .

على إن قتلوك أن أقتل منهم مائة رجلبك ، فأنكحه ابنته ، وخلى سبيله ، فسار بها إلى قومه، فشدت بنو سلامان خلافه على الرجل فقتلوه ، ثم أخذ يوفى بوعده للرجل فيغزو بنى سلامان ويقتلهم (١) .

ويروى ابن الأنبارى عن نشأته الأولى ثلاث روايات: اثنتين عن مؤرّج ، إحداهما تلك التي يرويها صاحب الأغانى عن الفرى ، والأخرى يقول فيها : ويقال إن السبب فى غزو الشنفرى الأزد وقتلهم أن رجلا منهم وثب على أبيه فتمتله ، والشنفرى صغير ، وكان أبوه فى موضع من أهله ولكنه كان فى قلة ، فلما رأت أم الشنفرى أن ليس يطلب بدمه أحد "ارتحلت به وبأخ له أصغر منه حتى جاورت فى فهم ، فلم تزل فيهم حتى كبر الشنفرى ، فجعلت تبدو منه عرامة ، وجعل يكره جانبه ، فوقع فى نفس تأبطشرا ، فكان يكرمه منه عرامة ، وجعل يكره جانبه ، فوقع فى نفس تأبطشرا ، فكان يكرمه ويدنيه ، وكان يغير مع تأبط شراحتى صار لا يقام لسبيله (۱) .

والرواية الثائثة عن راوية مجهول ، يقول فيها إن الأزد قتلت رجلامن فهم فى خُفرة رجل يقال له الحارث بن السائب الفهمى ، فرهنوهم الشنفرى وأمه وأخاه ، وأسلموهم ولم يفلوهم ، فنشأ فيهم الشنفرى ، فكان شديد البأس والنفس وكان أشد فهم على الأزد قتلاوسلباً (٣) .

ومهما يكن من أمر هذه الروايات المتناقضة المضطربة فإن المسألة في أبسط صورها ترجع إلى أن الشفرى لسبب من الأسباب فقد توافقه الاجتماعي مع قبيلته الأزد ، ثم انتقل إلى قبيلة فهم ، تلك القبيلة المتمردة المشهورة بلصوصها (٤) ، وهناك اتصل به تأبط شرا ، ووجد فيه تلميذاً ممتازاً ، فلقنه دروس الصعلكة الأولى حتى صار لا يقام لسبيله ، ورأى الشنفرى أن فرصة الانتقام من قبيلته الأزد قد سنحت له فصب عليها كل غزواته .

<sup>(</sup>١) المسترانفية /١٤٢ .

<sup>(</sup>٢) ابن الأنبارى : شرح المفضليات /١٩٦ ، وأيضاً /١٩٨ .

<sup>(</sup>٣) المصدر المابق /١٩٨ ، ١٩٨ .

The Ency. of Islam; art. al-Shanfara. ( ; )

ولعل أقرب هذه الروايات إلى الحقيقة، وأبعدها عن أوهام الرواة، الرواية الثانية التي يرويها ابن الأنباري عن مؤرج ، والتي تتحدث عن قتل الأزد أباه . والشنفري نفسه في بعض شعره يصرح بأن قومه قد أضاعوا أباه (١) ، وفي أخباره أنه و قلم مينتي و بها حرام بن جابر فقيل له : هذا قاتل أبيك ، فشد عليه فقتله ، (١) ، وهو يصرح بهذا في تائيته المفضلية (٣) .

وأينًا ما كانت الأسباب لهذا الحقد الذي ملأ نفس الشنفري على بني سلامان فإنه قد وهب حياته للانتقام منهم ، و فكان يغير على الأزد على رجليه فيمن معه من فهم ، وكان يغير عليهم وحده أكثر ذلك (3) .

وبلغت الرغبة في الانتقام في نفس الشنفري حدًّا جعله يحرص على التفنن فيه ، فكان يصنع النبل و يجعل أفواقها من القرون والعظام ، فإذا غزاهم عرفوا نبله بأفواقها في قتلاهم (٥) ، وكان إذا رمى رجلا منهم قال له تحدياً : أأطرفك ؟ ثم يرمى عينه (٦) .

ویقتل الشنفری منهم — فیا تزعم الروایات — تسعة وتسعین ، ثم یتربص به أعداؤه ، ثم یقتلونه بعد أن یتفننوا فی تعذیبه تفنناً قاسیاً ، ثم یمر رجل منهم بجمجمته فیضربها فتعقره فیموت ، وتم به المائة الذین کانت حکافة الشنفری علیهم (۷).

<sup>(</sup>۱) أضمّم أبى إذ مسال شق وسساده على جنف، قد مال من لم يوسد (ابن الأنبارى : شرح المفضليات / ۱۹۸ – وديوانه المطبوع / ۲۵).

<sup>(</sup>٢) الأغاني ٢١/٢١ .

 <sup>(</sup>۲) قتلنا حسراما مهدياً بملبسه ببطن منى ومط الحجيج المصوت
 (المصدر السابق: الصفحة نفسها، وانظر المفضليات / ۲۰۵).

<sup>(</sup>٤) الأغاني ٢١/١٣٥.

<sup>(</sup>ه) المصادر السابق /١٤٢ .

<sup>(</sup>٦) المصدر نفسه /١٣٦ . وابن الأنبارى : شرح المفضليات /١٩٦ .

<sup>(</sup>٧) انظر المصدرين السابقين : الأغانى /١٣٥ – ١٣٦ ، ١٢٧ – ١٣٨ – ١٤٢ – ١٤٢ – ١٤٢ – ١٤٢ – ١٤٢ – ١٤٢ – ١٤٢ وحة رابن الأبارى /١٩٦ – ١٩٩ . وانظر أيضاً ابن حبيب : المنتالين (مصورة) لوحة رقم ٩٣ – ٩٤ .

ویدور الجزء الأکبر من شعر الشنفری حول هذا الصراع بینه وبین بی سلامان ، والجزء الباقی منه حول أحادیث تصعاکه وفقره وتشرده وغاراته علی غیر بنی سلامان .

ويساير هذا الشعر حياة الشنفرى منذ طفولته ، فهم يروون له بيتين يخاطب بهما أمه بعد مقتل أبيهوموت أخيه (١) ، تظهر فيهما قوة نفسهو براعم تمرده الأولى .

فإذا ما لطمته الفتاة السلامية سجل هذه الحادثة البعيدة الأثر فى حياته ، وسجل أسفه لأن هذه الفتاة المغرورة لا تعرف شيئاً عن نسب أبيه وأمه، ثم يتحدث إليها عن كرم نسبه (٢) .

ثم إذا ما بدأ الصراع المرير بينه وبين بنى سلامان حرص على أن يسجل كل شيء فى شعره: تهديده لهم ، وتربصه بهم ، وأحاديث غاراته عليهم ، ويصف أسلحته التى يستخدمها ، ويتحدث عن رفاق غاراته ، وعن أعدائه وضحاياه ، حتى إذا ما أمسك به أعداؤه وقطعوا يده رئاها بأرجوزة (٣) ، هى مزيج من الحزن والفخر حتى لا يشمت أعداؤه به ، فإذا ما أخذوا يسخرون منه ويسألونه أين يدفنونه رد عليهم بمقطوعة رائعة (٤) ، تظهر فيها قوة نقسه ، فهو لا يحرص على أن يد فن ، وإنما كل ما يوصى به أن يلقوا بجسده إلى الضبع ، رفيقة تشرده .

وإلى جانب هذا التسجيل لأحاديث الصراع بينه وبين بني سلامان سجل

<sup>(</sup>١) ديوانه المطبوع /٣٧ . والأغانى ٢١ / ١٣٧ . وابن الأنباري /١٩٦ . مع اعتلاف فى الروايات .

<sup>(</sup> ٢ ) ديوانه المطبوع / ٤٠ ، ٤١ . وديوانه المصور : لوحة رقم ٢ . والأغلق ٢١ / ١٣٤ ،

 <sup>(</sup>٣) ابن حبيب : كتاب المغتالين (مصورة) لوحة رقم ٩٣ ، وديوانه المصور لوحة رقم
 ٤ ، ه والأغانى ٢١ / ١٣٨ . وديوانه في الطرائف الأدبية / ٠٤ .

<sup>(</sup>ع) ابن حبيب : كتاب المغتالين (مصورة) لوحة رقم ٩٣ ، ٩٤ وابن الأنبارى : شرح المفضليات /١٩٤ ، وديوانه المصور لوحة رقم ٢ ، ٧ ، والأغانى ٢١ / ١٣٦ ، وديوانه فى العلمائف الأدبية / ٣٩ ، والشعر والشعراء / ١٨ ، ١٩ ، والعقد الفريد ١ / ١١٨ – ١١٩ .

فى شعره جوانب أخرى من حياته : فقره ، وهزاله ، ونعليه الممزقتين ، وثيابه البالية ، وحمله قربة الماء ، وتشرده فى الصحراء بين الوديان المخيفة حيث الجن والآساد ، وغاراته على غير بنى سلامان .

ويوشك ما وصل إلينا من شعر الشنفرى أن يدوركله داخل دائرة التصعلك ، ونقول يوشك لأن تائيته المفضلية تبدأ بمقدمة طويلة من النسيب التقليدى (١١) ، يرسم فيها صورة رائعة ممتازة لصاحبته الحيية الوفية الجميلة .

وعماً يؤسف له أنجموعة شعر الشنفرى التى بين أيدينا برغم أنها مجموعة في ديوان \_ قليلة ، فإذا أخرجنا منها « لامية العرب » التى رجعنا أنها ليست له ، والتائية المفضلية ، فإن ما يتبقى منها طائفة من المقطوعات والقصائد القصيرة .

وأخص ما يميز أسلوب الشنفرى الفنتى تلك الحشونة اللفظية التى تمثل اللغة البدوية الجاهلية أصدق تمثيل، ثم تلك القوة التعبيرية التى تجعل أسلوبه أسلوباً عكماً لا رخاوة فيه ، هذا إلى جانب ما يمتاز به من صدق التصوير ، والصراحة في النقل عن الحياة :

<sup>(</sup>١) المفضليات /١٩٤ – ٢٠٢ ، والأغانى ٢١ / ١٣٨ – ١٣٩ ، وديوانه المصور لوحة رقم ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٧ .

١

#### الصعاليك:

رأينا أن مادة « صعلك »تلور في دائرتين اصطلحنا على تسميتهما بالدائرة اللغوية والدائرة الاجتماعية ، وتبدأ الدائرتان من نقطة واحدة هي الفقر ، فأما الدائرة اللغوية فتنهى حيث بدأت عند الفقر ، يبدأ الصعلوك فيها فقيراً ، ثم يظل في نطاقها فقيراً ، لأنه لا يستطيع أن يغير الوضع الاجتماعي الذي فرض عليه لضعف في نفسه ، أو لضعف في جسده ، ثم يموت فقيراً ، وأما الدائرة الاجتماعية فتبعد عن نقطة البدء محاولة ألا تنتهى عندها ، يبدأ الصعلوك فيها فقيراً ، ثم يحاول أن يتغلب على هذا الفقر ولكن بطريقة خاصة هي تلك فيها فقيراً ، ثم يحاول أن يتغلب على هذا الفقر ولكن بطريقة خاصة هي تلك نفسه وقوة في جسده ، أي أن المادة في هذه الدائرة الاجتماعية قد اكتسبت صفات اجتماعية جديدة .

ووقفنا بعد ذلك نلتمس السر فى نشأة هذه الظاهرة ، فنظرنا فى المجتمع الجاهلي من ناحبة بيئته الجغرافية ، ورأينا أن الظاهرة الجغرافية التى تسيطر على هذا المجتمع هى ما اصطلحنا على تسميها «بظاهرة التضاد الجغرافي» ، ورأينا أن هذه الظاهرة كانت العامل الأول فى نشأة حركة الصعاليك ، لأنها كانت السبب فى وجود الفقر وفى إحساس الفقراء به . ورأينا أن هذه الظاهرة تدخلت مرة أخرى فى توجيه حركات الصعاليك التى كانت تخرج دائماً من المناطق الجدية إلى المناطق الخصب فى الجزيرة العربية قد تعرضت لغزوات الصعاليك ، ثم رأينا أنه من المكن أن نحدد مناطق العربية قد تعرضت لغزوات الصعاليك ، ثم رأينا أنه من المكن أن نحدد مناطق

حركات الصعائيك، فرأينا أن عروة وصعائيكه قد توزع نشاطهم ببن منطقتين أساسيتين: منطقة نجد، ومنطقة يثرب وما يجاورها شهالى جزيرة العرب، وإن لم يمنع هذا من أن يغير أحياناً على غير مناطق اختصاصه، ورأينا أن منطقة جبال السراة فيا بين مكة والطائف وأول الطريق الصاعد إلى اليمن هى المنطقة التى شهدت أكبر عدد من صعائيك العرب، وأن أشهر الصعائيك الذين انتشروا في هذه المنطقة صعائيك فهم وهذبيل ومن انضم إليهم من خلعاء القبائل وشدادها، ورأينا أن منطقة الين عرفت أجزاؤها القريبة من الحجاز صعائيك من فهم ومن الأزد، وأما أجزاؤها البعيدة فقد تخصص في الإغارة عليها السليك، وإن يكن تأبط شرا يتعدى أحياناً على منطقة اختصاص عليها السليك، وإن يكن تأبط شرا يتعدى أحياناً على منطقة اختصاص السليك. ولفت نظرنا في صعائيك هاتين المنطقتين أن أكثرهم — إن لم يكونوا جميعاً — من العدائين، وقد رددنا هذا إلى ثلاثة عوامل ؛ طبيعة المنطقة الجبلية، وبعد الأهداف، وقلة الخيل. ثم وقفنا عند هذه الظاهرة، ظاهرة المندة العدو، وقلنا إنها ليست بالظاهرة المستحيلة، وإنما هي صورة من صور التكيف العضوي بين الإنسان وبيئته.

ثم مضينا إلى المجتمع الجاهلي نلتمس فيه تفسيراً لظاهرة التصعلات ، فرأينا أنه مجتمع قبلي ، آمنت كل قبيلة فيه بوحدتها الاجتماعية وبكرم جنسها ، ورأينا أن إيمان القبيلة بوحدتها أوجد طائفة الخلعاء والشذاذ في هذا المجتمع ، وأن إيمانها بجنسها أوجد طائفة الهجناء والأغربة ، وأن المتمردين من هاتين الطائفتين من شتى القبائل قد اجتمعوا في عصابات من صعاليك العرب، كافرين بالعصبية القبلية ، مؤمنين بعصبية مذهبية ، معتمدين على قوتهم في سبيل العيش ، شأتهم في ذلك شأن المجتمع الذي يعيشون فيه ، غاية ما في الأمر أن عملهم فردى يجرى بدون رضا القبيلة ، وعمل القبائل جماعي معترف به .

ثم مضينا إلى الناحية الاقتصادية فى هذا المجتمع فرأينا أن الجزيرة العربية كانت منذ أقدم العصور بمرًّا تجاريًّا نشطاً لطرق القوافل، وأنه على طول هذه الطرق قامت مجموعة من الأسواق. ورأينا أن مراكز نشاط الصعاليك كانت

عادة على طول هذه الطرق ، وبالقرب من هذه الأسواق . ورأينا أن الصعاليك قد استغلوا هذه الأسواق استغلالاً آخر فكانت لهم فرصة بنتقون فيها ضحاياهم. وقد عللنا كثرة الصعاليك فى منطقة السراة حول مكة بوقوع هذه المنطقة على الطريق التجارى ، ويوجود ثلاث أسواق مشهورة فيها . ورأينا أن هذه الأسواق قد شهدت السطور الأولى منقصة طائفتين من طوائف الصعاليك هما طائفة الأغربة وطائفة الحلعاء ، فني هذه الأسواق أو فى بعضها على الأقل الأغربة وطائفة الحلعاء ، فني هذه الأسواق أن نشأة طبقة الأغربة ، وفيها كانت تجرى تجارة الرقيق التي كانت سبباً فى نشأة طبقة الأغربة ، وفيها أو فى الأسواق الأساسية منها — كان الإعلان الرسمى الذى تذبعه القبائل عن خلعها بعض أفرادها الحارجين عليها .

ورأينا أن المدن العربية قد عرفت لوناً من النشاط التجارى الذى ترتب عليه تضخم الثروة وتركزها فى أيدى نفر قليل من أهلها ، الأمر الذى أحدث لوناً من الاختلال الاقتصادى ، نشأت عنه كثرة عدد الصعاليك الذين كانوا فى حالة سيئة حملت أكثرهم على الهرب إلى الصحراء واللحاق بعصابات الصعاليك المنتشرة بها .

فإذا مضينا إلى داخل البادية العربية وجدنا ثمة صراعاً بين طبقة أصحاب الإبل وطبقة الصعاليك ، وقد رددنا هذا إلى التفاعل ببن ظاهرتين متناقضتين : ظاهرة البعد الاقتصادى ، وظاهرة القرب النفسى ، ورأينا أن مادة هذا الصراع التي دار حولها كانت عادة الإبل ، لأنها الثروة الأساسية في المجتمع البلوى ، وإن ثم يمنع هذا من أن تمتد أيدى الصعاليك إلى أية غنيمة تعرض لهم .

۲

### شعر الصعاليك:

رأينا أن شعر الصعاليك لم يصل إلينا منه مجموعاً سوى ديوانين هما ديوان عروة وديوان الشنفرى ، ورأينا أن هذا الشعر قد توزع بين مصادر الثقافة

العربية المختلفة ، وأن من يريد أن يجمع و ديوان الصعاليك ، عليه أن ينقب بين كل هذه المصادر . وقد لاحظنا على المادة التي جمعناها والتي تكون ديوان الصعاليك ثلاثة أشياء : قلم ، وكثرة الاضطراب في رواية نصوصها ، ثم الشك الذي يحيط ببعض نصوصها . ورأينا أن مجموعة شعر الصعاليك التي دار حولها الشك نوعان : فجموعة كان الشك فيها و داخلينا ، والخطب في هذه المجموعة هين ، ومجموعة كان الشك فيها و خارجينا ، وأشهر شعر هذه المجموعة هين ، ومجموعة كان الشك فيها و خارجينا ، وأشهر شعر هذه المجموعة لاميتان تنسبان لتأبط شرا والشنفري وينهم خلف الأصمر بصنعهما ، وقد وقفنا عند هاتين اللاميتين طويلا ، وانهينا إلى ترجيح نسبهما إلى خلف .

ثم مضينا إلى مجموعة شعر الصعاليك فلىرسنا موضوعاتها ، ورددنا هذه الموضوعات إلى مجموعتين أساسيتين : مجموعة الشعر داخل دائرة الصعلكة ، ومجموعة الشعر خارج دائرة الصعلكة .

ورأينا أن الشعراء الصعاليك قد تعرضوا في المجموعة الأولى لكل ما كان يلور في حياتهم الفردية أو حياتهم الجماعية ، فتحدثوا عن مغامراتهم ، وعن تربصهم فوق المراقب في انتظار ضحاياهم ، وعن توعدهم أعداءهم وتهديدهم لهم ، وعن أسلحتهم سواء منها أسلحة الهجوم أو أسلحة الدفاع ، وتحدثوا عن رفاقهم الذين رافقوهم في هذه المغامرات ، وتحدثوا عن فرارهم وهربهم ، وعن سرعة عدوهم ، وعن غزواتهم على الخيل ، وعللوا لمغامراتهم، وفسروا الدوافع التي دفعتهم إليها ، وذكروا العقد النفسية التي كانت سبباً لها ، كما تحدثوا عن آرائهم الاجتماعية والاقتصادية ، وعن تشردهم في أرجاء الصحراء المقفرة ، واتصالهم بحيوان الصحراء ووحشها وأشباحها .

أما المجموعة الأخرى، مجموعة الشعر خارج دائرة الصعلكة، فإننا تلمسنا أولا آثار القبلية فيها، ولاحظنا أن هذه المجموعة من الشعر القبلي التي تقابلنا في شعر الصعاليك قليلة. كما أن عدد شعرائها قليل أيضاً.

ثم مضينا بعد ذلك إلى المخضرَمين من الشعراء الصعاليك نتلمس الآثار

الإسلامية في شعرهم بعد الإسلام. ومن الطبيعي أن موضوعات هذه المجموعة الإسلامية قد خلت من تلك الموضوعات التي عرفناها في شعرهم داخل دائرة الصعلكة ، ومع ذلك فقد رأينا رواسب ضئيلة من الصعلكة تتسرب من حبن إلى حين في أثناء هذا الشعر.

تم مضينا ندرس الظواهر الفنية في شعر الصعاليك ، فلاحظنا أول مالاحظنا أنه شعر مقطوعات ، وقد ملنا في تعليلنا لهذا إلى طبيعة حياة الصعاليك نفسها ، تلك الحياة القلقة التي لا تكاد تفرُغ للفن من حيث هو فن يفرغ صاحبه لتطويله وتجويده . ثم لاحظنا ظاهرة أخرى وهي ظاهرة الوحدة الموضوعية ، ورأينا أن أكثر مقطوعات شعر الصعاليك وقصائده تقبل العناوين ، بل إن مطولاته ــ برغم تعدد أغراضها ــ نستطيع أن نردها إلى أصل موضوعي واحد ، فليس التعدد هنا تعدداً في الموضوع ، وإنما هو تفرع في أغراض الموضوع الواحد ، ورأينا مع ذلك أن هناك طائفة قليلة جدًا من قصائد شعر الصعاليك لا تخضع لهذه الظاهرة ، وقد رددنا هذا إلى ما سميناه «ظاهرة تقليد الشعراء الصعاليك للشعر القبلي في صورته الشكلية » ، وقلنا إن هذه الظاهرة ليست من الحطر في شيء على الفكرة التي نقررها . ثم لاحظنا أن شعر الصعاليك قد تخلص من المقدمات الطللية التي عرفها الشعر القبلي ، ما عدا تلك المجموعة التقليدية ، ورأينا أن الشعراء الصعاليك استعاضوا عنها بمذهب آخر أطلقنا عليه «مقدمات الفروسية في شعر الصعاليك ، ثم لاحظنا بعد ذلك أن شعر الصعاليك قد تخلص أيضاً من التصريع في مطالع نماذجه الفنية ، ورأينا أن هذه الظاهرة توشك أن تكون مطردة في كل شعر الصعاليك . ثم لاحظنا بعد ذلك أن مجموعة شعر الصعاليك التي اصطلحنا على تسميتها 1 الشعر داخل دائرة الصعلكة ، قد تحليل أصحابها من الشخصية القبلية، وحلت محلها ظاهرة أخرى أطلقنا عليها «ظاهرة الوضوح الفني لشخصية الشاعر الصعلوك، ، وأن هذه الظاهرة كانت ظاهرة شاذة في المجتمع الأدبي الجاهلي فأطلقنا على الشعراء الصعاليك وأصحاب المذهب الشاذ في الشعر الجاهلي ، ثم درسنا

ظاهرة القصصية في شعر الصعاليك ، ورآينا أن الشعراء الصعاايك قد استغلوا فى شعرهم كل ما يدور فى حياتهم الحافلة بالحوادث المثيرة استغلالا قصصياً رائعاً ، وانتهينا إلى أن شعر امرئ القيس ليس نقطة البدء في تاريخ القصة الشعرية ، وإنما تسبق هذا مرحلة أولى هي مرحلة الشعراء الصعاليك الذين نميل إلى أن امرأ القيس قد تأثر بهم فى فنه ، ومن هنا أطلقنا على الشعراء الصعاليك ه رواد القصة الشعرية في الأدب العربي » . ثم وقفنا طويلا عند الواقعية في شعر الصعاليك ، وبينا مظاهرها المتعددة . ثم لاحظنا أن شعر الصعاليك يمتاز بالسرعة الفنية ، وأن ميزته الكبرى «خفوت الصنعة الفنية » ، ورأينا أن التشبيه أقوى الألوان الفنية التي اعتمد عليها الشعراء الصعاليك ، ووقفنا طويلا عند هذه الظاهرة ، فلرسنا المنابع المختلفة التي تكوُّن « صندوق الأصباغ عند الشعراء الصعاليك ؛ ، وكيف استغلوها ، ورأينا إلى جانب التشبيه ألواناً فنية أخرى من ألوان الصنعة الفنية المتمهلة ، فدرسنا النماذج الفنية التي رأيناها فيها . تم وقفنا بعد هذا عند الخصائص اللغوية فى شعر الصعاليك ، ورأينا أولا أن لغمهم هي اللغة الأدبية التي عرفها العصر الجاهلي ، غير أننا لاحظنا أنها أقرب إلى فطرة اللغة العربية وأصدق تمثيلا لها ، ولاحظنا كثرة الغريب في شعوهم . تم وقفنا أخيراً عند الظواهر العروضية في شعرهم ، ورأينا أن أوزان شعرهم وزحافاته هي الأوزان والزحافات التي عرفها سائر الشعر الجاهلي ، غبر آننا لاحظنا انتشار الرجز في شعرهم الذي قالوه قبيل مصارعهم .

ثم وقفنا بعد ذلك عند شخصيتين متميزتين من الشعراء الصعاليك تميزاً اجماعياً وفنياً: عروة بن الورد الذي يمثل شخصية الصعلوك صاحب المذهب الإنساني ، أو شخصية الزعيم الذي يدعو الجماهير إلى الإيمان بمذهبه ، والشنفري الذي يمثل شخصية الصعلوك المتمرد الذي رأى أن يكون تمرده الوسيلة والغاية معاً.

وبعد ، فهذه هي ظاهرة الصعلكة في المجتمع الجاهلي كما رأيناها في شخصيات صعاليكه ، وهذه هي دراستنا الفنية لما بين أيدينا من شعرهم . والله ولى التوفيق .

# المصادر والمراجع

آثرت الاكتفاء بذكر المصادر والمراجع الأساسية ، أما الفرعية فقد رأيت من التزيد تسجيلها في هذا الثبت بعد أن وردت في هوامش البحث ، كما آثرت عدم ذكر المعجمات اللغوية –على كثرة ما رجعت إليها – لأنها عامل مشترك في كل الأبحاث الأدبية ، وإن كنت أحب أن أشير إلى أن « لسان العرب » لم يكن بالنسبة لى معجماً لغوياً فحسب ، وإنما كان أيضاً – لكثرة ما يضمه من أبيات للشعراء الصعاليك – مصدراً أدبياً كبير الأهمية لشعرهم .

## ١ - المصادر القدعة

١ ــ الآمدي : المؤتلف والمختلف ( القدسي بالقاهرة ١٣٥٤ هـ) .

٧ ــ ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر (العنَّمانية بالقاهرة ١٣١١ه).

٣ ــ ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة ( الوهبية بالقاهرة ١٢٨٠ هـ) .

٤ ــ أسامة بن منقذ: لباب الآداب (الرحمانية بالقاهرة ١٩٣٥).

الأصفهانى (أبو الفرج) : الأغانى :

من الجزء الأول إلى الجزء التاسع (طبعة دار الكتب المصرية) . ومن الجزء الرابع عشر إلى الجزء العشرين (طبعة بولاق).

والجزء الحادي والعشرون (طبعة ليدن) .

أما الأجزاء من العاشر إلى الثالث عشر فنظراً لتداخل مواضع التراجم بها بين طبعة دار الكتب وطبعة بولاق رأيت أن أشير إلى الطبعة في هوامش البحث.

٦ - الأصمعى : فحولة الشعراء ( مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٤٥ تيمورية أدب) .

- ٧ ـــ ابن الأنبارى: شرح المفضليات (بيروت ١٩٢٠).
- ٨ ابن الأنبارى: نزهة الألبا فى طبقات الأدبا (حمجر بالقاهرة ١٢٩٤هـ).
  - ٩ البحترى : كتاب الحماسة (القاهرة ١٩٢٩).
- ۱۰ البصرى (على بن الفرج): الحماسة البصرية (نسختان بدار الكتب المصرية : مخطوطة تحت رقم ۲۰ه أدب، ومصورة تحت رقم ۲۳۰۰ أدب).
  - ١١ البغدادى : خزانة الأدب ( بولاق ) .
  - ١٢ البكرى : معجم ما استعجم ( القاهرة ١٩٤٥ )
  - ١٣ البيهتي : المحاسن والمساوئ ( الطبعة الأوربية ١٩٠٢ )
  - ١٤ -- التبريزي : شرح حماسة أبي تمام ( بولاق ١٢٩٦ هـ) .
  - ١٥ التبريزى: شرح القصائد العشر (المنيرية بالقاهرة ١٣٥٢ هـ)
- ١٦ أبو تمام : الحماسة الصغرى « الوحشيات» ( نسخة مصورة بدار الكتب المصرية تحترقم ٢٢٩٧ أدب) .
- ١٧ الثعالبي : كتاب الشعراء (مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٨١ – تاريخ) .
  - ١٨ الجاحظ : الحيوان ( الحلبي بالقاهرة الطبعة الأولى ) .
  - ١٩ الجاحظ : البيان والتبيين (الطبعة الثانية بالقاهرة ١٩٣٢) .
    - ٢٠ ــ الجاحظ : رسائله ( القاهرة ١٩٣٣ ) .
      - ٢١ حاتم الطائي : ديوانه (لندن ١٨٧٢)
- ۲۲ ابن حبیب : من نسب إلى أمه من الشعراء (مجلة المقتطف عدد مایو ۱۹۶۵)
- ۲۳ ابن حبیب : کتاب المغتالین (نسختان بدار الکتب المصریة :
   خطیة تحت رقم ۷۷ ش أدب ، ومصورة تحت رقم ۲۲۵۲ تاریخ) .
  - ٢٤ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ( السعادة بالقاهرة ١٣٢٣ هـ).
    - ٢٥ حسان بن ثابت : ديوانه ( السعادة بالقاهرة ١٣٣١ ه).

- ٢٦ ــ الحالديان: الأشباه والنظائر «حماستهما» (مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٢ تيمورية شعر).
  - ٧٧ -- أبن خلدون : المقدمة ( التجارية بالقاهرة بدون تاريخ )
    - ٢٨ ــ ابن خلدون : تاريخه ( القاهرة ١٩٣٦ ) .
  - ٢٩ ابن دريد : جمهرة اللغة (حيدر آباد الدكن ١٣٤٤ هـ)
    - ٣٠ ابن دريد : الاشتقاق (جوتنجن ١٨٥٤)
  - ٣١ الدلجي : الفلاكة والمفلوكون ( الشعب بالقاهرة ١٣٢٢ هـ)
  - ٣٢ الدميري : حياة الحيوان الكبرى ( الشرفية بالقاهرة ١٣١٣هـ)
- ٣٣ ــ الزمخشرى : أعجب العجب فى شرح لامية العرب (الطبعة الأولى بالجوائب ١٣٠٠ هـ)
  - ٣٤ ــ الزمخشري : الفائق في غريب الحديث (حيدر آباد الدكن ١٣٢٤ هـ)
    - ٣٥ ــ الزمخشري: الكشاف (الطبعة الثانية ببولاق ١٣١٨ ه)
      - ٣٦ السجستاني : كتاب المعمرين (ليدن)
      - ٣٧ السكرى: شرح أشعار الهذليين (لندن ١٨٥٤)
    - ٣٨ ــ السكرى : ديوان الهذليين ( دار الكتب المصرية ١٩٤٨ )
    - ٣٩ ــ ابن السكيت : شرح ديوان عروة بن الورد ( الحزائر ١٩٢٦ )
      - ٤٠ ــ السهيلي : الروض الأنفُ ( الجمالية بالقاهرة ١٩١٤ )
        - ٤١ ــ السيوطي: المزهر (القاهرة ١٣٢٥ ه).
    - ٤٢ ــ ابن الشجرى : كتاب الحماسة (حيدر آباد الدكن ١٣٤٥ هـ)
- ٤٣ الشنفرى: ديوانه (نسختان: مطبوعة فى مجموعة الطرائف الأدبية بلجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ ومصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٦٧٦ أدب).
  - ٤٤ ــ الطبرى: تَارَيْخُهُ ( الحسينية بالقاهرة ) .
  - 20 ــ ابن عبد ربه: العقد الفريد ( لحنة التأليف والترجمة والنشر )
  - ٤٦ ـــ أبو عبيدة : شرح نقائص جرير والفرزدق ( ليدن ١٩٠٥) .

- ٤٧ -- العينى : شرح الشواهد الكبرى (على هامش خزانة الأدب للبغدادى بولاق) .
  - ٤٨ -- ابن فارس : مقاييس اللغة (الطبعة الأولى بالقاهرة)
  - ٤٩ القالى : الأمالى والنوادر ( دار الكتب المصرية ١٩٢٦) .
    - ٥٠ -- ابن قتيبة : الشعر والشعراء (ليدن ١٩٠٢) .
    - ٥١ ابن قتيبة: المعارف ( الإسلامية بالقاهرة ١٩٣٤).
  - ٥٢ ابن قتيبة : عيون الأخبار ( دار الكتب المصرية ١٩٢٥ ) .
  - ٣٥ ــ القرشي ( أبو زيد) : جمهرة أشعار العرب ( بولاق ١٣٠٨ هـ) -
    - ٤٥ ــ ابن الكلبي: كتاب الأصنام ( دار الكتب المصرية ١٩٢٤).
- ه ابن المبارك : منهى الطلب من أشعار العرب ( مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٥ ش) .
  - ٥٦ المبرد: الكامل (ليبزج ١٨٧٤).
  - ٥٧ ـــ المرزبانى : معجم الشعراء (القدسى بالقاهرة ١٣٥٤ هـ) .
    - ٥٨ -- المسعودى : مروج الذهب (البهية بالقاهرة ١٣٤٦ هـ) .
- ٥٩ -- المعرى : شرح حماسة أبى تمام ( مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٠٨ -- أدب) .
  - ٦٠ ــ الميداني : مجمع الأمثال (بولاق ١٢٨٤ ه) .
- ٦١ النيسابورى : لطائف المعارف (مصورة بدار الكتب المصرية تحت
   رقم ٢٢٩٢ أدب) .
  - ٣٢ ــ الهمداني : صفة جزيرة العرب (ليدن ١٨٨٤).
    - ٦٣ ــ الواقدى : كتاب المغازى (كلكته ١٨٥٥) .
      - ٦٤ ياقوت : معجم البلدان ( القاهرة ١٩٠٦ )
  - ٦٥ ياقوت : معجم الأدباء ( دار المأمون بالقاهرة ) .
    - ٣٦ ــ اليعقوبى : تاريخه (ليدن ١٨٨٣) .

# ٢ – المراجع الحديثة

# (١) العربية:

- ٦٧ -- أحمد أمين: فجر الإسلام (الطبعة الثالثة بلعجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٥).
- ٦٨ أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسي ( الطبعة الأولى بالقاهرة ١٩٤٥) .
- ٦٩ بندل جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فىالإملام (بيت المقدس) .
  - ٧٠ جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام (القاهرة ١٩٠٨)
  - ٧١ ــ جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ( القاهرة ) .
  - ٧٢ ــ جرجي زيدان : تاريخ النمدن الإسلامي ( القاهرة ١٩٠٥ )
  - ٧٣ ــ سليمان حزين : تقريره عن بعثة الجامعة المصرية إلى اليمن وحضرموت ١٩٣١ ــ الجزء الرابع ، الجزء التانى ، ديسمبر ١٩٣٦) .
  - ٧٤ -- عبد الوهاب حمودة : نظرية الأتساب في الميزان (مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الرابع عشر ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٢) .

# ( س ) المترجمة إلى العربية :

- ۷۵ ــ لوبون (جوستاف): حضارة العرب (ترجمة محمد عادل زعيتر ،
   القاهرة ۱۹٤٥).
- ٧٦ ميرز (ج. ل.): المناخ والجغرافيا وأثرهما فى التاريخ (فى موسوعة تاريخ العالم لجون هامرتن، ترجمة إدارة الترجمة بوزارة التربية والتعليم، القاهرة ١٩٤٩).
- ۷۷ ـــ ولكن (ج. ١.) : الأمومة عند العرب ( ترجمة بندلى صليبا الجوزى ــــ كازان ١٩٠٢) .

# (ح) في اللغات الأجنبية :

- 78. Dermenghem (Emile); The Life of Mahomet, (London, 1930)
- 79. Doughty; Travels in Arabia Deserta, (London, 1930.)
- 80. Fresnel; Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme, (Paris, 1836).
- 81. Groves (Ernest R.); Personality and Social Adjustment, (U.S.A., 1931.)
- 82. Huzayyin (S.); Changement historique du climat et du paysage de l'Arabie du Sud, (Bulletin of the Faculty of Arts, Vol. III, Part I, May 1935.)
- 83. Lammens (Henri); Le Berceau de l'Islam, (Romae, 1914).
- 84. Lammens (Henri); La Mecque à la veille de l'Hégire, (Beyrouth, 1927).
- 85. Mac Iver; Society, (New York, 1944).
- 86. Muir (Sir William); The Life of Mohammad, (Edinburg, 1912).
- 87. Nicholson (Reynold A.); A Literary History of the Arabs, (London, 1923).
- 88. O'Leary (De Lacy); Arabia before Muhammad, (London, 1927).
- 89. Sédillot; Histoire Générale des Arabes (Paris, 1877).
- Semple (Ell-n Churchill); Influences of Geographic Environment, (London, 1937).
- 91. Smith (W. Robertson); Kinship and Marriage in Early Arabia, (London, 1903).
- 92. Zwemer; Arabia, the Cradle of Islam, (U.S.A., 1912).

هذا إلى جانب انتفاعي بدائرة المعارف الإسلامية:

The Encyclopaedia of Islam

وبكتاب بركلمان :

Brockelmann; Geschichte der Arabischer Literatur.

# الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي

فوق رمال البادية الحرة الأبية، وفي أعماقها الغامضة الرهيبة، عاش صعاليك العرب في العصر الجاهلي، عصابات من خلعاء القبائل وشذ اذها، وأغربتها السود، وفقرائها المتمردين، يجمع بينها الفقر، والتشرد، والتمرد على النظام القبرلي، والإيمان بأن الحق للقوة، في محاولة عنيفة ثائرة لتحقيق صورة من العدالة الاجتماعية، والتوازن الاقتصادى.

من هؤلاء الصعاليك نبغ جماعة من الشعراء، اتخذوا من شعرهم وسيلة لإعلان فلسفتهم الاجتماعية والاقتصادية ، وتصوير حياتهم بكل ما يدور فيها من بطولة ومغامرة وتمرد، وطلعوا على مجتمعهم بلون من الشعر تحللوا فيه من الشخصية القبلية ، وأحلوا محلها شخصياتهم الفردية ، فجاء شعرهم جديداً في أفكاره ومعانيه وطرائقه في التعبير والتصوير .